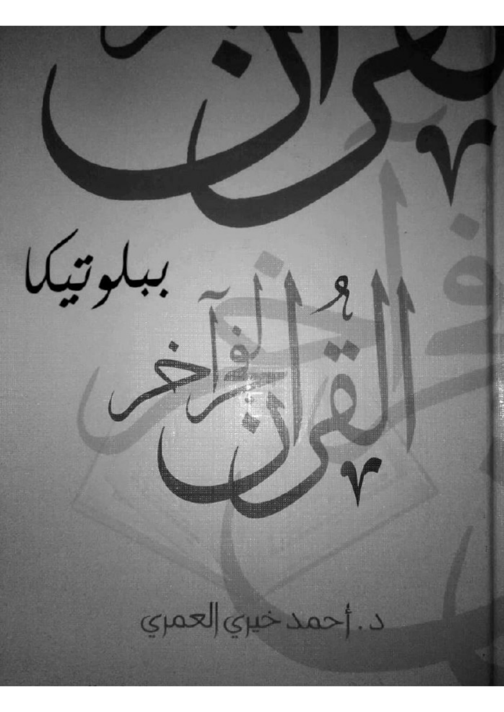

ببلوتيكا
القرآن لفجر آخر
د. أحمد خيري العمري

القرآن لفجر آخر

د. أحمد خيري العمري

إهداء

إلى دمشق..

التي كتب فيها هذا الكتاب عامي ٢٠٠٦ و٢٠٠٧م..

دمشق التي آوتني يوم أوصدت أبواب الناس، ونشرت لي يوم لم يعرفني الناس، وقرأت لي يوم لم يكترث لما أقول الناس..

إلى دمشق.. الغالية النبيلة..

وإلى كل سوريا.. في محنتها المزدوجة اليوم..

أهدي هذا الكتاب، صرخة وفاء بغدادية في وجه زمن الغدر..

آملاً أن يعبّد هذا الكتاب - ولو قليلاً - من دربها إلى الفجر الآخر..

مقدمة

في نيسان (أبريل) ٢٠٠٦م، وقبل أن أغادر بغداد بأشهر، اتصل بي الأستاذ طلال قدسي[١]، عارضاً عليَّ فكرة برنامج تلفزيوني أكتب أنا مادته، ويعتمد على الغرافيكس بشكل أساسي. كان الأستاذ طلال قد قرأ سلسلة (ضوء في المجرة) ووجد أن فيها إمكانيات يمكن أن توظف لصالح الشاشة الصغيرة.

وسلسلة (ضوء في المجرة)- بسبب من طابعها الدعوي- لا تعطي صورة كاملة لفكري، لذا فقد طلبت منه أن يقرأ (البوصلة القرآنية) ويقرر بعدها إن كان لا يزال يرغب بالتعاون معي!

قرأ طلال (البوصلة) وكان لا يزال يرغب بالتعاون معي، وعندما غادرت بغداد إلى دمشق التقيته في أيامي الأولى فيها، وكنت لا أزال أسكن في الجسر الأبيض آنذاك، وهو أول مكان سكنت فيه في دمشق ولم يدم بقائي فيه أكثر من أيام.

تعددت اللقاءات بعدها واتفقنا على الخطوط العامة للبرنامج، واختلفنا كثيراً أيضا بسبب ما يقول هو إنه حساسيتي المفرطة، وأعزوه أنا لشيء آخر تماماً! ولكنه كان يقول أيضاً إن كل خلافاتنا لا تعتبر خلافات بالنسبة لما يحدث عادة في الأعمال المشابهة.. وانتهى الأمر بأننا أصبحنا صديقين قريبين..

في الفترة بين سبتمبر (أيلول) ٢٠٠٦ وأبريل (نيسان) ٢٠٠٧ كنت قد فرغتُ من كتابة المادة، والتي خرج جزء كبير منها في برنامج (**القرآن لفجر آخر**)، - وهي المادة الأساسية في هذا الكتاب -، بينما ترك الأستاذ طلال جزءاً آخر لبرنامج جديد لا يزال بعده.

---

(١) هو الأستاذ المهندس طلال قدسي صاحب ومدير شركة **Future Publishers**.

من بين كل ذكرياتي عن المشروع لا أعتقد أنني سأنسى - ولا أظن طلال سينسى- يوم حضرت من باب الفضول تسجيل حلقة من حلقات البرنامج، كان التسجيل في ساعة متأخرة من الليل، وربما إكراماً لي ولحضوري فقد بدأ العمل مبكراً في العاشرة ليلاً تقريباً.. وهو الوقت الذي أكون فيه في المعتاد على وشك النوم!

رغم الأداء الرائع للمرحوم زياد الرفاعي، إلا أني صدمت بجو العمل، ولم أتخيل أبداً أن الكلمات المقروؤة على هذا النحو يمكن أن تشد المشاهد.. خرجت قبل أن ينتهي التسجيل عند منتصف الليل.

صباحاً، اتصلت بطلال وكانت مكالمة أحبطته وجعلته يتوقف عن العمل في البرنامج لمدة شهرين بسبب ما قلته!

أما أنا فقد اقتنعت خلال هذين الشهرين أن أعطي الخبز لخبازه وأترك الأمر نهائياً لطلال ولفريق عمله.

حقق البرنامج نجاحاً طيباً (حسب تقييم المنتج!)، وعرض في أكثر من اثنتي عشرة قناة فضائية من ضمنها قنوات آسيوية قامت بترجمته، لكني لا أزال أعتقد أن البرنامج لم ينل كل حقه، ربما لأنه يختلف تماماً عن السائد من برامج دينية فكرية.

ولأن ولائي هو للكلمة المقروؤة فقد بقيت أشعر بالذنب تجاه (القرآن لفجر آخر) في أنه لم يصدر ككتاب..

أفرج اليوم، بالاتفاق مع الأستاذ والصديق طلال قدسي، عن (القرآن لفجر آخر)، بعض الحلقات لم يتم الاستفادة منها في العمل لأسباب فنية واستُبْعِدَتْ تماماً وآن أوان الإفراج عنها هنا.. وبعض الحلقات التي كُتِبت بعدها الأستاذ طلال للبرنامج الجديد واستُبْعِدَتْ من الكتاب بناءً على رغبته.

وأستميح القارئ عذراً في أن ثلاث حلقات أو أربع ربما كانت قد نقلت تقريباً
بالنص من كتاب (البوصلة القرآنية)، وقد فكرت في حذفها، لكن سياق (القرآن
لفجر آخر)، قد يتعرض لبعض التشويش فيما لو حذفت تلك الحلقات..

أتمنى أن يساهم الكتاب، في تعبيد الطريق، نحو فجر آخر، نحن بحاجة إليه
جميعاً..

أحمد

كلمة السر[1]

هل فكرت أنك قد تهتم أحياناً بأمور، وتغفل أخرى قد تكون أكثر أهمية؟.

هل فكرت أن سلم أولوياتك قد يكون مرتباً بطريقة غير التي يجب أن تكون؟.

هل فكرت أنه قد يكون قد رتب عكس ما يجب أن يكون؟.

سلم الأولويات، إذا رتب حسب ما يجب أن يكون، سيجعلك ترتقي وتتقدم..

ولو نظرنا اليوم، إلى الواقع حولنا، لعرفنا أننا لم نرتق درجة واحدة على مقياس التقدم، ربما لأن «السلم» كان قد رتب بطريقة مغلوطة، أو أنه لم يرتب أصلاً..

لو نظرنا اليوم، إلى واقع الأمية والتخلف، الذي يخيم على أرقام وإحصائيات أمتنا.. لتأكدنا من أن هذا السلم يحتاج إلى إعادة ترتيب - من أجل أن نرتقيه..

.. فما هي الدرجة الأولى التي ارتقاها المسلمون أول ما ارتقوا، يوم بنوا صرح حضارتهم؟..

هل تكون هي أول فرض أنزل عليهم؟.. أول «فعل أمر» استخدمه القرآن الكريم وهو يحاور المؤمنين به..؟.

ما هو يا ترى؟.

المكان: مكة، شعابها بالتحديد.

الزمان: القرن السادس الميلادي، قرن نموذجي للأوضاع السيئة التي تسقط فيها الإنسانية بين عصر وآخر، قرن غارق في ظلمة حالكة، الاستغلال يضرب بأطنابه في

---

(١) من (البوصلة القرآنية) بتعديل بسيط.

العلاقات بين البشر، والحروب تصبغ وجه العالم بلون الدم، والأديان السماوية لم تعد سماوية، وسقطت بين فكي الإفراط والتفريط، ولم تنج من مظاهر الوثنية والشرك.

.. والمعادلة القديمة إياها: الأغنياء يزدادون غنىً، والفقراء يزدادون فقراً.

والظلم، الظلم، الظلم.

المناسبة: فرصة البشرية الأخيرة لتغيير ذلك كله.

وذلك الرجل، ينسحب من مجتمعه الجاهلي بكل تقاليده وعاداته ومكرساته، ليدخل الغار، متأملاً في ذلك كله، ومتعبداً دون طقس معين.

وذلك الغار: حفرة في الجبل، مظلمة ورطبة، تعطي لذلك الرجل ما يريده، عزلته السرية وتأملاته الخاصة، في ظلمة الغار يجد العزاء والمواساة للظلمات الأخرى التي يغرق فيها المجتمع.. وفي رطوبته ما ينهي ولو مؤقتاً ذلك الجفاف الذي يطغى على العالم في علاقاته وعاداته..

.. حتى تلك اللحظة، كان يبدو لظاهر العيان أن ذلك الرجل المتعبد في غار حراء لن يكون سوى واحد آخر من هؤلاء الزهاد المنسحبين الذين تصير حياتهم فيما بعد مداراً خاصاً لا علاقة له بما حوله..

حتى تلك اللحظة، بدا ذلك الرجل أنه سيكون واحداً من تلك الأقلية المستنكرة، مثل الأحناف أو بعض النصارى من العرب، ممن لا يصل استنكارهم إلى درجة التمرد – وبالذات لا يصل لدرجة محاولة تغيير الأوضاع..

حتى تلك اللحظة، كان كل شيء يسير بشكل يسُرُ الشيطان وهو يحقق قسمه العتيق: ﴿ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾..

كانت السماء صامتة، مكفهرة.

وكانت الصحراء خرساء كما لو كانت تخفي في أعماقها سراً دفيناً.

★ ★ ★

كل ذلك كان لدهور، وكان يمكن أن يستمر لدهور أخرى..

لكن في لحظة واحدة، تغير ذلك كله..

لحظة واحدة – غيرت ذلك كله..

إنها لحظة «اقرأ».

بعد صمت طويل، دام حوالي ستة قرون من آخر رسالة سماوية، جاء الوحي حاملاً تلك الرسالة الجديدة: اقرأ.

«اقرأ»، إنها أول كلمة اختارها عز وجل ليعرف نفسه إلى نبيه.. بل إلى آخر أنبيائه.. وهي لا تشبه أبداً الكلمات الأخرى التي قيلت لأنبياء ما قبل القرآن..

ففي كل الرسالات السابقة، كان الخطاب الإلهي يعتمد على إعجاز حسي؛ عصا تسعى، يد بيضاء، طير يعود إلى الحياة..

في كل الرسالات السابقة، كان الله يخاطب في الإنسان حواسه، لكنه في هذه المرة، ربما لأنها المرة الأخيرة، اختار عز وجل طريقة أخرى، بمضمون آخر..

هذه المرة، هو يخاطب العقل في الإنسان، دون اعتماد على إعجاز الحواس، إنه يؤسس للغة جديدة في العلاقة بين الله والبشر.. لغة تعتمد على العقل، بعدما ثبت للبشر فشل اللغات السابقة في العلاقة بينهم وبين الله.

لذلك أتت «اقرأ» صيغة جديدة، ورمزاً لعلاقة جديدة.. بطاقة مختلفة لتعريف مختلف، يقدم بها الله رسالته الأخيرة.

★ ★ ★

كانت اقرأ هي كلمة السر.. بعيداً عن كل الأساطير التقليدية.. ففي حكايات الخرافة وأساطير الكسل، تكون هناك «كلمة سر» تفتح مغارات الكنوز للمغامرين الباحثين عن الحظ دونما جهد.

مع اقرأ، كلمة السر لا تفتح المغارة من أجل أن ندخلها ونفوز بكنوز لم نبذل جهداً في صنعها..

على العكس، بدلاً من الدخول إلى مغارة الكسل.. فإن كلمة السر!!، تخرج بنا من غار الظلمة والجهل والانغلاق.. إلى عالم آخر، الكنز الحقيقي فيه هو العلم والعمل والانفتاح على العالم..

«اقرأ» هي كلمة السر التي فسرت ما حصل لاحقاً، بعد عقود قليلة، عندما أحدث العرب نهضتهم الكبرى، وتحولوا من قبائل على هامش التاريخ، إلى صناع واحدة من أعظم الحضارات في التاريخ..

كانت «اقرأ»، هي التي أحدثت ذلك ابتداءً..

كانت نقطة التحول الأول، النور الذي غمر العالم لاحقاً بدأت شرارته الأولى من «اقرأ»..

إنها كلمة السر، للخروج من الغار.. من الظلام..

ليست فقط غار حراء، وظلام جاهلية مكة.. بل كل غار.. وكل ظلام.

★ ★ ★

لم تكن «اقرأ» أول كلمة نزلت من الوحي فحسب، بل كانت أول فعل أمر أصدره الله في الرسالة الجديدة.. أي إن اقرأ كانت هي أول فرض فرِضَ في الإسلام.. أول فرض قبل الصلاة والصوم والزكاة والحج بعبارة أخرى، كانت كلمة «اقرأ» هي المدخل الذي فرضت عبره كل الفرائض الأخرى..

★ ★ ★

وعندما نزل الوحي: «اقرأ» بعد ذلك الصمت الطويل لم يحدث شيء، لم تنطفئ الشمس، لم ينشق القمر، لم تتعطل قوانين الفيزياء ولا لحظة واحدة، لم تتهاوى الشهب أو النجوم، لم يتصدع إيوان كسرى، ولا عرش قيصر.

.. لم يحدث شيء من هذا على الإطلاق.

.. ولم يسمع أحد خارج الغار هذه الكلمة، الهمسة التي جاء بها الملك إلى محمد، ولو أنه لم ينقل الخبر لما عرف أحد..

لم يحدث شيء غير طبيعي بتاتاً، فقط كلمات قيلت في أذن النبي وقلبه في غار مظلم في شعاب مكة.

ظل الحال على ما هو عليه، الشمس تشرق وتغيب في مواعيدها، والكون كله سائر على الخطة المحكمة المرسومة له بإتقان دون أن يتأثر بما حدث..

هذه المرة، ربما ولأنها المرة الأخيرة - لن يكون هناك أي داع لتعديل قوانين الفيزياء.. الأكثر والأهم من ذلك أن الرسالة ستكون في «جوهرها» صلحاً مع هذه القوانين لا تحدياً لها..

.. هذه المرة، سيكون التغيير في الداخل، في العقل، في القلب، في الوعي، سيكون التغيير في الإنسان، وهو الذي سيتكفل بالباقي، ماذا كان سيفيد لو انشق القمر، أو تصدع إيوان كسرى، أو سقط نيزك أو نجم من السماء؟..

المهم أن ينشأ وعي جديد - بمفاهيم ومعايير جديدة - ليكون مجتمعاً آخراً بديلاً عن عروش الظلم والاستبداد..

لذلك نقول: لم يحدث شيء.

وكان ذلك منسجماً جداً مع جوهر الكلمة الأولى، «اقرأ».

الآيات الثلاث نفسها التي أنزلت أول مرة في الغار، كانت تحمل إشارة إلى ﴿خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِنۡ عَلَقٍ ۝٢﴾، والعلق مضغة الدم، وهي طور من الأطوار الجنينية التي يمر بها الإنسان.. وقد ذكرت هذه الأطوار بتفصيل أكبر في آيات أخرى من سور مختلفة، لكن موقعها هنا بعد «اقرأ» مباشرة وقبل «اقرأ» مباشرة، يثير الانتباه والتأمل..

لكن لا عجب، فالعلق دور من أدوار التطور التي يمر بها الإنسان إلى أن يصير إنساناً، بالضبط كما تمر بقية المخلوقات بأدوار وأطوار تختلف أو تتشابه مع الأطوار الإنسانية بحسب موقعها من خارطة الخليقة: كل المخلوقات مرت بأطوار معينة، إلى أن وصلت إلى شكلها النهائي..

وحده الإنسان لا ينتهي تطوره بانتهاء هذه الأدوار الجنينية كما ينتهي تطور بقية المخلوقات.. إنه لا يكتمل إنساناً إلا بخطوة أخرى، بطور آخر..

بينما يمر الإنسان بتلك الأطوار السابقة بالرغم عنه - كما بقية المخلوقات - دون سابق إرادة أو وعي، فإن هذا الطور الأخير لا يمر إلا بإرادته ووعيه، إنه إما أن يختاره أو لا يختاره، يكمل درب التطور، أو يظل حيث هو..

.. وهذا الطور، بل هذه الحرية في الاختيار، هي أول ما يميز الإنسان عن بقية المخلوقات..

هذا الطور هو هذا الوعي الجديد الذي ابتدأ في تلك اللحظة، إنه «اقرأ» التي تحاصر الإنسان - العلقة - لتخرجه من غار ظلمته ووحشته..

«اقرأ» هي الطور الإنساني الأخير الذي به يكتمل تطور الإنسان ويتميز به عن بقية المخلوقات..

«اقرأ» هي تلك الحلقة المفقودة التي طال البحث عنها في تطور الإنسان، التي لم تكن موجودة لا في الحفريات وعظام الجماجم القديمة، أو بحوث الأنثروبولوجيا - بل في وعيه، في عقله، في قراره أن يكون إنساناً - والذي لا بد أن يمر بـ«اقرأ»..

«اقرأ» هي تلك الطفرة النوعية التي يختار الإنسان أن يقفزها ليتخطى الحواجز والعقبات التي تعوقه عن إكمال درب إنسانيته، عن وعي المعاني العميقة الكامنة في كل ذرة من ذرات الكون، وكل حركة من حركات التاريخ، عن أن يكون كما أراده الله أن يكون خليفة في الأرض.

يقف الإنسان - بعد أن أكمل التطور اللاإرادي - ليقرر هل يكمل ويستجيب لهمسة الغار، ويصعد ذلك السلم المضيء الملون - سلم التطور الإنساني الحقيقي.. سلم «اقرأ» - وكل درجة من درجات السلم يصعدها تغوص به إلى عمق دوره الحقيقي..

فإما أن يصعد ذلك السلم، أو يبقى مكتفياً بتطوره الجنيني، قدر الطحالب والدواب..

★ ★ ★

المكان: غار مظلم آخر، ليس بالضرورة أن يكون في جبل ما، وقد يكون على الأكثر هو ما يحيط بنا من واقع محبط.

الزمان: زمان آخر سيئ يتمثل فيه ظلم الإنسان لأخيه الإنسان، ونفس المعادلة تظل تتكرر بشعارات ومسميات أخرى..

المناسبة: فرصة متكررة للخروج من الغار..

إنها اقرأ مجدداً ودوماً، تدعونا للخروج من غار ظلمتنا وسلبيتنا وانحطاط واقعنا..

في البدء كانت اقرأ؟.

لا ليس في البدء فقط، إنها في البداية والنهاية وفيما بينهما.

اقرأ ليست مجرد البداية التاريخية لنزول الوحي، إنها جوهر الحكاية بأكملها، الحكاية التي لما تنته بعد.

خطة لطلوع الصبح

.. وأحياناً يحاصرك يأسك، تجده محيطاً بك من كل الجهات، تبدو لك الهموم مثل جبال تحدك من كل صوب، وتصير مفردة اليأس هي كل ما تجيده من لغتك.

.. وأحياناً، تجد نفسك عاجزاً عن فعل أي شيء، بالذات، تجد نفسك عاجزاً عن الخروج من واقعك، عن تغييره.. تجد نفسك مشدوداً بسلاسل تجرك إلى الوراء، تقيد حركتك وسكناتك وأفكارك، تريد أن تنهض، تريد أن تحطم السلاسل، لكن أفكارك تقول لك أن ذلك غير ممكن، تقول لك أن السلاسل صارت جزءً منك، وأن هذا «الشلل» هو وضعك الطبيعي..

.. وسيأتي من يقول لك، أن لا جدوى من محاولة التغيير، لا فائدة حتى من المحاولة، وأن عليك أن تتأقلم مع الوضع - لأنه ليس هناك أفضل مما كان.

.. ستشعر أن هذا الليل الطويل لن ينجلي، وأنك ولدت فيه وكبرت فيه وستموت فيه، وأنك لن ترى الشمس يوماً، ستموت قبل أن ترى «الشمس» و هي تشق ظلمة الليل ليبزغ الصبح..

سيأتي من يهمس لك أن لا شمس هناك، وأن الليل هو فصولك كلها، وأن من الأفضل لك أن تتأقلم معه، ومن الأفضل أن لا تفكر بشيء آخر..

سيأتي من يقول لك أن استسلم، فالصبح بعيد ولن تراه أبداً..

.. ولكن، عكس ذلك، وبالضد منه، ستأتي همسة من الوحي، تقول لك، في أذنك، ﴿أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ﴾..

«أليس الصبح بقريب»؟؟ سيصفعك السؤال، سيهزك، ستسأل نفسك: أليس الصبح بقريب؟.. وكل ما حولك يقول لك إنه بعيد لدرجة استحالة بزوغه.. لكن القرآن يسألك بطريقة لا يمكن أن تجيب معها بـ «لا»، القرآن يستدرجك لتجيب بـ«بلى»رغماً عن كل الإجابات التي لقنوك إياها..

يستنكر القرآن سلبيتك ورضوخك للظلام، يستفز استسلامك لليل من حولك، ويسألك، بين التوبيخ والتنبيه، بين الاستدراج والجذب، أليس الصبح بقريب؟..

هو يسألك بطريقة لا يمكن معها إلا أن تجيب بـ«بلى».

.. إنه سؤال يحكمك لغوياً أن تجيب بطريقة معينة، إنه سؤال يدفعك جوابه (المحتوم) أيضا أن تعيد النظر في ما رسب وتكرس في نفسك مما اعتبرته مجرد حتميات..

جواب السؤال القرآني وهو يحفر في داخلك «أليس الصبح بقريب»؟.لا يمكن إلا أن يكون:

«بلى، هو قريب»..

كل الأجوبة السابقة من حولك كانت تقول غير ذلك، كانت تقول عنه أنه بعيد جداً في أقاصي قارة أخرى، بل في أقاصي مجرة أخرى.. كل ما تعلمته كان يقول لك أنه ليس أمامك إلا ظلمة اليأس لتغرق فيها.. الصبح بعيد.. بعيد.. بعيد.

لكن القرآن يجعلك ترد على السؤال بشيء آخر..

القرآن، يجعلك ترد، لتقول شيئاً «يخالف» قناعاتك.. هل في هذا تناقض؟ أم أنه استدراج قرآني يجعلك تغير قناعاتك بالتدريج.

في الخارج ظلمة حالكة، وسلاسل صرت تعتبرها جزءاً منك، وهمسة «لا داعي

للمحاولة..».

وفي الداخل، تتوغل فيك همسة الوحي، تقول لك «أليس الصبح بقريب؟»..

وبين القرب الذي يحرك الجواب إليه، والبعد الذي يخيل إليك، ستجد نفسك تحاول أن تغير شيئاً لتدفع التناقض.. وأنت تعلم أن القرآن لا يتغير، وهو يقول، بل يجعلك تقول، إن الصبح قريب.

فهل يعني ذلك أن واقعك هو الذي يجب أن يتغير؟.

في هذه اللحظة، لن يبدو الأمر إلا كذلك.

★ ★ ★

في فترة مكية، شديدة الصعوبة، ثقيلة الوطأة، نزلت الآية الكريمة هذه..

كان المسلمون الأوائل - وعددهم لم يكن يتجاوز بضع عشرات - يمرون بفترة صعبة جداً.. كان اضطهاد قريش قد وصل ذروته، وكانوا قد حوصروا في شعاب بني هاشم، ومنعوا من إظهار عبادتهم وإيمانهم.. وبعضهم عذب حتى الموت، وآخرون أبعدوا عن عوائلهم..

وربما أصعب أمر كان عليهم أنهم يرون بأعينهم كيف أصر كفار مكة - وكلهم أقرباء وأنسباء - على رفض الإيمان.. على الصدود.. أصعب أمر كان عليهم كان أن يروا إصرار أهل مكة على الكفر..

وكل ما حولهم كان يشير إلى استمرار ذلك.

كل ما حولهم، كان يقول، صراخاً، لا همساً، أن لا فائدة من المحاولة..

لكن الوحي القرآني، جاء ليتغلغل عميقاً، ويسأل بطريقة تجعل الجواب ساحقاً ساطعاً: «أليس الصبح بقريب؟»..

* * *

كذلك كان الليل مخيماً على أتباع لوط، كانوا أيضاً يتصورون أن لا خلاص هناك، كانوا قلة امتلكت الفطرة الصحيحة بمواجهة إعصار هائل من ناس خالفوا الفطرة وجاهروا بمعصية ما سبقهم بها أحد من العالمين.

لم يكن الأمر هنا مجرد انحراف عقائدي، لم يكن مثل كفر الأقوام الأخرى، بل صحبه وزاد من صعوبة التعايش معه، هذا الانحراف الآخر في سلوكهم، في إتيانهم الذكور جهرا وعلنا، الذي كان يشكل «ظاهرة» غير مسبوقة، كان يمثل حلقة أخيرة من مسلسل انهيار الأخلاق الذي يبدأ أول ما يبدأ بالكفر، وينتهي بتلك المعصية العلنية التي انتهى إليها قوم لوط..

* * *

يولد الإنسان إنساناً سوياً على فطرته، وفي كل مفترق طريق يمر به، عليه إما أن يختار إنسانيته أو ينحرف عنها إلى خيارات أخرى.. في كل خيار غير سوي، يزداد بعداً عن إنسانيته، ويوغل في ذلك إلى أن يصل إلى تلك البهيمية العلنية التي وصل إليها قوم لوط..

وكان أتباع لوط محاصرين وسط هذا الركام الأخلاقي المحيط بهم، كانوا قد استمسكوا أصلاً بخيار الإيمان على الكفر، بينما الغالبية العظمى من قوم لوط كانوا قد اختاروا الكفر..

وكان لوط وأتباعه قد اختاروا الفطرة والسلوك القويم، ونبذوا ما كان قومهم قد ولغوا فيه..

وكان ذلك يبدو بالنسبة لهم لا نهائياً، كان الليل أيضاً شديد الظلام وبدا أنه لن ينتهي أبداً..

كل ما حولهم كان يقول لهم: لا فائدة، لا فائدة، الصبح بعيد.. الصبح بعيد..

ثم جاء الخبر الإلهي: ﴿ قَالُوا۟ يَٰلُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوٓا۟ إِلَيْكَ ۖ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ إِلَّا ٱمْرَأَتَكَ ۖ إِنَّهُۥ مُصِيبُهَا مَآ أَصَابَهُمْ ۚ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ ٱلصُّبْحُ ۚ أَلَيْسَ ٱلصُّبْحُ بِقَرِيبٍ ﴿٨١﴾ ﴾ [هود]

فجأة! جاء الخبر ليزيل الظلمة، ويزيح الليل، الآن صار موعدهم الصبح، أليس الصبح بقريب؟.

بين الليل والصبح، تخبرنا الآية أن هناك خيط رفيع، علينا أن نسير عليه، مشياً - ربما على الجمر، ربما على الشوك، لكن يجب أن نسير عليه - باتجاه الصبح.

«أن أسرِ بأهلك بقِطع من الليل»

.. لا بد من مسير في هذا الليل، لا بد من مسير في **«قِطع من الليل»**.

قد يدوم طويلاً، لكن الصبح لا يمكن أن يأتي - أبداً - إذا لم يُسر إليه.

إذا بقينا في نفس النقطة من الانحدار، إذا لم نتحرك ونبذل جهداً في السير - لما جاء الصبح.. الصبح لا يأتي إلا لمن **«يسير قِطعاً من الليل»**.. أما إذا بقي لوط وأتباعه دون سير، لما كان موعدهم الصبح..

وكان أن سار لوط ومن معه من مؤمنين - ساروا في ليل مظلم - باتجاه الصبح..

ويقول الوحي الإلهي مؤكداً على لوط وأتباعه، وكل من يريد أن يبزغ الصبح **«لا يلتفت منكم أحد»**..

الأمر هنا لا يعني مجرد عدم الالتفات بالنظر، الأمر هنا هو أشبه بقطع الصلة مع الماضي كله، الأمر هو إحداث قطيعة جذرية وحاسمة مع كل ما يتعلق بهذا الماضي، بهذا الليل..، الأمر هو أن تقطع هذا الليل تماماً - تقطعه - وأنت تسير قطعاً من

الليل، باتجاه الصبح..

.. لن يكون الأمر سهلاً، فعندما يكون الليل هو كل عالمك، فإن نور الصبح قد يؤذي عينيك، وعندما يكون الليل هو كل ما تعودت عليه، فقد صار جزءً منك، وربما تكون أنت صرت جزءً منه، بل ربما تعلقت به حتى دون أن تدري..

لم يكن الأمر سهلاً، وحتى بعض أهل لوط وجدوا أنفسهم مشدودين إلى الماضي، إلى الليل الذي يرومون الخلاص منه..

وكانت أن التفتت إلى قومها، إلى مدينتها، إلى ذلك الماضي بكل سلبيته وأدرانه.. وكان أن أصابها ما أصابهم، مهما كان أصابهم، لأنها حملت معها الماضي بينما تتجه إلى المستقبل، لأنها حملت معها الليل وهي تروم الصبح..

.. لا يكون الصبح قريباً، إلا إذا سرت إليه، وقد تخففت من أحمال الماضي، تخلصت من أغلاله وقيوده، ولا تلتفت إليه، حتى ولو التفاتة..

عندها يكون الصبح قريباً.

★ ★ ★

كما مع أتباع لوط، كان مع أتباع الرسول في مكة، لا يكون الصبح قريباً إلا إذا قررنا أنه قريب، ولا نقرر أنه قريب إلا إذا سرنا إليه، اتجهنا إليه، ليلاً، رغم الحلكة، رغم الظلمة، رغم البرد، رغم الإعصار..

ولا يمكن لنا أن نسير إليه أصلاً ما لم نتخلص من الماضي، فحمل الماضي يشدنا إلى الوراء، ويجعلنا متثاقلين إلى الأرض، إنه ثقيل هذا الماضي، بأدرانه وأوحاله، وهو يزيد من صعوبة النهوض أصلاً، فكيف نسير به ونقطع الليل، والماضي يقطعنا؟..

ما حدث مع لوط، حدث مع خاتم النبيين.. كان الصبح قريباً رغماً عن أنف الليل والظلام المحيط المحبط: لم يكن بين الليل والصبح أكثر من ذلك المسير الليلي

الذي يقطع الليل.. مشروطاً بعدم الالتفات إلى الماضي - بعد الانشداد إليه..

.. وكان أن سار محمدٌ (عليه أفضل الصلاة والسلام) وأتباعه، ذلك المسير المهاجر إلى الصبح القريب في مجتمع آخر، في مدينة أخرى..

وكان عدم الالتفات هو تلك القطيعة الاستثنائية المميزة التي اتخذها الرسول الكريم صلوات الله وسلامه عليه في رفض الآبائية... في رفض تقديس تراث الآباء لا لشئ إلا لأنه موروث..

وكان الإسلام - في جوهره - هو قطيعة مع تراث الآباء الجاهليين كله، وكان كفار مكة يستنكرون ذلك، كان تراث الآباء هو كل وجودهم وكل ما يؤمنون به، كان بعضهم يدرك تماما سخف الشرك وتفاهته، لكن ارتباطهم بعقيدة الآباء، بإرث الآباء جعلهم يرتبطون بالشرك ويدافعون عنه، كذلك يدافعون عن كل الأعراف الجاهلية التي كانوا يمارسونها لمجرد أنها إرث آباء..

كان ذلك هو الماضي الذي أمر قوم لوط أن لا يلتفتوا اليه...

كذلك أحدث الاسلام تلك القطيعة بالتوحيد الخالص الذي ألغى إرث الوثنية الثقيل والعودة إلى منابع الحنفية الصافية..

وكان المسير الليلي الذي أنجزه الرسول الكريم - عليه الصلاة والسلام - وأصحابه ليس مجرد خطوات في الليل في الطريق إلى المجتمع الآخر... بل كان قبل ذلك خطوات نفسية شديدة العمق في ليل الجاهلية المظلم..

كان الليل شديد الظلمة في مكة - وكان الملأ المكي شديد الاستعلاء والتجبر- لكن ذلك لم يمنع المسير الليلي باتجاه الصبح...

وكان الوصول إلى صبح قريب يتطلب «عدم الالتفات»، يتطلب تلك القطيعة التي أحدثها الإسلام مع إرث السلبية المقيت وحمله الثقيل...

وكانت الهجرة إلى مجتمع المدينة مصداقا لكل ذلك..

حكاية الليل والصبح القريب هي حكاية كل ليل وكل صبح، مع لوط في مسيرة الخروج ومع محمد عليه أفضل الصلاة والسلام وصحبه في مسيرة الهجرة..

وأيضا معنا بطريقة أو بأخرى... سواء كنا أفرادا أو جماعات. إذا كان الليل يحيط بنا ويحاصرنا، والصبح يبدو بعيدا كما لو أنه لن يأتي أبدا، فإن علينا أن نتنبه لما قاله الخطاب القرآني..

لقد سألنا الخطاب القرآني، سؤالا خارج الزمان والمكان، «أليس الصبح بقريب؟»..

والجواب الذي لا يمكن أن نفر منه أو نغيره هو: بلى إنه قريب..

لكن قربه هذا يظل مشروطا بشرطين إثنين:

أن نسير إليه أولا، وأن لا نلتفت إلى ما مضى...

لن يكون الصبح قريباً إلا إذا سرنا في هذا الليل المظلم باتجاه الصبح، لو مكثنا في الليل وتعذرنا بظلمة الطريق وخطورته وصعوبة المسير ليلا.. فسيظل الليل محاصرا لنا، محيطا بنا، لكنه سيبتعد ويتلاشى بالتدريج فقط لو أننا حطمنا السلاسل وسرنا باتجاه الصبح.

ولن يكون الصبح قريبا إذا تمسكنا بالنظر إلى الماضي- بكل سلبياته وأدرانه وأثقاله وبذور الأمراض فيه..

لن يكون الصبح قريبا إذا وجهنا وجوهنا صوب الماضي، إذا أصررنا على الالتفات إلى ما يجب مغادرته كما فعلت زوج لوط فأصابها ما أصابهم...

الصبح أقرب مما نظن، ولكن بعده أو قربه أمر مرتبط بنا نحن: بقرار المسير الليلي

المتحدي للأخطار، وبقرار عدم الالتفات إلى سلبيات الماضي وأدرانه..

فهل منجيب التساؤل القرآني ونقول بلى إنه قريب دون أن نسير ليلا إلى الصبح؟. ودون أن ننجز القطيعة التي يجب أن تكون مع ركام السلبيات؟..

وهل نتوقع عندها إلا أن يكون الصبح بعيد؟

وأن يصيبنا ما أصابهم؟؟؟

ولقد أحببتك حقاً ذات يوم

في حياة كل منا أمور تمد وتجزر، تطفو حينا على السطح، وتغوص أحياناً في العمق..

في حياة كل منا أشخاص نعتقد لفترة أنهم سيلعبون دور البطولة في كل حياتنا، لكنهم لا يلبثوا أن يمروا بدور الذوبان.. ولا يعودون بعدها أكثر من مجرد ذكرى، قد تكون حلوة، وقد تكون مرّة، لكن دور البطولة ليس لهمْ..

في حياة كل منا أدوار ثانوية كثيرة، لأشخاص طالما رشحناهم لأدوار البطولة، لكن أداءهم، لاحقاً، أثبت أنه لم يتسع لأكثر من أدوار صغيرة..

وكما مع الأشخاص، هناك الأحلام أيضاً.. طالما داعبت مخيلتنا أحلام، وقلنا أننا لن نتخلى عنها، وأننا لن نرضى بأقل منها، وأن التنازل لن يكون مقبولاً..، لكن جاء وقت، وسكنت رؤوسنا أحلامٌ أخرى، وصرنا نعجب من أحلامنا تلك.. ونقول أنها لو جاءت تطرق أبوابنا، لما فتحنا لها، ولما استقبلناها..

وكما مع الأشخاص والأحلام، كذلك أيضاً مع الأفكار، أحياناً نؤمن بأفكار، ونتمسك بها، ونصرخ أحياناً بمحتواها وشعاراتها، ونحارب من حولنا إذا لم يوافقونا، ونصرح أننا مستعدون للموت دون هذه الأفكار..

ولكن، بعد فترة، تخبو الشعلة في الأعماق، وتنطفئ النار التي كانت وقود لنا، وقد يأتي وقت نلتفت فيه إلى الوراء ونعجب جداً من كل ذلك، وقد نعتبر كل ذلك مراهقة وطيشاً مررنا بها ونحن في طريقنا إلى النضوج..

الأشخاص، المشاعر، الأفكار كلها معرضة للذوبان، للمد والجزر، كلها تنضوي تحت قانون الأفول، ولهذا فهي تأفل، تذوي.. تخبو.. تغيب.

كل شيء معرض للأفول، كل شيء، إلا شيء واحد، خارج عن هذا القانون.

★ ★ ★

في تلك الليلة، أعلن إبراهيم بياناً انقلب فيه على كل ما سيطر على الأذهان والعقول وهو مشمول بقانون الأفول..

﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ رَءَا كَوْكَبًا قَالَ هَٰذَا رَبِّى فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلْءَافِلِينَ ﴿٧٦﴾﴾ [الأنعام]..

تلك الليلة أوصل التساؤل إبراهيم إلى أن يقوم بمحاولته الانقلابية - الناجحة - على ما يسيطر على الإنسان، ولكنه قابل للأفول..

هل كانت محاولة انقلابية ناجحة؟.. أم لعلها كان ثورة عميقة، من أعمق أعماق الإنسانية، ممثلة في شخص إبراهيم، وموجهة ضد كل المؤسسات التقليدية التي تسخر الإنسان وتدجنه وتعطل طاقاته وتجيرها لصالحها هي، وتكون رغم ذلك واقعة في شرك قانون الأفول.

تلك الليلة، وقف إبراهيم على الحافة الجارحة للحقيقة، وقف على قمتها المدببة، وقرر أنه لو كانت هناك حقيقة تستحق الخضوع لها، فيجب أن تكون حقيقة دائمة - حقيقة مطلقة، حقيقة غير خاضعة بدورها للأفول، وللذوبان..

على قمة العالم وقف إبراهيم في مواجهة تلك المكرسات التي كان قومه يتعبدونها، ويعلنون خضوعهم لها..

وجهاً لوجه، على حافة الحقيقة وقف إبراهيم.. نزع عن رأسه كل ما حاول مجتمعه تكريسه وتقديسه فيه، نزع عن رأسه كل الأحكام المسبقة التي جعلت من تلك المعبودات مقدسة ومهيمنة على مسار الأمور..

وجهاً لوجه في لحظة مدببة، على ما بدا لحظتها أنه قمة العالم، وقف إبراهيم في مواجهة تلك «الحقائق».. التي سيتضح أنها خاضعة للأفول.

★ ★ ★

رأى إبراهيم الكوكب بازغاً، كان قومه وأقوام أخرى تتعبد هذا الكوكب، كوكب الزهرة، كان هو الراعي الليلي، الذي يدل قوافل التجار على الطريق..

أمام حقيقة هذا الكوكب، وقف إبراهيم وقد نزع كل الأفكار المسبقة السائدة.. كان الناس وقته يظهرون الخضوع لهذا الكوكب، ويظهرون كتحصيل حاصل، الخضوع لمنظومة القيم التي تعتاش على هذا الكوكب.. منظومة التجارة وقوافلها والملأ الموجود في كل زمان ومكان، والذي يتاجر بأي شيء وكل شيء في سبيل الربح..

وعندما صار الكوكب عارياً عن أفكار الآخرين ومعتقداتهم، بدا لإبراهيم أن هذا الكوكب «مسخر» من أجل خدمة قومه، وبقية الأقوام، بدا كما لو أن هذا الكوكب يؤدي وظيفة محددة لخدمة الإنسان، بدا لإبراهيم - لعقله الذي أبصر به الأمور - أن هذا الكوكب خاضع لقوة أعلى منه، سخرته من أجل الإنسان، وجعلته يظهر ويختفي وفق قوانين معينة..

فلماذا إذاً يخضع الإنسان لما هو خاضع أصلاً لخدمته؟..

بعين البصيرة، صار للكوكب حجمه الحقيقي، بعد أن كانت قد ضخمته الأحكام المسبقة..

وعندما أبصر إبراهيم حقيقة الكوكب، رآه أيضاً وهو يأفل، «فلما أفل قال لا أحب الآفلين».. رآه ينسحب، كما أمرته القوانين دوماً أن يفعل.

هل كانت هذه أول مرة ينسحب فيها الكوكب ويأفل؟. لا. طبعاً. لقد كان ذلك يحدث كل ليلة - ومنذ أن كان هناك ليل ونهار -.. لكن النظرة الجديدة، على حافة الحقيقة، لحظة المواجهة الحادة، جعلت هذا الكوكب عارياً إلا من حقيقته.. جعلته يأفل!..

وجعلت إبراهيم يصرح بذلك التصريح الذي كان بمثابة منعطف حاد، يوم انقلبت الإنسانية على كل ما يستعبدها وهو أهل لأن يكون عبد.. وهو مسخر من أجل خدمتها.

قال إبراهيم جملته الفارقة بإيجاز شديد: لا أحب الآفلين.

★ ★ ★

«لا أحب الآفلين»..

ليس الأفول هنا مجرد جزر في مجال الرؤية، ليس مجرد غروب في أفق أبعد..

الأفول هنا هو سقوط النظرية وانتهاء مدة صلاحيتها، الأفول هنا هو الخضوع لقوانين الزمن التي تحفر تآكلاً وتعرية فيما يبدو بهياً وبراقاً لحظة سطوعه..

الكوكب كان منيراً لحظة رآه إبراهيم.. لكن عندما أفل، تحسس إبراهيم أن أفوله هذا يعني أنه محكوم بقوانين التحول والأفول، وأن عوامل التعرية ستنحت فيه وتزيله..، وأن عوامل أخرى ستجيء به ليبزغ، ويسطع من جديد، ثم يخبو، ويأفل من جديد..

.. وقال إبراهيم: لا أحب الآفلين، بيان رقم واحد من العقل البشري.

أعلن العقل الإنساني، على لسان إبراهيم، عندما أفل الكوكب: بيانه الأول ضد كل مؤسسات الأفول..

قال أولاً، كبداية، «لا أحب الآفلين»..

إعلان حالة (اللا حب) هذه، هي مرحلة أولى في ذلك الرفض المطلق الذي سيأتي الإعلان عنه لاحقاً..

«لا أحب الآفلين».. معناها أني لست مرتاحاً للركون إلى هذا الشيء الذي يأفل، كيف أركن إليه وهو معرض للاختفاء؟. كيف أؤمن بأني موكل إليه وهو - كله - موكل إلى قانون يجعله يأفل عندما أحتاج إليه؟.

«لا أحب الآفلين» - كانت تصريحاً بأني يجب أن أحب، شيئاً آخر،.. غير خاضع للأفول.

«لا أحب الآفلين»، كانت جملة صريحة، في التعبير عن الحاجة إلى شيء آخر، غير هذه الآلهة الآفلة وكل من يقف وراءها..

«لا أحب الآفلين»، كانت البيان رقم واحد، في التعبير عن الحاجة إلى شيء آخر..

كانت الإعلان الإنساني الأول - من عمق الفطرة والعقل على حد سواء، عن الحاجة إلى إله آخر.. غير كل ذلك الأفول.

★ ★ ★

.. كانت هذه الجملة التي أعلنها إبراهيم وهو يواجه الأفول الأول، أفول الكوكب..

لكن جملته الثانية، بمواجهة الأفول الثاني، كانت مختلفة..

﴿ فَلَمَّا رَءَا ٱلْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَٰذَا رَبِّى ۖ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِى رَبِّى لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٧٧﴾ ﴾ [الأنعام]..

فلما أفل، قال لئن لم يهدني ربي لأكونن من القوم الضالين..

بدأ الأمر بإعلان اللاحب مع الآفلين..

لكنه تطور إلى إعلان الحاجة إلى الهداية، والتميز عن الضالين..

الآن صار الأمر بمثابة تحد بالنسبة لإبراهيم..

«لئن لم يهدني ربي لأكونن من القوم الضالين»..

إنه التحدي - بمواجهة الحقيقة - إن لم أصل إلى الحقيقة فإني سأكون مع هؤلاء القوم الضالين.. الأمر هنا يشبه الحياة أو الموت، إن لم أصل إلى الحقيقة، إن لم يهدني ربي، إن لم يرشدني إليه، فإن هذا يعني أني سأكون مع هؤلاء الضالين.. المتعبدين للآفلين.

كانت الجملة الثانية بمواجهة الأفول الثاني، تخرج من طور اللاحب إلى طور الحياة أو الموت.

كان العقل الإنساني هنا يتشبث بالحياة مقابل الموت، بالهدى مقابل الضلال.. بالثبات مقابل الأفول.

كان العقل الإنساني هنا، على لسان إبراهيم، يصر على أنه لا بد من أن يصل..

كل شيء عدا ذلك كان يعني أنه سيكون على الطريق الخطأ - مع القوم الضالين.. الذين يعبدون الآفلين..

★ ★ ★

مع الأفول الثالث، تصاعدت اللهجة..

﴿ فَلَمَّا رَءَا ٱلْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَٰذَا رَبِّي فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٧٧﴾ ﴾ [الأنعام]..

كانت الشمس هي الأوضح، أوضح الأمثلة وأكبرها، وأكثرها بزوغاً وتأثيراً في حياة الناس.

تأثير الشمس في حياة البشر كان لا يناقش، وكان معظم الأقوام في أنحاء مختلفة من العالم، يتعبدون الشمس بمظاهر مختلفة ومسميات متنوعة..

لكن، حتى هذا المعبود الأكبر، كان يأفل..

حتى الشمس، كانت خاضعة لقانون أكبر منها، يشملها ويشمل القمر والكوكب، ويجعلها تأفل.. يجعلها تخبو بعد السطوع، وتغرب بعد الشروق.. وتأفل بعد الظهور..

حتى الشمس، كانت خاضعة لقوة أعظم، قوة هي التي وضعت قانون الأفول..

قوة غير خاضعة لهذا الأفول..

ولأن هذا الذي أفل هنا هذه المرة كان أكبر من سابقيه فإن إعلان إبراهيم سيكون أكبر وأوضح وأكثر حسماً...

هنا اختلفت جملة إبراهيم، هنا وقف ليعلن بأعلى صوته، بأكبر قدر من الوضوح: إني بريءٌ مما تشركون..

الآن يعلن إبراهيم براءته من كل ذلك الضلال، يعلن براءته من الأفول ومن الخضوع للأفول.

يعلنها صريحة وعالية، إني بريءٌ مما تشركون..

إنها القطيعة يعلنها إبراهيم، ممثلاً للعقل الإنساني، وهو يقف في مواجهة الأفول والآفلين وكل المؤسسات التي تستغل خضوع الناس لهؤلاء الآفلين.

وعندما يعلن إبراهيم ذلك، يكون قد وصل لقمته العالية، قمة العقل، قمة العالم..

إني بريء مما تشركون..

★ ★ ★

هذا هو بيان رقم واحد الذي أعلنه إبراهيم: **تطور الأمر من (لا أحب الآفلين) ليصل إلى (إني بريء مما تشركون)**.. كان انقلاباً في العقل الإنساني ضد كل ما هو قابل للأفول، ضد الخضوع لما هو خاضع أصلاً للأفول، للتحول، للمد والجزر..

في تلك اللحظة النادرة، بعد مواجهة الأفول، تيقن إبراهيم أن لا خضوع إلا لمن وضع القوانين كلها، هو وحده غير خاضع للأفول، هو وحده لا يتغير، ولا يأفل..

وهو ليس بحاجة للبزوغ، ليس بحاجة لأن يرى رأي العين.

إنه فوق الرؤية وخلف المنال، إنه أبعد من ذلك، وهو أيضا فوق ذلك، إذ أنه خلق الرؤية، وخلق الوجود..

وحده هو، لا يأفل، يظل موجوداً، قريباً رغم البعد، فرداً، صمداً، أولاً آخراً، ظاهراً باطناً..

تتغير كل الوجوه، تتأثر بمختلف المؤثرات..

إلا هو، يظل نائياً متعالياً عن ذلك كله..

إنه هو الإله الذي يحتاجه الإنسان الذي أعلن، أنه لا يحب الآفلين.

★ ★ ★

تتقاذفنا الأمواج أحياناً، تتلاطم مع صخور الجزر، وتأخذنا الرياح إلى بحار مظلمة أحياناً، وإلى الأعاصير، وإلى قعر الدوامات..

كل موجة تبدو لنا في البداية أنها هينة لينة، لكنها تأخذنا إلى عمق الإعصار..

نجرب كثيراً. ونخطىء كثيراً والتجربة خير برهان، للأسف كانت تجاربنا خير برهان على فشل كل تلك التجارب..

كل ما بدا أنه «ساطع» و«بازغ»- وتلقفناه أنه كذلك، سرعان ما أثبت أنه زاد الظلام حلكة، وزاد التيه تخبطاً..

كما مع إبراهيم لحظة الحقيقة الحادة، هو معنا الآن، وربما هو مع آخرين في وقت آخر...

كل ما طرح علينا من إيديولوجيات، وعقائد، ومذاهب، كان يسوق على أنه الشمس التي لا تغيب، والكوكب الذي يهدي الدعاة..

وكما مع الشمس والكوكب والقمر ليلة إبراهيم، كذلك نحن مع تلك الإيديولوجيات.. إنها تأفل دوماً، إنها تخبو بعد السطوع، وتفشل عند التجربة، وتغرب بعد الشروق..

هل يحتاج الأمر إلى تعداد؟ هل نقول كم من مرفأ قالوا لنا أنه هو بر الأمان؟. ثم اصطدمت مراكبنا بصخوره فتحطمت، وتهنا في مجاهل غاباته حتى كدنا نهلك جوعاً وعطشاً؟.

هل نقول كم من إيديولوجيات قالوا لنا إنها طوق النجاة، وتلقفناها فإذا بها تجرنا إلى المزيد من الغرق..

كل ذلك محكوم بقانون الأفول، كل ذلك يجب أن يأفل، ما دام لم يأت من ذاك الذي لا يطرأ عليه تحول ولا أفول..

كل تلك الإيديولوجيات يجب أن تأفل حتى لو كانت كالشمس في طلعتها وسطوعها..

إنه قانون الخلق، كل مخلوق آفل..

عالية وواضحة، في البيان رقم واحد.. قال إبراهيم: لا أحب الآفلين؟..

فلماذا إذاً لا نزال نتعلق بهم..

بالآفلين؟..

عبء الرجل الواحد

وكثيراً ما قلتها لنفسك، عندما ترى ما يجب أن يتغير، وما يجب أن يصحح.. وعندما ترى أن الناس حولك غير مدركين، أو غير مبالين..

كثيراً ما قلتها لنفسك، وأنت ترى ما يجب أن يحدث، وما يجب أن يزال، وما يجب أن يستأصل، لكنك ترى أيضاً أن أحداً لا يفعل شيئاً.. وربما لا أحد يعرف شيئاً..

كثيراً ما قلتها: لماذا أنا؟ لماذا أنا وحدي علي أن أفعل ذلك كله..

وكثيراً ما قلتها لنفسك، وأنت ترى القطيع يسير نحو المسلخ، دونما اعتراض، كثيراً ما راودتك نفسك، وهمست لك أن الهمس قد يجدي، وأنك لو قلت لهم.. لربما كان..

.. وكثيراً ما قلتها لنفسك، وأنت تراهم يدقون أوتاد بيوتهم على سفح البركان، أو في عمق رمال متحركة، لكنك كنت وحدك، وكانوا هم كثر، وقلت لنفسك إنهم لن يسمعوك بكل الأحوال، وإنهم قد يهينوك أو يسخروا منك، أو.. أو.. لذلك سكت لم تقل شيئاً.. لكن في أعماقك ظل صوتك يصرخ.. صار يأخذ أشكالاً مختلفة. صداع في الرأس، ارتفاع في الضغط، قرحة في المعدة.. أو مقدمات لكل منها..

كل تلك إشارات جسمانية، لكلمات كنت تريدها على طرف لسانك، لكن «شيئاً ما» بل «أشياء ما» جعلتك تأدها قبل أن تخرج..

يأكلك همك، وأنت تأكله، وقلبك يحرقك، وأنت تحرقه، على الأقل في البداية، حاولت أن تخفف من حرقتك عبر هذا الذي قلته لنفسك، حاولت أن تواسي نفسك، وتخفف من ألمك ووحدتك، فقلت ما قلته...

ثم مع الوقت، قلت حرقتك، وقلّ ألمك، وصرت تمر بها تمر به، وتهز كتفيك، وتعود لما كنت تقوله..

تقول :«وماذا بوسع رجل واحد أن يفعل..؟»

ولقد قالها قبلك كثيرون.

واحدٌ منهم على الأقل، كان مهماً جداً، كان الله قد اختاره لمهمة كبيرة، مهمة تغيير شامل..

.. ولكنه..

★ ★ ★

نينوى.

عاصمة العالم القديم.

مدينة كبرى بمقاييس ذلك العالم، الأسوار العالية، والأعمدة الشاهقة والتماثيل الضخمة، وتلك الثيران المجنحة التي كانت رمزاً لجبروت نينوى..

نينوى.. وجبروتها.. وجيشها الذي يهيمن على أنحاء العالم القديم، وملئها المستكبر، ملأ كل زمان ومكان، سلطتها الحاكمة التي احتكرت المال والسلطة، استكبرت على كل من دونها في المال..

وتلك الأوثان.. شاهقة ونائية، عيونها ميتة، وقلوبها ميتة، لا رحمة ولا شفقة، ولكن كيف يرحم ويشفق من هو حجر.. من هو جماد لا يشعر بشيء..

جمود تلك الأوثان، كانت تعبر عن القسوة في ذلك المجتمع.. عن جبروتها.. وكان ذلك كله بعيداً جداً، عن الله الأقرب إلى الجميع من حبل الوريد..

وأمام ذلك كله وقف يونس..

من أين يبدأ.. كيف يبدأ ماذا سيقول أولاً.. وكيف سيقوله.. من سيؤمن به.. وحتى لو آمن شخص أو اثنان... ماذا عساه أن يغير من كل ذلك..

أمام كل ذلك وقف يونس..

وقال في نفسه:

«ماذا بوسع رجل واحد أن يفعل..»

وماذا - حقاً - بوسع رجل واحد أن يفعل؟؟

ماذا بوسعه أن يفعل إن كان واحداً حقاً؟.. كيف له أن يحارب مفاهيم راسخة في عقول الناس؟.. كيف له أن يقطع جذورها وهي ضاربة في الأعماق؟.. كيف له - بمفرده - أن يواجه الجميع؟.. الناس، والملأ، وتلك الأوثان القاسية.. وكل تلك القسوة في التعامل مع الأشياء..

ماذا بوسع رجل واحد أن يفعل - في أي وقت..؟..

على كتفيه كان العبء ثقيلاً.. أثقلت كاهله فكرة أن عليه أن يفعل ذلك كله بمفرده..

لم يكن يتصور أن بإمكانه أن يقدح شرارة التغيير، التي تقلب الطاولة على الوضع - بل التي تقلب الوضع كله..

ولأنه بشر، مثل كل البشر، حتى وإن كان من أفضلهم، ومن النخبة الأكثر صلاحاً، إلا أن البشر، كل البشر، يصابون أحياناً بالإحباط وقد يصابون باليأس، أو يشرفون على الأقل على تخومه الجرداء..

لذلك، قد يفعلون، ما نفعل أحياناً، عندما نواجه مسؤوليةً ما نتصور أننا لن نكون بقدرها.. ولن نستطيع أداءَها.

أشفق يونس من المواجهة..

وقال «ماذا بوسع واحد أن يفعل»؟

.. وهرب..

★ ★ ★

وكما مع يونس، كذلك مع الكل ممن يسلك نفس الطريق.. الهروب من المواجهة لا يعني أن المواجهة لن تحدث.. إنه يعني فقط أن ساحتها قد تغيرت.. وأن طرقها قد تغيرت..

تصور يونس أن الفرار من تحمل مسؤولية التغير لن يضعه في مواجهة مع الظروف التي يجب أن يغيرها..

ولذلك، فقد قرر الهرب.. ورحل إلى الجهة الأبعد، توجه إلى البحر ليركب سفينة تقله إلى الجهة الأخرى، إلى حيث تصور أنه لا ظلم، إلى حيث تصور أن العبء سيخف، إلى حيث تصور أن الأوضاع أفضل..

أمام البحر وقف..

وتخيل أن الأفق الماثل أمامه، سيمنحه ما أراد من راحته، سيمنحه الحل للمشكلة..

ويحدث ذلك اليوم، حتى اليوم..

ومعظم الشباب، يتصورون أن الحل، يكمن في عبور ذلك البحر الهائل، سواء عبر طائرة نفاثة أو عبر باخرة..

لا تزال فكرة الفرار من المواجهة قائمة، ولا تزال فكرة أن الحل هناك عبر المحيط، أو عبر البحر، قائمة.. وتدفع الآلاف، بل مئات الآلاف من الشباب، إلى الفرار.. إلى الذهاب إلى حيث يتصورون أن الحل هو في الفرار، هو في الهرب.. هو في العبور إلى الضفة الأخرى من البحر..

ولكن المشكلة في أنك إن لم تواجه الأوضاع، فإنها لا تكف عن مواجهتك.. ولا تكف عن مطاردتك.. واللحاق بك..

وهذا ما حدث مع يونس بالذات، فقد هاجمه كل قيم الظلم والخرافة والتسلط التي حاول أن يهرب من محاولة تغييرها.. كيف؟. هبت عاصفة شديدة وكادت أن تغرق السفينة، ولأن عقول الناس تسيطر عليها الخرافات، فقد فعلوا ما تعودوا أن يفعلونه في حالات كهذه: أن يفترضوا أن إله البحر أو إله العواصف أو أياً كان قد غضب من أجل شخص معين، وأن هذا الشخص يجب أن يلقى في البحر، كبش فداء، كي تنجو السفينة، ويخف غضب الإله الغامض..

لكن كيف يمكن لركاب السفينة الموشكة على الغرق أن يحددوا هذا الشخص؟.

في الجواب عن هذا السؤال، تكمن ذروة المفارقة التي تختصر كل قيم الخرافة التي كان الملأ يحكم ويتحكم من خلالها..

إنها القرعة !. القرعة هي التي تحدد من سيكون كبش الفداء البريء الذي سيلقى جزافاً ودونها ذنب إلى البحر.. صدفة مجردة، مثل لعبة قمار، ستقرر من سيلقى ليكون طعاماً للحيتان..

وبينها ركنوا إلى قيم الصدفة - بدلاً من التفكير في السنن - فإن القدر الإلهي شاء أن ترسو نتائج القرعة على يونس..

﴿ فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ ﴿١٤١﴾ ﴾ [الصافات]

لكن خسارته الأساسية لم تكن عندما ساهم في القرعة، بل عندما رفض أن يساهم في تغيير القوانين السائدة، قوانين الظلم والصدفة والاستقواء والخرافة.. التي تشكل القرعة شكلاً من أشكالها..

كانت الرسالة واضحة.. هل تعتقد حقاً أنك ستنجو عبر الهرب؟

هل تعتقد حقاً أن الحل هو الهرب؟

كلا.. إنما ما هربت منه سيطاردك.. وسيحاصرك وقد تقوى بهربك أكثر..

.. وها أنت الآن يا يونس تواجه شخصياً ما هربت منه..

هاهم يجتمعون عليك - وهم يمثلون قيماً تحركهم وهربت أنت من تغييرها..

هاهم يلتفون حولك ويمسكون بك..

هاهم يلقون بك.. إلى البحر..

وكم من سفينة حملت مهاجرين، تكدسوا فيها، وتكدست في رؤوسهم فكرة واحدة: الهرب من أوضاع سيئة والهرب من فكرة تغييرها.. والعبور إلى ما يتصورون أنه أوضاع أفضل..

وكم من سماسرة عمل ونخاسة معاصرون، جمعوا أولئك الهاربين، في سفن متهالكة، من أجل ربح سريع، ولم يبالوا.. إن غرقت السفينة وصار أولئك الهاربين طعاماً للحيتان ولأسماك القرش..

إنها اللعبة ذاتها.. والحكاية ذاتها.. ما تهرب منه دون أن تحاول تغييره، ما يلبث أن يطاردك ويوقع بك.

ثم جاء الحوت..

لا، ليس بالضبط، فالحوت لم يجئ فجأة، الحوت كان دوماً هناك، في البر والبحر، ربما شكله فقط تغير، لكن الحوت، وأنيابه، براثنه، وفمه المفتوح ليبتلع كل شيء.. إنه الملأ الحاكم مرة، والملأ الجشع المحتكر في فترة أخرى.. والملأ الذي يحرس الأوثان ويقفل العقول مرة أخرى وأخرى..

إنه الحوت دائماً، وفي كل مكان حوت الاستغلال والجشع والظلم، الحوت الذي يهمش الجميع ويكسرهم تحت أنيابه..

إنه الحوت دائماً، براً وبحراً.. كل الذي يتغير هو شكله.. فقط..

.. وفي بطن الحوت وجد يونس نفسه فجأة..

الظلمة والأحشاء الساخنة، وهو - لدهشته - لا يزال على قيد الحياة.. لا يزال يرى.. لا يزال يدرك.. لا يزال يشعر..

بل إن الوضع الجديد جعله يرى، ويدرك، ويشعر بطريقة أكثر حدة.. لقد رأى يونس في الظلمة داخل بطن الحوت، إن الظلمة في كل مكان.. وليست في بطن الحوت.. إنها في نينوى حيث تسيطر الخفافيش فيما يبدو ظاهراً إنه النهار.. لكن حلكة الليل أقل ظلمة منه.. إنه في السفينة حيث تسود قيم الظلام والظلم. الظلمة تسود في أي مكان يطرد منه النور، أي يطرد منه الحق والعدل..

رأى يونس الظلم داخل بطن الحوت، رأى الحوت وهو يلتهم سمكة كبيرة ربما تكون قد فرغت للتو من التهام سمكة أصغر منها..

رأى أنها شريعة الغاب يطبقها البشر، وتطبق في البحر أيضاً..

رأى يونس ذلك كله، رآه في بطن الحوت امتداداً مما كان في البر.. ووجد أن العالم الذي تركه كان يشبه بطن الحوت، رغم ما يبدو من سعته وامتداده إلا من في الواقع كان مثل بطن حوت ساخن..

ما دامت شريعة الغاب تطبق فيه، ما دام أفق الخيار والاختيار محجوب..

إنه الحوت، في كل مكان.. فقط تتغير أسماؤه وأشكاله.

وقد يكون بطن الحوت أحياناً هو مقر إقامتنا الدائمة.. ومسكننا الذي لا نغادره طيلة حياتنا.. عناويننا البريدية والمنازل التي ننتقل بينها ونشتريها ونستأجرها لا تكون - في حقيقة الأمر - إلا تفاصيل عابرة، لكن مسكننا الحقيقي هو بطن الحوت، على الأقل يسكن معظمنا هناك، حيث اليأس وحيث الظلمة.. قد يكون هذا الحوت اسمه العولمة، وقد يكون اسمه الحياة المعاصرة، وقد يكون اسمه تخلفنا مقابل تقدمهم..

لكننا نسكن في داخل بطنه.. وعلامة ذلك تلك الجملة التي أودت يونس إلى هناك..

«ماذا بوسع رجل واحد أن يفعل..؟»

في أقاصي اليأس، كان يونس هناك، وماذا لرجل واحد، في بطن الحوت، إلا اليأس.. إنه يتوقع النهاية بين لحظة وأخرى.. أكثر قرباً من الموت، مثل بطن الحوت.

لكن من أقاصي اليأس يولد منتهى الأمل..

وعندما تشعر أنه لا مجال لدرك أسفل، وإنه لا شيء أسوأ مما أنت فيه، فإنك تتعلق بقشة قد تصير جسراً إلى الأمل..

وهنا انبثقت تسبيحة يونس، التي كانت بمثابة المفتاح.. مفتاح الخروج من بطن الحوت..

★ ★ ★

{فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ ، لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ} الصافات

لقد سبَّح يونس، ولكنها تسبيحة من نوع مختلف، ليست مثل تسبيحنا الذي نحتاج أن نستغفر بسببه !..

«لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين».. هذه هي تسبيحة يونس - إني كنت من الظالمين - أنت يا يونس من الظالمين، أنت الذي ظلمت بقرعة ظالمة وألقي بك في البحر دونما جناية، أنت ظالم؟.. لعلك تبالغ يا يونس.. لكن لا.. لقد تغيرت رؤية يونس وهو في بطن الحوت، تغيرت رؤيته للظلم.. رأى أن الضحية ظالمة أيضاً باستسلامها للجلاد، وليس الجلاد وحده هو الظالم، رأى في بطن الحوت، أن السردين البشري ظالم باستسلامه لحيتان الملأ.. رأى أن الرجل الواحد ظالم عندما قال ماذا بوسعه أن يفعل.. رأى أن الظلم هو الفرار من المواجهة.. الفرار من العبء.

.. في بطن الحوت، أنارت تلك الرؤية ذلك الظلام..

.. وانهزم الليل..

وعندما خرج من بطن الحوت، بتلك الرؤية المغايرة، صار بوسعه الآن الكثير..

﴿ وَأَرْسَلْنَٰهُ إِلَىٰ مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ ﴿١٤٧﴾ ﴾ [الصافات]

إنه نفس الرجل الواحد الذي فرَّ من المواجهة، يوم حمل عبءَ المهمة.. لكن رؤيته تغيرت، وغيرته، وصار بإمكانه.. الآن الكثير.. صار بإمكانه أن يواجه مائة ألف أو يزيدون..

وقد كان.. لقد أصبح بوسعه الكثير !.

★ ★ ★

وفي لحظة من اللحظات، يتقاطع الزمان والمكان، تصير نينوى هي مكة، كما هي أي مدينة معاصرة.. يصير ملؤها ملأ كل زمان ومكان، ويصيرون نسخة طبق الأصل من الملأ المكي المستكبر..

.. وهناك وقف رجل واحد أيضاً.. وقف أمام أصنام مكة وأوثانها، وقوافلها وتجارتها، وعهودها وأحلافها. وقف وهو يتأمل.. ووجد أن عبء تغيير ذلك كله ثقيل جداً.. ورواده ذات السؤال الذي رواد يونس عندما فرَّ إلى البحر..

ولكن، ولأن حكايته ستختزل حكاية كل الأنبياء، فإن الوحي سيرد عليه، ربما قبل أن يسأل:

﴿ وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ ٱلْحُوتِ إِذْ نَادَىٰ وَهُوَ مَكْظُومٌ ﴿٤٨﴾ ﴾ [القلم]

لقد كان رجلاً واحداً أيضاً.. لكن صار بوسعه الكثير، صلوات ربي وسلامه عليه..

.. على تخوم اليأس فقط، أنا وأنت، وربما مائة ألف أو يزيد من أمثالنا، من جيلي، ومن جيلك، ومن أجيال أخرى سابقة ولاحقة..

على تخوم اليأس نقف، وقد أودعنا أشواك ضمائرنا في درج ما، أقنعنا أنفسنا بأنه ماذا بوسع رجل واحد أن يفعل، ونسينا أنه بإمكان رجل واحد الكثير، وأننا أساساً لسنا رجلاً واحداً.. بل إننا آلاف بل عشرات الآلاف..

على تخوم اليأس نقف، واليأس مريح للضمير، عندما تؤمن أن الأمر ليس في قدرتك، فأنت ببساطة تكف عن المحاولة، وتكف عن تحمل العبء.. انتهى الأمر.. لا داعي لا للمحاولة ولا لعناء التفكير بها..

لكن اليأس موت أيضاً، وعندما يقطنك اليأس ويستعمرك فإنك تغير عنوانك دون أن تشعر،.. تدخل إلى القبر برجليك.. وتهيل التراب عليك بيديك.. ويصير عنوانك الجديد، مقر إقامتك الدائم، هو ذلك القبر، الذي اسمه بطن الحوت.. والذي يلف عالمك كله..

.. لكن تذكر.. واحرص على التذكر.. بإمكانك أن تخرج من قبرك بإمكانك أن تبتدع قيامتك بنفسك..

لا تمت، قبل أن تموت.. ولا تكن كصاحب الحوت..

نقرات على بوابة رأسك

عندما تتراكم خيوط العنكبوت على أغلى الجواهر وأكثرها نفاسة وندرة، سيقل لمعانها وبريقها.. رغم أن جوهرها لن يمس..

وإذا زاد تراكم هذه الخيوط والغبار، فإن الجوهرة قد تغطى كلياً، وربما لن ينتبه لها أحد، حتى لو مر بقربها.. رغم أن جوهرها لم يمس - رغم أنها لا تزال جوهرة ثمينة ونادرة..

يحدث ذلك أحياناً.. بل إنه يحدث دوماً، وهو قد يحدث معنا بالذات ربما أكثر من أي قوم آخرين.

إننا نمر بقرب الجواهر الثمينة، لكن تراكم الغبار على عيوننا، يجعلنا غير مدركين لقيمتها.. تكدس بيوت العنكبوت على أفهامنا يجعلنا غير منتبهين للبريق الذي يمكن أن يشع من تلك الجواهر..

حدث ذلك دوماً معنا، دون أن ننتبه، ولو أننا أدركنا، لكنا تقدمنا نحو تلك الخيوط المتشابكة وأزحناها عن الجوهرة، لكنا دهشنا من قوة البريق الذي سينبعث من تلك الجوهرة التي كانت شبه مطفأة..

نتحدث عن جواهر موجودة عندنا.. لدى كل واحد منا.. لكن الغبار وبيوت العنكبوت تجعلنا غير منتبهين لها..

نتحدث عن القرآن..

من تلك الجواهر، آية تمر علينا دون أن ننتبه لجوهرها النفيس.. تمر بطريقة تقليدية لأن فهمنا التقليدي لها جعلها مجرد حجر عادي، لكن عمقها المكنون، لو أننا أزحنا فهمنا، سيتكشف عن لؤلؤة سوداء لا تقدر بثمن..

إنها آية ﴿وَأَمَّا ٱلسَّآئِلَ فَلَا تَنْهَرْ ۝١٠﴾ [الضحى].

للوهلة الأولى، سيبدو الأمر غريباً، ماالشيء الاستثنائي جداً في آية مثل هذه؟؟. إنها آية أخلاقية أخرى، مثلها مثل غيرها، ونحن نحترم كل آيات القرآن، ونجلها، ونحرص على العمل بها.

وهذه الآية، توجه عادة نحو سائل معين، سائل ارتسمت صورته في أذهاننا.. بكونه الذي يدق الأبواب، ويدور على البيوت، وفي الشوارع، ماداً يده، طالباً أقل العملات النقدية، أو مجرد لقمة تسد جوعه..

«أما السائل فلا تنهر»، صارت في أذهاننا مرتبطة بهذا السائل، صار الأمر متلازماً وبشكل فوري، مع معاملة الفقراء والمتسولين، وصار الأمر يعني: لا تنهر الفقراء إذا طلبوا منك بعض المال، بل كن لطيفاً معهم وأعطهم البعض مما آتاك الله..

★ ★ ★

لا اعتراض على هذا قط، والخطاب القرآني يحض وبصورة عميقة جداً على كافة أشكال التكافل الاجتماعي، سواء كان ذلك عبر فريضة الزكاة التي هي ركن ركين من أركان الإسلام كله، أو عبر العمل على تجفيف منابع الفقر من أساسها: مثل الحث على العمل والإنتاج..

إذاً لا مشكلة مع المفهوم نفسه، لكن الأمر هو أن «السائل» هنا قد يكون شيئاً آخراً غير سائل المال والطعام..

لا شيء يشير أبداً إلى ذلك..

على العكس، السياق القرآني، يشير إلى سائل من نوع آخر..

فلنراجع السورة الكريمة..

﴿ أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَىٰ ۝٦ وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَىٰ ۝٧ وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَىٰ ۝٨ ﴾ [الضحى: ٦-٨]

اليتم - الضلال - والعوز، ثلاث محطات أساسية تشير إليها السورة الكريمة، تذكر بهذه المحطات، وتذكر بمراحل لاحقة غيرت من هذه المحطات في الوقت نفسه..

فالسورة تذكر باليتم، وتذكر في الوقت نفسه بالخروج من أسر هذا اليتم..

والسورة تذكر بالضلال بحثاً عن الحق، وتذكر أيضاً بالهداية إلى هذا الحق..

والسورة تذكر بالعوز، وتذكر أيضاً بالغنى بعد العوز..

.. هناك ثلاث خطوط إذاً في هذه السورة الكريمة.

وهناك، بعدها، ثلاث نهايات تصلها السورة، ثلاث وصايا ذهبية، تتعلق بهذه المحطات، وبالذات بالخروج منها.. وصايا تتعلق باليتم، والضلال، والفقر..

الوصية التي تتعلق باليتم هي «فأما اليتيم فلا تقهر». وهذه واضحة.

فهل سنقول أن وصية «وأما السائل فلا تنهر» تتعلق بالفقر؟..

لا، السياق يقول شيئاً آخراً..

فترتيب الآيات يورد التسلسل بهذا الشكل: اليتم - الضلال - الفقر.

وتسلسل الوصايا يلتزم بهذا حتماً..

«فأما اليتيم فلا تقهر» ستقابل «ألم يجدك يتيماً فآوى».

«وأما السائل فلا تنهر» ستقابل «ووجدك ضالاً فهدى».

بينما «وأما بنعمة ربك فحدث» ستقابل «ووجدك عائلاً فأغنى».

لا مجال أصلاً لأن يكون السائل هنا مرتبطا بآية «ووجدك عائلاً فأغنى» لأن «وأما بنعمة ربك فحدث» شديدة الوضوح ارتباطاً بها..

إذاً «وأما السائل فلا تنهر» لا ترتبط بالفقر والعوز.. بل بالضلال، بالبحث عن الهدى..

السائل هنا ليس متسولاً إذاً، إنه سائل من نوع آخر.

إنه صاحب السؤال !

★ ★ ★

هذا السائل إذاً، هو الذي يبحث عن الهدى، إنه الذي يسأل ليزيح الشك من ذهنه وقلبه، إنه الذي يسأل ليجعل السؤال مصباحاً ينير به دربه المظلم: المصباح الذي يطرد خفافيش الظنون والأوهام، المصباح الذي يقود الدرب إلى حالة من الوضوح والإشراق.

إنه السائل الذي يريد أن يخرج من شرك الضلال والتخبط.

سؤاله هو سلاحه للخروج من هذا. سؤاله هو معول يهدم به كل الجدران المحيطة به، والتي تمنعه من التفكير، تمنعه حتى من التنفس في جو أكثر راحة.

السائل هنا هو الذي يطرق على الأبواب أيضاً بطريقة ما، لكن ليس أبواب البيوت، بل أبواب العقول، أبواب الأفكار، الأبواب التي تفتح وتتفتح معها عوالم جديدة.. عوالم هي أفضل ما دامت أكثر وضوحاً وإشراقاً..

السائل هنا هو الذي يستخدم سؤاله ليفجر به الأسوار التي طالما منعته، ومنعتنا، من الانطلاق.. تلك الأسوار التي طالما حجزت الرؤية وحجمت الأفق، ووضعت أفكارنا في قوالب ضيقة كقمقم صغير..

السؤال، هو الخطوة الأولى لتحطيم القمقم – لتجاوز الأسوار، للوصول إلى الأفق..

—

ولأن ديننا ابتدأ باقرأ، المفتوحة على الأفق، فهو أول ما يفجر كل ما يحاول أن يحد من طاقاتك وقدراتك.. وهو لذلك يشجعك على السؤال - ويمنعك من أن تمنع السؤال - يمنعك حتى من أن تزجر السائل، أو تصرخ في وجهه، أو تقطب في جبينه.. إنه يوصيك أن لا تفعل ذلك..

«وأما السائل فلا تنهر»..

ولقد جاء في الأثر الشريف، حديث يحمل معه صورة معبرة ومبهرة لهذا السائل الذي تحدثت عنه الآية الكريمة.. فقد روي أن الرسول الكريم قد قال«للسائل حقٌّ وإن جاء على فرس [1]..».

وإن جاء على فرس !.

إذاً هذا السائل يمكن أن يأتي على فرس، وهي صورة مباينة للمتسول التقليدي، محني الظهر، ممدود اليد، الذي يدور على الأبواب ويجلس على أبواب المساجد وزوايا الشوارع.

السائل هنا على فرس - إنه تعبير عن قوته وكرامته وهيبته، إنه على فرس، وفرسه هذا يجعله في موقع «أعلى».

إنه ليس بأي شكل من الأشكال، صاحب«اليد السفلى»، بل هو اليد العليا هنا - هو على الأقل يسعى لأن يكون صاحب اليد العليا.. إنه لا يرضى بأقل من هذا، وهو يسعى لتغيير أي شيء غير هذا..

ويجعلنا الفرس نتأمل في هذا السائل الذي امتطى فرساً بحثاً عن الحقيقة - عن الهدى..

---

(١) الحديث ضعفه الألباني للأمانة، ولم أكن أعلم هذا يوم كتبت أعلاه، وقد حذفته من كتاب البوصلة القرآنية في الطبعات اللاحقة

لقد امتطى فرسه لا من أجل مال ولا سلطة، لقد امتطى فرسه لا من أجل ثأر أو انتقام.. بل من أجل أن يصل إلى الجواب.

السائل هنا ليس دونكيشوت يحارب طواحين هواء خيالية داخل أفكاره وأحلامه.. بل هو شخص حقيقي - يريد أن يقود الدرب إلى الهدى، إلى الحقيقة - يريد أن يصل إلى جواب يزيد وضوح الشمس.. يزيد الإيمان واليقين ويطرد خفافيش الظلام وعناكب الجهل..

لقد امتطى صهوة جواده لأن في عقله سؤال !. ولا يفعل ذلك إلا من يؤمن بأهمية السؤال، وأهمية التساؤل.

لا يمتطي الفرس من أجل السؤال إلا من آمن بأن السؤال - ومن بعده الجواب - والحوار ككل - والبحث المستمر عن الهدى والمزيد من الهدى.. هو الطريقة الأمثل في الحياة وفي نمط التفكير الذي ترسخ عبر الخطاب القرآني..

هذا السائل لم يمتط الفرس فقط.. لقد امتطى السؤال نفسه.. وإذا وصل إلى الهدى، إذا وصل إلى الحق، فالسؤال هو الذي أوصله إلى ذلك.

.. والمهم في الأمر أن لهذا السائل حق.

وهذا الحق لا يقدر على سلبه إياه أحد، إنه حقٌ من الله عز وجل، منذ أن أعطاه هذا العقل وميزه عن بقية خلقه، وجعل له الإرادة وحمله مسؤولية الاختيار..

السؤال حقٌ وللسائل حقٌ، وليس لأحد أن يسلبه هذا الحق.

ولا حتى أن ينهره، أو يقطب في جبينه.

السؤال حق، وللسائل حق..

﴿وأما السائل فلا تنهر﴾.

★ ★ ★

.. لا ريب أن هذه الصورة قد تخالف الصورة التي تعودنا عليها من «متسول تقليدي» بدلاً عن «السائل على الفرس».

.. لكن هل يشترط أن النص القرآني يقدم لنا صورة واحدة فقط؟..

الصورتان لا تتعارضان، بل أنهما تتكاملان. وإذا كان السياق القرآني في سورة الضحى يشير بوضوح إلى أن السائل هو الباحث عن الهدى، وليس عن لقمة الطعام، فإن ذلك ليس بالضرورة موافقاً لكل كلمة «سائل» وردت في الخطاب القرآني أو الحديث النبوي..

نعم، كلمة سائل قد تفيد أحياناً المعنى التقليدي، لكن ذلك لا يعني أبداً أن صورة «سائل العلم» تتعارض مع القراءة الأخرى..

إنها قراءة بأفق أعمق.. تتكامل مع الصورة الأخرى، ولا تناقضها بتاتاً.. بل تزيدها حيوية.. واقعية، وسطوعاً..

★ ★ ★

وإذا طرق بابك طارق، في يوم ممطر عاصف، فافتح له الباب، وإذا سألك.. إياك أن تنهره..

لا أقصد هنا الباب العادي، ولا المطر العادي، ولا السائل العادي..

أقصد باب قلبك وعقلك، والمطر الذي قد يعصف بالرؤوس والنفوس.. والأسئلة التي هي حق..

وقد يكون هذا الطارق، الذي يدق الباب، هو أنت نفسك..

قد يكون السائل أنت بشخصك ونفسك، قد تكون أنت من تطرق الباب على عقلك.. أنت من تسأل نفسك.

إياك أن تنهر هذا السائل الذي هو أنت، إياك أن تخاف من السؤال، إياك أن تخاف من كونك سائلاً..

امتطِ هذا السؤال فرساً.. وانطلق به، وبك، نحو عوالم أكثر عدالة.. وسطوعاً..

وأول خطوة في هذا الامتطاء المضيء، هي أن تتبع الوصية الذهبية..

﴿وأما السائل فلا تنهر﴾..

الضوء في بداية النفق

رغم أنك قد لا تكون مرتدياً نظارة سوداء، إلا أن مجريات الأمور، أحياناً، ستجعلك تشعر أن السواد هو اللون الأكثر شيوعاً.. ستشعر أن هناك عدسة لاصقة قد زرعت في عينيك، تجعلك ترى الأمور بهذا اللون..

لكنها مجريات الأمور هي التي زرعت هذه العدسة، الأمور التي تلاحقك، وتلاحقك، وتجعلك تركض من أجل سد المزيد والمزيد من المتطلبات.

.. فاتورة للتعليم وفاتورة للكهرباء وفاتورة للاتصال وفاتورة للسكن وفاتورة لشراء المزيد من سلع لا تنتهي.. وكل ذلك يتراكم في تسديد فاتورة الحياة كلها التي تقيدك وتجرك وتجعلك تلهث راكضاً، حتى أنك تنسى أحياناً لم تركض بالضبط، لكنك تركض وتلهث، وتكاد تشعر أن لهاثك وركضك بالكاد يكفي احتياجاتك واحتياجات أولادك..

.. وستبدو لك تلك الفواتير - المتراكمة المتزايدة في سعار الركض اللاهث حولك كما لو كانت أيادي تمتد من كل مكان لتخنقك..

مديرك يصرخ فيك، وطلباتك تصرخ فيك، فواتيرك تصرخ فيك.. وستجد أن الأمر يكاد يخنقك..

وستكون الدنيا من حولك سوداء معتمة.. كل الألوان لن تكون سوى تدرجات للسواد من حولك..

سيكون كل شيء مليئاً بالعسر إلى حد التخمة، ليس سوى العسر، لكن القرآن، سيوقفك هنا، ويقول لك: ﴿إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ﴿٦﴾﴾ [الشرح].

★ ★ ★

«إن مع العسر يسراً»..

نعم.. ليس بعد العسر يسراً، ليس بعد أن تنتهي الأزمة، ليس بعد أن تمر العاصفة، وليس بعد أن ينجلي الغبار، وينتهي الزلزال..

اليسر موجود «مع» العسر، في معيته في قلب الحدث.

اليسر موجود في قلب العسر، ليس بعد أن ينتهي، بل هو موجود معه..

هل ستحك رأسك مستفسراً؟. كيف يكون العسر مع اليسر وليس بعد انتهائه؟..

القرآن يعلم ذلك، إنه خطاب ذلك الذي صنعك ويعرف كل ما في دواخلك..

لذلك هو يستخدم أداة شديدة التأكيد في إيصالك..

«إن مع العسر يسراً»..

وهو لا يكتفي بذلك، بل يكررها، في أسلوب للتوكيد، ليس من أجل أن تحك رأسك هذه المرة. بل من أجل أن تفتح رأسك.. وتضع فيه هذه الحقيقة.

إن «مع» العسر يسراً.

★ ★ ★

اليسر بعد العسر أمرٌ طبيعي ومفهوم.

إنه النهاية السعيدة المرجوة للأحداث. التماثل للشفاء بعد مرض مرير. انفراج الأزمة المادية بعمل جديد أو صفقة جديدة أو استدانة جديدة أو بطاقة يانصيب ! !..

اليسر بعد العسر ليس أمر عضال، ولا هو أمر يحتاج أن تحك رأسك من أجله.. ناهيك عن أن تفتحه..

ولو أن الأمر كان اليسر بعد العسر، لكان معناه أن الخطاب يتحدث عن الصبر والتصبر لا أكثر..

الحديث عن اليسر بعد العسر سيكون من باب التقوي على التحمل، وانتظار الفرج بعد الشدة.

على أهمية ذلك، القرآن يتحدث عن شيء آخر، عن شيء أكثر عمقاً وله علاقة بك أكثر مما له علاقة بأمور العسر الخارجية.

★ ★ ★

الحديث عن اليسر بعد العسر، له علاقة بالمؤثرات الخارجية التي أحدثت هذا العسر ابتداءً..

الحديث عن اليسر «بعد» العسر، له علاقة بزوال هذه المؤثرات.. بانتهاءها.. بمرورها بأطوارها الطبيعية من النمو إلى الاضمحلال..

لكن الحديث عن اليسر «مع» العسر له علاقة بشيء آخر، له علاقة بك، له علاقة بالداخل، لا بالخارج.

الحديث عن اليسر «مع» العسر - له علاقة بالذات، له علاقة بالداخل.. له علاقة برؤيتك أنت للأمور، له علاقة بالعدسة التي تلصقها على عينيك..

اليسر «مع» العسر لا علاقة له بالأمور من حولك، بل له علاقة بكيف تراها أنت من حولك..

اليسر مع العسر هو أنت.. هو ما تفعله بنفسك ولنفسك. اليسر مع العسر هو عنك، في داخلك، في أعماقك التي تحتوي على الشخص الذي يمكن للعسر أن يصيبه في مقتل، أو على الشخص الذي يمكن له أن ينحت اليسر من أعسر الظروف..

اليسر بعد العسر هو النبأ السعيد بأنك شفيت من المرض. هو استلامك لنتيجة الفحص المخبري الذي يعلن ذلك.

أما اليسر مع العسر فهو شيء مختلف تماماً. اليسر الذي يكون مع العسر في هذه الحالة هو الذي يكون في خضم المرض نفسه، إنه صراعك مع المرض، إنه اكتشافك لقدراتك على مواجهته وعلى هزيمته..

★ ★ ★

الخطاب القرآني، يمسكك من تلابيبك، ويقول لك، وهو يهزك بعنف، أن ثمة مع العسر يسراً، وإن هذا المرض الذي يجتاح جسدك، رغم مرارته، رغم شدته، رغم عسره، يمكن له أن يجعلك تكتشف إرادة الحياة في داخلك، الإرادة التي تجعلك تقاوم المرض، الإرادة التي تجعلك تستجمع قواك لتحارب بنفسك، لا بالاستسلام المجرد لعسر المرض وعسر العقاقير..

اليسر «مع» العسر هو في داخلك، يمكن لعسر معين أن يقضي على شخص لأن عينه وبصيرته لا ترى غير هذا العسر أفقاً ومحيطاً، ويمكن لبصيرة شخص آخر، ورؤيته، أن ترى «مع العسر يسراً»، كما في الخطاب القرآني، رغم أنه نفس العسر، لكن رؤيته هذه تجعله أقوى، تمنحه الحصانة ضد الذوبان في العسر.. تمنحه نظرة إلى نصف الكوب الآخر، الملآن يسراً..

★ ★ ★

وهل هناك يسر في العاصفة، في الزلزال؟.. في الإصابة بمرض عضال؟..

نعم، إن مع العسر يسراً، وفي عمق العاصفة والزلزال والسرطان، هناك ثمة يسر أكيد.. كيف؟..

. العاصفة رغم قوتها، تكشف لك عن نواحي الضعف والقوة في بنائك، وهو أمر لا يمكن أن يحسب على العسر في العاصفة، بل إنه أمر مهم جداً لليسر في الصمود بوجهها - في البناء الآخر الذي عليك أن تبنيه لاحقاً.

الزلزال رغم شدته، رغم أنه قد يطيح ببنيانك، إلا أنه يمنحك أيضاً معرفة لحقيقة ضعف وقوة أساساتك.. بحيث أنك ستكون أكثر حصانة في زلزال المرة القادمة..

والسرطان رغم خطورته، إلا أنه يمنحك الفرصة لتكون أقوى، إذا لم يقتلك، فإنك تخرج منه أقوى - أبداً ليس كما دخلته، تخرج وقد تعلمت مصارعته في الداخل.. تخرج وقد أتقنت الصراع من أجل البقاء، على الأقل على المستوى النفسي..

أليس المزيد من القوة يسراً؟. أليس المزيد من المعرفة يسراً؟. أليس الوصول إلى المزيد من المعرفة والقوة يسراً، ولو أنه جاء عبر العسر، عبر الزلزال والعاصفة والسرطان؟

إن اليسر مع العسر، اليسر بالرغم من العسر.

بل إنه اليسر، بسبب العسر !..

★ ★ ★

وقد يكون أيضاً، مع اليسر عسراً..

ففي الحالات التي يكون فيها الكثير من اليسر، أو يبدو أنه ليس هناك سوى اليسر، سيكون هناك العسر أيضاً.. حتى لو كان ليس ظاهراً على السطح..

فمع يسر الترف، والوفرة، وسهولة الحياة، سيكون هناك عسر خفي.. يجب أن يتنبه له من غرس القرآن فيه بصيرة - وإلا فإن هذا العسر الخفي سيتغلب ويقلب الصورة كلها..

إنه عسر الفراغ الفكري - والسطحية - والتقلب في الملذات، قد لا يكون واضحاً أنه عسر في البداية.. لكنه سيكون عسر العقم - وقلة الإنتاج - أو عدميته..

إنه عسر الترف، الذي يتمثل في مجتمع كل أموره يبدو ظاهرها أنها ميسورة..
لكن في العمق، هناك العسر مع اليسر.

★ ★ ★

.. حتى مع قمة العسر، هناك ثمة يسر..

حتى مع المآسي التي لا بسمة واحدة فيها، يوجد ثمة يسر..

ربما مع عسر اليتم الصعب، هناك ثمة مبدع يولد من زحم المأساة.. وينتج أدباً وفكراً ييسر أمور الناس ويبصرهم ويقودهم إلى الخروج من مآسيهم.. ولو بعد حين..

نعم، مع كل مبدع، بقلم أو ريشة، هناك مأساة، كانت «عسراً» يوماً ما، ثم أثبتت، أنه كان «معها» اليسر..

حتى وأنت في قعر فشلك، في أدنى نقاطه العسيرة.. هناك **أيضاً معك، معه، يسرٌ مبين، فقط لو أنك أدركت ذلك..**

.. حتى في الفشل، في ذروته أو هاويته أو أدنى نقاطه، ثمة يسر..

كيف؟..

لأن الفشل، على عسره، درس لك.. خبرة تكتسبها في مواجهاتك القادمة..

وعندما تفشل في مشروع ما، ولو مشروع علاقة إنسانية، أخوة، صداقة، أو أي شيء، فإنك تربح خبرة الفشل التي ستزودك لاحقاً بإمكانية النجاح..

إذا غدر بك صديق ما، فإنك قد تكون خسرته، لكنك أيضاً ربحت جرحك..
وجرحك هذا سيمنحك الخبرة مع صديق جديد..

حتى الفشل، سيكون ربحاً بهذا المنظار..

لا فشل بالمطلق، ولا عسر بالمطلق..

دوماً هناك اليسر، مع العسر.

★ ★ ★

ولولا العسر - في الطائف.. ما كان هناك اليسر الذي صار لاحقاً في المدينة..

ولولا تجربة العسر في أحد، وتجربة العسر في خيبر، ما كان هناك إمكانية لليسر في الحديبية، وفي الفتح المبين لاحقاً..

كل ما هو «عسر» - لا بد أن يكون معه اليسر.

لا بد !!

ثنائية اليسر والعسر هذه هي قانون من قوانين الحياة، إنهما يسيران دوماً جنباً إلى جنب. لكن أحدهما يسكن في الوجه المرئي من القمر.. والآخر يسكن في الجانب الآخر الذي لا يراه أحد.. لكن البصيرة الواعية التي يرسخها القرآن، عدسة التوازن التي يلصقها على عينيك - ستجعلك ترى الاثنين.. في «معية» واحدة.

فإذا قالت لك عيناك يوماً أن العسر يحاصرك من كل الجهات، فلا تصدق ذلك أبداً..

كذبها.. يمكن لك، مطمئناً، أن تكذب عينيك، وأن تتحدى نتائجها المادية المباشرة.. فالعدسة التي ألصقها القرآن على عين بصيرتك تقول لك أن الحصار غير مطبق، وغير مطلق، وغير تام.. وأنه مهما كان العسر فإنه سيكون هناك حتماً يسر..

ليس بعده، ليس خلفه، ليس وراءه..

اليسر مع العسر.

لا تصدق عينيك لو قالت شيئاً آخراً، فالخطاب القرآني، أكد، وكرر، ﴿ فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ۝٥ إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ۝٦ ﴾ [الشرح].

.. فتأكد من وضع العدسة على عينيك.

وستراهما سويةً، معهما كان العسر أظهر !.

إرشادات لإعداد حقيبة السفر

حياتنا رحلة سنمضي في طريقها شئنا أم أبينا، سنمضي أدركنا ذلك أم تجاهلناه، أحببنا ذلك أم كرهناه، قررنا أن نحدد الجهة التي نتجه إليها في هذه الرحلة، أم تركنا الدفة لمن يقودها عوضاً عنا..

إنها الرحلة وهي تبدأ بلا إشعار مسبق، لا شيء يقول صراحة موعد بدايتها، ولا إشعار صوتي واضح يقول أن على المغادرين الاتجاه إلى البوابة رقم كذا - كما يحدث في المطارات -، ولا تنبيه أخير يقول أن الرحلة على وشك المغادرة..

إنها تحدث كتحصيل حاصل، حياتنا كلها رحلة، والأمر يبدأ منذ أن يبدأ وعينا بالتكون على الأقل.. رغم أننا نادراً ما نعرف ذلك إلا متأخرين..

لنفترض الآن أن رحلتنا ستبدأ غداً، ولدينا الوقت لتهيئة حقيبتنا وأخذ ما نحتاجه معنا.. فماذا سنأخذ معنا، لو كان لدينا الخيار؟.

هل سنأخذ معنا أموالاً تكفينا الرحلة؟. فلتكن إذا على شكل بطاقات الدفع الممغنطة فذلك أيسر من أخذها بشكل نقدي.

هل سنأخذ شهاداتنا، وأوراقنا الثبوتية؟

نعم ذلك مهم أيضاً، فالإنسان في عصرنا هو تلك الأوراق التي تثبت أنه حصل على كذا من كذا وكذا.. حتى ولادته ووجوده يجب أن تكون موثقة بورقة، وإلا لما كان هناك إثبات على وجوده - حتى لو كان موجوداً -..

ماذا أيضا؟

صور الأحباب، الذكريات، دفتر الهاتف، دفتر العناوين، جهاز الحاسب المحمول..

ولا تنس الأدوية التي قد تحتاجها في رحلتك هذه، خذ أدويتك التي تحتاجها دوماً، وزد عليها أدوية الصداع والزكام مما قد يصيبك في رحلتك.... ولا تنس فرشاة أسنانك، ومسحوق الغسيل، وربما مادة معقمة قد تحتاجها في غبار السفر..

لكن قبل أن تحزم حقائبك وتقرر أن فيها ما يكفيك، انتبه، القرآن يقول لك شيئاً مغايراً..

يقول لك: ﴿ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ ﴾!

★ ★ ★

هل أحرجت لأنك لم تذكر التقوى في قائمة الاحتياجات في زوادتك؟. لا تحرج. **يمكنك أنت تتخلص من الإحراج بسهولة بأن تقول أن التقوى مكانها القلب، وهي موجودة دوماً، في حلك وترحالك، أنت تتقي الله، والتقوى هاهنا في قلبك في كل الأحوال..**

لكن أعد النظر بعد أن تتخلص من الإحراج: **ستري أن الآية تتحدث عن التزود بالزاد - خير الزاد - كما لو أن الأمر له علاقة برحلة..**

حياتك كلها، حياتنا كلها هي رحلة، هذا صحيح، لكن هناك في الآية شيء مختلف ومخصص، إنها تتحدث عن رحلة معينة - ثم تنطلق إلى الحديث عن رحلة الحياة.

هل نذهب إلى أسباب النزول - لكي نرى إن كان فيها ما يوضح ذلك؟.... ونجعل من أسباب النزول، سبباً للصعود والارتقاء عبر الفهم الأفضل لتلك الآية؟..

★ ★ ★

عن ابن عباس رضي الله عنه: «كان أهل اليمن يحجون ولا يتزودون ويقولون نحن المتوكلون فإذا قدموا مكة سألوا الناس فأنزل الله تعالى ﴿وَتَزَوَّدُواْ فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ﴾». [صحيح البخاري - كتاب الحج - قول الله تعالى وتزودوا فإن خير الزاد التقوى].

إذا الآية نزلت في هذا السياق، كان هناك نفر من الناس، يرحلون إلى مكة بغرض الحج إلى البيت الحرام، ولكنهم لا يأخذون معهم زاداً من طعام أو شراب، وكانوا يعللون ذلك بتوكلهم على الله سبحانه وتعالى، أي أنهم كانوا يعتقدون أن توكلهم على الله سيوفر لهم الزاد من ماء وطعام.. وكانوا في نهاية الأمر - وعند وصولهم إلى مكة - يضطرون إلى أن يسألوا الناس زاداً - هكذا كان ينتهي بهم فهمهم للتوكل: إلى أن يتسولوا.. وبدلاً من أن يكونون متوكلين على الله - كان فهمهم هذا يوكلهم إلى الناس..

ونزلت الآية تصحح هذا الفهم المغلوط. وتقول: تزودوا..

★ ★ ★

لا إشكال على الإطلاق، ولا شيء يثير الجدل أو الاستغراب في أن تنزل الآية لتأمر - بوضوح -: تزودوا..

الأمر الذي يجب أن يوقفنا هنا، هو «فإن خير الزاد التقوى».. فالسياق يتحدث عن أشخاص، قادهم فهمهم الخاطئ إلى نوع معين من التواكل، إلى نتيجة خاطئة تماماً، ومغايرة تماماً لما كانوا يرومونه ابتداءً..

الأمر في هذه الآية: هو تصحيح لمفهوم التقوى بأكمله..، والأمر لا يخص فقط أولئك الذين كانوا يحجون إلى البيت الحرام بلا زاد - والذين نزلت الآية من أجلهم كسبب مباشر -.. الأمر يخص مفهوم التقوى دوماً - إذ أنه يحتاج إلى مراقبة وتصحيح مستمر..

الصورة التقليدية، التي رسخت في أذهاننا، عن التقوى، صورة تشبه إلى حد بعيد صورة من سموا أنفسهم بالمتوكلين، وكانوا لا يتزودون بالماء والطعام في رحلتهم من اليمن إلى مكة..

الصورة التقليدية التي رسخت في أذهاننا عن التقوى والمتقين، تشبه الصورة المرسومة في سبب النزول هنا..، إنها صورة **الشخص الذي سلم نفسه لكل ما تأتي به الظروف، تحت راية الرضى بالقضاء والقدر**، إنها صورة الشخص الذي يسير جنب الحائط ليتجنب أية مواجهة.

صورة الشخص الذي حيده فهمه للتوكل والإيمان عن أي محاولة تغيير.. إنه - ببساطة - لا يتجشم عناء أي مسؤولية، أي مهمة، تحت حجة أنه «تقي» - لا يريد أن يلوث نفسه بمال أو منصب أو سلطة..

صورة التقي في أذهاننا هي صورة شخص أقرب ما يكون إلى الدرويش محني الظهر، الذي يقضي يومه في انتظار وقت العبادة، يقطع الطريق، رواحاً ومجيئاً، في الذهاب إلى المسجد والعودة منه..

إنها صورة الشخص الذي جعله فهمه للأمور، يخاف الله إلى درجة أنه لا يفعل شيء حتى لا يخطىء، إنه شخص كبله خوفه من الله سبحانه وتعالى..

شخص كبله فهمه للتقوى..

★ ★ ★

لكن الصورة القرآنية، بالذات في هذا السياق الذي أنزلت من أجله الآية الكريمة، تقدم نموذجاً مختلفاً - بل ومضاداً للصورة الراسخة في أذهاننا..، بل إن السياق القرآني هنا يحطم صورة السلب والاستسلام اللصيقة بالمفهوم التقليدي للتقوى والتوكل..

إنه يقدم فهماً مختلفاً تماماً للتقوى - التي هي خير زاد -، إنه لا يكتفي هنا بأن يقول تزودوا ! - لكنه يربط هذا الأمر بالتزود بالتقوى.. ويؤكد أن التقوى - هي جوهر التزود كله..

السياق هنا، يقول، رغماً عن كل أفهامنا التقليدية والصور الذهنية الجاهزة، أن مخافتك لله - تقواك له - يجب أن تجعلك تتزود بالماء والطعام في تلك الرحلة..

وأكثر من هذا.. السياق يقول لك، أن تزودك هذا، هو جوهر التقوى.. وأن التقوى هي خير زاد يمكن أن ينفعك في رحلتك..

إذا مخافة الله - حسب هذا النص - هي التي تجعلك تأخذ معك الطعام والماء وأسباب العيش في رحلة صحراوية مقفرة.

مخافة الله ومعرفته حق قدره، لا تجعلنا فقط نلتزم بما هو حلال وحرام - ولكنها تجعلنا أيضاً أكثر معرفة بقوانينه وسننه..

بعبارة أخرى: تقوى الله، مخافته، معرفته، ستجعل هؤلاء (المتوكلين) يعلمون علم اليقين أن الله لن يرسل لهم مائدة من السماء بدلاً عن الزاد الذي يجب أن يأخذوه في رحلتهم..

اعتقادهم بأن الله سيرسل لهم مؤونة الطريق، واتكالهم على هذا الاعتقاد، كان ينبئ بجهل لحقيقة الله.. كان ينبئ أن معرفتهم لله عز وجل كانت غير دقيقة - بل كانت مشوبة بما يجعلها خاطئة تماماً، وتؤدي إلى سلوكيات كتلك التي فعلها هؤلاء الذين نزلت بسببهم الآية..

معرفتنا بالله، ستعني معرفتنا بقوانينه وسننه.. و(تقوى) الله تعني أننا نلتزم بحدود هذه القوانين والسنن ونعمل من خلال هذه القوانين والسنن..

تقليدياً، نعتقد أن القانون الإلهي، هو ذلك التشريع الذي نزل من خلال الأديان، والذي حدد الأوامر والنواهي التي يجب الالتزام بفعلها أو بعدم فعلها..

وهذا صحيح. لكنه ليس كل شيء..

فالسنن الإلهية، التي وضعها الله سبحانه وتعالى لتسيير مقادير السماوات والأرض، هي قوانين إلهية أيضاً - حتى وإن لم يتنزل فيها تشريع مكتوب -، لكنها قوانين أيضاً، والالتزام بها، بعد معرفتها أولاً، هو أيضاً تقوى.. بل هو بالذات التقوى التي تحدثت عنها الآية الكريمة..

إذا التقوى هنا، هي معرفة القانون الشرعي والقانون الكوني الذي (يوصف) قدرة الله وقوته، ومن ثم (اتقاء) خرق هذا القانون وعواقب هذا الخرق، عبر السير وفق هذا القانون..

إنها في القانون الشرعي - كما في القانون الكوني - فكلا القانونين منبعهما واحد صادر من واضع القانون الأول.. والوحيد الذي له الحق في وضع قوانين كهذه.. الوحيد الذي هو أهل التقوى.... التقوى هنا، هي (اتقاء) عاقبة خرق قانون الله.. اتقاء مخالفة (السنة) الكونية التي وضعها الله في خلقه..

★ ★ ★

ولأن القرآن يفسر بعضه بعضاً - فإن هذا الفهم للتقوى المرتبط بالسنن الكونية والشرعية على حد سواء سينسحب على كل آيات التقوى.. وسيجعلها تتوهج وتنير وهي تتسع وتخرج من الحجر الضيق الذي حجزته في داخله نظرتنا التقليدية....

﴿ أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُۥ عَلَىٰ تَقْوَىٰ مِنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٍ خَيْرٌ أَم مَّنْ أَسَّسَ بُنْيَٰنَهُۥ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَٱنْهَارَ بِهِۦ فِى نَارِ جَهَنَّمَ ﴾ [التوبة:١٠٩]

.. تقليدياً فهمت الآية بشكل معين - يجعل من النظرة السائدة للتقوى هي المسيطرة على الآية.. أي إن التقوى هنا هي اتقاء خرق القانون الشرعي..

لن يكون هناك ما يلغي هذهِ الرؤية - لكن هناك ما سيوسعها.. ويجعلها أكثر اتساقاً مع القيم والمقاصد القرآنية..

هل يمكن لك أن تضع أسساً لبنيانك إذا كنت تجهل قوانين الهندسة؟. هل يمكن للبنيان أن يرتفع ويعلو رغماً عن القوانين السننية التي وضعها الله عز وجل والذي وضع أيضاً القوانين الشرعية؟؟.. هل سيؤدي أي خرق لهذهِ القوانين السننية إلى شيء آخر غير التصدع والانهيار؟..

والبنيان وأسسه لا يتعلق فقط بالبناء بالمعنى المادي - بل يتعلق بكل بنيان سواء كان على صعيد أسرة واحدة أو مجتمع كامل..

لا يمكن لك أن تضع أسساً لأسرتك على غير الأسس العلمية، أسس السنن التي تتطلب التوازن والعدل - ثم تتوقع شيئاً غير الانهيار لهذهِ الأسرة التي خرقت سنن الكون، ولم (تتقِ) الله بمعنى أنها لم (تتق) السنن الكونية التي وضعها الله في الكون الذي يأتمر بأمره..

الشيء ذاته بالنسبة لأسس البنيان الاجتماعي - إذا لم يكن هناك (تقوى) في الأسس - بمعنى معرفة السنن والسير حسب قوانينها - فإن الانهيار - دنيوي أو أخروي - عاجلاً أو آجلاً هو النهاية المنطقية - السننية - للأحداث..

★ ★ ★

وسترتبط «التقوى» قرآنياً، بالعدل..

﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَئَانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ ٱعْدِلُوا۟ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾
[المائدة: ٨]

والعدل هنا هو «أقرب للتقوى» لكنه لا يساويها ولا يطابقها.. فالعدل هنا رؤية بشرية - وهو هنا بالذات مرتبط بالارتفاع عن ردود الأفعال ومحاولة التنزه عنها - وبقدر ما يكون ذلك الارتفاع عن رد الفعل البشري، سيكون الاقتراب من التقوى، المرتبطة بالسنن الإلهية..

إذا العدل، بشرياً، هو تحييد الموقف الشخصي، ومحاولة الاقتراب من السنن، والقوانين الموضوعة، للوصول إلى الحقيقة..

كلما حصل ذلك أكثر كان أقرب للتقوى..

التقوى، بالمعنى الأوسع والأشمل.

★ ★ ★

﴿وَلِبَاسُ ٱلتَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ﴾ [الأعراف: ٢٦]

تقليدياً، سيكون للتقوى هنا نفس المعنى، فالحياء والعفة «خير» من ملابس قد تستر علناً أمام الناس ما ستكشفه سراً.. الأغطية التقليدية قد تكون مجرد ستار لتغطية جرائم.. أما التقوى، فهي خير من ذلك، لأنها أعمق وأكثر فاعلية..

لكن المعنى، لو تأملنا فيه مجدداً، أوسع بكثير..

اللباس التقليدي قد يواري السوءات.. لكن لباس التقوى، المرتبط بمعرفة السنن واتقاء عواقب خرقها، يتجاوز مسألة مواراة السوءات إلى ما هو أهم.. فالسوءات ليست فقط مجرد أعضاء ينبغي تغطيتها، إنها سوءات نفسية أيضاً، قد تؤدي إلى أمراض فردية أو اجتماعية، والتعامل مع هذه السوءات، عبر فهمها السنني، قد يؤدي إلى إلغائها.. أو على الأقل تحجيم هذه السوءات..

. ولباس التقوى، ذلك، خير..

.. هل سيكون غريباً بعدها، أن تكون «العاقبة للتقوى».. وأن تكون «العاقبة للمتقين»..

إنها النتيجة المنطقية فحسب، إنها التحصيل الحاصل لمن فهم وعمل وفق القوانين الشرعية والكونية، وأي نتيجة غير تلك، ستكون غير سننية.. وبالتالي غير ممكنة الحدوث.

والمعنى هنا، في العاقبة، يقول أنها يمكن أن تكون دنيوية أيضاً، وليست أخروية فقط.. كما عودنا الفهم التقليدي..

العاقبة هنا - هي النتيجة المباشرة - لما نفهمه من السنن والقوانين..

عاقبة أولئك الذين سموا أنفسهم بالمتوكلين، كانت أنهم سيموتون عطشاً أو جوعاً في طريقهم المقفر، إلا إذا تصدق أحدٌ عليهم - ولن تكون تلك عاقبة محمودة دنيوياً -، كما أن عاقبتهم الأخروية لن تكون أفضل، ذلك أنهم - تقريباً - قد أقدموا على قتل أنفسهم..

العاقبة المحمودة هي لمن فهم السنن والقوانين التي وضعها عز وجل في خلقه وكونه..

.. لكن الفهم المعوج للقوانين والسنن لا ينتج تقوى تؤدي إلى عاقبة محمودة.

بمعنى أن اتقاء السنن الكونية وحدها، والسير حسب هذهِ القوانين، قد يعطي نتائج مهمة وبارزة، لكن ذلك لن يؤدي إلى عاقبة محمودة ما لم يكن مصحوباً باتقاء للسنن الشرعية والتزام بالقوانين التي أنزلتها الرسالة السماوية..

الحضارة الغربية مثلاً، قدمت ما يمكن أن يكون مقارباً للتقوى من ناحية فهم السنن الإلهية في الكون.. لكنها عزفت عن السنن والقوانين الشرعية، وكان ذلك وسيكون بمثابة «الغم» دائم في أسس هذهِ الحضارة، سيودي بها إلى شفا جرف هار.. ما لم تصحح هذهِ الأسس..

.. ونحن، الآن، على الأقل، لسنا بأفضل حالاً.. من الحضارة الغربية..

فلا نحن قدمنا تقوى للقوانين الشرعية، ولا نحن أنجزنا تقوى للسنن الكونية..

.. حياتنا رحلة نمضي فيها، شئنا أم أبينا.. و«خير الزاد» ليس أموالاً أو أوراق ثبوتية أو ذكريات وصور أحباب.

«خير الزاد» رؤية تقودك في رحلتك إلى العاقبة المحمودة، إذ لا فائدة من الرحلة، إذا كانت ستؤدي بك إلى الهاوية.. إلى عاقبة غير محمودة..

خير الزاد إذا هو ما يجعل الرحلة تصل إلى نهايتها المرجوة، إنه الرؤية التي ستجعلك تصحح المسار، عبر الفهم المتكامل للسنن الكونية والشرعية على حد سواء..

«خير الزاد» – التقوى – سيجعلك أقوى، سيجعلك أصلب..

.. وكونك تقياً، يعني أنك ستكون أكثر معرفة لدربك لأنك أكثر معرفة بربك.. وبقوانينه..

.. وكونك تقياً، لا يعني أن يكون ظهرك محنياً وأنت تسير قرب الحائط.. بل يعني أنك أنت من سيعبد الطريق ويعلي الحيطان ويشد البنيان..

وسيكون ظهرك صلباً، منتصباً..

لأنك تقي!

أجمل نبتة في العالم

صباحاً، ستفتح الباب، لتذهبَ إلى عملك أو لشراءِ حاجيات الفطور..

ستنتبه، إلى وجودِ «نبتة» عند بابك..

نبتة ملفوفة بأناقة، وقد وُضعت عند بابك..

ستحاولُ أن تتذكرَ هل هناك مناسبة؟ إنه ليس يومَ ميلادك.. ولا ذكرى ميلاد زوجتك.. ولا أيٍّ من أولادك.. ستفكر بفزعٍ أنك ربما قد نسيتَ واحدةً من هذه المناسبات.. وإن ذلك لن ينتهي نهايةً طيبة، إلا إذا تداركت الأمر بسرعة..

لكن لا، أنت واثق الآن من أنه لا توجد مناسبةٌ كهذه..

ستتأمل النبتة.. إنها ليست نبتةً «جميلة» بالمعنى التقليدي للكلمة.. وربما كنت تفضل لو كان لك الخيار، أن تستلمَ باقةً كبيرةً من تلك الأزهار المعتادة في هذه المناسبات.. بل إنك كنت تفضلُ باقةً صغيرة، من ياسمينٍ أبيض، دون كلفةٍ عالية.. بدلاً من هذه النبتة..

ستتأملها مجدداً، إنها تبدو كمزحة.. تبدو كما لو أن أحداً أراد أن يغيظك منذ بداية اليوم، فأرسل لك هذه النبتةَ البعيدةَ عن الجمال.. ستبحث عن بطاقةٍ صغيرة، كالتي ترفق مع الهدايا عادةً.. لكنك لن تجد، وسيكون هذا متوقعاً طبعاً، فالذي أراد أن يمزحَ معك، يريد أن يتابع مزحته، ولن يكشف عن اسمه وهويته بهذه السهولة..

ستتابع يومَك متظاهراً بعدم الاهتمام، وأنت تشكُّ بالجميع.. ابتداءً من أقربِ الناسِ إليك.. تحاول أن تلمّحَ لهم جميعاً أنك تدرك ما فعلوا، لكن وجوهَهم تبدو جميعاً متشابهة، ليس هناك من يثيرُ الشكَّ في نفسك..

ستتابعُ حياتك، غير مدرك أنّ هذه النبتة موجودةٌ عند بابك منذ أن كان لك باب..

وأنّ مقاييسَك التقليدية عن جمالِ النباتات غيرُ مهمةٍ على الإطلاق..

وأنّ هذه النبتة أهمُّ بكثير لحياتك اليومية ولصباحك اليومي.. حتى أهمُّ من طعامِ الإفطار الذي كنت تنوي النزولَ من أجل جلبه..

الأهمُّ من كل ذلك، أن هذه النبتة، غريبةَ الشكل، لم يتركها شخصٌ ما..

إنها، في الحقيقة، مفهومٌ تركه لنا القرآن الكريم..

لكننا، كالعادة، لم نتعامل مع هذا المفهوم كما يجب..

بل تعاملنا، بالطريقةِ المعكوسة..

ستقطب جبينَك الآن.. مفهومٌ قرآني تعبر عنه بأنه نبتة ليست جميلة؟..

كيف أجرُؤ حتى على مجرد التفكير بذلك؟.. كل ما في القرآن الكريم جميلٌ بل ورائعُ الجمال.. حسناً، ليكن، لكننا قلنا أن نتركَ مفهومَنا التقليدي عن الجمال ومقاييسه..

على أي حال، تستطيع أن تقولَ عن نبتة«الصبّار» إنها جميلة إن شئت..

ذلك لن يغير من صفاتها شيئاً..

★ ★ ★

المفهومُ القرآني الذي لبس زيَّ تلك النبتة، والذي دخلَ في تربةِ الجيلِ الأول، وتجذرَ فيها، هو مفهومٌ اشتق لفظُه من تلك النبتة تحديداً.. من نبتة الصبّار..

إنه مفهوم يدعى «الصبر»..

نعرفُ الصبر طبعاً.. ونعرف نبتة الصبّار أيضاً.. فهل نرى من ترابط بينهما..

فلنراجع معلوماتنا عن الصبر أولاً..

★ ★ ★

الصبر نعرفه كلنا.. إنه، كما يقول المثل السائر: «مفتاح الفرج».. وكلنا سمعنا نصائح الصبر.. وكبرنا عليها، بل إننا تقولبنا عليها.. الصبر.. الصبر.. الصبر. الصبر عند الشدة، وقبل الشدة، وما بعد الشدة. الصبر عند الظلم، وعند توقع الظلم.. وعند انتهاء الظلم..

إنه عموماً، النصيحة بالتحمل، بعدم التذمر، بالاستمرار كيفما كان.. إنه باختصار: الانتظار.. والمزيد من الانتظار.. إلى أن يحدث شيء ما: أن تتأقلم على الوضع مثلاً.. أو تتعود عليه.. أو أنه يزول، يتغير لسبب ما..

★ ★ ★

هذا عن الصبر، فماذا عن الصبّار؟

إنها نبتةٌ تعيشُ في أصعب الظروف وأحلكها.. تتحدى جدب الصحراء لتنمو.. تتحدى قحط الصحراء لتكبر.. تتصارع مع العطش لتظفر بقطرة ماء واحدة.. تخوض معركة البقاء بضراوة.. تارة تمد جذورها بشكل عرضي – لا طولي – لكي تبحث عن قطرة ماء في أوسع مسافة ممكنة.. وتارة تستخدم أشواكها كفخ قد يسقط فيه حشرة أو حبة طلع شاردة، لكي تمتص منه – أو منها – الماء الذي يجعلها تتشبث بالحياة..

ليست نبتة الانتظار، إذ إنها لا تقضي الوقت في انتظارِ حباتِ الماءِ لكي تصل إليها.. ولو أنها فعلت، لماتت.. وهي تنتظر..

لكنها نبتةُ الحياةِ القاسية.. نبتةُ الصراعِ من أجلِ البقاء.. نبتةُ انتزاعِ الحياةِ من بينِ أسنانِ الموت.. نبتةُ العملِ من أجلِ واقعٍ أفضل.. إنها نبتةٌ (جادة) جداً، وأولوياتُها لا تتعلقُ بالجمالِ التقليدي وبزهوةِ الألوان، ليس هناك أصلاً مجالٌ لهذا.. لكنها الحياة، وضرورةُ البقاء على قيدها، عبر كفاحٍ يقتربُ من حدود الأسطورة.. ولو أن مفهومَنا التقليدي للصبر، تجسد في نبتة، تنتظر أن تأتيها مقوماتُ الحياة، سيحاً أو ديماً.. لما استطاعت النبتةُ تلك أن تكملَ دورةَ حياةٍ واحدةٍ في صحراءَ قاسية..

لا، ليس الانتظار، ليس تحمل الأمر الواقع..

بل، العملُ.. من أجلِ التغيير..

★ ★ ★

لا رابطَ حقيقياً إذن بين مفهومنا الذي رضعناه صغاراً، وشببنا عليه كباراً عن الصبر.. وبين تلك النبتة، نبتة الصبار..

أيكون الأمرُ إذن مجردَ تشابه غيرِ مقصود، بالأسماء؟

لا، إنها هي علاقةُ قرابةٍ حقيقية.. والمفهوم كله اشتُق من تلك النبتة التي عرفها عربيٌّ ما قبل القرآن وخبرها جيداً..

لكنه ليس ذلك المفهوم السلبي الذي نشأ وتكرسَ في عصورِ الانحطاط، والذي ورثناه من ضمن بقية ما ورثنا..

لكنه مفهومٌ آخر.. المفهومُ القرآني للصبر.. مفهومُ الجيل الأول الذي لو كان فهم ما فهمنا من الصبر، لكان ظلَّ ينتظر وينتظر.. وينتظر.. ولما كان تغير شيءٌ في العالم..

نبتة الصبار، لا علاقة لها بمفهومنا عن الصبر، لكنها خيرُ مثالٍ وأوضحُ رمزٍ عن الصبر الحقيقي..

الصبر القرآني..

وعندما يقال لك، وأنت في خضمِّ واقعٍ مرير، أن استعن بالصبر، فإن ذلك، سيعني على الأغلب، وحسبَ شفرةِ المفاهيمِ الموجودةِ في عقولنا، أن الصبرَ هنا هو بمثابةِ عقارٍ مسكنٍ للألم، سيجعلك تتحملُ آلامَ الواقعِ بالتدريج، إلى حين انقضائه، أو إلى حين مجيءِ واقعٍ أسوأ منه، يجعلك ترى ميزاتِ الواقع السابق.. وهكذا..

والحقيقة أنَّ بعضَ أنواعِ العقاراتِ المخففةِ للألم، لا تحتوي في داخلها حقيقةً على مادةٍ كيميائية تخفف الألم، لكن المريض إذا اقتنع، أن العقار فعّال في تخفيف الألم، فإنه غالباً ما يشعر بزوال الألم..

وهكذا استُخدم «الصبر» للأسف الشديد.. استخدم من أجلِ تسهيلِ تجرعِ الواقعِ المر، وتمريرِ آلامِ العيشِ فيه..

تم إقناعنا أن الصبرَ دواءٌ مسكنٌ للآلام.. حبةٌ تخدرنا عن أدراكِ كم هو سيئٌ الواقع..

.. وهكذا كان..

★ ★ ★

..على الضفة الأخرى من المفاهيم، هناك مفهومٌ مبثوثٌ في داخلِ القرآن الكريم، كففنا عن استعماله لجملةِ ظروفٍ وسياقاتٍ تاريخيةٍ يطولُ شرحُها.. لكن المفهوم لا يزال هناك.. لا نحتاج غير أن نقطعَ صلتَنا بالمفهوم السائد، مثل سلك كهربائي نزيله من مقبسه الذي يجلب لنا كهرباءً من نوعٍ رديء وواطي ..

ونوصله بالمقبس الحقيقي.. الذي يوصلنا بالطاقة الحقيقية..

★ ★ ★

وعندما نزلت تلك الآيات، آياتُ الصبر، في ذلك العصر الذي احتوى الجيلَ الأول، فإن أيَّ من أفرادِ ذلك الجيل لم يتعامل معها بصفتها عقاراً يسهل الانتظار، ويخففُ الأسى، ويسهلُ التأقلمَ معه..

﴿ وَٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ﴾ [البقرة: ٤٥] الموجودة مرتين في سورة البقرة، مرة في سياقِ اتخاذِ الصبرِ من تجربةٍ حضاريةٍ سابقة، هي تجربة بني إسرائيل (٤٢)، ومر في سياقٍ مباشرٍ يخاطَب فيه الذين آمنوا ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّـٰبِرِينَ ﴿١٥٣﴾ ﴾ [البقرة]..

وفي الحالتين، فلنتذكر أنها سورة البقرة، أولُ ما أنزل في المدينة المنورة بعد الهجرة.. أي إنه سياقُ البناءِ الحقيقي، وليس سياقَ تخفيفِ الآلامِ والخدرِ عن الواقع..

لم يكن الواقعُ واقعاً يجبُ التلهي عنه من أجلِ تمريره واحتماله، بل كان واقعاً شاركَ فيه المخاطبون بصنعه. كان واقعاً شهد بزوغَ مجتمعٍ جديد وأمةٍ جديدة وحضارةٍ جديدة، بنمطٍ مختلفٍ من المفاهيمِ والقيمِ المختلفةِ لا عن سابقتها فحسب، بل عن ما حولها من الحضارات والمجتمعات.. وكان ذلك كلُّه صعباً طبعاً.. ولم يخل من آلام.. وعراقيل.. ومصاعب.. ولكن الصبرَ لم يكن عقاراً لتخفيفِ الآلام.. بل كان منشطاً.. كان بمثابة حبةٍ تزرع فيك القوةَ والعزم.. من أجلِ القيامِ بها لا بد من القيام به..

★ ★ ★

أولُ خطوةٍ في تغييرِ السلوك، تبدأ، دونما شك، من تغيير المفاهيم.. لن يفيدَ أن نعظَ حولَ ضرورةِ العمل، ونحاضرَ عن الإيجابية، إذا كانت هناك مفاهيمُ راسخة، مزروعةٌ في رؤوسنا تعطلُ إرادةَ العمل والقدرة عليه..

وذلك المفهوم، السلبي للصبر، الذي استخدم، ربما دون قصد، لأسباب عديدة، هو من ضمن تلك العراقيل الموجودة أمام إرادة العمل والقدرة عليه.. إنها نبتة أخرى غير التي غرسها القرآن الكريم في عقول الجيل الأول، نبتة تستخدم في تسكين الألم.. في التخدير.. ولا بد من استئصالها.. لا بد من اجتثاثها من جذورها.. لكي نفسح المجال لنمو النبتة الأخرى.. النبتة التي وجدتها ذات صباح على بابك..

النبتةُ الموجودةُ حالياً، هي نبتةُ الصبر أيضاً، لكنه صبرُ المفعولِ بهم..

أما النبتة «الأخرى» نبتة القرآن، فهي نبتةُ صبرِ الفاعلين.. صبرِ العاملين.. صبرِ الذين يغيرون العالم..

★ ★ ★

والصبرُ، أيضاً، قد يكون صبراً جميلاً..﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ﴾ [يوسف: ١٨].. ﴿فَٱصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلًا ۝٥﴾ [المعارج: ٥]..

وهذا يذكرنا بمفاهيمنا التقليدية عن الجمال، وهي مفاهيمُ تركز على السطح، وتركزُ أيضاً على الشيء بمعزل عن محيطه..

لكن الجمالَ هنا، هو جمالٌ يسكن عمقَ الأشياء، يسكنُ جوهرَها، الصبرُ الجميلُ هو ذلك الصبرُ الذي يسعى لتغيير القبحِ الموجودِ في العالم، إنه الجمالُ الذي يرفض أن يعترفَ بسطحٍ زاهٍ وبراق، إذا كان يغطي ويطغى على حقيقةٍ واقعٍ قبيحٍ وغيرِ متوازن..

إنه الصبرُ الجميل، فجماله لا يذوبُ ولا يذوي تحت عوامل الزمن، بل الزمن يزيده.. ويغنيه ويقويه..

نعم.. نبتةُ الصبار، بهذا المعنى، نبتةٌ جميلةٌ جداً.. بل لعلها النبتةُ الأكثرُ جمالاً في العالم..

فلا تستغرب إن أهداك أحدُهم نبتةَ صبار ذات أشواك ولا تعتبرها مزحة..

تأمل فيها، في أشواكها، في ساقها الأملس القوي، في جوهرها منجم كبير.. تستطيع أن تستعين به في حياتك..

إن شئت أن تغيرها..

نوع من البشر

ويقولون: اصبر.. ويضربون الأمثلة..

مثالٌ هنا، مثالٌ هناك، حكايةٌ عمرها عشرةُ قرون، وأخرى تشبهها عمرها خمسةُ قرون.. وثالثةٌ مماثلةٌ لكنها بديكورٍ معاصر، حكايةٌ بنهايةٍ سعيدة، والعبرة أن الصبرَ أوصلَ للسعادة، وأخرى بنهايةٍ مفتوحة، والعبرةُ أنَّ الصبرَ لا بد أن يؤدي إلى فرجٍ ما..

حكاياتٌ وقصصٌ وأمثال، كلُّها تشكِّلُ مفهوماً معيناً عن الصبر، يتراوحُ عادة بين الرضا بما حدث، والاحتساب، وعدم التذمر والتشكي طول الوقت..

وهذا كلُّه جميل.. وأحياناً يتجاوزُ الجمال إلى درجة الإيجابية، فليس هناك ما هو أكثرُ سلبيةً وإحباطاً للذات وللآخرين حول الذات، من التذمرِ والتشكي والتباكي طول الوقت على ما آلت إليه الأوضاع..

لكن الصبر، وإن احتوى على ذلك، فإنه قد يحتوي على أبعادٍ أخرى، أوسع، وأبعد.. أبعادٍ غيرِ موجودةٍ في الصورِ والأشكالِ التي تعبأ وتمررُ لنا على أساسٍ أنها نماذج الصبر الوحيدة..

بعبارة أخرى، فإن النموذجَ الأعلى، والمثالَ الأكثرَ سواداً للصبر، والذي يتبادرُ إلى الذهن، كالمفتاح، عندما نأتي بسيرة الصبر، هو النموذج الأيوبي، أي نموذج سيدنا أيوب عليه السلام، حتى صار «صبر أيوب» مضرباً للمثل، بل حتى استخدمَ التعبير، استخداماً مسيئاً للغاية، وخارجَ كل سياق أخلاقي، فصرنا نسمع، عاشقاً يتغنى بصبره على حرمانه من محبوبته، ويقول إنَّ صبرَه كصبر أيوب، أو يزيد أحياناً !..

بالصبر،

﴿ إِنَّا وَجَدْنَٰهُ صَابِرًا ۚ نِّعْمَ ٱلْعَبْدُ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿٤٤﴾ ﴾ [ص]..

وأكثر من ذلك، أنَّ حكاياتِ الصبرِ وأمثاله، بنسخها القديمةِ والمعاصرة، تتخذ من الصبرِ الأيوبي سقفاً أعلى، حتى وإن لم تذكر اسمه صراحة، بمعنى أن نموذجَه في الصبر - هو المثالُ الذي يحتذى والذي يطبق بدرجةٍ أدنى، ولكن ضمن السياق نفسه..

وهذا كله جميل، لكن هناك مشكلةٌ واحدة..

إنَّ القرآنَ الكريم، رغم إشادته بصبر أيوب، لم يطلب، على الأقل من الرسولِ الكريم ﷺ.. الاحتذاءَ بصبره..

لم يقل له: «واصبر كما صبر أيوب»..!

إنما اختار نموذجاً آخر، ليكون هو المثال - هو القدوة..

اختار سقفاً أعلى من سقفِ التجربةِ الأيوبية، ليجعلها معياراً أعلى، مقياساً مختلفاً لصبرٍ.. هو المطلوبُ التمثلُ به..

★ ★ ★

لا.. لم يقل له: «اصبر كما صبر أيوب»..

ولكن أمره، عليه الصلاةُ والسلام، بأن يرفعَ مستوى بصره، ومستوى صبره، إلى أفقٍ آخر..

أفق أولي العزم من الرسل..

﴿ فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ ﴾ [الأحقاف: ٣٥]..

إلى هناك، توجهت الإشارةُ القرآنيةُ، لتشكلَ النموذجَ الأمثلَ من الصبر الذي ينبغي على الرسول الكريم، صاحبِ الرسالةِ الخاتمة، أن يتمثل به، وأن يكونه..

صبر أيوب، كان صبراً إيجابياً ولكنه كان صبراً شخصياً، كان الصبرُ على محنةٍ شخصيةٍ أصابته، بالصبرِ، عبر هذه المحنة، وتجاوزها، لكن الأمرَ ظلَّ داخل الإطارِ الشخصي، أي إنَّ سيدَنا أيوب، لم يحتج أصلاً إلى نوعٍ آخر من الصبر، إلى سقفٍ أعلى..

كان الأمرُ شخصياً، ولذلك احتاج إلى صبر الرضا، وعدم التذمر..

★ ★ ★

لكن أحياناً، يكونُ الأمرُ أكبرَ من الأشخاص..

يكون الهمُّ الشخصي ليس مرتبطاً بمرض، أو فقدانِ الأحبابِ والأصحاب..

بل يكون أحياناً، هماً شخصياً يحملُ الهمَّ العامَّ على كتفيه، أحياناً يكون الهمُّ الشخصي ناتجاً عن الهم العام، ومتداخلاً فيه، أحياناً تكون مشاكلُك وهمومُك جزءاً من مشاكلِ وهمومِ مجتمعك، جزءاً من مشاكلِ الجميع، حتى لو لم يدركوها..

مع همّ كهذا، فقد الحد الفاصل بين العام والخاص، الصبر الأيوبي قد لا يكون هو النموذج..

بل الصبر الآخر.. صبرُ أولي العزم من الرسل..

★ ★ ★

ولأن الرسولَ عليه أفضلُ الصلاةِ والسلام، حملَ على كتفيه همَّنا جميعاً، همّ الإنسانية بأسرها، فقد كان يحتاج إلى صبر آخر غير صبر أيوب..

كان يحتاجُ إلى صبرٍ من حملوا همّ الإنسانية، صبرٍ من غيروا مسارها.. صبرٍ من تركوا آثارهم عليها بحيث أنها لم تعد كما كانت قبل أن يجيئوا إليها..

أجل، خُلقوا من الطين ذاته الذي خلقنا منه جميعاً.. لكنهم استطاعوا أن يخرجوا من النطاقِ الفردي الضيقِ لأفعالنا، استطاعوا أن يُحركوا العالم، بالاتجاه الصحيح..

ليسَ هناك، في القرآن الكريم، ما يؤكد من هم بالضبط، أولو العزم من الرسل..

لكنَّ الفهمَ العام، والمتوافقَ مع أفعالهم.. يجعلهم خمسة.. وغنيٌّ عن القول إن هؤلاء الخمسة.. ليس منهم سيدنا أيوب..



نوح.. إنه الأقدم الذي نعرفه من أولي العزم..

وحكايته حكاية «صبر» أيضاً.. نادراً ما يذكر ذلك، فنموذج الصبر في أذهاننا قد جير للصبر الشخصي، الصبر على المحن الشخصية، لكن صبر نوح كان صبراً على المحنة الاجتماعية، صبر على قومه، على عنادهم، على كفرهم، على رفضهم حتى لسماعه..

وصبر على بناء مشروعه، مشروع السفينة التي لا بد أن تنقذ المجتمع مما هو فيه، كانوا يمرون به هازئين من سفينة يبنيها على البر، وليس من بحر قريب، ولكن ذلك لم يهزه.. ظل متمسكاً بمشروعه، ظل صابراً على البناء..مهما بدا ذلك وقتها مغايرا لكل المشاريع الاخرى..

كان لديه من العزم، ما يجعله يستمر، وكان لديه من العزم ما يجعله يقاوم، ويغير، ويجعل سفينته، في النهاية، تحط على بر الأمان، ليس بر الأمان الذي تبحث عنه الإنسانية منذ أن تخبطت بعيداً عن ذلك الفردوس الذي كان..

كان لديه من العزم، ما يجعله يترك أثره على التاريخ كله، كل حضارات العالم، بكل دياناتها، حتى تلك غير السماوية منها، كلها، تذكر، حكاياتها، عن طوفان أطاح بالمعمورة، وعن سفينة أنقذت البشرية مما كانت فيه.. ربما الاسم ليس موجوداً عند الجميع.. لكن الأثر بقي.. بقيَ المشروع.. بقيت السفينة..

★ ★ ★

إبراهيم، كان صبوراً بطريقةٍ لم نعرفها في الصبرِ التقليدي.

صبرَ على التساؤلات التي في داخله، لم يضق ذرعاً بها، لم يقمعها.. لم يحاول نسفَها من أجل أن يرتاح.. بل تركها تنمو، ظلّ يبحثُ عن الأجوبة، لم يقف عند الأسئلة فقط – ويجعل منها مأساته، بل جعل منها منطلقاً.. للبحثِ عن الأجوبة..

وصبرَ على البحث.. جعلَ من العالمِ كله مادةً أوليةً لسؤالِه ولجوابِه أيضاً، جعل من حضاراتِ العالمِ القديمِ كلها موضعاً للتساؤل.. وعرفَ أنها عاجزةٌ عن تقديمِ الأجوبة، لأنها، هي نفسها مليئةٌ بالتناقضاتِ القاتلة..

تركَ إبراهيمُ كلَّ تلك الحضارات.. تركها، ولكن ليس إلى صومعةٍ في الجبلِ أو خلوةٍ منعزلةٍ عن المجتمع، بل إلى عمقِ الصحراء، في رحلةٍ كانت أشبه بالانتحار، ليضعَ لبنةَ المجتمع، ليضعَ أساساً لحضارةٍ بقيمٍ مختلفة..

وكان لإبراهيم من العزم ما يجعله يترك ذلك الأثرَ الهائلَ على الإنسانية برمتها، أثراً من الصعب جداً تخيل أن له ما يماثله لفرد واحد، يستطيع المتثاقفون أن يقولوا أن لا وجودَ تاريخياً لإبراهيم، فقط لأنهم لم يجدوا اسمه في سجلاتِ الحجر التي ينقبون فيها، لكن أثره هو الذي غيَّر سجلاتِ كل التاريخ، فإلى إبراهيم، وبه، ترتبط وتنتسب الأديانُ السماوية الثلاثة، التي أحدثت أكبرَ أثر، في كل التاريخ..

★ ★ ★

وكان لموسى من العزم، ما جعله يواجهُ جبهتين في آن واحد.. جبهةَ فرعون، رمزِ الاستبداد، رمزِ الفردِ الذي يتجاوزُ كلَّ الحدود ويطغى..

والجبهةَ الأخرى، جبهةَ قومه، جبهةَ الجماهير التي تريد من قائدها أن يكونَ كما تريد هي، لا كما يجب أن يكون، وتريد أن تبقى كما هي، تحصلُ على الفوائد وتنتفعُ بالمنجزات، وتتمتعُ بالحقوق، لكنها غيرُ مستعدة لتقديمِ أي تنازل، غيرُ مستعدة لأداء الواجبات، غيرُ مستعدة لتُغيرَ مفاهيمَها ناهيك عن سلوكها..

أيُّ قائدٍ آخر، ليس لديه من العزم ما لموسى، كان سيسقطُ بين الجبهتين، كان على الأقل سينحازُ لواحدةٍ منها، ويقرر أن انحيازَه مرحلي ريثما يتخلص من الجبهةِ الأخرى، كان سيقولُ إنها السياسة، وإنه التكتيك، وإن استراتيجية درءِ المفسدة مقدمةٌ على استراتيجية جلبِ المصلحة.. إلى آخر هذا الكلام..

كان لموسى عزمٌ مختلفٌ.. كان مصمماً على أن فرعون ليس مجرد فرد، بل هو نمطٌ في التفكيرِ وفي السلوك، يمكن أن يكون عند الجماعات كما عند الأفراد.. والسكوتُ على هذا، عند الجماعات، سينتج قبيلةً من الفراعنة وإن كان اسمها بنو إسرائيل..

في صراعه مع الجبهتين، بين النجاح المؤكد مع جبهة الفرعون – الفرعون، وبين صراعٍ حتى الرمقِ الأخيرِ في الجبهةِ الأخرى، ترك موسى تجربةً حضاريةً شديدةَ التميز، بكلِ الإيجابيات والسلبيات..

★ ★ ★

وكان لعيسى عزمٌ، قد لا توحي به الصورةُ التقليدية التي روجت عنه، فعندما جاء كان الهيكلُ قد غادرته المعاني، وسكنته التفاصيلُ المفرغةُ من المقاصد – كانت الطقوسُ قد غادرتها الروح، وصارت، مثل أي شيء تغادره الروح، ميتة..

وكان الكتبةُ والفريسيون يحتلون المعبد.. ويشكلون الوساطةَ التي لا يمكن تجاوزها بين الناس وبين ربهم.. لا يمكن لك أن تسأل إلا الكتبة.. ولا يمكن لك إلا أن تفعل كما قالوا أن تفعل.. كل ما هو ليس مكتوباً عندهم فهو بدعة، كل ما هو ليس عندهم ملعون..

وماذا يمكن لعيسى أن يفعل؟ ما هي حظوظه أصلاً؟.. كيف يمكن لذلك النجار الشاب البسيط أن يواجهَهم، وكلٌّ منهم يحملُ شهادةَ الدكتوراه في علوم الهيكل؟..

مع أي شخص، بمواصفاتِ شخصيةٍ أيوبيةٍ للصبر، كان الأمرُ سينتهي بعدمِ التذمر، ربما بمزيد من التعليم «الديني»، ربما بالوعظ هنا وهناك.. لكن عيسى كان من أولي العزم.. وقد جابه بعزمه كلَّ حرفية تعاليمهم، ولوهلةٍ ما، بدا أنهم انتصروا..

لكن من رماد ما بدا أنه نصرهم، انبثقت الروحُ التي بثها عيسى.. ولم يعد الهيكلُ كما كان بعدها..

★ ★ ★

وعندما جاء عليه أفضلُ الصلاةِ والسلام، جعل من صبرِ أولي العزم مثالاً يحتذيه، جعلَ من صبره وسيلةً لإعادةِ تشكيلِ العالم..

واختزنت تجربتُه، عليه الصلاةُ والسلام، تجربةَ كلِّ من سبقه من أولي العزم.. كانت رسالته «سفينة نوح» بطريقة ما، لكنها غير محدودة بزمان أو مكان، وهي لا تنقذ من طوفان ماء منهمر بالضرورة، بل من طوفان الانهيارِ الذي يصيبُ مجتمعاتٍ بُنيت على أسسٍ فاسدة..

وكانت خطواتُه تتبع خطواتِ أبيه وأبينا إبراهيم، رفض، كما رفض سلفُه، كلَّ الخياراتِ الحضارية السائدة في عصره، كلَّ الأنماطِ الاجتماعيةِ السائدة، رفض منطق العشيرة والقبيلة، كما رفضَ منطقَ الكسروية والقيصرية..

خارجاً عن كل ما هو سائد، رغم ما بدا أنه مستحيل، بنى - عليه الصلاةُ والسلام - مجتمعاً آخر، على أسس مختلفة..

وبين عزمِ موسى، وعزمِ عيسى، وقف محمدٌ ﷺ يأخذ الدرسَ والعبرة، أهمية أن لا تتحول أمته كلها إلى «أمة فرعونية» أمةٍ تستكبر على بقيةِ الأممِ وتعتبر أنها الأفضلُ بالمطلق، كما حصل فعلاً مع بني إسرائيل.. أهمية أن لا تتحول الشعائر إلى مجرد طقوس مفرغة من المقاصد والمعاني..

كانت جبهات متعددة، ومتنوعة، وكانت تحتاج عزماً حقيقياً، كانت تحتاج صبراً، من نوع صبر أولي العزم من الرسل..

وليس ذلك الصبر الشخصي الذي تعلمناه..

★ ★ ★

وعبارة «أولي العزم من الرسل» قد تعني ضمن ما تعني، أن هناك طبقةً عليا من الرسل، تميزت عن غيرها من الرسل، ومن الأنبياء، واستطاعت أن تؤدي دوراً مهماً، دوراً تجاوز نطاقَ الفردِ والأسرة والمجتمع الصغير، إلى الإنسانيةِ جمعاء.. ونحن نعلم يقيناً، أن هناك ممن بعثهم الله، مَنْ لم يستطيعوا، لسببٍ أو لآخر، أن يحدثوا أثراً كبيراً.. (سيأتي النبي منهم، يوم القيامة، ومعه واحد ومعه اثنان.. وسيكون منهم، من سيأتي، بلا أي أحد معه..)

.. ولكن هناك.. من سيغير بعزمه صعوباتِ الحقائق.. هناك من سيتجاوز ذلك..

هناك أولو العزم من الرسل..

★ ★ ★

لكن العبارة، أيضاً، توحي بشيءٍ آخر.. قد يكونُ أكثرَ أهمية، على الصعيدِ العملي..

فتسميةُ «أولي العزم من الرسل» توحي أن هناك نوعاً آخرَ من أولي العزم، هم من غير الرسل..

عبارةُ «أولي العزم من الرسل» توحي أيضاً بوجود «أولي العزم من بقية البشر»، فالعزم، صفةٌ بشريةٌ كامنة، وليست من متطلباتِ الرسالةِ التي تميزُ الرسلَ عن غيرهم من البشر..

أولو العزم من البشر، هم أيضاً، أولئك البشر الذين يحملون همَّ المجتمع على أكتافهم، همُّهم الخاص، يكون متداخلاً مع الهمّ العام.. متماهياً معه..

ويكون عزمُهم كافياً لإحداث فرقٍ ما.. ولو صغير.. ويكون عزمُهم كافياً لإحداثِ ثغرة، ولو صغيرة، في الجدار الذي يحجز الوعيَ الإنساني.. ثغرةٍ صغيرة.. كافيةٍ لإدخالِ شعاعٍ صغيرٍ من النور.. لكنه يكون الحدَّ الفاصلَ.. بين النور والظلام..

إنهم بشرٌ أيضاً، مثلُنا جميعاً، لكنهم، أخذوا مرتبةً أعلى، مرتبةَ أولي العزم من البشر..

★ ★ ★

حيث تلتقي الجهات

ننظر أمام ناطحات السحاب ونتحسر..

نتابع تطورات العلوم من بعيد، نشاهدها عبر التلفاز أولاً، ثم نستورد نتائجها.. ونمصمص شفاهنا بحسرة...

نراقب بإعجاب، ممزوج بحسد وغيرة، كل ذلك التطور التقني الذي يموج فيه عالم اليوم، وهو التطور الذي لا نساهم فيه بدور غير دور المشاهد - المتفرج السلبي - المستورد المستهلك في أحسن الأحوال...

ثم إننا ننظر من جديد إلى كل ذلك ونقول، كتعويض، إن **الإنسان هناك تفوق بامتياز في امتحان المادة، لكنه سقط بامتياز أيضاً في امتحان الروح..**

ثم نكمل، مفترضين أننا قد نجحنا في امتحان الروح، إن لدينا ما ينقصهم، ولديهم ما ينقصنا..

المادة لهم، والروح لنا..

هكذا نقسم الأمور.

ونفترض، بعد كل هذا، أن حل المشكلة الإنسانية يكمن في مزج ما، بطريقةٍ ما، بين مادية الغرب، وروحانية الشرق..

الغرب يمتلك المادة ويستأثر بها..

والشرق يختص بالروح، وليس لديه غيرها للمبادلة...

قبل أن نؤمن بهذا، ونعده حتمية لا رادّ لها... علينا أن ننتبه.. إنها قسمةٌ ضيزى.

الظلم في هذه القسمة، أنها تفترض سلفاً أننا قد منحنا كل ما عندنا، وأن كل ما عندنا هو «الروح» وأنه ليس بإمكاننا أن نضيف شيئاً آخراً إلى المادة.

إنها قسمة ظالمة لأنها تقنعنا أن بضاعتنا التي يمكن أن نساهم بها هي الروح فقط، دون أن يعني ذلك أحياناً شيئاً على الإطلاق.

إنها قسمة ظالمة لأنها تكاد تقول لك، أنه ليس لك من نصيب المادة شيئاً، وأقنع نفسك بأن هذا الذي اسمه «روح» يوازي الأمر ويوازنه..

إنها قسمة ضيزى، فارفضها.

★ ★ ★

بدلاً من تلك القسمة الضيزى، التي تجعل«الشرق شرق، والغرب غرب»لكل بضاعته المحددة، يطرح عليك القرآن نموذجاً آخر، الشرق والغرب فيه حضارة واحدة، حضارة إنسانية متوازنة تملك ما نطلق عليه اليوم «المادة»، وتملك أيضاً ما نسميه الروح، دون أن تجد ذلك صعباً أو غريباً.

حضارة تملك ثنائية التوازن، دون أن تحتاج إلى استيراد شيء من حضارة أخرى، ودون أن يعني ذلك أيضاً أنها مغلقة على ذاتها..

إنها حضارة تتكامل مع توازنها، وتتوازن من خلال تكاملها..

حضارة تفهم الإنسان، قامت من خلال حاجاته، وعبر حاجاته، وبناها الإنسان نفسه، فسدّ ببنائها حاجاته..

ولأن الإنسان كل لا يتجزأ - ولا يمكن فصل مادته - جسده - عن روحه، إلا إذا أردناه جثة هامدة، فإن الحضارة الإنسانية حقاً ستملك الاثنين..

لن تتناطح مع السحاب بقرن الروح وحده..

كما أنها لن تتناطح مع الحاجات الروحية بقرن المادة..

ستكون حضارة تملك قرنين، لكل منهما استعماله..

ستكون حضارة ذات قرنين..

حضارة «ذي القرنين».

★ ★ ★

حضارة ذي القرنين هي النموذج الأعلى التي تقدمها لنا سورة الكهف..

إنها المرحلة الأنضج والأرقى.

إنها الحضارة الهدف.

الثنائية في الاسم تلفت النظر.

قرنان إذا، يدلان حتماً على شيء عميق ومهم.

وكلمة قرن استخدمت في الخطاب القرآني استخدامات شتى، تدور معظمها حول الأمة، أو القرية، أو الأقوام..

أي أنها استخدمت من معنى قريب جداً لما نقول عنه اليوم، في لغتنا المعاصرة حضارة.

ولو أننا أبدلنا كلمة قرن، بكلمة حضارة، لرأينا المعنى يستقيم.

★ ★ ★

﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ ٱلْقُرُونِ مِنۢ بَعْدِ نُوحٍۢ ﴾ [الإسراء: ١٧]..

﴿ قَالَ فَمَا بَالُ ٱلْقُرُونِ ٱلْأُولَىٰ ۝٥١ ﴾ [طه]

﴿ أَلَمْ يَرَوْا۟ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ ٱلْقُرُونِ ﴾ [يس: ٣١]

كلمة قرون هنا تعني بوضوح: المجتمعات.. أو الحضارات في بعدها الأعمق..

فما معنى أن يلقب شخص ما بذي القرنين؟..

هل يعني هذا أنه امتلك مجتمعين، أو قرينتين، أو حضارتين؟

السياق نفسه سيجيبنا على هذا التساؤل..

بوضوح شديد، وبرمزية شديدة، يحكي لنا النص القرآني عن «غرب» و«شرق».

﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ ٱلشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِى عَيْنٍ حَمِئَةٍ ﴾ [الكهف: ٨٦]..

ثنائية المكان هنا لا يمكن أن تنفصل عن الثنائية الموجودة في الاسم، ذي القرنين..

فمغرب الشمس ومطلع الشمس لا يمكن أن يكون محض اتجاهات جغرافية، **الغرب والشرق هنا هما رؤيتان مختلفتان، مشروعان مختلفان، وجهتا نظر متباينتان.. إنهما حضارتان لكل منهما هوية تميزها..**

شرق، غرب..

لكن صاحبنا هنا لا يبدو أنه ينتمي لأي من الحضارتين، الغرب والشرق بالنسبة له حقلان للدراسة والبحث، وهو لا هنا، ولا هنالك.. لكن كيف، **هل يمكن أن يكون هناك شيء كهذا؟. هل يمكن لحضارة أن تكون «لا شرقية ولا غربية»؟..**

رغم أنهم أقنعونا بغير ذلك، إلا أنه من الواضح تماماً، **أن الحضارة الهدف، الحضارة النموذج، لا تنتمي لهذا التقسيم، فذو القرنين يجول هنا وهناك لكنه ينتمي لشيء آخر أعلى من الجغرافية**.. هل انتماؤه هذا له علاقة بالثنائية اللطيفة باسمه مثل هوية بارزة؟ **هل يعني هذا أنه امتلك أهم ما في تجربة الغرب والشرق؟.. هل يعني هذا أنه امتلك زمام التميز الموجود في التجربتين في آن واحد؟ فلم يعد يحتاج إلى أن يلتحم ويتكامل مع تجربة حضارة أخرى، لأن حضارته تكاملت مع نفسها، وسدت حاجات الإنسان من كل جوانبها..**

الثنائية في الاسم تتوازى مع ثنائية الرؤية والمنهج، وتوحي لنا بشيء قريب من هذا.

★ ★ ★

ثم أنه اتبع سبباً..

والخطاب القرآني، يكرر ويؤكد أن (اتباع الأسباب) هو العنصر الأساسي في نجاح وتمكن ذي القرنين..

واتباع الأسباب، يعني أنه يسير أينما يقوده البحث عن الجواب، قد يقوده الجواب إلى «سبب» نصنفه ونضعه في قالب قريب من المادة، أو قريب من «الروح» - لكن ذلك لن يهم هنا، فهو يتبع الأسباب أينما قادته، ما دامت أسباب.. بغض النظر عن تصنيفها وتبويبها..

واتباع الأسباب، أدى به إلى الوصول إلى تلك الحضارة النموذج..

حضارة القرنين..

تشير الآيات الكريمة إلى مزايا مهمة ميزت حضارة ذي القرنين، وشكلت، وستشكل دوماً، علامات فارقة تميز الحضارة - الهدف..

★ ★ ★

هناك أولاً، تقدماً تقنياً تميزت به تلك الحضارة، ونتج ذلك التقدم عن اتباع الأسباب، وتمثل في هذا التطور في علم المعادن:

﴿ ءَاتُونِي زُبَرَ ٱلْحَدِيدِ حَتَّىٰٓ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ ٱلصَّدَفَيْنِ قَالَ ٱنفُخُوا۟ حَتَّىٰٓ إِذَا جَعَلَهُۥ نَارًا قَالَ ءَاتُونِىٓ أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا ﴿٩٦﴾ ﴾ [الكهف].

إنه الفصل بين الحديد والنحاس، واحد من أهم التقنيات التي ميزت تطور البشرية في تاريخها الطويل، لقد سمي أصلاً العصر الذي تبع ذلك التطور بالعصر الحديدي، كما قد نسمي عصرنا اليوم عصر الذرّة أو عصر الحاسوب.. كناية عن أهمية هذا التطور..

هي تستند إلى إيمان عميق بالآخرة..

★ ★ ★

﴿ قَالَ أَمَّا مَن ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُۥ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِۦ فَيُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا نُّكْرًا ﴿٨٧﴾ وَأَمَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُۥ جَزَآءً ٱلْحُسْنَىٰ وَسَنَقُولُ لَهُۥ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا ﴿٨٨﴾ ﴾ [الكهف]

الإيمان بالآخرة ليس مجرد شيء عابر، بل هو أساس عميق في توجه هذه الحضارة، وهو يعتبر العدالة الدنيوية، مقدمة لعدالة أخروية لا فرار منها..

إنها ثنائية سيامية، لا فاصل حقاً بين جزأيها، فكل منها يتكامل مع الآخر.. ولا يوجد حقاً ما يمنع التطور التقني من أن يكون مؤمناً بالآخرة..

بالضبط كما ليس هناك ما يمنع، من أن يكون أول ما يفعله الإنسان عند وصوله إلى سطح القمر، أو سطح أي كوكب يطأه للمرة الأولى، هو السجود لخالق ذلك الكون كله..

★ ★ ★

يقودنا التأمل في الآيات الكريمة إلى بعد آخر في الفهم

﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ ٱلسَّدَّيْنِ وَجَدَ مِن دُونِهِمَا قَوْمًا لَّا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا ﴿٩٣﴾ ﴾ [الكهف]

هناك سدّان إذا؟ وهناك منطقة بينهما.. بين السدين؟

إلام يرمز السد هنا؟ وماذا تعني (مجدداً) كونهما اثنين في هذا السياق المليء بالثنائيات؟.

ما وظيفة أي سد أصلاً؟ لماذا تبنى السدود؟ إنها تبنى من أجل أن تمنع تدفق المياه إلى منطقة معينة. إنها حاجز، أو عائق مائي أو غير مائي.. حسب ما أنشئت من أجله..

في هذا السياق، الذي يدور حول تلك الحضارات التي امتلكت رؤية واحدة، وجانباً واحداً من الحقيقة، يبدو (السد) هنا كما لو كان السد الذي أقامته كل حضارة لتمنع الرؤية الأخرى من التدفق إليها..

السد هنا، هو ذلك الحاجز الذي تضعه الحضارة على عينها لكي لا ترى إلا ما تراه..

إنه السد الذي ينفي وجود الروح، أو تأثيرها، أو أهميتها، ويقول لا شيء سوى المادة.. الذي تقيمه حضارة المادة.. حضارة مغرب الشمس..

وهو السد الذي يهمش المادة ويتجاهلها، ويقول: «لا شيء سوى الروح»، وهو السد الذي تقيمه حضارة الروح.. حضارة المشرق..

هل نستغرب إذا، أن يكون القوم «بين السدين» لا يكادون يفقهون قولاً؟..

بالتأكيد.. لن يفقهوا شيئاً..

ضمن سياق الثنائيات في هذه الآيات هناك مشرق ومغرب، هناك قرنان.. هناك سدّان.

★ ★ ★

وهناك أيضاً: يأجوج ومأجوج..

﴿ قَالُواْ يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي ٱلْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَىٰٓ أَن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا ﴿٩٤﴾ ﴾ [الكهف]..

من هما؟..

ضمن هذا السياق، يبدو أن يأجوج ومأجوج يمثلان تلك الرؤية الأحادية التي لا ترى إلا بعين واحدة..

كل منهما يمثل العين الواحدة التي تتصور أن زاوية رؤيتها الضيقة هي أوسع منظور يمكن الرؤية من خلاله.

يأجوج ومأجوج يمتلكان رؤية أحادية، كل منها رؤية مغايرة للأخرى إنهما مختلفان جداً في رؤيتهما، واحد منهما ينفي المادة ولا يرى سوى الروح، والآخر - بالعكس منه، ينفي الروح ولا يرى سوى المادة..

ولكن، بالرغم من ذلك، إنهما متشابهان جداً - إنهما يشبهان بعضهما البعض جداً.. في كونهما أعوران.. كلاهما بعين واحدة..

الفرق فقط، أن العين العاملة عند كل منهما تختلف عن الأخرى.. لكنهما أعوران معاً على كل حال..

ومن الطبيعي جداً أن يكون (يأجوج ومأجوج) مفسدون في الأرض كما تشير الآية.

ذلك أن الرؤية الواحدة تفسد الأرض.. سواء كانت تلك التي لا ترى سوى الماديات، أو تلك التي تعيش على هامش الواقع ولا ترى سوى الروحانيات.. كل منهما يؤدي إلى إفساد الواقع، وإن كان كل منهما يؤدي إلى ذلك بطرق مختلفة..

لكن النتيجة واحدة.. فساد الأرض.. انهيار المجتمع، سواء بسبب الخواء الروحي الذي تغرق فيه حضارة المادة، أو بسبب السلبية والفقر المادي الذي تغرق فيه حضارة الروح.

سنلاحظ هنا أن الخطاب القرآني يستخدم صيغة الجمع: (يأجوج ومأجوج مفسدون) وليس صيغة المثنى (مفسدان)، هل لأن الإشارة إلى أقوام يأجوج ومأجوج وليس شخصي يأجوج ومأجوج؟

ربما، وربما أيضاً إن الإشارة هنا إلى أن يأجوج ومأجوج ستكون حضارات متعاقبة ومتواصلة، وليس مجرد حضارتين من تاريخ غابر..

وليس غريباً أبداً أن يكون الاستنجاد بذي القرنين بالذات من يأجوج ومأجوج المفسدين في الأرض.. فلا حل لإفساد الأرض الناتج عن (الحوار) والرؤية الأحادية، إلا ثنائية التوازن والرؤية المتكاملة، والعينين.. اللتان امتلكهما، وسيمتلكهما دوماً، (ذو القرنين).

★ ★ ★

القرآن ليس كتاباً في التاريخ، مهما حاولوا إيهامنا بذلك.

في الحقيقة، إنه كتاب في المستقبل.. إنه كتاب يجعلك - لو أنك أحسنت قراءته - تعرف كيف يمكن لك أن تصنع مستقبلك.

وقصة ذي القرنين، وكل قصص سورة الكهف، يمكن أن تكون قصة مسلية تاريخياً، لكنها لم ترد في سياق تسليتك للأسف..

في هذه القصص مفاتيح تمكنك من أن تفتح أبواباً طالما اعتبرت أنها مغلقة بشكل نهائي.

في هذه القصص أطوار استحالة، عليك أن تمر بها لتصل إلى ذلك النموذج الأرقى.. النموذج الهدف..

بل إن هذه الأطوار، يمكن أن تكون خريطتك الشخصية أيضاً..

يمكن أن تدرك من خلالها أن عليك، بعد فترة كمون واختمار ضرورية، أن تخرج من ظلمة الكهف، إلى نور الحوار الواثق من قوة حجته ومنطقه - ومن ثم عليك أن تدرك أن عليك أن تنزل بعدها من الرفوف العلية والأبراج العاجية، لتلتحم بالواقع الحقيقي، بمتطلباتك الحقيقية وحاجاتك وأولويات حياتك..

عندها فقط ستتمكن من الوصول إلى الطور النهائي.. طور ذي القرنين، طور التوازن الذي لا ينفي الروح والإيمان بالغيب، ولا يهمش المادة فيدعي احتقارها كسلاً وخمولاً..

أي شيء آخر سيكون قسمة ضيزى عليك أن ترفضه.

هذه المراحل هي قصة حياتك لو أنك قررت ذلك..

فهل أنت في الكهف؟.. أم أنك لم تدخله بعد أصلاً؟..

زائر الفجر

كشّاف الضوء يسطع أمام عينيك.

الغرفة مظلمة، وذلك يزيد من سطوع الضوء أمامك.

لا ترى وجهاً خلف الضوء، لكنك تحس وجوده، تكاد تشعر بأنفاسه.

تشعر أن هناك جهاز تسجيل يسجل كل ما يدور، تكاد تسمع صوت البكرة وهي تدور.

الصمت الذي يغرق المكان يوترك، تشعر أن دقات قلبك صارت مسموعة، وأن أنفاسك صارت أقرب إلى اللهاث، كما لو أنك كنت تركض منذ قرون..

في معصميك أسلاك تمتد إلى جهاز ما، لا تستطيع أن تتبين شكل الجهاز في تلك الظلمة.. لكنك تعرف أنه لا بد أن يكون جهازاً لكشف الكذب.

على الطاولة أمامك مجموعة من الأوراق ومعها قلم، تنظر إليها بجزع، أنت تعرف أن فيها أسئلة ما، وتخاف أنك ستضطر إلى أن تعترف بما لا تود أن تعترف به.. وتوقع على اعترافاتك بهذا القلم.

لم يسيء أحد معاملتك حتى الآن، لكنك خائف جداً أن يفعل أحد ذلك، تخاف أن تمتد يد ما من خلف الظلمة وتقوم بتوقيع على خدك، عبر (صفعة) ما..

خوفك وترقبك يجعلك هشاً وعرضة للانهيار بسرعة..

تكاد تشعر أن أعصابك صارت كتلة مشتعلة، ستنهار فور أن يطرح عليك السؤال الأول.

عبر الضوء، نحو الظلمة، تتجه عيناك بترقب وجزع نحو ذلك الفراغ الذي ستصدر منه الأسئلة.

تشعر بأن أذنيك صارت مثل عضلة تتحرك بإرادتك، وهاهي تتجه هناك، نحو الظلمة.. بين الخوف والترقب، تريد أن تلتقط السؤال الأول..

ثم سيأتيك السؤال الأول..

لن يكون سؤالاً عن اسمك، أو عمرك، أو مهنتك، أو محل إقامتك.

كل تلك الأسئلة، رغم أنها شخصية جداً، إلا أنها ستبدو رسمية وعامة تماماً، أمام ذلك السؤال الأول.. الذي سيصدمك في هذا الاستجواب.

سيأتي السؤال حاسماً، صادماً ليسألك بلا مقدمات غير مقدمات الترقب والجزع التي وضعك فيها.

سيسألك سؤالاً شخصياً جداً، حميماً جداً، ما توقعت قط أن يبدأ الاستجواب به.

سيكون السؤال: هو ﴿ أَفَرَءَيْتُم مَّا تُمْنُونَ ﴿٥٨﴾ ﴾ [الواقعة].

★ ★ ★

إنه القرآن، هو الذي يستجوبك هذه المرة.

ليست فكرتنا عن الاستجواب أنه من الممكن أن يصدر منه.

لكنه يستجوبنا، يستدرجنا، يضعنا تحت سيطرته ويلح علينا بالأسئلة، يضع في معاصمنا أجهزة كشف الكذب.

نعم القرآن يستجوب، رغم أننا قولبنا على أنه لن يفعل ذلك، وأنه لم ينزل من أجل ذلك..

لكن، هاهو ذا، وضعنا أمام ضوئه الكشاف الساطع، وانطلق يسألنا ويستجوبنا..

«أفرأيتم ما تمنون؟»

حميمية الموضوع ستزيد من اضطرابك، وأنت مضطرب أصلاً..

والتساؤلات بدأت بهذا السؤال الشخصي جداً، الشخصي أكثر من المتوقع.

السؤال يخص موضوعاً حمياً وشخصياً ومحرجاً.. وها أنت تتجرد من كل شيء أمامه، وهاهو يخترق أعماقك ليصل إلى أصل الأمر.. المني...

«أفرأيتم ما تمنون؟»..

لا غالباً لا.. إنه سؤال يضم كل تلك الأسئلة الأخرى، السؤال عن ماء الحياة يضم السؤال عن اسمك وعمرك وتاريخك الشخصي كله.. فهذا السائل يضم قصة السلالة كلها، يضم تاريخك وتاريخ أجدادك كلهم..

«أفرأيتم ما تمنون؟»، السؤال هنا لا يخص دفقة مني عابرة قد تثمر جيلاً لاحقاً أو قد تضيع هباءً منثوراً.

السؤال هنا يخص قصة البشرية كلها ممثلة في دفقة مني واحدة..

ما كان لهذه البشرية أن تستمر، لولا هذا المني.

الذي يبدأ الاستجواب منه..

يقتلعنا الاستجواب في لحظة ضعف تجعلنا أكثر فأكثر ضعفاً، وأكثر عرضة للانهيار.. وأكثر عرضة لإجابة صادقة أمام أسئلة أخرى.

إنها لحظة الضعف الخاصة الحميمة التي ما كان يمكن لكل تلك القوة التي مثلتها الإنسانية أن تكون لولاها...

إنه الضعف الذي يساهم في إنتاج القوة.

إنه التناقض الذي يسود هذه الحياة لينتج الحياة من الموت، والسعادة من البؤس، والقوة من الضعف..

إنها لحظة ضعف مررنا ونمر بها جميعاً لكي نستمر..

لحظة الضعف هذه هي قاسم مشترك يمتلكه البشر أجمعين بغض النظر عن لونهم أو عرقهم أو انتمائهم الحضاري والاجتماعي..

يشترك فيها ذاك الذي يرتدي أفخر الثياب ويسكن أغلى المساكن وأكثرها ترفاً في سويسرا...

ويشترك فيها فقير معدم يعيش في هضبة التيبت.

ويشترك فيها البدوي.. الجاهل والعالم، عالم الذرة، ورجل الفضاء، رجل العصر الحجري، ورجل العصور القادمة..

كل هؤلاء يمكن أن تتغير الكثير من تفاصيل حياتهم، بل إنها فعلاً تختلف حتى لا تكاد تتشابه في شيء...

وربما يطرأ التغير في المستقبل أكثر، ليطال أموراً أكثر تعقيداً.. لكن هذا الذي يطاله الاستجواب هنا سيظل ثابتاً دون أدنى شك..

ستظل لحظة الضعف هذه قائمة، في صلب كل إنسان، في جوهره، ما دام لا يزال إنساناً، ما دامت بقيت فيه بقية من إنسانية، ولم يتحول ليصير روبوتاً مسيراً.

لحظة الضعف هذه قد تختلف أيضاً لكنها ستظل مميزة بكون الإنسان يظل ضعيفاً أمامها.

قد تختلف مقدماتها، ومحيطها، والديكور المحيط بها..

لكنها ستظل تلك اللحظة الخاصة..

قد تكون لحظة مرغوبة، يُنفق عليها الأموال الطائلة، وتذوب شمعة العمر في انتظارها بين مشفى وآخر، وطريقة علاج وأخرى..

من أجل أن تثمر لحظة الضعف هذه، وتنتج طفلاً يملأ بيتاً فارغاً فرغ صبره في انتظار من يلعب ويتراكض فيه..

وقد تكون لحظة لم تحسب نتائجها بدقة، وتنتج طفلاً يترك في المشفى أو على باب الميتم..

قد يكون مجرد ثمرة أخرى، تنتج لتنضم إلى صف الأطفال الذين يكبرون لينضموا إلى طابور العاطلين عن العمل، طابور الضحايا..

أياً كان..

إنها تلك اللحظة الخاصة التي نعبر منها نحو وجودنا...

★ ★ ★

عبر التاريخ، كانت لهذه اللحظة أهمية خاصة، حتى على الصعيد الاقتصادي الذي ترك أثراً على كافة النواحي..

كان تكرار تلك اللحظات، في عائلة واحدة، أو قبيلة واحدة، يعزز وجودها الاقتصادي والسياسي والاجتماعي..

ففي وقت ما، كان التطور الاقتصادي يعتمد على عدد الأيدي المتوافرة.. سواء من أجل العمل والإنتاج الزراعي، أو من أجل القتال أو حتى من أجل الصيد والاقتناص.

أن يكون لديك «أيدٍ أكثر» يعني أن تكون أقوى وأوفر إنتاجاً وأكثر قدرة على الدفاع عن كل ذلك.

لقد كانت تلك اللحظة إذا مهمة جداً في تطور الحضارة الإنسانية..

ولذلك كان التساؤل هذا هو أول ما افتتح به الاستجواب، ما كنتم لتصلون إلى هنا حيثما كنتم لولا هذه اللحظة: أفرأيتم ما تمنون.

فهل تغير الأمر مع تغير طبيعة الإنتاج وعلاقاته؟

لا لقد تغيرت طبيعة الإنتاج ومظاهره وعلاقاته..

لكن لم يتغير الأمر..

فما إن تثمر تلك اللحظة، حتى تعمد تماماً في سياق الاحتفال الاستهلاكي وما إن يرى الطفل النور حتى يصبح عضواً مهماً في نادي الاستهلاك خلاله تدور دوائر المصانع وتهب الأرباح في جيوب الملأ العالمي..

منذ اللحظة الأولى، بل حتى قبلها، ينضم هذا الطفل - ثمرة تلك اللحظة الخاصة - إلى طابور المستهلكين بحاجات ستبدو كما لو كانت أساسية وضرورية ولا غنى عنها.. وسيعكس ذلك أهمية هذا الطفل في استمرار عجلة الاستهلاك في الدوران..

لقد تغيرت طبيعة الإنتاج إذا ولعلها ستتغير أكثر..

لكن تلك اللحظة الخاصة ظلت مهمة، ومهيمنة..

وظل الإنسان أمامها عاجزاً..

وسيظل كذلك !

★ ★ ★

«أفرأيتم ما تمنون؟»

قد يكون مسفوحاً بلا اهتمام، وقد يكون موضوعاً في أنبوب مخبري معقم وينتظر معالجات ما في أجهزة معقدة.

قد يكون قسراً، في ظلم واغتصاب، في حروب ونزاعات، وقد يكون مباركاً برغبة متبادلة، تحقيقاً لحلم طالما راود الشريكين، وفي كل الأحوال إنه نفس السائل الذي يتم استجوابنا عنه..

إنه السـائل الذي كنّاه ذات يوم.

السائل الذي سيصير إنساناً، ويضم في ضعفه إمكانات قوتنا وضعفنا ورفعتنا وسقوطنا..

«أفرأيتم ما تمنون؟»

لحظتها لا، لا أحد يفكر بذلك.

لكن لو فكرنا الآن ونحن نخضع لهذا الاستجواب، سنرى أن حكايتنا كلها، وحكاية أحفادنا ستحددها تلك اللحظة..

هل سنحاول أن نرى.. هل سنحاول أن نتوقف للحظة، في خضم ذلك الزلزال، أن نرى أن نتأمل..

أن نفكر في حقيقة ضعفنا، في حقيقة وضعنا الإنساني الأول.. أفرأيتم النشأة الأولى.

كل ذلك لا نراه، ونحن هناك، على تخوم اللذة والانتعاش، لكن عدم رؤيتنا له لا ينفي وجوده.. ولا ينفي أنه يحدث فعلاً بينما نحن لاهين عنه..

نحن لا نرى ولا ننتبه لنشأتنا الأولى هذه.. لكنها نقطة انطلاقنا، كل ما نحن عليه الآن من مراكز وشهادات مناصب ووظائف، من رصيد وأموال.. كل ما نحن عليه، كل ما نحن هو نحن الآن ما كان ليكون لولا نقطة مني صغيرة... كانت قبل أن نكون.

أفرأيتم؟

أفرأيتم ذلك السباق الذي يحدث، بينما أنتم بين اللهاث والارتياح..

ما إن يحدث ذلك، حتى يحدث ذلك السباق الكبير، بين ملايين الحيامن، وصولاً نحو تلك البويضة التي تختزن الجانب الآخر من الحكاية..

ملايين الحيامن، كلها هي أنت، كلها تحكي جانباً من قصة السلالة.. لكن واحداً فقط، حيمناً واحداً فقط، سيخترق الجدار الحصين ليحدث ذلك الالتحام الذي سينتج عنه حياة جديدة.

حيمن واحد، قد يحمل ضعفك، أو ضعف جد من أجدادك، أو قد يضفي طفرة واسعة ليحقق سمواً ما، تفوقاً ما، أو عيباً ما، مرضاً ما.. حيمن واحد هو الذي سيصل الهدف، ويضع رايته على سطح القمر العالي هناك..

حيمن واحد – من بين الملايين – سيفعل ذلك، ويحقق تلك المعجزة التي تحصل كل يوم مئات آلاف المرات..

لكنّا لا نراها..

تلك هي مشكلتنا..

وهذا السؤال، ونحن تحت الاستجواب، والضوء الساطع أمامنا.. يضعنا كل هذا الجو.. أمام تلك الحقيقة، أمام تلك المعجزة التي لا نراها..

أفرأيتم..

★ ★ ★

إنها صورنا الأولى جميعاً، سنكون متشابهين فيها جداً للعين المجردة، وقد تبدو متشابهة إلى حد ما تحت المجهر حتى..

لكنها صورتنا الأولى شئنا أم أبينا.. هي صورتنا الأولى.. رغم كل الاختلافات التي ستطرأ لاحقاً، رغم أننا نقضي حياتنا في تغييرها، في التمييز، في أن نضفي عليها أشياء وأشياء إلى أن تصير صورتنا الحالية..

لكن شيئاً لن يغير تلك الصورة، النشأة الأولى التي نتهرب من النظر إليها..

والتي يعيدنا إليها السؤال الأول..

هذا هو السؤال الأول، الذي يضعنا في مناخ معرض لكل التساؤلات التالية :

إننا محض نقطة مني كان يمكن أن لا تفوز في السباق.

محض نقطة عابرة «قُدِرَ» لها أن تصل إلى ما لم تصل إليه مثيلاتها من النقط..

قد يقولون إنها الصدفة.. وسنقول إنه القدر، إنه القدر الذي جعلك على أول السكة..

ولكن، وها أنت الآن تحت الاستجواب وقد عرفت أنك نقطة..

فهل ستحاول الهرب من الأسئلة التالية؟

أين تذهب هذا المساء؟

عالم اليوم يتميز بزحام غير طبيعي في كل شيء..

.. زحام من المعتقدات، من الأفكار، من الآراء، زحام من الخيارات، زحام من البشر، من العلاقات.

زحام من الطرق، ومن الاتصالات.. ومن الإشارات التي تروج لطريق والتي تدل على آخر..

عالم اليوم، ممكن جداً أن يوصف بأنه عالم مزدحم جداً.

.. ولأنه مزدحم فإن الأشياء تضيع فيه..

كما يحدث معك شخصياً عندما تضيع أهم أوراقك الثبوتية إذا راكمت حولها وفوقها وتحتها الصحف والمجلات وأوراقاً أخرى من كل نوع ولون..

.. وعالمنا اليوم كذلك مزدحم بكل ما هو غث وسمين، ولعل ما غث فيه أكثر من السمين..

ولكن الغث، إذا زاد، سيغطي على السمين..

ولن تنتبه أصلاً، لوجود شيء «سمين» ، بينما الغث يغطي على كل شيء..

★ ★ ★

.. أكثر من هذا، إن عالم اليوم مزدحم، لدرجة أنك قد تضيع فيه نفسك، إنه مزدحم بأشخاص ونماذج وأمثلة تكاد تخترق ذاتك وتحل محلك وتوهمك بأنك هي وأنها أنت..

.. عالم اليوم مزدحم لدرجة أنك لم نعد تعرف من أنت، ولا أين أنت».. ولا تعرف أين ستكون جهتك..

عالم اليوم مزدحم لدرجة أنك تحتاج إلى«بوصلة»تحدد لك مكانك..

وتقول لك أين أنت الآن..

وإلى أين يجب أن تذهب..

★ ★ ★

ولأن الزحام هو الوضع الذي تعودنا عليه، فإننا لم نعد نشعر بشذوذ هذا الشيء أو نشوزه..

لم نعد نفتقد الأشياء المهمة التي أضاعها الزحام، لأننا أصلاً لا نعرف بوجودها..

كيف سنبحث عن شيء نجهل وجوده أصلاً؟؟.

.. هذا هو الذي حدث معنا.

لقد أضعنا كل ما هو مهم، في زحام كل ما هو غير مهم.

★ ★ ★

.. ومن أهم ما ضاع، بل ربما أهم ما ضاع، شعورنا بالاتجاه، شعورنا بالمكان الذي نروم الذهاب إليه..

لقد فقدنا إحساسنا بضرورة أن نسيطر على «الدفة» - المقود -، وفقدنا أصلاً الإحساس بوجود مقود..، ضاع هو الآخر في زحام الأشياء السخيفة حوله وفوقه..

.. ولأننا لا نعرف أصلاً أن هناك مقود، فإننا نترك السفينة تجري كما تشتهي الرياح، نترك التيار يأخذنا إلى أين يريد، شرق، غرب، شمال، جنوب.. أو لا مكان على الإطلاق..

.. لكننا مستسلمون تماماً، لأننا نعرف أصلاً أن الدفة يمكن أن تكون بأيدينا..

★ ★ ★

.. وإذا حدث ووجدنا الدفة، ولو بطريق الصدفة، فإننا لن نعرف ماذا سنفعل بها..

فلقد تعلمنا أن نخوض مع الخائضين، ونترك القطيع ينساق للطريق، وفقدنا أي إحساس بالاتجاه، باستنزاف الهدف النهائي في الطريق..

.. إننا لا نعرف: ماذا نريد..

ولا نعرف، أين نريد..

★ ★ ★

• فلنسأل أنفسنا هذا السؤال، ماذا نريد؟ وأين نريد الذهاب؟ إذا فرضنا أن المقود سيكون في أيدينا..

بل إن السؤال موجود أصلاً ومطروح علينا، وأي سؤال ينتظر الإجابة، ولكن مرة أخرى، أضعنا السؤال في زحام الأشياء.. ولذلك لم نبحث عن جواب، لأننا لم نجد السؤال أيضاً..

طرح علينا الخطاب القرآني هذا السؤال بصيغة شديدة الوضوح :

قال: ﴿فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ ﴿٢٦﴾﴾ [التكوير]..

السؤال واضح: أين تذهبون؟.

لكن الزحام يجعلنا لا نركز ولا ننتبه، ويطفو على سطح الأشياء ما هو أقلها وزناً، وربما أقلها أهمية.

كل ما نعرف عن هذا السؤال، هو أنه يعني «أنه لا مفر»!!.

لكن القرآن يستفزنا: أين تذهبون؟..

هل نعرف حقاً أين نريد أن نذهب؟. هل نعرف كيف نصل إلى المكان الذي نريد أن نذهب إليه؟. هل نعرف كيف نصل من المكان الذي نحن فيه إلى المكان الذي نريده؟..

وهل نعرف أين نحن أصلاً؟..

«فأين تذهبون؟؟».

الجواب على هذا السؤال يستلزم أن نعرف الجواب عن كل هذهِ الأسئلة المتضمنة فيه..

أن نعرف كيف نقود، أين نذهب، وأين نحن بالضبط.

★ ★ ★

.. ولو أننا حاولنا أن نسأل أنفسنا هذا السؤال..

لوجدنا أننا لا نعرف الجواب..

فأين تذهبون؟؟

والفاء هنا موجودة كما لو أنها «تستأنف» حواراً موجوداً دوماً، ستظل الفاء موجودة مع السؤال، فأين تذهبون؟ سيظل السؤال مستمراً، مستأنفاً.. سيظل مطروحاً علينا من كل الجهات، وفي كل الموضوعات، وخلال كل النقاشات..

.. فأين تذهبون؟.

★ ★ ★

فأين تذهبون حقاً إذا؟.

هل سألنا هذا السؤال؟. هل ندرك أين يقودنا الطريق؟.

هل اخترنا طريقاً ما بملء إرادتنا؟. أم أننا وجدنا طريقاً يسلكه الناس فسلكناه معهم - حشر مع الناس عيد..

لكن هل حقاً يستقيم هذا المنطق، منطق حشر مع الناس عيد؟.

هل يمكن لنا أن نستمر في طريق ينتهي إلى الهاوية، لمجرد أن الكل قد سلكوه؟.

.. هل يمكن لنا أن نستمر في طريق سينتهي إلى قعر سحيق، لمجرد أن قطيعنا اختار الانتحار؟؟..

.. لم يطرح السؤال أصلاً، كما أشرنا منذ البداية، فزحام الأشياء جعل غريزة القطيع هي التي تقودنا..

.. ولو أن شيئاً ما، أوقفنا بشدة، وقال، بصرامة «قف!»..

ووجه لنا السؤال بشدة، لربما انتبهنا إلى أن مقودنا ليس بأيدينا..

★ ★ ★

.. والقرآن، يوقفنا، يمسك كل واحد منا من ياقة قميصه، يهزه بشدة، ويسأله: فأين تذهبون؟..

.. ولا يحدث ذلك ضمن سياق يتحدث عن الأمر، فالسياق كان.. ﴿ وَلَقَدْ رَءَاهُ بِٱلْأُفُقِ ٱلْمُبِينِ ﴿٢٣﴾ وَمَا هُوَ عَلَى ٱلْغَيْبِ بِضَنِينٍ ﴿٢٤﴾ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَٰنٍ رَّجِيمٍ ﴿٢٥﴾ فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ ﴿٢٦﴾ ﴾ [التكوير]..

ولكن هذا السؤال هو خارج أي سياق، إنه السؤال الذي يمكن أن يجد مكانه داخل أي سياق مهما كان، لأنه سؤال يتعلق بالرؤية الكاملة للحياة، لأنه سؤال يتعلق بكل القضايا الكبيرة المهمة، ولذلك فهو يجد مكانه في كل سياق حتى لو كان سياق تفصيلات صغيرة، ما دامت ترتبط، في النهاية، بالحياة..

.. من ياقة قميصك، يهزك القرآن، ويسألك: فأين تذهب؟.

★ ★ ★

.. تقليدياً، لو أننا أجبنا عن السؤال، وانتبهنا إلى وجود سؤال، مستمد من الخطاب القرآني، لكان الجواب شيئاً يدور حول محور «الذهاب إلى الجنة».. باعتبارها المقصد النهائي لكل مؤمن..

كيف؟..

سيكون هناك أجوبة أخرى عن تقوى الله والالتزام بطاعته وتجنب نواهيه..

لكن ذلك كله سيكون عمومياً جداً، لا يخلو من غموض وإبهام..

.. ويحتاج الأمر إلى تعمق أكبر، لنفهمه كما هو حقاً..

★ ★ ★

على عكس ما يبدو للوهلة الأولى، فإن الرغبة في «الذهاب إلى الجنة» ليست ناتجة عن تلقين تقليدي للفكرة وترسيخها عبر تكرار وسائل التربية أو وسائل الإعلام في فترة التكوين الطفولية الأولى..

أبداً.. فكرة الجنة أعمق من ذلك، وأقدم من ذلك، وأعرق من ذلك..

فكرة «الذهاب إلى الجنة» تسبق التربية، وتسبق الإعلام، تسبق حتى اللغة..

فكرة الذهاب إلى الجنة موجودة فينا، قبل أن نكون !.

★ ★ ★

.. من بين المشتركات والثوابت المشتركة القليلة الموجودة بين الحضارات الإنسانية المختلفة، فإن فكرة الجنة ستكون واحدة من بين العوامل القليلة شديدة التميز والثراء..

في كل الحضارات التاريخية، حتى تلك التي لا تملك ديناً كتابياً، حتى تلك التي تفصلها عن حضارات العالم القديم محيطات وبحار، ولم توجد بينها قنوات اتصال يمكن أن تنتقل من خلالها الأساطير، حتى تلك الحضارات الموغلة في القدم، تملك، في تراثها، في ذاكرتها، جنة ما، بشكل أو بآخر، بتغير في التفاصيل، باختلاف في صورة هذه الجنة، في طبيعة نعيمها..

ولكن دوماً هناك تلك الجنة.. قاسماً مشتركاً بين كل حضارات الإنسانية، على قلة وندرة تلك القواسم.

ولكن تلك الجنة، المختلف في تفاصيلها، تمتلك حكاية أخرى مشتركة.. تملك فصلاً نهائياً يجمع بين ورثة تلك الحضارات..

الجنة لم تكن جنة فقط بالنسبة لمجموع الإرث الإنساني. بل كانت جنة طردنا منها.

كانت جنة فقدناها، لسبب أو لآخر، وخرجنا منها، ذات ليلة، ذات مساء، ذات خطيئة.. ذات ذنب..

.. لقد كانت جنة خسرناها، وذلك يجعلها أكثر بريقاً..

★ ★ ★

.. وعندما تفقد الشيء، فإنك تظل تحن إليه، وتحس بقيمته أكثر مما كنت تشعر بأهميته عندما يكون في حيازتك..

.. يحدث ذلك حتى مع أبسط الأشياء في حياتنا، ما يكون مملاً ومضجراً وباعثاً على التذمر، يصير مثيراً بهيجاً عندما نفقده..

ما يكون مراً في اجتراره وتحمله، تصير ذكراه حلوة..

المرأة التي تتذمر من زوجها طول الوقت، تندبه طول العمر عندما يتوفى.. وتصير ذكراه حنونة وأجمل من الواقع المُعاش..

هذا مع أبسط الأشياء الدنيوية حولنا.

فكيف إذا كان الوقع المعاش جيلاً فعلاً، ومتوازناً فعلاً، خصوصاً إذا قورن بما بعده.. بما بعد فقدانه وخسارته.. عندها ستكون الذكرى متوهجة أكثر بالمقارنة، سيعطي واقع الخسارة إضاءة جديدة لتفاصيل الماضي، سيعطي ألم الفقدان غصة تزيد من ألق الماضي وسحره..

.. وهكذا نحن مع تلك الجنة.

لا يتعلق الأمر بحكاية سمعناها في طفولتنا وكبرنا على سماعها..

بل يتعلق الأمر بشيء أعمق من ذلك.

يتعلق بذكرى لما قبل الولادة، يتعلق بأمر ربما تعودنا أن نسميه «فطرة» ونحن لا نعرف بالضبط ما هي، لكن الآن، ونحن نعرف عمق الأمر، عمق يتحدى التاريخ والذاكرة الشخصية، فإننا نهجس أن الفطرة هنا، شيء موجود في كل فطر وتشقق ومسام في دواخلنا..

يتعلق الأمر بحقيقة عميقة في داخلنا: حقيقة حنيننا واشتياقنا إلى مكان بعيد وموغل في القدم، نسميه الجنة، قد تكون ذكراه غامضة وغائمة ومبهمة..

لكنها موجودة..

ولو أزحنا بعض ما تراكم - عبر زحام الأشياء - لتوضحنا الصورة أكثر.

ولكان جوابنا عن السؤال، أكثر سرعة ووضوحاً.

.. فأين تذهبون !

فأين نذهبون؟؟

نعرف الآن أين نريد أن نذهب..

نريد أن نعود أدراجنا، نريد أن «نرجع» هناك. نريد أن نرجع لمكان كان أكثر راحة وكنا نشعر أكثر بالأمان..

إنه المكان الذي سبق أرحام أمهاتنا..

وتفوق عليها دفئاً وحناناً وأماناً..

★ ★ ★

نعرف إذاً، بشكل غامض، أين نريد الذهاب..

لكن لا بد أن نعرف كيف..

لابد من آليات.

لابد من دليل يقودنا إلى الدرب المؤدي هناك..

لابد.. من تتبع الخطوات التي خرجت من هناك..

لابد من تتبع «الآثار»!.

★ ★ ★

على الأرض، لو دققنا جيداً، وأزحنا التراكمات والترسبات، توجد آثارٌ دوماً..

آثار خطوات، رواحاً وغدواً، ذهاباً ومجيئاً..

الأرض تحتنا مليئة بذلك، كل أثر يحكي قصة مختلفة.. كل أثر يحكي عن محاولة مختلفة..

بعض الآثار تتجه إلى الهاوية، وبعضها تدور على نفسها دوراناً مفرغاً.

.. بعض الآثار تروح وتجيء بلا خطة واضحة، وبعضها تمشي على غير هدى..

.. بعضها تسير على آثار القطيع، آثار الآباء ﴿إِنَّهُمْ أَلْفَوْا ءَابَآءَهُمْ ضَآلِّينَ ﴿٦٩﴾ فَهُمْ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ يُهْرَعُونَ ﴿٧٠﴾﴾ [الصافات] ..

وبعضهم سيكون على هدى، ويحاول أن يقتفي.. ﴿وَقَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٦﴾﴾ [المائدة].

.. والحل الوحيد، للخروج من متاهة الآثار، هو أن نبحث عن آثار الخروج..

.. وأن نسير خطوة، خطوة، عودة إلى الوراء..

فأين تذهبون؟؟..

الآن نعرف !.

آدم

.. كل حكايتنا بدأت معه..

.. هو يختصرنا جميعاً.

ونحن - جميعاً - بالكاد، صورة عنه..

بدأنا معه.. وحتى عندما مات، استمر عبرنا نحن..

وعندما نموت، سيستمر هو عبر أولادنا، وعبر أولاد أولادنا..

مهما حاولنا - لا يمكن لنا أن نكون إلا عبر أن نكون جزءً منه..

إننا محض تنويعات على بصمتِهِ هو..

.. وبصمته تشمل كل تفاصيلنا..

إنه آدم..

الإنسان الأول !.

وأول إنسان هو..

وأول من كان في الجنة هو..

كما أنه أول من خرج من الجنة..

.. وآثار خطواته - خروجاً من الجنة - هي أولى خطوات تركت على الأرض..

.. وإذا أردنا أن نرجع إلى الجنة، فإن آثاره هي الأولى أن تُتَّبع..

.. وأن نعكس السير، عودة بدلاً من الخروج..

لعل آثاره، آثار آدم، تكون مثل الحصى الصغيرة التي تركها وهو يخرج، ليستدل عليها أولاده من بعده عندما يرومون العودة..

عندما يواجههم فهم جديد لسؤال «فأين تذهبون؟»..

★ ★ ★

فلنتابع ما نعرف من معلومات.. ونحولها إلى آثار وحصى وخطوات تعيننا في الخروج من متاهة التفاصيل.. وزحام الخيارات الخاطئة.

.. ﴿ وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ (٣٥) فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ (٣٦) فَتَلَقَّىٰ آدَمُ مِن رَّبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (٣٧) قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (٣٨) ﴾ [البقرة]

.. ﴿ وَيَا آدَمُ اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ (١٩) فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِن سَوْآتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ (٢٠) وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ (٢١) فَدَلَّاهُمَا بِغُرُورٍ فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ الْجَنَّةِ وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا الشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ (٢٢) قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ (٢٣) قَالَ اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ (٢٤) قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ (٢٥) ﴾ [الأعراف ١٩-٢٥]

..﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ ﴿١١٦﴾ فَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ إِنَّ هَٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰٓ ﴿١١٧﴾ إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ ﴿١١٨﴾ وَأَنَّكَ لَا تَظْمَؤُا۟ فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ ﴿١١٩﴾ فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ ٱلشَّيْطَٰنُ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ ﴿١٢٠﴾ فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ ۚ وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ ﴿١٢١﴾ ثُمَّ ٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ ﴿١٢٢﴾ قَالَ ٱهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًۢا ۖ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴿١٢٣﴾ ﴾ [طه]..

.. هذه الآيات، لو أننا نظرنا إليها بشكل مختلف لوجدنا فيها علامات وآثار، وحصاة هنا، وأخرى هناك.. تساعدنا على تلمس الطريق..

في الجنة هناك، كان هناك مجتمع «مستقر» يعيش حياة نعمة ورغدة، بالمعنى المفتوح لكل المعاني..

لفظة السكن التي وردت مرتين في الخطاب القرآني وهو يحدثنا عن آدم، تذكرنا هنا، بينما نبحث عن الحصى والآثار، بالمعنى الأصلي للجذر (سكن) - إنه ليس المسكن بمعنى المنزل - أو العنوان البريدي الذي يكاد ينقرض مع طغيان العناوين الإلكترونية وانتشارها.. لكن الجذر الأصلي الذي من أجله نحتت كلمة المسكن..

إنها السكينة، إنه التصالح مع الذات، مع النفس.. وأيضاً مع الآخرين.. إنه التصالح والسكينة الذي يلم أطراف الجميع ويجمعهم تحت خيمة واحدة، في مجتمع واحد..

إنه مجتمع متصالح مع نفسه، دون صراع ينهشه من الداخل..

★ ★ ★

لكن كيف صار هذا المجتمع متصالحاً مع نفسه؟؟..

يجيبنا القرآن، حتى قبل أن نسأل.

إنه العيش الرغد.

إنه «كلا من حيث شئتما» التي توضح المعنى قبل حتى أن نسأل.

لا ينتج الصراع - في جذوره الأصلية - إلا إذا كان هناك تنافس بين أفراد المجتمع على هذا الأمر..

لكن مجتمع الجنة الأولى كان فيه العيش الرغد الذي يسع الجميع «كلا من حيث شئتما..».

لذلك فإن العيش الرغد - ألغى الصراع..

.. وركز السكينة !.

★ ★ ★

هل كانت الجنة إذا مرتعاً لكل ما يخطر، وما لا يخطر، ببال أحد؟.

.. وإذا كانت كذلك فعلاً - فكيف يمكن لنا أن نستفيد من ذلك؟.

ونحن نعلم صعوبة أن نوفر ذلك لكي نصل إلى السكينة والاستقرار..

.. هل كانت كل الرغبات في هذهِ الجنة محققة؟. وكل ما تتمناه تحصل عليه؟؟.

للوهلة الأولى سيبدو أن جنة آدم كانت هكذا فعلاً لكن الرؤية من الجهات الأربع ستغير هذهِ النظرة.. وتجعلها أكثر ثراءاً وانسجاماً.

فالنص في سورة طه، يحدد بالضبط (ماهية) هذهِ الحاجات التي امتلأت الجنة بها..

﴿ إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ ﴿١١٨﴾ وَأَنَّكَ لَا تَظْمَؤُا فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ ﴿١١٩﴾ ﴾ [طه].

.. الجوع والعري والظمأ والأذى من تقلبات الجو..

هذهِ هي جنة آدم: وهذهِ هي الحاجات التي سدتها إذا، حاجات أساسية، حاجات المعايش الرئيسية التي لا يختلف إثنان على أولويتها على ما سواها من حاجات مفتعلة أو مكتسبة..

السكن، الغذاء، الماء، الملبس..

هذهِ هي الحاجات الأساسية عبر تاريخ التجربة الإنسانية بأسرها حتى اليوم، هذهِ هي الحاجات الأساسية حتى بمنظورنا المعاصر جداً، حتى بمفهوم الأمم المتحدة والمؤسسات الإنسانية التابعة لها.

لا تزال هذهِ الحاجات الأربع، هي مقياس الحاجة الإنسانية المعتمدة عند قياس الفقر، في هذا العالم الذي ازداد تقدماً وثراءاً وفحشاً.. ولكن ازداد فقراً..

★ ★ ★

إذن جنة آدم، هي ليست جنة المزيد والمزيد.. وهي ليست جنة الميعاد، التي فيها ما لا عين رأت ولا إذا سمعت ولا خطر على قلب بشر..

.. إنها جنة مجتمع متوازن أولاً - ويتمتع بالحاجات الأساسية ثانياً.. وربما كان الأمر الأول مرتبطاً بالثاني، التوازن والاستقرار والسكينة تولد من سد الحاجات الأساسية.. التوازن كان متولداً من الاقتصار على تلك الحاجات.. وعدم الركض خلف رغبات استهلاكية مفتعلة، وتحويلها إلى حاجات مقدسة.

.. إنه مجتمع يهدف أولاً إلى سد الحاجات الأساسية للمجتمع وكل ما خلف ذلك يأتي فيما بعد على سلم الأولويات..

وهنا نقطة التوازن، والاستقرار.. والسكينة !.

يلفت النظر أيضاً، في النصوص القرآنية، أن جنة آدم ومجتمعه الفردوسي لم تكن جنة خالية من المحرمات التي ستصير حلالاً في جنة الميعاد..

.. جنة آدم، ليست بلا «حرام» و«حلال».. كما ستكون الجنة الأخرى، التي سيعوض فيها الفائزون بكل ما حرموا أنفسهم منه في الدنيا..

أما جنة آدم، فهي تختلف عن ذلك بأنها تملك حراماً واضحاً بيناً..

﴿وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٩﴾﴾.[الأعراف].

هذه الشجرة المحرمة، ارتبطت في أذهاننا بكل ما لا علاقة له بالواقع، فقد عملت الرؤية الهوليودية للقصة على طمس القضية برمتها.. فصارت الشجرة المحرمة، رمزاً للجنس، وصارت الشجرة شجرة التفاح، وصارت تفاحة آدم رمزاً لأساليب الغواية والمكر.

كل هذا كان ظلماً وبهتاناً.. ولا يوجد أي نص ديني - قرآني أو توراتي - أشار إلى ذلك تلميحاً أو تصريحاً..

ولو كان الأمر له علاقة بذلك، لما تحاشاه النص القرآني الذي تعمق في كل ما يستوجب التعمق، حتى لو كان في أمور كهذه..

إذا.. لم تكن الشجرة المحرمة رمزاً للغواية..

فماذا كانت إذا؟.

لماذا كانت هناك شجرة محرمة أصلاً في الجنة؟.

لماذا يكون هناك حرام في الجنة؟.

ولماذا يكون هناك «لا تقربا هذه الشجرة» مقابل «كلا من حيث شئتما»..

ربما لم تكن الشجرة سوى شجرة أخرى، بين آلاف الأشجار في الجنة الغناء.

وربما لم تكن تفرق عن أي شجرة أخرى، من أي ماهية على الإطلاق

.. وربما لم تكن الشجرة محرمة لذاتها.. ولم تكن المسألة في ذات الشجرة وماهيتها وثمرتها..

.. بل في فكرة الحرام نفسها..

فكرة الحرام نفسها هي المقصودة !..

وجود (حد) محرم، وجود شيء محرم هو المقصود..

.. هنا تبرز فكرة وجود شيء محرم، حد لا يجوز انتهاكه، كعامل أساسي من عوامل الاستقرار والسكينة في المجتمع..

إنه أثر آخر نتبينه ونحن نتحسس الخطوات..

هنا علامة مهمة على الطريق، وليس مجرد أثر..

الحرام وفكرة الحرام، هي الحد الفاصل الذي يتأسس عليه استقرار المجتمع وتوازنه.. حتى لو كان هذا المجتمع مكوناً من آدم وزوجه فقط.

يشكل الحرام، الممثل هنا في الشجرة، **(كابحاً) لا غنى عنه في استقرار أي مجتمع**.. والحفاظ عليه من السرعة الفائقة التي قد تلحق به الضرر وقد تؤدي به إلى الاصطدام بها لن تحمد عقباه..

السيارة، أي سيارة، مهما كانت فخمة وحديثة وفارهة، وتسر الناظرين إليها، ستحتاج إلى الكوابح بقدر ما تحتاج مبدل السرعة ومدوس البنزين..

الكوابح ستوفر الأمان، وستوازن السرعة الفائقة..

لا شيء في مميزات السيارة سيكون مهماً، بل بعضها سيكون قاتلاً، لو أن هذا الكابح كان سيئاً أو معطلاً..

فكيف لو كان مفقوداً..

تنتصب هنا الشجرة المحرمة، أمام أعيننا، كدعامة من دعامات المجتمع الإنساني الأول..

خشب هذهِ الشجرة يبدو كما لو أنه سقفاً مرّة، يقينا المطر مرّة، أو طرف نجاة ينقذنا من السيول والأعاصير، أو جسراً يعبر بنا نهراً مليئاً بالتماسح..

الحرام هو كل ذلك..

وفكرة الحرام.. في داخل النفس البشرية هي التي توفر هذهِ الدعامة..

★ ★ ★

بغض النظر عن ماهية الشيء المحرم، ومدى إضراره أو عدم إضراره بالمجتمع فإن مفهوم الحرام يعد ذاته مفيد للمجتمع، إنه يشعره دوماً بأن هناك حدوداً ينبغي مراعاتها، إنه يفهمه دوماً أن عليه أن يخفف السرعة.. ليراجع حساباته ويراجع أهدافه.. يراجع ما تقدم وما تأخر من أعماله..

..«الحرام» يوازن السرعة ويوضح مفهوم الحلال نفسه، يجعله أكثر بروزاً وأكثر شفافية.. يضع تحته خطوطاً ملونة بارزة، ويجعله مميزاً..

دون «الحرام» لن يكون هناك مفهوم للحلال..

ومفهوم «الحرام»، يعلم الانضباط ويجذّره داخل دهاليز النفس، وليس صحيحاً أن كل ممنوع مرغوب بالمطلق، فالممنوع أيضاً يربي في النفس الطاقة على التحمل..

إنه يعمل بمثابة منظم السير في تقاطعات الطرق المزدحمة: قف هنا، سر هناك، خفف السرعة..

دون ذلك ستزدحم الطرق إلى درجة الاختناق، ولن يكون ممكناً السير أصلاً..

★ ★ ★

«الشجرة المحرمة» والالتزام بعدم الاقتراب منها ينظم سير طاقات النفس، ويحولها من مجرى إلى آخر دون أن تصطدم ببعضها بعضاً، ودون أن تخنق صاحبها، ودون أن تتوقف نهائياً عن العمل..

.. الشجرة المحرمة هي مثل سد على النهر..

من دون هذا السد، سيأتي الفيضان في موسمه، فيأكل الأخضر واليابس، ثم يأتي الجفاف فلا يجد مخزوناً يقتات عليه الناس والزرع.

تلك الشجرة المحرمة، في ذلك المجتمع الآدمي الأول، كانت تعمل على تحويل الطاقة، كما يعمل محول الطاقة الكهربائية بالضبط، من دونه ستكون الطاقة الكهربائية غير مفيدة، إن لم تكن جالبة للهلاك..

★ ★ ★

تبدو الآن الشجرة المحرمة كما لو كانت أعمق بكثير مما بدا لنا أول مرة..

تبدو جذور هذهِ الشجرة، ضاربة في نسيج هذا المجتمع، في أساسه، في بنيانه..

وتبدو الآن جزءاً أساسياً من محور استقرار هذا المجتمع..

★ ★ ★

من بعيد، نقف اليوم ونتأمل الجنة.

ذلك المكان الذي كنا فيه، والذي يغمرنا الحنين إليه، دون أن نفهم بوضوح لماذا وكيف ومتى؟..

· من بعيد نقف اليوم، ونتأمل المكان الذي هو الجواب عن سؤال: فأين تذهبون..

.. في أعماقنا شيء يهتز أمام تلك الصورة القرآنية..

بالذات يهتز عندما نراها تتحلل إلى عناصرها الأولى، لتصبح بسيطة، في متناول

المشهد القرآني للجنة، التي نحْن إليها، يتحلل إلى ثلاثة عناصر تتفاعل مع بعضها.. تؤثر في بعضها.. وتنتج كلها جنة آدم..

تلك العناصر هي أولاً السكينة والتصالح مع الذات، مع الآخر...

وثانياً.. سد الحاجات الأساسية...

وثالثاً وجود حد محرم، وجود فكرة للحرام يقف عندها المجتمع دون أن يقترب منها.

... وهذهِ هي العناصر الثلاثة التي فقدناها سواء كان الفقدان حدث بالتدريج، أم أنه حدث دفعة واحدة، إلا أن الفقدان قد حصل، ونحن لم نشعر بذلك، ربما لأننا تعودنا عليه، أو ربما لأن الزمام أفقدنا الحس بالفقدان..

لكن.. على درب العودة، بينما نحن نتفقد آثار الخروج، لتكون إشارةً لنا إلى درب الرجوع هناك، ستكون تلك آثاراً مميزة.. وعلامات مهمة على طريق العودة..

ذلك المكان الذي نريد الذهاب إليه، والذي نجد حنينا إليه في أعماقنا، بُني أساساً على تلك العناصر الثلاثة..

.. ولو أننا عثرنا عليها، فقد تساعدنا على معرفة المزيد من الآثار..

.. رأس الخيط وجدناه إذا، في تلك الجنة التي تشكل الخلفية الأعمق في لا وعينا التاريخي..

.. ها نحن نمسكه، ونشده..

.. وها هو يقودنا.. إلى السؤال الأهم هنا..

كيف صار السقوط؟.

كيف خرجنا من ذلك المكان؟!

بين وسع المارد وضيق القمقم

.. وعندما تتثاقل، وتقول أن الأمر أكبر منك..

ويصير شعارك أن قدراتك ليست بالمستوى الذي تودّه أن تكون..

.. وتصرح بأن ضميرك مثقل بهذا - يكون «الأمر» أثقل منك - وإن مستواك أقل منه..

· هل ضميرك حقاً مثقل؟. أم أنك تقول ذلك فقط لتفرغ عن شعور غامض بالذنب..

ربما هذا، وربما ذاك..

ربما أنت مثقل فعلاً. ربما الأمر يتعبك. شعورك بأن مستواك «دون» ما يجب..

وربما الأمر مجرد مبالغة لفظية، تقولها هكذا، كما يقول معظم الناس أموراً لا يعنونها قط..

في كل الأحوال..

سيكون هناك من يخفف عنك شعورك المثقل هذا، أو مبالغتك اللفظية تلك..

سيكون هناك من يأخذ يدك ويكشفها، ويخرج من جيبه حقنةً ليضعها في وريدك.. ويخلصك من هذا الشعور..

.. حقنة من مخدر ما..

مورفين، أو أي نوع آخر..

مخدر معنوي يقول لك أن لا عليك، لا داعي لكل هذا التعب، لا داعي لتأنيب الضمير..

يقولون لك..، يضعونها في أوردتك وفي وجدانك وفي ضميرك«لا يكلف الله نفساً إلا وسعها..»

.. ويريدونك أن تريح نفسك بهذا..

★ ★ ★

.. صار الأمر متداولاً لدرجة البداهة.

لا يكلف الله نفساً إلا وسعها.. فإذا لم يكن هذا الشيء في وسعك فأنت أصلاً لا تحمل عبء تكليفه.. لأن الله لا يكلف نفساً إلا وسعها..

منطقي جداً !. ربما. لكن حسب أي منطق نتحدث؟.

حسب منطق السلب والضعف..، نعم، هذا منطقي..، ومتناسق، مادام الأمر ليس في سعتك، فالله لن يحاسبك عليه..

لكن، لعل هناك منطق آخر، بقواعد أكثر تماسكاً وتناسقاً، ستقلب الطاولة على هذا المنطق، وتوقف الحقنة قبل أن تضع الخدر في ضميرك.

★ ★ ★

﴿ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ﴾ [البقرة: ٢٨٦].

هذا ثابت. إنها آية من ذلك الكتاب الذي لا ريب فيه. والذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه..

أما فهمنا البشري، فهو ليس بثابت. وهو يحتمل «الريب».

ويحتمل أن يأتيه «الباطل» خاصة إذا كان يؤدي إلى نتائج سلبية كالتي وصلنا إليها..

«لا يكلف الله نفساً إلا وسعها»...

هنا ميزان، كفتاه متساويتان..

كفة التكليف، وكفة الوسع..

التكليف هنا مصدره إلهي..

والوسع هنا بشري..

ونحن، بفهمنا هذا الذي يشبه حقنة مورفين، نقرر، أن الوسع «البشري» هو الذي سيحدد حجم التكليف «الإلهي»..

.. وأن ضيق «وسعك» أو أي ضمور يصيبه لأي سبب، سيؤثر طرداً على حجم التكليف الإلهي..

.. شيء ما، في هذا المنطق، يبدو غير منطقي.

★ ★ ★

من جديد..

«لا يكلف الله نفساً إلا وسعها»...

هذا ثابت.

كفتا الميزان فيه متساويتان.

العلامة التي بينهما هي علامة «التساوي».

وهذا ثابت أيضاً. لا مجال لخلاف فيه..

الأمر هنا، هو حجم التكليف، وحجم الوسع.. أي منهما يتحكم بالآخر،..

أي منهما ثابت وأي منهما متغير..

أي منهما يهيمن على الآخر؟..

.. الفهم المورفيني يقرر، باعتباره مورفيناً، أن «الوسع البشري» وضيقه وتقلصه، هو الذي يحدد سعة وضيق «التكليف الإلهي»..

.. لكن ماذا لو كان العكس هو الصحيح..

واحدٌ منهما يجب أن يحدد الآخر.

.. ماذا لو أن التكليف الإلهي هو الذي يحدد الوسع البشري؟

.. نعرف، على وجه التحديد، أن رب العزّة، سبحانه وتعالى، قد كلفنا، وكلف النفس الإنسانية عموماً، بأمور معينة..

.. هناك تكليف إلهي محدد. بل هناك تكليفات إلهية محددة.

.. هل يمكن أن نعتقد أنه كلف النفس البشرية ما لا تطيق؟.

.. كيف، وهو الأعلم بسعتها؟ وهو الأعلم بقدراتها؟..

.. كيف وهو الذي خلقها؟..

.. هل يمكن أن نعتقد أنه هو، العدل، الحق، الخبير، يكلف النفس ما لا طاقة لها به؟؟.

الجواب على هذا السؤال، من ضمن السؤال نفسه..

هو، الحق، العدل، المنزه عن الظلم، لا يكلف نفساً إلا وسعها..

★ ★ ★

.. إذا كلفنا بها في وسعنا.

.. ولم يكلفنا بما ليس لنا طاقة أو سعة.

.. ونحن لا نعرف، تحديداً، وسعنا أو طاقتنا.

.. ولكننا.. نعرف تحديداً ما كلفنا به..

ونعرف أن هناك علاقة مساواة، بين الاثنين.

★ ★ ★

.. بماذا كلفنا تحديداً يا ترى؟..

لو سألنا هذا السؤال، لجاء الجواب سريعاً بما كلفنا به رب العزة من عبادات وفرائض.. الصلوات الخمسة، وتفاصيلها وأداءها جماعة والصيام والزكاة.. والحج..

.. وسيكون النقاش عن أداء هذهِ التكاليف، في إطار وسع النفس البشرية، والإجادة فيها،.. من أول ما يخطر في ذهن أي شخص..

.. وعندما يحصل تباطؤ هنا، وتثاقل هناك، في واحدة من هذه العبادات.. وتجد ضميرك مثقلاً بهذا التباطؤ، فعلاً أو قولاً فقط، فإنك ستجد من يقول لك، معتذراً، مواسياً..

.. «لا يكلف الله نفساً إلا وسعها»..

★ ★ ★

المشكلة هنا، أن أمر التكليف يسبق حتى هذهِ العبادات.. وأشكالها.. على الرغم من أهميتها، ومن سلبية استخدام حقنة المورفين معها..

لكن المشكلة الأكبر هي أن هناك تكليفاً سبق تكليف العبادات هذهِ..

والتعامل معها بمنطق حقنة المورفين، المنطق السلبي، يورث نتائج أكثر كارثية..

★ ★ ★

.. أتحدث هنا عن تكليف أساسي، سبق الصلوات الخمسة التي كلفنا بها.. بل سبق خلقنا أصلاً..

ناهيك عن هبوطنا إلى الأرض..

التكليف هنا، هو كوننا خلفاء في هذه الأرض..

لقد كلفنا بذلك، وقال، عزَّ من قال«إني جاعل في الأرض خليفة».. قبل أن ينزل أي تكليف من تكاليف ما نصنفه أنه عبادات..

كلفنا بأننا «الخليفة في الأرض» وقال أيضاً، والحق قوله..«لا يكلف الله نفساً إلا وسعها».

.. ونحن نعرف أن العلاقة بين التكليف الإلهي والوسع البشري، متوازن بعلامة التساوي..

وأنه ما كان ليكلفنا بأمر لا طاقة لنا به..

.. وهذا يعني أن في وسعنا الكثير.. الكثير..

★ ★ ★

سيقولون، من منطق تعود التثاؤب والتكاسل وابتداع الأعذار.. نتكلم عن صعوبة في أداء التكاليف الشرعية من فروض على أتم وجه..

.. وتتحدث عن «خلافة في الأرض»..

سيقولون، أن «الوسع البشري» يكاد يكون بالكاد كافياً لأداء فروض الصلاة والصيام.. وتقفز أنت مرّة واحدة إلى «الخلافة في الأرض»..

المشكلة في هذا الأمر، أن هذا جاء من ذاك..

هذا التقلص في «الوسع البشري».. في «الطاقة البشري» على الأداء، جاءت بسبب قولبتها، وحصرها، في أطر وقوالب ضيقة..

★ ★ ★

التكليف الإلهي محدد وثابت.

أما الطاقة البشرية، فهي هلامية، غير ثابتة..

إنها تأخذ شكل الإطار والقالب الذي توضع فيه..

يمكن لك أن تحصرها في إطار فردي ضيق، أفقه التفاصيل والهوامش.. ووقتها ستكون هذهِ الطاقة متثاقلة بهذهِ التفاصيل، تبحث عن تبريرات لضعف الأداء، تبحث عن أعذار تفسر التثاقل..

ويمكن أن تضع هذهِ الطاقة البشرية في قالب يسع الكون بأسره، فإذا بهذهِ الطاقة تفصح عن مارد عملاق، عن «إنسان» يمكن له أن يغير العالم..

عن «خليفة في الأرض».

★ ★ ★

.. الإنسان الذي كان يُعذَّب على الرمال الحارقة في بيداء مكة، وكان يهمس، بأقوى ما يمكن لحنجرته أن تفعل: أحد، أحد..، هو إنسان وضع طاقته البشرية، النفسية، في المدى الأوسع، في داخل الأفق الكوني الشاسع الذي لا حدود له..

.. ولو كان غير ذلك، لكان قال لنفسه، كما يمكن أن يقال اليوم وفي كل يوم، لا يكلف الله نفساً إلا وسعها، ولهز كتفيه غير مكترث، وقد أزاح بهذه عبء الصخرة الساخنة على ضميره..

لكن ما كلفه الله به كان في وسعه..

وقد كلفه الله أن يكون خليفةً في الأرض.. وطاقته تقولبت على ذلك..

ولذلك فقد كان..

★ ★ ★

.. بل لو أن الفهم المورفيني كان موجوداً في مكة، في عقول الجيل الأول من صحابة، لما حصل كل الذي حصل، ولما تحركت عجلة التاريخ باتجاه النور الذي سارت إليه، بعيداً عن الظلمات التي كانت سادرة فيها..

لو أن هذهِ الآية، عوملت كحقنة مخدرة، لتقطعت طاقة كل واحد من أفراد هذا لجيل، وصارت لا تمتد لأكثر من همومه الفردية والشخصية..

لو أن فهمهم كان كفهمنا اليوم، لربما كان هناك صلاة، وخشوع فيها، ودموع سادقة.. لكن ما كانت شخصت الأنظار لأكثر من ذلك، ما كانت الأفكار خرجت ن أزقة مكة وبطحائها نحو المجتمع البديل في المدينة..

لو أن «لا يكلف الله نفساً إلا وسعها» عوملت كما نعاملها اليوم، لقال كل واحد نهم أن الأمر ليس في وسعه.. ولما كان حدث ذلك التفاعل المتسلسل الذي جعل من لإنسان خليفة في الأرض..

.. كل واحد منهم، كان يعلم يقيناً، أن الله لم يكلفهم إلا الذي في وسعهم..

.. ولقد تواءَم وسعهم.. مع ما كلفهم إياه..

★ ★ ★

.. لاريب أن هناك فروقاً فردية في قضية الوسع الإنساني.. على الرغم من أن لتكليف الإلهي عام وشامل..

لكن هذهِ الفروقات، ستقل حتماً، حسب الطريقة التي نتعامل فيها مع كفتي التكليف والطاقة..

.. فعندما تكون الطاقة الفردية أقل، فإن حقنة منشطة، ومقوية، تضخ في أوردتها وشرايينها الوعي بأنها أقوى مما هي عليه، وأنها أوسع من ذلك الضيق الذي أولجت فيه..

مجرد الإيمان بذلك، سيجعلها تتألق توسعاً وتمدداً وانحيازاً إلى الأفق..

مجرد الإيمان بذلك، سيجعل جدران القمقم تتصدع.. سيجعل من برعم المارد في الأعماق ينمو..

مجرد الإيمان بذلك سيوسع «ما كان قد تضيق».. ويجعل من التساوي بين التكليف والطاقة، أمراً كامناً.. وممكناً..

★ ★ ★

.. وعلى ما يبدو، فقد سقط (سهواً) ما كنا قد كلفنا به أصلاً.

.. لقد وجدنا أنفسنا على الأرض، وقالوا لنا إن لدينا بضعة وظائف، لكنهم لم يخبرونا بالتكليف الأساسي، وإنما ببضعة تكليفات أخرى،.. لا نقول أبداً أنها غير مهمة، لكن نقول إن أهميتها القصوى لا تكتمل إلا مع التكليف الأساسي الأولي..

ولأن «التكليف الأساسي» قد سقط سهواً مما ألقمونا إياه، فإن طاقتنا، وما هو (وسعنا).. قد تقولب وتأطر وتحدد بتلك التكاليف الأخرى.. التكميلية.. وبذلك فقدَ سعته..

وفقدنا طاقتنا الكامنة..

★ ★ ★

.. وظيفتك الأصلية، ليست أي من هذهِ التي تكتب أمام خانة المهنة في صفحة هويتك..

وظيفتك الأصلية هي ذلك التكليف: في الأرض خليفة..

وعندما تعي ذلك فإن أي مهنة أخرى ستكتسب ذلك المعنى، وسيكون للاستخلاف معنى آخر من خلالها..

.. ولن يكون ذلك إلا إذا آمنت أنك أنت، أنت الخليفة !.

★ ★ ★

هل ستقول أن المهمة مستحيلة؟.

تذكر أنه لا يظلم. وأنه الحق العدل، وأنه لولا أنك تقدر، لما كان كلفك أصلاً به..

فيا سيدي الخليفة، قم من نومك، قم من بين جواريك وأوهام حريرك وطنافسك وعبيدك..

قم وحطم تلك الأغلال التي أوصلتك إلى ما وصلت إليه، الأغلال ليست في معصميك يا سيدي الخليفة.. بل في داخلك، أنت الخليفة.

أنت السيد في الأرض، بإمكانك أن تغير العالم أجمع، بإمكانك أن تعيد بناءه.. بإمكانك أن تفعل ذلك ما دمت تؤمن أنه بإمكانك ذلك.

أيها الخليفة، قم، قم وكن ما يجب أن تكون عليه..

الزرع في واد غير ذي زرع

.. أحياناً تكون العلامات الدّالة على الطريق شديدة الوضوح..

لكننا نظل نبحث وندور ولو عن علامة صغيرة..

.. قد تكون العلامة ضخمة مثل لافتة حجرية كبيرة، بأبجدية واضحة، وأحرف بارزة، وبعلامة استدلال كبيرة جداً..

ولكننا مع ذلك لا ننتبه لها، ونظل نتخبط، ونسأل كل عابرِ سبيل، ونجرب كل الطرق، ونقول إن التجربة والخطأ ستوصلنا إلى الطريق الصحيح..

.. ونظل نلف وندور، بحثاً عن علامة، بحثاً عن أثر.

بينما يكون «الأثر» بين ظهرانينا، محيطاً بنا من كل الجهات، لكننا لا ننتبه له..

ربما كان ذلك هو السبب..

ربما لأنه كبير جداً، ولأننا صغار جداً، فإننا لم نتمكن من فهم هذا الأثر..

كانت أحرف هذا الأثر ضخمة، وكنا صغاراً مثل نمل لم يستطع أن يفقه أن هناك حرفاً أصلاً فضلاً عن أن يفهمه، أو ربما لأننا لا نعرف الأبجدية أصلاً..

* * *

هذا الأثر هو إشارة باتجاه محدد نضعها نصب أعيننا يومياً..

إنها إشارة جغرافية نضعها ونقف باتجاهها كذا مرّة في اليوم.. .

لكن رغم ذلك، عندما نبحث عن أثر، عن علامة، عن اتجاه.. فإن الأمر لا يخطر ببالنا..

لأنه مجرد عادة تعودناها، وقد فرغت مثل كل العادات، من أي معنى..

خمس مرات في اليوم..، في سبع عشرة سجدة..، نتجه باتجاه مكان محدد..

ورغم ذلك لم نعتبر أن هناك سهماً موجه إلى هناك..

أينما كنا، في أي قارة، وأي بحر، وأي محيط..

في حلّنا وترحالنا.. سواء كنا على ظهر جمل في الرّبع الخالي، أو في كبسولة فضائية تسبح حول المجال الجوي للأرض..، فإننا جغرافياً، سنضمر على الأقل، اتجاهاً واحداً..

نحو ذلك المكان..

.. وهو مكان يقصده عملياً الملايين من البشر كل عام..

بعضهم ينفق مدخرات حياته، وتحويشة عمره من أجل رحلة إلى هناك..

وبعض النسوة لا يطلبن من مؤخر صداقهن، في رحلة الصبر على الحلو والمر مع شريك العمر، سوى رحلة إلى هناك..

والبعض يقضي عمرَه في انتظار دوره، في قوائم المنتظرين للرحلة إلى هناك..

والبعض، عندما يصل، يقضي هناك من شدة الزحام..

.. ورغم كل ذلك - رغم ضخامة كل هذهِ العلامات والآثار التي تشير إلى هناك - فإننا لا ننتبه إلى كونها آثاراً على الطريق، يمكن لها أن تخرجنا من متاهتنا.. يمكن لها أن تقول لنا «أين تذهب»..

المشكلة ليست فيها طبعاً، بل في أفهامنا وبصائرنا التي تراكم زحام الغبار والأشياء عليها، حتى لم تعد تميز..

.. وذلك المكان ليسَ مكاناً سياحياً، ولا تتوفر فيه أي من مقومات السياحة والاصطياف التي تجعل الملايين يقصدونه..

إنه لا يحوي مشاهدَ طبيعية حسب المقاييس التي تعودها الناس..

.. لا خضرة هناك ولا شلالات.. ولا زرقة بحر لازوردي..

.. في الحقيقة إنه مكان أجرد، يقع في قلب الصحراء، ولقد كان كذلك دوماً..

★ ★ ★

.. رغم كل ذلك، فهم يذهبون إليه بالملايين..

إنهم يعتبرونه علامة على طريق عودتهم، يريدون أن يختموا حياتهم بهذهِ الرحلة، أو أن يلغوا صفحة ذنوبهم ليبدؤوا صفحة أخرى.. إلى أن تتاح لهم فرصة قدوم آخر..

.. لكن «الرحلة» عموماً، والطريق إلى ذلك المكان، لم تأخذ دورها في رحلة الحياة..

لم تأخذ دورها في الجواب عن سؤال :«فأين تذهبون؟».

ولكن، ربما قبل أن نسألهم: لماذا تذهبون..

علينا أن نسأل: لماذا ذهب؟.

أقصد سيدنا إبراهيم..، أول من ذهب في هذا الدرب..

★ ★ ★

بين آدم وإبراهيم علاقة متبادلة وحميمة، أكثر من مجرد علاقة الأبوة التي تربطنا جميعاً بآدم، أو علاقة النبوة التي تجمع كل الأنبياء ببعض..

بينهما درب واحد :

.. أحدُهم خاضه هبوطاً، بينما كان يخرج من الجنة..

.. والآخر رجع فيه، حفر خطواته على الأرض وهو (يرجع..) إلى المجتمع المتوازن - الجنة الأرضية.

بين آدم وإبراهيم مشهد مشترك.. تفاصيله وأدواته واحدة..

من بعيد سيبدو كما لو كان الأبطال أنفسهم، من بعيد سيبدو أنه المشهد نفسه..

لكن جوهرهما مختلف..

المشهد مع آدم، هو الخروج من هناك، من الجنة، عندما خرج هو وزوجه، وهبطا إلى الأرض..، كانا متكسرين في أرض بدت لهما أنها كصحراء بالمقارنة مع الجنة..، بل لعلها كانت صحراء فعلاً.

والمشهد الآخر، في الموقع نفسه، الصحراء أيضاً، ويضم إبراهيم وزوجه ومعهما ابنٌ لهما..

لكنها رحلة عودة.. بينما كانت الرحلة الأولى رحلة خروج..

كان المشهد الأول يقول: ﴿ وَلَقَدْ عَهِدْنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِىَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا ﴿١١٥﴾ ﴾ [طه]

وكان المشهد الثاني يقول: ﴿ وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِۦمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ ﴾ [البقرة: ١٢٤]

كان المشهد الأول يقول: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ ﴾ [النور: ٢١]

وكان المشهد الثاني يقول إن خطوتك ستكون هي الأولى..﴿ قَالَ إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ﴾ [البقرة: ١٢٤]

(.. إماماً لرحلة العودة..؟)..

في المشهد الأول كان الشيطان قد «دلاهما بغرور..»

وفي المشهد الثاني كان إبراهيم قد قال «يا أبت لا تعبد الشيطان..»..

وكان المشهد الأول يقص حكاية الخروج، وكان الثاني يقتفي أثر الخطوات، كما نحاول أن نفعل، ليرجع..

★ ★ ★

إنها الصحراء إذا، والرمل فيها لا يترك أثراً لرائح أو غاد، والدرب فيها مبهم كمتاهة، والكثبان دوامة لا تكف عن خداعك، حتى دليل الصحراء قد يتوه فيها..

رغم ذلك، ورغم هول الصمت المحيط بالمشهد، هانحن نسمع صوت ﴿رَّبَّنَآ إِنِّيٓ أَسۡكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيۡرِ ذِي زَرۡعٍ عِندَ بَيۡتِكَ ٱلۡمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجۡعَلۡ أَفۡـِٔدَةٗ مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهۡوِيٓ إِلَيۡهِمۡ وَٱرۡزُقۡهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمۡ يَشۡكُرُونَ ٣٧﴾[إبراهيم].

.. ها هو إبراهيم في حواره الحميم مع الله..

هل نسمع شكوى؟.. هل يبث مخاوفه إلى الله عز وجل؟؟.. هل كان خائفاً على ذريته لأنه أسكنها في أرض جرداء لا ماء فيها ولا زرع؟..

.. ولكن لماذا يا إبراهيم، وأنت صاحب العقل الرشيد، وبعد النظر، لماذا تترك أهلك وذريتك في ذلك الوادي المقفر، ثم تشتكي إلى الله خوفك عليهم..

إذا أنت لم تكن تشتكي، إنما كنت تحاور، كنت تقرر ما كان قد حدث فعلاً..

.. كنت تترك لنا أثراً، علامة على الدرب..

كنت تشير لنا، همستك كانت في آذاننا نحن..

كنت تهمس لنا، وتشير إليه «وادٍ غير ذي زرع..»

عند «أسكنتهم» نقف.

ونتذكر «اسكن أنت وزوجك الجنة»..

هل سنقول أن الفرق بين «السكن في واد أجرد».. والسكن في جنة «كلا من حيث شئتما» فرق كبير..

لا، إنه السكن ذاته.. فالأمر لا يتعلق بالجوار والبيئة المحيطة والأجواء ومقدار خصوبة الأرض..

الأمر يتعلق بالسكينة، إنه «السكن» وليس محض نُزُلٍ ننزل فيه ونحط رحالنا..

الأمر يتعلق بالسكينة في الداخل، بمجتمع متصالح مع ذاته ومع عناصره، حتى لو كان مؤلفاً من شخصين أو ثلاثة فقط..

«أسكنت» مع إبراهيم.. تُشابه بالضبط: «اسكن أنت وزوجك».

الفرق أن «اسكن أنت» كانت فعل أمر من رب العزة، خالق الخلق..

أما «أسكنت» فقد كانت فعلاً قام به إبراهيم بنفسه..

لقد وعت الإنسانية الدرس جيداً، وبينما هي تتلمس طريق العودة، فإن السكن هنا هو عنصر أساسي من عناصر الرجوع..

★ ★ ★

.. ولكن لماذا يا إبراهيم تذهب بعيداً هكذا لكي تسكن ذريتك؟..

أما كان يمكن لك أن تسكنهم في مكان أقرب؟

أما كان يمكن لك، أن تختار مدينة أو مركزاً حضارياً من كل المدن الموجودة أصلاً؟؟..

أما كان يمكن لك على الأقل أن تختار منطقة أقرب إلى تلك المدن، بشكل يُسهّل عليك، وعلى ذريتك، وعلى الملايين من أتباعك فيما بعد، الأمرَ كله..

لماذا ذاك الواد الأجرد يا إبراهيم، وأنت تعلم أنه غير ذي زرع..

لماذا.. يا إبراهيم؟..

★ ★ ★

على ما يبدو أن إبراهيم اختار المكان، ليس (بالرغم) من كونه أجرداً ونائياً وبعيداً عن كل المدن وطرقها ومقترباتها..، لا.. ليس (بالرغم) من ذلك..، بل بسبب ذلك..

.. كل ما يبدو أنه عوائق يجب أن تجعل إبراهيم ينصرف عن المكان، كانت هي المحفزات التي جعلته يختاره بالذات..، كيف..؟

في رحلة العودة التي خاضها إبراهيم، وحفر آثارها على الأرض، تجول إبراهيم بين أهم حضارات عصره وزمانه..

كلها كانت حضارات نشأت في أحواض الأنهار، بأرض خصبة، وكان الزرع هو واحد من أهم مقومات نهوضها ونهضتها..

ولكن، رغم البهرج المزدهر، رغم تطاول البنيان، ومعدلات النمو (لغتنا المعاصرة) فإن كل ذلك كان يخفي في داخله خواء الفكر، بل وظلاميته، كل ذلك البهرج كان يخفي اللامنطق في العلاقة مع آلهة متعددة، واللامنطق في علاقات الظلم والاستغلال بين البشر..

كانت كل تلك المجتمعات مبنية على فكرة خاطئة، كان حجرها الأساس، الذي بني عليه كل العمران، وتراكم عليه كل الزخرف، هو حجر العلاقات المادية، الزرع أو التجارة أو أي شيء سيكون لاحقاً بديلاً، مثل المواد الخام..

من أجل ذلك، وليس بالرغم منه، ابتعد إبراهيم عن كل ما يمكن أن يكون سبباً (مادياً) لتجمع البشر.

إلى الصحراء ذهب..

من أجل أن تثبت الفكرة الصالحة أنها أقوى من كل ذلك..

رغم كونها في واد غير ذي زرع، أي أنها غير صالحة حسب المعايير الاقتصادية..

.. ليس بالرغم من ذلك..، بل بسبب ذلك !.

★ ★ ★

«واجعل أفئدة من الناس تهوي إليهم..»..

بدلاً من «اهبطوا بعضكم لبعض عدو»..

هنا اليوم، مجتمع يقوم على فكرة، ويلتف حول الفكرة ناس، أفئدتهم تهوي إلى الفكرة، وعقولهم تقتنع بها، ورؤاهم تتنمذج وتتشكل بالفكرة..

قد يأتي الزرع أو التجارة أو التصنيع لاحقاً، لا إشكال في ذلك..

لكن الأساس سيكون فكرة..

فكرة تجعل الناس يتجمعون عليها، وقد أدركوا أنها - وحدها - يمكن أن تشكل محوراً لحياتهم..

★ ★ ★

من أجل هذا ذهب سيدنا إبراهيم إلى هناك.. في قلب الصحراء، ومن أجل هذا نقف نحن متجهين إلى هناك..

من أجل الفكرة..

من أجل أن نبقى مستمسكين بفكرة بني عليها مجتمع..

تلك هي علامة على الطريق..

إنها كبيرة بحجم الشخص الذي اختط الطريق أولاً، شاسعة بقدر الدرب نفسه..

ولكن، ويا للأسف، فإن شيئاً من كل ذلك.. لا وجود له..

عندما نضع السجادة على الأرض، بذلك الاتجاه، ونهم بالصلاة..

حكاية كل يوم

في حياة كل منا سقوط أول..

.. سقوط أول، يغير مسار الأحداث التي سبقته، ليس بانعطافة، بل بسقوط..

سقوط قد يصاحبه صوت مدوي..

وقد يكون مصحوباً بصمت له دوي في الأعماق..

لكن في حياة كل ابن آدم سقوط أول، يترك أثراً في مسيرته كلها..

ويطبعها بطابع السقوط الأول..

السقوط الأول بصمة تترك أثرها الذي لا يمحى، حتى لو استطاع ابن آدم أن يتجاوز سقوطه، فلا شيء أبداً يعود كما كان، درس السقوط يكون عبرة وتجربة لا يمكن نسيانها..

في حياة كل ابن آدم سقوط أول..

ومن المهم أن نعرف عن السقوط الأول..

★ ★ ★

.. وليس السقوط الأول ضعف أمام الغواية.. كما قد يتبادر إلى الذهن للوهلة الأولى..

السقوط الأول قد يتضمن ذلك، لكنه أعم وأشمل..

السقوط الأول قد يكون استسلامك لما يقولون، وتسليمك رأسك لهم ليضعوا فيه قوالبهم وأفكارهم..

السقوط الأول قد يكون انضمامك للقطيع، وأنت تعرف أنه يُعد للذبح دون أن تفعل شيئاً، دون أن تصرخ فيهم أن كفى..

السقوط الأول قد يكون أن تتركهم يقصوا جناحيك، ويمنعوك من الطيران في فضاء الله الرحب..

السقوط الأول هو أن تجعل عينيك لا ترى إلا ما يرون، وأذنيك لا تسمع إلا ما يقولون، ولسانك لا يكرر إلا ما يؤكدون..

السقوط الأول ليس بالضرورة خيانة تدور في غرفة نوم ما، بل هو قبلها، خيانة تحدث في رأسك، تخون حقيقتك، تخون قيماً ومبادئ تعبر عن إنسانيتك..

في حياة كل منا سقوط أول..

قد نتجاوزه..

وإذا تجاوزناه، صرنا أقوى، منحنا التجاوز حصانة، ومناعة كما يمنح اللقاح مناعة ضد المرض..

لكن لكي نتجاوزه، علينا أن نعرفه أولاً..

لا أن نحصر تصورنا عن السقوط، في الزنا.. ومقترباته..

في حكاية الخروج من الجنة، وذلك السقوط الأول للآدمي الأول، يحتوي في داخله، على آثار كل سقوط سيقترفه كل أولاد آدم فيما بعد.. يحتوي على الخطوط العريضة التي سيبرع أولاد آدم في تنويعها ومضاعفتها..

وسيتنافسون في المبالغة بها، والولوغ في مهاويها..

لكن الخطوط، ستظل ذاتها..

وهي ذاتها، حكاية سقوط كل منا الأول..

نحن في الجنة الآن..

في الجنة الأولى، التي لا نزال نحنُّ إليها، والتي لم تخل حضارة من إشارة إليها.. ولو بشكل مبهم..

نحن في الجنة، حيث السكن والاستقرار، حيث «كلا رغداً من حيث شئتما».. وحيث هناك تلك الشجرة المحرمة التي وقف جذعها كسدٌ منيع، أو كمحور للتوازن داخل هذا المجتمع الأدمي..

.. نحن في الجنة إذا : الهدوء، التهاسك،.. والانسجام..

.. ولكن انتبهوا..

عما قريب سيتغير ذلك كله..

فهناك عنصر يتربص بذلك الاستقرار والتوازن..

.. انتبهوا.. أنصتوا.. هاهو يتسلل.. هاهو يدخل المشهد..

.. أصيخوا السمع لما يقول.. إذ أننا سمعناه يقوله دوماً.. لكننا ربما لم ننتبه..

﴿ وَقَالَ مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ ٱلْخَٰلِدِينَ ﴿٢٠﴾ ﴾ [الأعراف]

﴿ فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ ٱلشَّيْطَٰنُ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ ﴿١٢٠﴾ ﴾ [طه]..

فلنتبه جيداً لما قيل في هذا المشهد..

فهو سيتكرر دوماً.. بلغات مختلفة وأساليب متنوعة..

فلنتبه جيداً لما قيل، ولنفتش بعدها في أدراج ذاكرتنا: كم مرة سمعنا هذا في حياتنا الشخصية؟..

★ ★ ★

«فوسوس إليه الشيطان»..

فلنتبه هنا إلى لفظ الوسوسة: موسيقاه توحي بالتسلل، والخفة..

الشيطان يدخل على أطراف أصابعه إلى المشهد..

لكنه لن يظهر على خشبة المسرح.. لن يظهر بشكل جلي كعنصر خارجي..

ظهوره الجلي، كفاعل خارجي، كشخص خارج ومختلف عن نسيج الجنة المتوازن سيجعل من بني آدم ينتفض ضده، سيجعل من بني آدم ينتبه..

إلا أن هذا الإبليس لا بد أن يكون ضده، وأن ما يدعوه له لا بد أنه سيطيح بالتوازن والاستقرار في الجنة..

لذلك لم يظهر إبليس في المشهد..

لقد «وسوس» لآدم..

لقد تسلل على أطراف أصابعه إلى داخل نفس آدم..

ظهر كجزء منه.. جزء من آدم..

.. وما يزال يفعل !.

★ ★ ★

وماذا قال له يا ترى، عندما توغل متسللاً على أطراف أصابعه..

لم يقل له «الأمر من آخره».. لم يحك له عن نتائج ستحصل في نهاية الأمر..

وإلا كان آدم وزوجه امتنعا..

لا..، لم يقل له شيئاً عن الخاتمة..

وإنما رفع بضعة شعارات.

.. وما يزال يفعل !.

★ ★ ★

الشعارات البراقة، كانت، ولا تزال، جزء مهماً من عمل إبليس في كل سقوط..

في الحقيقة، يمكن لنا أن نعتبره، أنه كان وكيل الدعاية الأول في التاريخ.. وبلا منافس تقريباً..

لكنه كان وكيل دعاية كاذبة، كان مسوقاً جيداً لأكاذيب سيئة.. لمّعها وجمّلها وقدمها بإطار وغلاف مزيفين..

فراجت بضاعته..

.. وما يزال يفعل !.

★ ★ ★

«إلا أن تكونا مَلَكين..».

هكذا قال لهما، سوّق للسقوط عبر إطار أن آدم وزوجه سيكونان ملكين إذا اقتربا من الشجرة المحرمة..

.. ولكن لماذا يريد آدم أصلاً أن يكون مَلَكاً؟..

.. لماذا لم يكتف بكونه آدم؟.. لماذا لم يكتف بإنسانيته؟..

وهو الذي كرمه عز وجل بأن أسجد له الملائكةَ؟..

لكن إبليس، الممتنع عن السجود، وكيل الدعاية الأول، يروج هنا لفكرة أن الملائكة جنس أرقى..

وأن سبب النهي عن الشجرة كان هنا بالذات: كي لا يرتقي آدم وزوجه إلى جنس الملائكة..

ربما تمكن إبليس من الترويج لذلك عبر فكرة أن الملائكة لا يذوقون الموت.. أنهم خالدون.. أو هكذا قال إبليس لآدم..

.. لكن من قال ذلك أصلاً؟.. من قال إن الرقي والتقدم، يشمل طول العمر، ولا يشمل خيار الإرادة والمسؤولية الذي ميز آدم عن بقية المخلوقات..

.. لكن عندما يريد وكيل الدعاية الأول أن يحقق المزيد من المبيعات، فالمصداقية ليست على قائمة أولوياته.. خاصة إذا كانت السلعة: **هي فكرة ستؤدي إلى السقوط..**

★ ★ ★

الترقي إلى جنس آخر..، إذاً، الملائكة..

.. وهكذا خدع آدم هنا..

هكذا وسوس له إبليس، بوهم الترقي، بوهم«التقدم».

★ ★ ★

.. ووهم التقدم، ووهم الترقي، لا يزالان من أهم شعارات إبليس».. والذي **لا يزال يحتل المرتبة الأولى كالوكيل الدعائي الأهم، وإن كانت الشركات العملاقة** عابرة القارات تتنافس على المرتبة التالية بعد إبليس..

لكن هذا الشعار: لا يزال هو الوسيلة الأكثر ضماناً لترويج السقوط.. بل لترويج كل شيء..

صاروا الآن يروجون حتى لمعجون الأسنان عبر شعار التقدم..

لا يمكن لك أن ترقى أن تتقدم، إلا إذا استخدمت المعجون الذي يمنح البريق لهذا الشاب الذي ينتمي للجنس الأبيض.. الجنس الأرقى..

.. لا يمكن لك أن تترقي أن تتقدمي، إلا إذا استخدمت هذا«المبيض»الذي يجعل بشرتك تبدو كما لو أنكِ تنتمين للجنس الأبيض..

.. ناهيك طبعاً عن القيم، والمبادئ..

من أجل التقدم، من أجل الرقي والترقي، والوصول إلى مرتبة أعلى، إلى حيث الجنس الأبيض، سيروج إبليس لك، كما فعل مع أبيك الأول في السقوط الأول..

.. لن يقول أن الأمر سينتهي بالسقوط، لن يحكي عن خواتيم الأمور.

وكما أن وكلاء الدعاية لا يحكون عن المضار الصحية لمنتجاتهم..

★ ★ ★

.. وبين الانضمام إلى القطيع، وشعار التقدم علاقة متينة..

سواء كان هذا القطيع تقليدياً، منغلقاً على نفسه، أو كان منساقاً وراء دعاوى تبدل حتى لون بشرته..

في الحالتين، أنت تسلم رأسك لآخرين.. في الحالتين أنت مقتنع أنهم جنس أرقى منك..

في الحالتين، أنت تسقط، من ذلك الباب..

من باب التقدم..

★ ★ ★

حتى في نمط السقوط الذي يحدث في المخادع.. هناك أيضاً تلك الشعارات البراقة تتقدم إبليس بينما هو يتسلل إليك على أطراف أصابعه.. هناك شعارات «الحرية الشخصية»، و«أنا حر»، «أنا حرة»..

★ ★ ★

..«وملك لا يبلى»..

.. وأيضاً من هذا.

كان هناك توازن، كانت هناك حاجات أساسية، سدتها الجنة..

وكان الاستقرار مبنياً على هذا..

لكن إبليس زين للمزيد..

جاء ليقول: لا يعقل أن تقنع بهذا.. هناك المزيد..

لا يعقل أن تقنع بالمأكل والملبس والمأوى..

هناك «ملك لا يبلى».. هناك جنة السلع التي لا تنتهي.. هناك المزيد والمزيد..

كيف لك أن تقنع بالملبس والمأوى والمأكل.. وأنت تستطيع أن تتخم بما لذ وطاب حتى لا تعود تستطيع الحركة من كثرة الأكل وتنوعه..

كيف لك أن تقنع فقط بالذي يقيك من الحر والبرد، وأنت يمكن لك أن تنتفخ كطاووس في ثياب لن تبلى لأنك لن ترتديها إلا مرّة واحدة.

.. وكيف لك أن تقنع ببضعة أمتار تؤويك.. وهناك يمكن لك أن تبني قصوراً شاسعة، تحتاج إلى وسيلة نقل لتتجول في أرجائها..

.. لا، لا يا آدم، ولا يا كل أولاد آدم من بعده، لا يجب أن تقنعوا بالحاجات المتوازنة..

بل اقتربوا من الشجرة،.. وكونوا طموحين، وهبُّوا إلى ملك لا يبلى..

شعار «بأن إنسانيتنا لن تكتمل إلا إذا فعلنا ذلك»..، و«أننا يجب أن نجرب»..

شعارات، براقة ملونة، يبرع فيها إبليس، استخدمها منذ السقوط الأول.

ولا يزال يفعل..

★ ★ ★

كل سقوط يحدث، يقع حتماً بين خياري «التقدم».. «الملك الذي لا يبلى».

كل سقوط يمكن تخيله، ويمكن تعداده وإحصاؤه، يقع حتماً بين أن تترقى، أن تتقدم، أن تصير مثلهم، مستبدلاً قيمك وثيابك ورأسك وحتى بشرتك،.. أو أن تحوز ملكاً لا ينتهي، مُلك المزيد والمزيد، المزيد من النقود، المزيد من الممتلكات، المزيد من الترف..، المزيد من المزيد..

كل سقوط حصل عبر التاريخ، كل دماء أهرقت، كل أرواح أزهقت، كل رؤوس قطعت، كل قيم انتهكت، كبرت أو صغرت.. كانت بسبب واحد من اثنين..

إما شعار التقدم..

أو الطمع بالمزيد..

★ ★ ★

تعال واستذكر قصة سقوطك الأول.. أو الثاني.. أو الأول بعد المائة..

تعال واستذكر قصة حياتك..

فيك من قصة أبيك آدم أكثر مما فيك من والدك المباشر..

.. وهناك، في مكان ما من أدراج ذاكرتك، يوجد واحد من الشعارين، لقد سلمت نفسك لإبليس عندما تكلم بلسانك، دخل المشهد متخفياً في داخلك، على أطراف أصابعه دخل، وقال شيئاً جذاباً كما سيفعل أي وكيل تسويق يريد أن يروج لبضاعته..

وانتبه، أنصت الآن،. إنه يقول شيئاً آخر الآن..

.. إنه ما يزال يفعل..

.. والآن وقد عرفت، لا تنصت !.

وكل إنسان ألزمناه طائره في عنقه

قالوا لنا أن الإنسان حيوان ناطق.

وكان ذلك مدعوماً بأسماء فلاسفة ومفكرين كبار..

وكان ذلك يعني، حسب هؤلاء، أن ما يميز الإنسان عَن بقية مخلوقات الله أنه ينطق..

.. والنطق هنا، ليس مجرد كلمات تقال، إنه إشارة إلى عملية التفكير بأسرها..

.. هكذا قيل لنا، إن ما يميزنا عن الحيوانات، هو ذلك اللسان الناطق، الذي قد ينتج أموراً سيئة ولغواً فارغاً، كما قد ينتج أدباً رفيعاً وكلاماً كالضوء الذي يزيح ظلمة الليل..

.. الإنسان حيوان ناطق، أو مخلوق ناطق، أو كائن ناطق..

المهم أنه ناطق..

.. وهذا أكثر ما يميز الإنسان برأي هؤلاء..

وهذا ما لقمونا إياه..

★ ★ ★

لكن هناك صفة أخرى تميز الإنسان حقاً، وتجعله يتفوق على بقية المخلوقات، رغم أن أحداً لا يخبر الصغار، بينما هم يكبرون، عنها..

إنها صفة تحاربها المؤسسات، وتحاول إخفاءها، بل وتحاول تكريس عكسها.. تحاول الترويج لضدها..

إنها صفة إنسانية دفنت تحت ركام المفاهيم الخاطئة، والمغلوطة..

إنها صفة إنسانية، عميقة وأصيلة، لكنها تحتاج إلى تنقيب لكي نكتشفها..

إنها حقيقة تميز الإنسان، بل وتُتَوّجه على كل المخلوقات..

ما هي هذهِ الحقيقة؟

إنها حقيقة.. أن الإنسان كائن يطير!..

★ ★ ★

.. بعكس المتوارث والشائع، فإن الإنسان بإمكانه فعلاً أن يطير، بل وأن يحلق عالياً.

نعم، بإمكانه أن يطير..

بقدر ما يبدو ذلك غريباً..

لكنه يطير..

★ ★ ★

﴿ وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ ۖ وَنُخْرِجُ لَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ كِتَٰبًا يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا ﴿١٣﴾ ﴾ [الإسراء]..

.. هانحن هنا أمام القرآن وهو يحكي لنا عن أنفسنا، ما لا نعرفه عن أنفسنا، هاهو يخبرنا الحقيقة، حقيقتنا، أننا «ملزومون» بطائر في أعناقنا..

«كل إنسان ألزمناه طائره في عنقه..»

سيقولون أشياء عن العمل وأن الطائر هنا كناية عن المسؤولية، عن العمل..

لا بأس، لا تناقض.

لكن القرآن، يقول لنا، بوضوح شديد، أن هناك«طائر»ما في أعناقنا..

«كل إنسان ألزمناه..».

كل إنسان إذا ، كما لو أن ذلك ملازم لإنسانيته.. ملازم للإنسانية.. نعم..

.. إنه ملازم لها: قدرتها على الطيران..

★ ★ ★

لكننا لا نطير..

لم يحدث أن طرنا ولا حتى مرة واحدة، لم يخبرنا أحدٌ أنه بإمكاننا أن نفعل..

.. ولذلك فلم يفكر أحد بالأمر..

.. والقرآن لم يقل أبداً أننا نطير..

لكنه قال إن هناك طائراً في أعناق كل إنسان..

إن كل إنسان، بإمكانه أن يطير، لو أنه أراد، وقبلها، لو إنه اكتشف أنه بإمكانه أن يطير..

★ ★ ★

.. وبين واقعنا الذي لا نطير فيه.. والكتاب الذي يعرف عنا أكثر مما نعرف عن أنفسنا،«هوة»..

هوة سحيقة، علينا أن نجتازها، زحفاً، حبواً.. أو ربما طيراناً..

يقول لك القرآن، بلا مواربة: يمكنك أن تطير حقاً، يمكنك أن تحلق عالياً بعيداً عن القيود والأقفاص..

يقول لك القرآن إن لديك طائراً في عنقك، مسؤولية هذا الطائر تقع في عنقك.. وعليك أن تتحملها..

عليك أن تتحمل مسؤولية أن يطير الطائر..، وبعدها ستكتشف أنك ستحلق عالياً معه..

يقول لك القرآن: إن لديك جناحان، وإن كنت لا تدري بوجودهما، لكنهما هناك..

ولو أنك أدركت، وفردتهما، واستجمعت شجاعتك وإيمانك بنفسك، فستقدر فعلاً أن تحلق..

★ ★ ★

حكاية هذا الطائر لها علاقة بما يقول لنا الآخرون.. وما نتعلمه منهم بينما ننمو...

.. إنهم يقولون لنا: أننا يجب أن نبقى دوماً حيث نحن..

ويقولون لنا: إن مصيرنا دوماً مربوط بالحفر..

.. ويقولون لنا: إن طولنا الجسماني، هو أعلى ارتفاع يمكن أن نصل له..

.. ويقولون لنا: لا تنظر عالياً، ستتعب..

.. ويقولون لنا: لا تفكر، لها مدبر..

.. هذا ما يقولونه لنا.. ويضعوننا فيه منذ طفولتنا..

★ ★ ★

.. وكل هذه أقفاص يضعوننا فيها، ويغلقونها، بينما نحن نكبر، حتى نكاد لا نعرف أنها أقفاص، نتخيل أنها جزء منا، وأنها جزء من محيطنا الطبيعي..

بعض هذهِ الأقفاص هدفها ليس سيئاً، ومن وضعها لنا، ووضعنا فيها، يهدف أصلاً إلى حمايتنا..

إنهم يخافون علينا من البيئة الخارجية: قد نتعرض للخطر، وقد يكون الخطر متمثلاً في عدوى، أو عدو، أو حتى احتمال نضياع في الطريق..

وربما أيضاً، بعضهم على الأقل، يخافون منا، يخافون أننا لو اكتشفنا أن هناك عالم خارج هذهِ القضبان، لتمردنا عليهم وعلى أفكارهم وعلى رؤيتهم، يخافون أن نثبت أننا أفضل منهم، وأننا أقوى منهم، وأن عالماً نبنيه نحن سيكون أفضل من ذلك الذي استسلموا لوجوده..

وهكذا بين الخوف منا، والخوف علينا، ثبتوا هذهِ الأقفاص حولنا، حتى صارت لصيقة مثل قفص صدري يحيط بنا..

.. ولم يعلمونا الطيران..

لم يقولوا لنا أن لدينا أجنحة، وأن بإمكاننا الطيران.

★ ★ ★

.. لكن ما هو الطيران في جوهره؟..

هل هو محض وسيلة للانتقال عبر الجو؟..

لا.. فالأمر أعمق من هذا، ولو أنه كان محض انتقال عبر الجو لما استلزم الأمر وضع «طائر في عنق كل إنسان».. ولما كانت حاربته الغربان البشرية..

الطيران، في جوهره، هو الحرية، هو البحث عن خيارات أخرى، هو الانعتاق من القيود والسلاسل،.. هو التمرد على القضبان، والثورة على الأغلال والسلاسل..

الطيران هو البحث عن أجوبة جديدة.. وهو رفضٌ لأن تكون الأجوبة القديمة هي كل الإمكانات المتاحة، حتى لو كانت صواباً..

.. الطيران،.. هو البحث عن فضاءات جديدة، تمدنا برؤى جديدة، وبأبعاد جديدة، وبمواد أولية جديدة.. بعوالم جديدة..

الطيران هو التخلي عن القبول المسبق، أو الرفض المسبق، ووضع ذلك المسبق أمام امتحان التجربة..

الطيران هو اكتشاف ذاتك وقدراتها على فرد الجناح تلو الجناح..

.. والتحليق في فضاءات نفسك أولاً، قبل أي فضاء آخر..

★ ★ ★

.. في داخل كل منا طفل صغير حلم يوماً ما بالطيران..

وفي داخل أحلام كل منا طائرة ورقية صغيرة، جهدنا أن تطير عالياً، وكنا نتمنى لو أنها حملتنا معها، بل إننا كنا نفرح بطيرانها كما لو أن جزءاً منا هو الذي طار..

حلم الطفولة هذا ليس ساذجاً كما قد يبدو للوهلة الأولى، إنه يعبر عن رغبة إنسانية عميقة في الانعتاق من كل القيود التي تشدنا إلى الأسفل.. وإلى الأرض. وإلى الوراء..

والقرآن يتعامل مع هذا الحلم الإنساني بمنتهى النضج، إنه لا يقمعه ولا يستأصله ولا يكبته..

على العكس، بدلاً من الطائرة الورقية الملونة التي لزمت أحلام الطفولة، فإن القرآن يلزمنا طائراً ما..

لكنه لا يلزمنا إياه في أيدينا، كما قد نتوقع من شيء «سنلزمه».. لا..

القرآن لا يلزمنا الطائر بأيدينا..

إنه يلزمنا إياه، بأعناقنا..

★ ★ ★

.. لماذا العنق؟..

وكيف نلزم شيئاً في أعناقنا؟..

نلزمه عندما يكون لا فكاك منه - نلزمه في أعناقنا عندما يكون هذا الشيء جزءاً منا، مثل أوردتنا وشراييننا، مثل حبل الوتين..

الطائر في عنق كل إنسان، جزءٌ من هذا الإنسان، ربما لا يكون ذلك حقيقة تشريحية واضحة، لكنه حقيقة روحية، حقيقة نفسية..

.. الطائر في العنق بمثابة أمانة لا يمكن التخلي عنها..

والعنق هي منصة دائمة لانطلاق هذا الطائر..

★ ★ ★

.. ولماذا العنق؟..

لأن الطيران الحقيقي، سيكون دوماً من العنق فما فوق، الطيران الحقيقي سيكون تحليقاً بالرأس بالذات، الرأس هو الذي سيحلق، وهو الذي سيفتح الفضاءات والآفاق..

التحليق الحقيقي، لا يكون عبر أجنحة مشمعة كما فعل عباس بن فرناس مثلاً..

بل يكون عبر«رأس» ثائر، «رأس» يرفض القيود، ويرفض القضبان..

.. ويحطمها عبر التحليق إلى فضاءات أخرى..

★ ★ ★

.. ولماذا العنق؟..

لأن العنق كان دوماً رمزاً للعبودية..

دوماً كان يقاد الناس عبر سلاسل وأغلال تشدهم من أعناقهم..

كانت هذهِ الأغلال أحياناً (مرئية)، تجسد عبودية رق مباشر..

.. وأحياناً أغلالاً غير مرئية، تجسد عبودية لنمط حياة، تجر الأعناق وراءها جراً: دون أدنى مجال لأدنى التفكير..

دوماً هناك أغلال ما، تجر لعبودية ما..

ودوماً هناك طائر في العنق يتوق لكسر الأغلال وتحطيم القضبان، والانطلاق إلى فضاء الله.. فضاء الحرية..

.. لذلك طائر العنق دوماً هناك، رمزٌ لرفضك المطلق لأن يجرك من عنقك شخص ما.. ، سواء بيديه أو بأفكاره أو برؤيته..

طائر العنق يتربص دوماً بأغلال تتربص بك.. وبعنقك..

★ ★ ★

وأمام طائر العنق خيارات كثيرة..

إنه يستطيع أن يكون هدهداً يجوب الأرض ناقلاً لمشاهداته..

.. ويستطيع أن يكون صقراً ثاقب الرؤية والبصيرة..

.. يستطيع طائر العنق أن يكون نسراً يجوب الأعالي، ونورساً يستبشر به البحارة على قرب البر..

.. ويستطيع أن يكون بلبلاً يصدح بأجمل الألحان.. وأن يكون رمزاً للسلام.. والأمان..

لكن الأهم من كل هذا، أن يحول أسطورة العنقاء إلى حقيقة، أن يثبت أنه قادر على أن ينهض من رقاده وموته..

طائر العنق، قادر على أن يدهشهم، وأن يكسر القضبان كلما تصوروا، أن هذا الطائر قد تعود الأسر

مرّة، بعد مرّة، بعد مرّة..

★ ★ ★

.. والأهم من كل هذا..

أن ينضم طائر العنق هذا إلى سرب..

سرب من طيور الأعناق، كلها تمردت.. وكلها كسرت الأغلال..

.. وكلها تنشد فضاءاً آخر أكثر سعة، وآفاقاً أكثر رحابة..

.. .. ولذلك لا تدع طائر العنق هذا يموت، لا تشارك بقتله..

حتى لو وضعوك داخل رؤية كالزنزانة مساحتها متر مربع واحد، فاعلم أن طائرك يمكن له أن يحلق بك بعيداً، بعد أن يحطم أغلالك وقضبانك..

.. حتى لو قالوا لك إن هذهِ الزنزانة هي كونك كله، فطائرك سيثبت لك أنك لو فتحت فتحة صغيرة، لرأيت كم كون يتولد كل لحظة..

.. حتى لو وضعوك في قمقم صغير، فطائرك لو طار، فإنك ستستحيل مارداً يخرج من القمقم..

لا تدعهم يقتلونه.. ولا تشارك باستسلامك لهم.. في قتله..

★ ★ ★

.. وعندما يبدأ طائر العنق في الطيران، فإنهم سيصوبون سهامهم إليه، بعض السهام ستكون تهماً بالكفر والتمرد والخروج عن ملة الكائنات الراضخة للقضبان والأغلال..

.. وبعض السهام ستقول إنه سيضل دربه، وإنه ذاهب إلى حيث لا عودة.

وبعض السهام ستكون مؤذية حقاً، وأخرى ستزيده قوة، وأخرى ستطيش وأخرى ستعود لتصيب من أطلقها..

.. لكن أعداء الطيران، يدركون جيداً، أنه حالما انطلق طائر العنق وحلّق عالياً، فإنه من الصعب إصابته.. ومن الصعب أكثر منع القطيع المستسلم من النظر إليه.. وربما من الحذو حذوه لاحقاً..

عندما يطير طائر واحد، فإن شهوة التحليق تنشب في كل القطيع، ولو بعد ألف سنة من السبات..

لذلك فاستراتيجية أعداء الطيران، صارت تركز على قص الأجنحة من جذورها..

ذلك بالنسبة لهم أكثر أمناً، وأماناً..

★ ★ ★

إنهم لا يعرفون..

إنه بعد كل جناح يستأصلونه، ينمو برعم صغير.. تنمو إمكانية جديدة للتحليق عالياً وبعيداً..

.. تحسس عنقك إذا..

هل تلمس شيئاً؟. هل هو برعم الجناح، أم هو السلسلة التي تشدك مع القطيع..

لنأمل أن يكون الجناح..

وإياك أن تدعهم يستأصلونه..

عُد إلى البيت

.. أمام الكاميرات وأضوائها يقفون.. يأتي لهم (المقص) على وسادة مخملية، يأخذون وقتهم في التقاط المقص، وقطع الشريط، يلتفتون إلى الكاميرات ويبتسمون..

ووسط الأضواء والتصفيق والمجاملات والخطب، يضعون حجر أساسٍ لبناء ما..

قد يكون معملاً أو مدرسة أو مشفى أو جامعة..

.. قد لا ينتهي العمل إلا بعدما يكون المسؤول قد تغير.. وقد يتغير أكثر من مسؤول قبل أن ينجز..

لكن الحجر الأساس سيظل يحمل بصمة المسؤول الأول..

مهما كان البناء المنجز مفيداً لك، وللمجتمع من حولك، فإن فائدته هذهِ ستظل محكومة بالزمن،.. مهما كان البناء مهماً، فإنه بعد فترة سيندثر.. وستقل أهميته وتضمحل..

لكن ثمة بناء، ظلت أهميته تزداد، ولم تقل قط،..

لم يزده الزمان إلا بهاءً وأصالة وقوة..، منحه الوقت منعة وزاده حصانة،.. اندثر الزمان، ولم يلثم هو..

.. رغم ذلك فإن الحجر الأساس، وضع في هدوء تام..

لم يكن هناك صخب إعلامي.. ولا كانت هناك أضواء ساطعة.. ولا أجهزة مكرفون..

لم يكن هناك شريط للقص..

رغم ذلك، فقد كان هو الحجر الأساس الأهم..

للبناء الأهم..

★ ★ ★

.. في تواز وضع الحجر الأساس، في موقعين..

الأول هو المعروف، وهو الموقع الجغرافي.. معروف خط الطول والعرض

.. الثاني وضع في بعد آخر.. بعد مختلف.. تماماً..

فلنرجع الآن إلى الموقع الجغرافي.. والحجر الأساس الذي وضع فيه..

إنها الصحراء، قلب الصحراء، والواد غير ذي زرع..

.. وها هو إبراهيم قد وصل أخيراً، بعد طريق طويل المشقة إلى ذلك المكان..

.. هاهي خطواته تترك آثاراً على طول الطريق.. لم يكن مستقيماً، بل جال وتجول بحثاً عن شيء ما، ترك المراكز الحضارية المهمة في عصره وزمانه، ترك أور ونينوى ومصر الفرعونية.. وكلها مراكز موازية للندن ونيويورك وباريس في عصرنا الحالي، تركها.. كلها.. ترك رفاهيتها وبذخها ورغد عيشها وكل ما يبدو أنه مزدهر وزاخر فيها..

ليس لأنه ضد الرفاهية بالذات، ولكن لأن ذلك كله كان قد بني بشكل غير متوازن وغير عادل..

تركه لأنه تجاوز القشور والغلاف الخارجي والبريق المزيف، وأبصر بعين بصيرته الجوهر في الداخل..

لقد تجاوز سيدنا إبراهيم التفاصيل الزائدة التي يركز عليها الناس عادة، ونظر بعمق إلى الجوهر..

إلى «الحجر الأساس» الذي ارتكز عليه البناء كله..

.. ومن أجل ذلك فقد تركها جميعاً..

رفض كل تلك الحضارات لأنه رفض الحجر الأساس الذي أقيمت عليه..

.. عرف أنه حجر متهاوٍ، حجر خاوي، سيكون سبباً في انهيار لاحق.. عاجل أو آجل..

.. من أجل ذلك.. ذهب إلى قلب الصحراء، ليضع ركيزة لحضارة مختلفة..

وبالذات ليضع حجرها الأساس..

★ ★ ★

ها نحن نتابع خطواته وآثاره.. هانحن نسمع همساته وبوحه، هانحن نتابع يوميات بحثه عن الحضارة الأخرى، ويوميات بنائه لمرتكزات أخرى للحضارة الأخرى..

﴿ وَإِذْ جَعَلْنَا ٱلْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا ﴾ [البقرة: ١٢٥]..

مثابة للناس وأمناً..

لكن ما معنى مثابةً للناس..

ثاب، يثوب، مثاباً.. تعني ببساطة: رجع، يرجع..

إذا البيت هنا، البيت الذي بناه إبراهيم، هو «المرجع»، هو المكان الذي يرجع إليه الناس، هو المكان الذي يلجؤون إليه عندما تشتد العاصفة، عندما تحاصرهم

الأزمة..

إنه البيت.. المنارة في الإعصار، والملجأ عند القصف، والمرجع أولاً وآخر..

إنه «المرجعية» حقاً..

المكان الذي نرجع إليه دوماً..

★ ★ ★

وقبل ذلك حتى..

اتامل في لفظ «البيت» نفسه..

لقد تعودنا على اللفظ، ولم نعد ننقب فيه كما يجدر بنا أن نفعل مع منجم لا تنضب كنوزه..

لكن تعالوا نتأمل فيه..

«البيت»...

قال سيدنا إبراهيم : ﴿عِندَ بَيْتِكَ ٱلْمُحَرَّمِ﴾ [إبراهيم: ٣٧].

إنه البيت إذا- ليس المعبد - ليس الهيكل - ليس حتى المسجد..

لا شيء في اللفظ يدل على تلك العلاقة التقليدية بين «الرب» والمؤمنين به..بل هناك حميمية في اللفظ، حميمية تجعلك تشعر أنك أخيراً وصلت إلى ما كنت دوماً تريد الوصول إليه..

أنه ليس أي بيت.. إنه «البيت»..و «الـ» التعريف هذه تجعله وحده «البيت»..إنه «البيت» بشكل حصري..

المساكن في الحياة كثيرة، والمنازل أكثر، ولكن البيت واحد، المغتربون يمكن لهم

أن يميزوا ذلك بسهولة، يمكن لأموالهم أن تجلب لهم منازل فارهة ومترفة، يمكن حتى أن تكون منازلاً أحدث وأجمل من الناحية الفنية من تلك التي تركوها..

لكنها لن تجلب لهم «البيت»..

لفظة «البيت» فيها شيء حميمي، شيء خاص، شيء يدق على أوتار فطرتك وقلبك ويخربش في أعماق روحك..

وعندما يستخدم الخطاب القرآني لفظة البيت فإن ذلك كله يستيقظ فيك.. وتشعر أنك «أخيراً» وصلت إلى البيت..بعد طول تشرد في الملاجئ، وبعد الذل في بيوت الآخرين، بعد ليال طويلة وباردة قضيتها تحت المطر في الشارع، أو تحت السلم..

ها أنت تصل أخيراً إلى البيت..

هنا تستطيع أن تكون بأمان أخيراً..تغمض عينيك وتخلد إلى النوم الأمين الهانئ..

وها أنت «تبيت» فيه مطمئنا..وليس نوما يشبه الإغماءة..

نعم، هذا هو البيت..

★ ★ ★

ولأن اسمه «البيت» ولأنه «مثابةً وأمناً»..فإن الأمر يشبه إعلان موجود دائماً، وموجه دوماً إلى الابن الضال الذي ترك البيت واستبدله بمساكن أخرى ومراجع أخرى وأنماط حياة أخرى..

الإعلان يقول : «ارجع إلى البيت..»

ستكون الأبواب دوماً مفتوحة..

أبواب البيت لا تغلق أبداً..

★ ★ ★

ولأن هذا البيت ليس مجرد موضع جغرافي، فإن الرجوع الحقيقي إليه ليس رحيلاً برياً أو جوياً..

بل الرجوع إليه هو رجوع قيمي.. رجوع إلى ما يمثله من مبادئ، قيم، منطلقات ومقاصد..

وكم من ساكن بالقرب منه.. وهو في أمس الحاجة إلى أن يعيد النظر في كل شيء و(يرجع)..

وكم من تفصله عنه محيطات وقارات، لكن ولأنه (المرجع بالنسبة له حقاً) فإنه كما لو كان في حرمه..

★ ★ ★

.. ولكن ماذا عن معنى الرجوع هنا؟..

.. كيف نفهم معنى الرجوع إلى بيت لم نكن فيه قط..

هل هذا يرتبط بشيء موجود في أعماقنا.. نرجع إليه لأنه موجود قبلنا - حتى لو لم نزره..

هل يرتبط بالرجوع إلى الجنة - بذلك المكان الذي غادرناه ولا يزال ظل ذكراه غائماً بطريقة غامضاً في لا وعينا..

.. لا نعرف، لسنا واثقينَ إلا أنه «المرجع» فعلاً..

.. وقد يكون كل ذلك.. وأكثر..

★ ★ ★

.. لكنه ليس المرجع فقط.. إنه «مثابةً وأمناً»..

هنا الأمن هو النتيجة النهائية المتحققة من كون هذا البيت مبني على توازنات ستحقق الأمن..

توازنات نفسية: لا تلغي أجزاء من الإنسان لحساب أجزاء أخرى - لا تحتكر روحه على حساب جسده، ولا تؤثر حاجاته النفسية على حاجاته المادية..

وتوازنات اجتماعية: لا تسمح للأثرياء أن يزدادوا ثراء على حساب زيادة فقر الفقراء، لا تسمح بأن يحتكر مجموعة من الناس الثروة والسلطة..

والتوازنات كلها محفوظة بوجود «الشجرة المحرمة» في الذهن، الشجرة التي تقف كالسد بوجه التفلّت والضياع الذي قد يبدأ من مجرد فكرة صغيرة تتزين بشعار برّاق مثل الحرية الشخصية..

الأمن هنا هو النتيجة النهائية لحفظ منطلقات جنة آدم، المجتمع الإنساني الأول.. السكينة، سد الحاجات الأساسية، ووجود فكرة الحرام..

مثابة وأمناً..

كلمتان مليئتان بالمعاني.. بل مليئتان بمنظومة من المعاني المشتركة التي تلتقي لتؤسس مجتمعاً يكون هو المرجع..ويكون هو الأمن..

لكن، لمَ لا أرى الحجر الأساس..؟؟

أفهم أن لا يكون هناك شريط وأضواء واحتفالات..

لكن الحجر الأساس، لم ليس موجوداً؟؟..

من قال إنه ليس موجوداً..بلى، إنه هناك.

وهو لا يزال هناك رغم آلاف السنين التي مرت على بناء البيت.. على رفع القواعد..

الحجر الأساس لم يتغير، ظل موجوداً، وثابتاً، رغم كل التغيرات التي طرأت..

ولأن شفتاه عليه أفضل الصلاة والسلام، وضعتا «قبلة» على هذا الحجر، فقد دخل الحجر ضمن شعائر الحج..

هل عرفتم الحجر الأساس؟..

اسمه الأشهر: هو الحجر الأسود..

★ ★ ★

وتذكرنا تلك الروايات غير المؤكدة ولا الموثوق من صحتها، التي تتحدث عن كون الحجر الأسود قد جاء من الجنة أو شيء كهذا، تذكرنا بالرمز في كون هذا الحجر حجر أساس قبل كل شيء، ولبنة لبناء البيت، الذي هو أكثر من مجرد بيت.. بل هو رمز لحضارة ومجتمع بديلين..

وهذا الحجر الأساس، فعلاً من الجنة، لا أقصد مادته كحجر، بل أقصد رمزيته ومعناه.. فالبيت بني على ذات أسس وقواعد المجتمع الآدمي الأول.. والحجر الأساس فيه كان يختزن ذلك ويضمره فيه..

لذلك نؤيد، ولو رمزاً ولو بالمغزى، «كونه من الجنة»..

.. ونؤكد ما قاله عمر ابن الخطاب لاحقاً: أنه حجر لا ينفع ولا يضر، ولكن لأنه حجر أساس، فإن الفكرة فيه هي المهمة..

الفكرة فيه هي الأساس..

ذلك الحجر الذي لا ينفع ولا يضر هو مجرد حجر في بعده الجغرافي..

لكنا قلنا إنه وضع أيضا في بعد آخر..

وفي ذلك البعد الآخر..هو ينفع حتما..وبل انه يضر أيضا إذا لم ننتبه إلى موقعه هذا في البعد الآخر..

أين موقعه اللا جغرافي؟ أين يقع هذا البعد الآخر؟

إنه يقع فينا نحن..يقع في هذا الكون المتحرك الذي نحتويه في دواخلنا..

تستطيع أن تسميه كما تشاء: قل الروح، قل القلب، قل الضمير قل الوجدان، قل العقل..

قل ما شئت..الأسماء ليست مهمة بقدر المسمى..

وفي هذا البعد الآخر: يستقر الحجر الأساس الحقيقي..ومن هناك يستمد الحجر الأساس - في البعد الجغرافي- فعاليته وأهميته..

حجر الأساس موجود حقا فينا..

وإذا كان الحجر الأسود في البعد المادي مجرد حجر آخر لا ينفع ولا يضر..فإنه ليس كذلك في البعد الآخر..إنه حجر كريم ومشع ومتوهج..و هو حجر نادر أيضا ولا يمكن العثور عليه في الجبال..

لكن كل صفاته تلك لا تتفعل ولا تتنشط إلا بكوننا طرف في المعادلة..

الحجر الأساس - في داخلنا- يخبو، وتنطفئ شمعته.. إن لم نهتم به..

إن لم نعرف أنه موجود..

★ ★ ★

ولأن الحجر الأساس - في بعده الإنساني - أهم من ذاك الآخر.. فإن الرسول عليه أفضل الصلاة والسلام وضع الحجر الأساس في «بعده الإنساني» قبل أن يضعه في البعد المادي

لقد قضى الفترة المكية كلها وهو يضع الحجر الأساس.. في الداخل..

ومن أجل ذلك كان البناء المادي -لاحقاً- متينا ومتماسكا وشامخا..

★ ★ ★

وأنت تتحسس الحجر الأساس ضع يدك على قلبك..إن شئت..

لكن المهم جداً أن تعلم أن الحجر ليس هناك فقط

بل هو في عقلك أيضا..وعندما تجده هناك فإن باستطاعتك عبر هذا العقل- الذي فيه الحجر الأساس.. أن ينجز المعجزات..

أن يجعل الحجر ينطق..!

الماضي بصيغة المستقبل

بينما تتحسس الآثار، تشعر أن بعضها لم يترك أثره على الأرض فحسب..

بل تكاد تشعر أن بعضها قد نُحِتَ على قلبك ووجدانك، ستستغرب كيف أنك لم تتلمسها من قبل، كيف لم تعرف بوجودها، والآن وبينما تبحث عن العلامات والآثار على الأرض، تجدها محفورة بوضوح في داخلك.. تتحسسها وأنت مغمض العينين، وتعجب من قدرة أصابعك على الرؤية..

بعض الآثار تناديك، تحكي معك، وتجد نفسك في المشهد الذي حفرت فيه، كما لو أنك كنت فيه حقاً يوم كان، أو كما لو أن المشهد لا يزال مستمراً، وأنك ببحثك عنه صرت جزءاً منه دون أن تدري..

بعض المشاهد لا تكف عن الاستمرار..

بعض المشاهد تظل قائمة..

★ ★ ★

.. يصرخ هذا المشهد بنا، رغم أنه مشهد حميم وهامس، لكنه يصرخ بنا أن انتبهوا.. أن التفتوا إلى هذا المشهد لأنه لا يزال مستمراً.. بطريقة أو بأخرى..

﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَٰعِيلُ﴾ [البقرة: ١٢٧]

هانحن أمام مشهد البناء.. بينما إبراهيم يرفع القواعد من البيت.

.. هانحن نسمع صوت الصحراء، ونسمع صوت حركة البناء، بل نكاد نسمع صوت قطرة العرق وهي تنزل من جبين إبراهيم..

نكاد نراها.. تكاد تسقط علينا.. نهب لنمسحها من جبينه، نهب لنمسح القطرة الأخرى..

.. ونتنبه إلى الأثر العملاق..

★ ★ ★

يقول الأثر العملاق: إنه يرفع القواعد من البيت..لم يقل إنه وضع القواعد وأرساها..بل يقول إنه (يرفعها)..

أي إنها موجودة أصلاً. لكنه يرفعها..

.. هل يا ترى كانت موجودة أصلاً في عمق الصحراء،.. ومن وضعها هناك؟..

من ذهب هناك في رحلة البحث قبل إبراهيم؟..

أم أن وجودها يقع في البعد الآخر.. البعد غير الجغرافي..

★ ★ ★

ما هي القواعد أصلاً التي (يرفعها) إبراهيم في المشهد؟؟

.. هل هي قواعد البناء؟؟.. هل هي أعمدته وأركانه؟؟.. هل هي حجر البناء والطين المفخور..

أم أنها شيء أكبر.. وأكثر عمقاً..

هل هي مجرد «أعمدة البيت» المادية.. أم أنها أعمدة المجتمع الفكرية؟.. أعمدة وأسس يقام عليها تجمع الناس الذين سيكونون المجتمع؟؟

.. لم يكن البيت مجرد بيت للعبادة، لقد كان «مثابة وأمناً»، هذا يعني أنه المرجع..

والمرجع ليس مجرد بناء، إنه فكرة قبل كل شيء، إنه شيء حميم نحتمي به، بأركانه وأعمدته..

وهو يرفعها.. وهذا يعني أنه ليس هو الذي وضعها..

صحيح - الآن نفهم ذلك تماماً، لقد وضعها ذاك الذي أحسن كل شيء خلقه وصنعه.. وضعها رب العزة عندما بنى المجتمع الآدمي الأول.. مجتمع جنة آدم المبني على التوازنات..

.. وهاهو إبراهيم يرفع نفس القواعد التي وضعت من قبل..

لأنها هي «القواعد» حقاً، لأنها وضعت من قبل نفس الذي وضعنا، نفس الذي خلقنا، لذلك فنحن في حالة تلاؤم معها.

أي قواعد أخرى، من مصدر آخر، وبمنهج آخر، قد ترتفع قليلاً، وقد نرتفع معها قليلاً، لكنها في النهاية، في النتيجة النهائية لها، ستحدث آثاراً جانبية غير محسوبة ـلا مقدرة، وقد تغير مسار التفاعل كله إلى الدمار والانهيار..

هذهِ القواعد الأخرى، قد تكون مثل عضو غريب يزرع عنوة داخل جسم ريض، سيبدو أولاً أن عملية الزرع هذهِ قد أنقذت حياته.. ولكن بالتدريج سيتبين ن الجسم يرفض هذا العضو الدخيل، إنه لا يتواءم معه، ستستنفر كل أجهز المناعة رفض هذا الجسم..

وكل ذلك سيكون في الداخل، وينتهي الأمر بالانهيار.. بالموت..

كذلك الأمر مع قواعد غير قواعد مجتمع آدم الأول..

ترتفع قليلاً، وتغري بارتفاعها الناس.. ثم يخر السقف عليهم..

﴿فَأَتَى اللَّهُ بُنْيَانَهُم مِّنَ الْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِن فَوْقِهِمْ﴾ [النحل: ٢٦]

إنها أجهزة المناعة في الداخل هي التي ترفض هذا، عدم التلاؤم.. هو الذي ينهي الأمر بالانهيار..

.. لذلك فإن إبراهيم لم يضع قواعد أخرى، لقد رأى كيف سارت الأمور مع القواعد الأخرى في الحضارات التي جال فيها والتي هجرها..

إبراهيم كان هنا ليرفع قواعد موجودة أصلاً.... نشاهد مرة أخرى تلك اللقطة وإبراهيم وابنه يرفعان القواعد..

نلاحظ أن المشهد كله صيغ باللفظ المضارع المستمر.. ولم تكن صيغته بالماضي المنقطع..

أليس في ذلك دلالة ينبغي أن نتوقف عندها..

أن تكون عملية رفع القواعد بالمضارع، وصيغة الحاضر المستمر..

السياق كله في السورة الكريمة يتحدث بصيغة الماضي ﴿ وَإِذْ جَعَلْنَا ٱلْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا وَٱتَّخِذُوا۟ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى ۖ وَعَهِدْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَـٰعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْعَـٰكِفِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ﴿١٢٥﴾ ﴾ [البقرة]

﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَـٰذَا بَلَدًا ءَامِنًا وَٱرْزُقْ أَهْلَهُۥ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ مَنْ ءَامَنَ مِنْهُم بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ ۖ قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُۥ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُۥٓ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلنَّارِ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٢٦﴾ ﴾ [البقرة]..

كل السياق وأفعاله قدمت بالصيغة الماضية..

وفجأة.. ينقلب الأمر.. ويصير بصيغة المضارع الحاضر..

﴿ وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَـٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾ ﴾ [البقرة].

ليس مصادفة أبداً.. أبداً..

★ ★ ★

المعنى واضح والدلالة ساطعة.

فرفع القواعد، لو كانت القواعد مجرد حجر أو طابوق أو طين أو أركان بناء تقليدي مكونة من أي مواد بناء.. لجاءت الصيغة التي تروي النص بسياق الفعل الماضي..

لكن «القواعد» ليست مجرد مواد بناء..

إنها قواعد للبيت الذي هو قبل كل شيء، بيت للإنسانية كلها.. للعالمين جميعاً..

من ناحية المساحة الفيزيائية، الطول والعرض ومقاييس الأمتار والسنتيمترات المربعة، فإن«البيت»لا يمكن أن يكفي للإنسانية كلها ولا لربعها.. ولا حتى لأي نسبة معتبرة منها..

لكن الأمر لا يتعلق بالمساحة المربعة..

البيت هنا مكان لفكر عملاق تنتمي الإنسانية إليه بروابط عميقة وجذور مشتركة..

إنه الفكر الذي صدر من المنشأ نفسه، ولذلك فهي في حالة تواؤم وتلاؤم معه..

والبيت وقواعده، هما رمز لهذا الفكر الذي يوائم ويلم كل الإنسانية..

ولهذا، ولأن الإنسانية مستمرة، وستظل مستمرة، وستظل في حاجة مستمرة لبيت يؤويها..

فإن عملية رفع القواعد ستكون مستمرة..

.. وستظل هذه الآية الكريمة بصيغة المضارع..

سيظل رفع القواعد مستمراً..

★ ★ ★

أنصت الآن للآية.. أنصت لها بشكل مختلف.. هاهي رؤيتك للمشهد تتغير..

هاأنت ترى أن المشهد يفتح نوافذ أخرى..

هاأنت ترى المشهد ذاته بأدوات جديدة..

هاأنت تراه عليه أفضل الصلاة والسلام، يرفع (القواعد) وصحابته الكرام، في مسجد المدينة..

هاأنت تراه - عليه الصلاة والسلام - وهو يرفع قواعد المدينة ككل.. قواعد المجتمع المختلف..

والحضارة الأخرى..

ومشهد تلو مشهد، ترى القواعد وهي ترفع، مرّة في بناء مادي، ومرّة في بناء فكري، ومرّة في بناء مادي يجسد البناء الفكري ويجسمه..

مرّة في أول جامعة بنيت من أجل نشر العلم والمعرفة في عصر سادت فيه الظلمة، ومرّة في أول مشفى استخدمت تطبيقات العلم من أجل مساعدة المرضى، ومرّة في أول بيت للزكاة يوازن عتلة العدالة الاجتماعية ويقلل الهوة بين الفقراء والأغنياء في المجتمع..

فجأة تنتبه لشيء في الآية الكريمة..

تلاحظ أن ذكر إسماعيل في الآية لم يكن بشكل ملاصق لأبيه إبراهيم

﴿وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت، وإسماعيل..﴾

لا يمكن أن يكون ذلك اعتباطاً وصدفة.. حاشا لله أن يكون في كتابه العزيز ما هو اعتباطي ومبني على الصدفة..

إنما هو إشارة واضحة الدلالة، أن عملية الرفع ستكون مستمرة عبر الأجيال المتعاقبة..

إبراهيم، ومن بعده إسماعيل، ومن بعدهما أولادهما، وأولاد الآخرين..

ليس الأمر بالانتماء العرقي والنسبي: فالبيت بيت العالمين بيت الإنسانية كلها..

ورفع قواعده أمر ملقى على عبء الأجيال المتعاقبة..

واحدة تلو الأخرى..

★ ★ ★

.. ورفع القواعد ممكن حتى اليوم، بل نحن في أحوج الآن أكثر من أي وقت آخر.. لأن هذهِ العملية يجب أن تكون مستمرة، لكن استمرارها أمر متعلق بنا..

نحن الذين نرفع القواعد، ونحن الذين بتخلفنا أو كسلنا أو عجزنا أو سلبيتنا نوقف الأمر.. دون أن نعلم..

.. ومنذ قرون وعملية الرفع متوقفة، وهي بالكاد ترتفع لأنامل لا أكثر..

.. ولكن الآن، لأننا صرنا في مهب الريح، في العراء.. فلا بد أن نكمل رفع القواعد..

★ ★ ★

.. لنر ماذا يمكن أن نرفع.. وكيف..

لنتخيل هذا المشهد القرآني وهو يستمر اليوم..

.. مدرسة ترفع قواعدها، تنشر ثقافة«اقرأ»وتزرعها داخل جيل طالع، سيتولى أمر الرفع بنفسه لاحقاً..

وجامعة تفتح أبواب علم حقيقي، وتفتح رؤى وعقول طلابها.. نحو عالم آخر يبنونه بسواعدهم وبأفكارهم.

ويرتفع بدار نشر، تنشر العلم والثقافة تنثر بذورها نثراً على الأرض الخصبة في عقول الأجيال الطالعة..

.. يرتفع بقنوات تنشر المعرفة للجميع، وتبشر بزمان آخر..

ومخابر لطاقة أخرى، طاقة بديلة، تعبد الدرب لعالم أكثر أمناً وأكثر توازناً وأكثر عدالة..

.. كل هذا يجعل عملية رفع القواعد مستمرة..

.. كل هذا وأكثر..

★ ★ ★

.. لكن الأهم من كل عمليات رفع القواعد هذه، هناك عملية رفع أخرى، تسبقها، وتمهد لها..

إنها الفكر الآخر الذي يسبق ذلك كله..

فقبل أن يشرع إبراهيم برفع القواعد عبر ساعديه..

كان هناك تلك الرحلة بين حضارات العالم، والتأمل في منتجاتها وقواعدها..

وقبل كل هذا كان (رأس) إبراهيم الذي رفض كل المكرسات التقليدية في مجتمعه..

قبل السواعد، هناك الرأس..

والعمل هناك فيه متسع..

★ ★ ★

فلننظر إلى المشهد مجدداً..

الشيخ الجليل وابنه يرفعان القواعد، في قلب الصحراء، في ذلك الواد الذي بلا

زرع.. وأنت تلتحم مجدداً بالمشهد وتكاد تصير جزءاً منه.. قطرة العرق التي تجري على جبينك، لا تدري إن كانت من عرقك أو من عرق الشيخ الجليل أو ابنه.. هل ستشعر بالخجل أو بشيء من الحرج.. لأنهما شمرا عن سواعدهما واتسخت كفيهما وملابسهما بمواد البناء، بينما أنت لم تمد يدك.. ولم تتعود أصلاً أن تمد يدك في أمر يمكن لعمال البناء أن ينجزوه بدلاً عنك..

.. هل تفكر أن تتبرع بمبلغ من المال يسد مسدك في أجرة يد عاملة..

هل تضع يدك في جيبك لتفعل ذلك؟..

لا تفعل. فلن يسد مالٌ مسدك..

هذا الأمر لا يمكن أن يقوم به عامل أجير.. لا يمكن لأجرةٍ أن تقنع أحد ما.. بالعمل..

يجب أن تكون مقتنعاً، يجب أن تكون ملتحماً بالعمل، ولو كان بلا أجر، ولو أنك ستدفع من جيبك..

.. هكذا ترتفع القواعد..

★ ★ ★

.. تضعنا تفاصيل المشهد أمام نهاية مفتوحة..

فالآية الكريمة تصف عملية رفع القواعد.. ولا تضع لنا نقطة تنهيها..

لا نرى أبداً عملية إنهاء البناء.. لا نرى احتفالاً بالافتتاح، ولا نرى إبراهيم وإسماعيل وقد جلسا على جنب بعدما أنهيا العمل..

لا.. النهاية مفتوحة.. رفع القواعد مستمر.. ولا نقطة تضع حداً لهذا العمل..

.. وأنت جزء من المشهد.. أنت تسهم فيه..

والنهاية بعيدة، مادام رفع القواعد مستمراً..

بالرؤوس والسواعد..

فشمر عن ساعديك إذا .

وقبلها: شمر عن رأسك !.

حرّك به العالم

لو أن الأوراق تنطق، لكنا سمعنا أشياء كثيرة..

كانت أوراق النعي ستحكي لنا عن حقيقة لا تتغير، وأوراق الخريف كانت ستحكي لنا عن حتمية التحول، أوراق رسائل الحب ستحكي لنا عن مشاعر ما لبثت أن انطفأت ووعود ما لبثت أن أخلفت..

أوراق الجرائد ستحكي لنا عن كلام لم يصدقه أحد.. وأوراق التظالم والشكاوي ستحكي لنا عن قهر سري ودموع بعضها نزل، وبعضها تكبر ولم ينزل..

أوراق المحاكم ستحكي لنا عن أناس قضوا ظلماً كل أعمارهم خلف القضبان، وعن آخرين، ظالمين، استطاعوا أن ينجوا بفعلتهم بسبب نسب أو حسب أو مال..

أوراق ستحكي لنا عن شهوة الإنسان نحو المعرفة، نحو المجهول، وأوراق أخرى ستحكي لنا عن كيف حاربوا هذهِ الشهوة، كيف قمعوها، ووضعوا لها قوالب وقضباناً..

لو أن الأوراق تحكي، لما كانت هناك لحظة هدوء..

★ ★ ★

لكن تخيلوا لو أن أوراقه حكت..

تخيلوا ذلك..

تخيلوا لو أنها نطقت، لو أنها كسرت حواجز الصمت والسكون..، وقالت..

تخيلوا ماذا ستقول..

أتحدث عن أوراق ذلك الكتاب..

الكتاب الذي على الرف..

القرآن..

★ ★ ★

هل ستقول أنها ستعاتبنا على الهجر مثلاً؟..

هل ستقول أنها ستشتكي لأننا لا نمر عليها إلا في رمضان؟..

هل ستقول أننا حتى عندما نقرأ، فإننا نفعل ذلك دون أن نقرأ حقاً.. نمر على الكلمات والأحرف دون أن نحاول أن نفهم شيئاً..

.. ستقول الأوراق ذلك.. ستضج وهي تصيح بذلك..

لكنها ستقول أشياء أخرى.. أهم..

★ ★ ★

ستتذكر تلك الأوراق، المناسبة التي وضعت فيها تلك الآيات في أوراق للمرة الأولى..

ستتذكر كيف جمع القرآن من جريد النخيل أول مرّة.. ونقل إلى ما كان وقتها أوراقاً بالمعنى المعاصر..

كان ذلك هي المناسبة الأولى.. وكان سبب ذلك أن القتل اشتد بالحفظة.. فخشي على القرآن من النسيان..

إذا قبلها كان القرآن في الصدور، في العقول، في الرؤوس..

.. كانت الأوراق مجرد وسيلة..

لكن، شيءٌ ما حصل.. وتحولت الوسيلة إلى سجن كبير.. تحولت إلى غاية بحد ذاتها..

كان في الصدور، ولذلك فإنه يشع، ينير الدرب، يدل على الطريق..

لكن لما صار في الأوراق، وأبعَد عن الصدور..

حصل ما حصل.. وضعنا..

★ ★ ★

ستقول لنا الأوراق أن ما يفترض أن يكون تكريماً لها، هو أكثر ما يغيظها.. وأكثر ما يشعرها أنها منفية بعيداً عن دورها ومكانها الحقيقي..

ستحكي لنا الأوراق عن دورات حفظ القرآن، والاحتفالات في نهايتها، وتكريم الفائزين..

ستحكي لنا الأوراق، أن ذلك الذي في ظاهره تكريم واحتفاء بالقرآن، يكرس ابتعاده عن المكان الذي يفترض أن يكون فيه..

ستحكي لنا عن المنفى الذي وضع فيه القرآن..

بعيداً عن المكان الذي يجب أن يكون فيه..

★ ★ ★

ستقول لنا الأوراق أن «الحفظ» قد نهم خطأً، وأنه قد عومل بشكل أبعد ما يكون عن الحفظ الحقيقي..

الحفظ الحقيقي، محافظة الكلمات على مواقعها الحقيقية، حيث يجب أن تكون: في الرؤوس، والعقول،بوالصدور..

وليس في الألسن، وخلايا الذاكرة..

الحفظ الحقيقي يكون في أن ينزل الكتاب من الرف، لا أن يصير الإنسان نفسه كتاباً آخر من الكتب المركونة على الرف..

الحفظ الحقيقي، يكون في المحافظة على فعالية الكلمات، على دورها، على أدائها..

الحفظ الحقيقي، يكون في المحافظة على انتقال الكلمات إلى الواقع، وتغييرها للواقع، بل في بنائها لواقع جديد..

الحفظ الحقيقي يكون في «قلب الواقع».. في قلب كل أمر، في جوهره..

لا في حفظ القرآن على «ظهر قلب»..

★ ★ ★

.. ومنذ البداية المبكرة، جاء التنزيل الحكيم ليضع إشارات مهمة.. على صعيد التعامل مع القرآن..

وقال، مخاطباً الرسول الكريم، وهو يوضح مفصلاً من مفاصل التعامل مع القرآن..

﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ﴿١٦﴾﴾ [القيامة].

.. **الأمر ليس بتحريك اللسان.. الأمر أكبر وأعمق من ذلك، الأمر أهم من عضلة اللسان.. فلا تتصور أن الأمر ينتهي هناك..**

لا تحرك به لسانك لتعجل به.. بل انتظر لتحرك به القلوب والعقول، والمكرسات التي في العقول، انتظر لتحرك به الإنسان، وبه، بعد أن تحركه، ستحرك الواقع..

.. ولأن الأمر أبعد من مجرد قراءة وحفظ باللسان، فإن الآية الكريمة اللاحقة - فوراً -:

﴿إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ﴿١٧﴾﴾ [القيامة].

والجمع هنا، ليس ما ترسب في أفهامنا فحسب، من جمع الآيات بعضها ببعض - بل جمع الآيات مع نظيرها الواقعي، (جمعه) - جمع القرآن - مع الواقع.. أي جعله ملتحماً بالواقع في سبيل تغييره وإعادة تشكيله..

جمعه وقرآنه.. أن يكون المجتمع قرآنياً..

ولا يكون ذلك أبداً بالتحريك باللسان..

لذلك«لا تحرك به لسانك..»

إنما عقلك هو الذي يجب أن يتحرك..

★ ★ ★

.. وتابع الآيات،«فإذا قرأناه.. فاتبع قرآنه.. ثم إن علينا بيانه..».

فإذا قرأناه - ماذا يحصل..، ما هو جواب الشرط في هذه الآية..

هل هو أن تسارع بالحفظ الصم - هل هو أن تحرك لسانك وتكرر حتى لا تنسى..

لا..

الآية تقول: فاتبع قرآنه..

الاتباع هنا، أو على الأقل في بعد من أبعاده المتعددة، أن تتبع الكلمات وهي تذهب إلى الواقع..

الاتباع هنا، أن تجعل الكلمات تقودك إلى الواقع، تتبع أثرها وهي تحملك - وأنت تحملها على ظهرك..

.. من أجل الواقع..

ثم يكون ماذا - بعد أن (تتبع) هذا النوع من الاتباع..

﴿ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ ﴿١٩﴾ ﴾ [القيامة]..

ثم يكون البيان - البيان الأكمل - والأتم - والأكثر وضوحاً للقرآن..

لا يكون إلا بعد المرور بهذِهِ المراحل..

عندما يتوهج المعنى، في الواقع..

.. ولا يكون الأمر، أبداً بتحريك اللسان..

★ ★ ★

.. وتدلنا الروايات التاريخية، عن عدد الذين شاركوا في جمع القرآن - لاحقاً - في عهد سيدنا عثمان بن عفان رضي الله عنه - أن عدد الحفاظ من كبار الصحابة، (على الأقل من كانوا على قيد الحياة آنذاك) كان محدوداً جداً..

.. وتدلنا روايات أخرى، عن كون بعض كبار القواد، الذين ساهموا في بناء الدولة الإسلامية، كانوا لا يحفظون غير قصار السور.. وكانوا يصلون بها، دون أن يشكل ذلك مشكلة لديهم على الإطلاق..

لماذا؟..

لأن المشكلة حقيقةً هي في فهمنا نحن للأمر.. لم يكن لديهم مشكلة في هذا لأن القرآن كان بالنسبة لهم واقعاً، وسلوكاً، وتجسيداً حياً..

كان بناءً للواقع،.. ولم تكن الحالة اللسانية، إلا «أداة» مثلها مثل «الحالة الورقية» - ليس أكثر من وسيلة، من جسر للعبور نحو الهدف الأهم..

★ ★ ★

.. لم نعرف أبداً أن هؤلاء الصحابة أو التابعين ممن بنوا الحضارة الإسلامية الأولى الشامخة ولم يكونوا قد حفظوا أكثر من قصار السور، قد انتظموا في دورات لحفظ القرآن..

.. ولم نعرف أبداً - ولن نعرف ذلك - أنهم اتخذوا «الحفظ الأصم» هدفاً وغاية.. أو أنهم عقدوا المجالس من أجل ذلك..

كان الحفظ يأتي كتحصيل حاصل.. كان الحفظ يأتي كنتيجة لواقع«حافظ»على المعاني..

وكان حفظ اللسان، مجرد تصديق لعضلة، مرتبطة بخلايا الذاكرة، لأمر أكبر.. في المجتمع - الوعاء.. ككل..

★ ★ ★

.. ولو أن الأوراق تتحدث، لقالت لنا - همساً حمياً.. أشياء كثيرة.. لكانت قالت لنا، كما قال هو، أن لا نحرك اللسان به، بل نحرك العقل، نحرك الواقع..

نحرك هذا الحجر الجاثم على رؤوسنا.. لنغير العالم..

.. ولو أن الأوراق تتحدث، لقالت لنا أن نذهب إليها، ونمسح عن رؤوسنا - لا عنها الغبار..

ستقول لك أن لا تتعامل معه كالمرابي اليهودي«وتقول إنك ستقرأ جزءً كل يوم، أو كل أسبوع.. أو كل شهر..

ستقول لك: لا تضع حدوداً.. ولا حواجز.. ولا عوائق أمامك

.. إنما وضعت التقسيمات - إلى أجزاء - وإلى أحزاب - لتسهل الانطلاق، لا لتعيقه..

فانطلق إذن.. كمهر طليق في براري الضياء..

انطلق بلا حدود أيها الفارس، لا قوانين مرور تحدك هناك: لا (قف) ولا (تمهل) - لا (طريق وعر).. ولا (منحنٍ خطر).

وحلق فيه عالياً.

لن يرهقك التحليق صعوداً، بل سيرهقك، في كل مرّة أكثر..

دعه يتقدم في مجاهلك وأغوارك وعقدك ومخاوفك..

دعه يطرد الخفافيش التي عشعشت منذ أجيال في زواياه..

افتح له نوافذ قلبك.. أزح الستائر المسدلة والأغطية العتيقة..

انفض برياحه الغبار المتراكم على صماماتك.. ولتغمد الشمس نفسها في حياتك..

فليتقدم - كما الربيع - ليكون فصلك الأساسي والنهائي، بعدما تعاقبت على حياتك الفصول: فصل الزمهرير، فصل الخيبة، فصل اليأس.. فصل السبات..

ليكن ربيعاً لقلبك.. تزهر فيه الأغصان الجرداء، وتخضر الأرض القاحلة..

اعتبر أنه قصة حياتك، وبين دفتيه اعرف نفسك..

قل لنفسك: نعم، هنا وضعني الله في الاختبار، هنا فشلت، هنا أزلني الشيطان.. وهنا أخرجني من الجنة..

.. ستقول لك الأوراق: وهنا هدَاني الله، هنا عدت إليه - هنا تبت إليه وطرقت أبوابه.. هنا قبلني وفتح لي أبواباً ما أغلقها قط..

قل لنفسك: وهنا سوف أهاجر، وهنا سوف أصبر، وهنا سوف أوجه وجهي إليه.. وأسلم نفسي إليه..

.. وهنا سوف يعزني بعد ذل، ويقويني بعد ضعف، ويعينني بعد حاجة..

ليكن قصة حياتك - تستكشف فيه ما سيطلع لك..

ويكذب المنجمون دوماً، لكن يصدق هو..

ليكن شخصياً جداً: اتخذ من أسباب نزوله، أسباباً لصعودك !..

عندما تقرؤه، دعه يقرؤك..

ولا تدعه يكون كتاباً على الرف - بل كن أنت (هو)..

.. ستقول لك الأوراق: لا، لا تحرك به لسانك..

إنما التحريك لأمر أكبر !!

قليل من التقلب، كثير من اليقين

في كل خطوة نخطوها في درب حياتنا، هناك مفترق طرق..

نعم، في كل خطوة، مهما كانت صغيرة، هناك مفترق طرق كبير وضخم.. أكبر من الخطوة بالتأكيد..

.. نتصور دوماً أن مفترقات الطرق، وتقاطعاتها، لا تقع إلا بعد مسافات طويلة من الطريق..

لكن لا..

مفترقات الطرق، وخياراتها المتعددة، موجودة في كل خطوة، بل في كل لحظة..

هناك دوماً طريق للعودة، طريق للاستدارة.. طريق لتغيير المسار كله، وطريق للمراجعة..

.. هناك دوماً فرصة لتغيير الطريق..

في كل خطوة، مهما كانت صغيرة، توجد فرصة كبيرة..

.. وفي أغلب الأحيان، تكون مفترقات الطرق هذهِ غير مرئية بالنسبة لنا..

ليس لأنها صغيرة - ولكن لأن استعمالنا لأعيننا ولعدساتها وللعضلات التي تحركها، كله كان بشكل لا يجعلنا نرى مفترق الطرق في كل خطوة على الطريق..

إننا، أجلكم الله، مثل دابة وضعوا على أعينها عصابة تجعلها لا ترى إلا أمامها..

.. كذلك نمط الحياة، ورؤيتنا للعالم، تضعنا في قوالب معينة، تحدد طريقنا، تحدد طريقة عيشنا..

في نمط حياتنا هذا، لا مجال لأن نرى أن ثمة مفترق طريق.. وأن ثمة إمكانية لتغيير نمط الحياة.. للعودة إلى الخلف قليلاً، أو لتغيير المسار..

إنه نمط حياة يفترض أنه النمط الوحيد الصالح للحياة..

وكل شيء آخر هباء..

لكن حتى الدواب تتمرد أحياناً، وتنظر إلى الجهة الأخرى..

والإنسان، بما كرمه الله به من أدوات عقل، أحقُّ بهذا التمرد..

الإنسان أحق أن ينزع عن عينيه تلك العصابة.. ويقلب وجهه، بحثاً عن مفترقات طرق..

نعم، يحتاج الإنسان إلى أن يقلب وجهه.. بحثاً عن الوجهة الأفضل، يحتاج أي إنسان إلى ذلك..

حتى لو كان نبياً..

بل حتى لو كان خاتم الأنبياء..

وبالذات لأنه كان خاتم الأنبياء، فقد احتوت تجربته النبوية على تقلب الوجه بحثاً عن الوجهة الأفضل..

.. التجربة الخاتمة يجب أن تعلم الإنسانية ذلك، يجب أن يكون ذلك من دروسها المهمة..

لأنها، بعد أن تنتهي الرسالات والنبوات، عليها أن تقوم بذلك، بنفسها..

على الإنسانية أن تقلب وجهها لوحدها، من تلك اللحظة فصاعداً.. عليها أن تبحث في مفترقات الطرق عن طريقها الأفضل.. عن خيارها الأنسب..

﴿ قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي ٱلسَّمَآءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَىٰهَا ﴾.. [البقرة: ١٤٤]..

.. وجهه الكريم يتقلب إذن..

هل نستطيع أن ندخل هذا المشهد، أم أن حضوره الشريف ومهابته سيجعلنا نقف عند حافة المشهد دون أن ندخل..

هل النور الذي ينبعث من وجوده في المشهد سيجعلنا نخشى الدخول؟؟

عل العكس..

النور سيجذبنا..

لن نسقط في دوامة النور، بل سنذوب فيها لندخل المشهد..

★ ★ ★

وهل ستحتاج أن تخلع نعليك، لأنك في الواد المقدس؟؟..

لا، ليس حتماً..

يكفي فقط أن تخلع قناعاتك السابقة..

.. وادخل المشهد المنير بحضوره الكريم..

★ ★ ★

سيوسوس لنا شيء، ربما هو من بقية قناعاتنا السابقة التي تركناها عند الباب قبل أن ندخل المشهد،.. سيقول لنا أن نحاول أن نفهم أن ذلك التقلب كان حيرة..

سيقول لنا أن ذاك مساس بالمقام النبوي الكريم..

سنقول له: على العكس، أن حضوره الكريم يزداد إشعاعاً بهذا التقلب..

سنشعر أنه عليه الصلاة والسلام أقرب إلينا، أقرب من قبل، وأنه بتقلبه ذاك يختصر الحيرة الإنسانية..

سيحكي لنا تقلبه ذاك، عن حق الإنسانية في الحيرة، في البحث عن الجبار..

سيختصر بوجهه الشريف بينما هو يتقلب في السماء - فصلاً من أهم فصول الحكاية الإنسانية..

سنستشعر أن قلقنا وحيرتنا لم يعودا «نزوة» أو «عيب» يجب أن نخفه..

بل صار مرحلة.. مرحلة من مراحل نضوج وتطور الإنسانية..

وعلينا أن نعبرها..

بل صرنا نشعر أن تقلب وجهه الكريم سيساعدنا على عبور ذلك كله..

الآن صار النور أكثر إشعاعاً..

وأكثر دفئاً..

★ ★ ★

تعودنا أن نأخذ الآية الكريمة ببعد واحد فقط من أبعادها اللا متناهية..

لكن التعامل مع القرآن الكريم وآياته المعجزات، يجب أن يكون من خلال عدسة هي كموشور..، يظهر أبعاداً متعددة بكل آية، ويتعامل مع كل كلمة في الآية كاشفاً أطيافها المختلفة التي تشكل - متحدة - الحزمة القرآنية المعجزة..

تقلب؟

التقلب يفهم دوماً بشكل سلبي، على أنه دليل على عدم الحسم وعلى عدم القدرة على اتخاذ قرار..بالذات هو يفهم على أنه يصدر من شخص غير مؤهل ليقود الآخرين...

لكن هناك أيضا على الجهة الاخرى فهم آخر لتقلب إيجابي هو في حقيقته مصدر قوة للفرد والمجتمع..

هناك تقلب من أجل الوصول إلى القرار الأمثل والحل الأكثر مناسبة للوضع..

وهناك تقلب لأن الواقع والسياق يتغير مما يتطلب تقلبا للوصول إلى نفس النتائج الاولى أو ما هو أفضل منها..

التقلب بكل الأحوال أفضل من الثبات على الخطأ..

أو أفضل من الثبات على صواب قد يكون هناك ما هو أصوب منه

التقلب عملية مراجعة ايجابية..

ومن هذا القبيل كان تقلب وجهه الكريم..

تقلبا إيجابيا...كريما..

★ ★ ★

وفي لغة العرب أن التقلب يعني«تحول الوجه».. وأن الوجه هو القصد والنية.. **وهكذا فالآية الكريمة تأخذنا فورا إلى دواخله الشريفة: إلى جوانيته وباطنه الكريم.. لا كذب لا تزوير لا محاولة لطمس الحقيقة..**

بل فخر عظيم بأنه إنسان وأن الرسالة لم تسلب منه حقه في التقلب، حقه في البحث عن الخيار الأفضل..

حقه في القلق أثناء ذلك كله..

ولقد سجلت لنا الآيات الكريمة ذلك ونقلته لنا..

بل إننا من حقنا الاحتفال بذلك: أن نحتفل بحقنا في ذلك، بالضبط كما نحتفل بتحويل القبلة..

فذلك القلق والتقلب هو الذي أدى للتحويل..

ولولاه ما كان صار..

★ ★ ★

ويمكن أن نفهم هذا التقلب نزوعا مستمرا نحو الحل الأفضل..يمكن أن نفهمه متجليا في سلوكه عليه أفضل الصلاة والسلام الذي لم يأنف من استلهام تجارب الحضارات الاخرى...حتى لو كانت حضارات وثنية وبعيدة عن الله عز وجل كما حصل في تجربة حفر الخندق التي كانت غريبة تماما عن نمط تفكير العربي التي كانت تعتمد على الكر والفر أسلوبا وحيدا للحرب..

كما أن أسلوب القتال «بالصف» والذي توضح بآية قرآنية كريمة في سورة الصف، كان يعكس مفارقة كبيرة لأسلوب الكر والفر...و يعكس أن التقلب - بالمطلق- بحثا عن الحل الأفضل والأسلوب الأمثل كان ينتج دوماً تجليات في شتى المجالات...

لم تمنعه مكانته الكريمة عليه الصلاة والسلام من أن يسمع من امرأة أو شيخ أو غلام..كانت «الشورى» في سلوكه هي المرادف الطبيعي، والنتيجة الطبيعية، لقابليته - عليه الصلاة والسلام- للتقلب بحثا عن الأفضل..

الشخص الذي يحمل في دواخله قابلية أن يقلب وجهه بحثا عن «المقصد الأفضل» هو شخص يحمل في داخله بذرة «شورى»: أنه لا يستنكف من استشارة الآخرين ومن استلهام العبرة من تجاربهم..

وعندما يكون هذا ليس مجرد «شخص عادي»، ولا حتى «شخص غير عادي» بل هو آخر الأنبياء وخاتم سلسلتهم فأن تقلب وجهه الكريم يكون بمثابة إشارة إلينا نحن: تقول لنا أن تقلبوا دوماً نحو الأفضل...أن قلبوا وجوهكم بلا خشية، ولا خجل.. ولا وجل..قلبوا وجوهكم نحو الحقيقة دوما..

لأنكم إذا ثبتم هذه الوجوه نحو ما تعتقدون انه الزاوية الأفضل لرؤية الحقيقة، فإن الحقيقة نفسها ستعاقبكم بالابتعاد عنكم..

الحقيقة لا تأتي بعلب جاهزة..

بل لا بد من دفع ثمنها: قلقا وأرقا وتقلبا..

★ ★ ★

ومن المفترض أن يكون الرسول الذي يتلقى التوجيه المباشر من رب العزة، أن يكون الأقل استشارة للناس والأقل تقلبا: ففكرتنا السقيمة أن الحقيقة تأتيه بلا تعب..بلا جهد.. ولذلك فهو لا يحتاج إلى استشارة احد..

ما أبعد هذا عن «الحقيقة» التي كانت على أرض الواقع...فقد كان عليه الصلاة والسلام يكثر من مشورة أصحابه...

ليس بالرغم من تنزل الوحي عليه: بل بسبب ذلك..

لأنه الوحي الأخير: فرصتنا الأخيرة في تعلم أشياء كهذه..

★ ★ ★

تقلب وجهه الكريم في السماء..

لكن الجواب الذي سيأتي سيشير إلى جهة أرضية، إلى الأرض!!..و سيكون ذلك بمثابة دليل لنا، لو أردنا أن نفهم ونعي حقا ،أن الأجوبة دوماً في الأرض..وأن علينا نهتدي بهدي السماء في التنقيب في الأرض..وأن«حفارة»السماء يجب أن تنقب في الأرض، من أجل حل مشاكل وأزمات الأرض..

«حفارة» السماء، وهذا التقلب المستمر بحثا عن حق أكثر حقا، يجب أن يسخر من أجل حل مشاكل الأرضيين: سكان ذلك الكوكب المسكين الذي فقد رشده والذي اسمه الأرض..

من أجل هذا كله..

فإن القلق والتقلب قد يكون شيئا مثمراً جداً وإيجابياً جداً..

وقد يستحق الاحتفال، بدلاً من حبة المهدئ..

أشياء لا تقال

سواء كان المؤذن قد نادى بالصلاة عبر مذياع المسجد القريب أو جاءك صوته عبر أثير بارد...عبر شاشة تلفاز باردة أو عبر شاشة حاسوبك وبرنامج الأذان المنصب فيه..

حان وقت الصلاة..وفي أحسن الأحوال ستذهب مسرعاً لتتوضأ كما تعلمت وتعود لتفرش السجادة..

وترفع يدك بتكبيرة الإحرام..

هل نسيت شيئا؟؟

لا تنس النية طبعا..

لكن قبل النية: هل نسيت شيئا؟؟

لماذا فرشت سجادة الصلاة بهذا الاتجاه بالذات؟

إنها القبلة طبعا.. ما هذا السؤال..

نعم القبلة..

لكن، قبل أن تصلي: هل فكرت بمعنى القبلة؟؟

★ ★ ★

ولأننا ننظر إلى القرآن بعين مجردة بدلاً من الموشور المضيء، فقد وجدنا بعداً مسطحاً واحداً لكل آية، وتصورنا أنه البعد الوحيد، والأوحد.. والذي لا شيء خلفه ولا بعده..

.. وهكذا فإن هذه الآية «قد نرى تقلب وجهك..» فهمت أنها تتعلق فقط بمسألة تحويل قبلة الصلاة من المسجد الأقصى في القدس الشريف، إلى الكعبة في مكة المكرمة..

وغالباً ما يجري الاحتفال بتلك الذكرى باعتبارها تحويلاً لجهة القبلة في الصلاة..

لكن لو أزحنا عدسة العين المجردة، ووضعنا مكانها مجهراً ينقب في كنز المعاني، أو تلسكوباً يبحر في الأعالي، أو موشوراً يحلل النور القرآني..

.. وقبل أن نقف عند معنى تحويل القبلة..

علينا أن نقف، بل نغوص، في عمق معنى القبلة نفسها.

★ ★ ★

القِبلة !..

غالباً ما يتم التعامل معها بلا معنى بلا محاولة للوقوف عند معنى، ناهيك عن الغوص في منجم المعاني..

القِبلة عوملت كما لو أنها تملك من الأسطح بقدر ما تملك سجادة الصلاة، عندما نضعها باتجاه القِبلة..

لم يكن الأمر غير ذاك: الاتجاه عند الصلاة..، بناء المسجد يكون على هذا الأساس وأمور مقاربة يجب مراعاتها عند بناء الحمام - مثلاً - أو عند الدفن..

.. ولأن الأمر ليس أكثر من ذلك: فقد تم الإفتاء أن راكب الطائرة أو السيارة - أو الكبسولة الفضائية - يمكن له أن يصلي بأيّها اتجاه كرخصة لصعوبة تحديد القِبلة أثناء ذلك..

إنه سطح واحد - ببعدين.. يخيل لك أحياناً أنه بعد واحد من شدة الضيق..

ولكن القِبلة، لها معانٍ بوسع فضاء لا متناه..

★ ★ ★

ليست القبلة اتجاها للصلاة. وليس ذلك إلا مظهراً خارجياً لها..

ويبدو فهمها على أنها اتجاه للصلاة فحسب، مثل تلخيص شخصية تاريخية - مثل عمر بن الخطاب - بأنه كان فارع الطول.. أو علي بن أبي طالب أنه كان قصيرها..

ليس «اتجاه الصلاة» - إلا مظهراً خارجياً لأمر شديد العمق..

واختزال الأمر، وتلخيصه، إلى أنه الاتجاه نحو مكة المكرمة، وهو أمر يمكن لبوصلة أجنبية الصنع أن تفعله، هو أمر يقزِّم كل المعاني العملاقة.. ويقتلها..

لنحاول أن نفهم الأمر كما بدأ وقتها..

كان المسلمون، يتجهون للمسجد الأقصى عند صلاتهم في أول الأمر..

هل كان الأمر مجرد اتجاه في الصلاة؟.. هل الأمر مجرد (جغرافية) - أن يصلي المسلمون في مكة أو المدينة باتجاه القدس؟؟

إذا كان الأمر كذلك.. فهو بلا معنى..

كان عرب الجاهلية يعظمون الكعبة، بيت الله الحرام، التي امتلأت بالأوثان التي تمثل - بتعددها - تفكك النظرة الجاهلية، وتفتتها، وعبوديتها لآبائها وعشائرها..

كانت الكعبة بشكلها ذاك - رمزاً للجاهلية، تعظيمهم وتقديسهم لها - كان يمثل اعتناقاً للرؤية الجاهلية للعالم..

.. وكان التوجه إلى المسجد الأقصى، بيت المقدس، يمثل انسلاخاً من تلك الرؤية الجاهلية.. وقطيعة معها..

لم يكن من الممكن، أن تعود المعاني الأصيلة إلى الكعبة على الفور.. وكل تلك الأوثان في داخلها.. لا تعكر صفو المشهد فحسب، بل تشوهه وتغبِّشه.. وتحرفه تماماً..

لم يكن من الممكن إصلاح الرؤية إلا عبر ارتكاب القطيعة الكاملة.. ليس مع الكعبة – ولكن مع الرؤية الوثنية التي سكنت في رؤوس الناس حول الكعبة..

.. ومع كل اعتزاز العرب بالكعبة، بل بسبب ذلك وسبب تقديسهم لها، كان يجب أن تحدث القطيعة معها..

.. والاتجاه، إلى بيت المقدس..

★ ★ ★

.. ولم يكن ذلك سهلاً على العربي، على المسلمين الأوائل بينما رؤوسهم قيد التشكيل والتكوين..

كان الأمر أصعب من خلع ضرس بلا مخدر..

كان الأمر بمثابة قلع (رأس)..

ووضع رأس آخر مكانه..

★ ★ ★

.. وكان ما يزيد الأمر صعوبة، هي وضع ذلك الرأس الآخر، أي الاتجاه إلى بيت المقدس..

كان العرب – مثل أي قوم آخرين – يعتزون بنسبهم.. ويعتبرون، كما يعتبر أي قوم آخرين، أنهم الأفضل..

وكان الاتجاه إلى بيت المقدس، يستفز هذا الشعور القومي.. الحِمية للأهل وللعشيرة وللقوم بشكل عام..

أن تتجه إلى ما يتجه إليه قوم آخرون، بعد أن تترك ما يتجه إليه قومك.. قد يعني أنك، ضمناً، صرت في تبعيتهم..

وكان ذلك مهماً جداً.. ولو بشكل مرحلي..

★ ★ ★

كان وضع القبلة باتجاه المسجد الأقصى خطوة مهمة في القطيعة مع الجاهلية..

.. أنت الآن صرت في وضع جديد.. و(قبولك) بالتبعية لِقِبلة أهل الكتاب، جزء أساسي من عقلية إعادة تشكيل رؤيتك للحياة..

إنه أن تقبل الحقيقة حتى لو كانت من غير قومك.. إنه أن تقبل الصواب حتى لو كان غير كل ما تعلمته طول عمرك..

إنه أن تقبل حقائق الأشياء.. حتى لو كانت تلك الحقائق، غريبة عن منظومتك الفكرية السابقة برمتها..

إنه أن ترضخ، للحقيقة، حتى لو كانت جارحة..

حتى لو قال لك الآخرون - وقتها - إنك محض تابع لأهل الكتاب..

★ ★ ★

ما كان يمكن الانسلاخ، عن الرؤية الجاهلية للحياة - إلا عبر تبني رؤية - كتابية - أقرب مهما كان للصواب - ولو رمزاً..

.. والمسجد الأقصى، يمثل طرفاً (قصياً) في البعد عن الرؤية الجاهلية..

.. كان يمثل منظومة أهل الكتاب.. وكان العرب أميين.. والتحول إلى المنظومة الكتابية، كان وثبة عملاقة.. ونقطة تحول مهمة جداً.. حتى لو كان «لأهل الكتاب» أنفسهم مواقف معينة..

لكن الانسلاخ من رؤية الحياة كان يتطلب ذلك..

★ ★ ★

لكن ذلك كله، لم يكن إلا بشكل مرحلي.. وعابر.. كان مهماً جداً، من أجل إنجاز القطيعة مع الكعبة التي امتلأت بالأوثان...

.. كانت القبلة باتجاه المسجد الأقصى، تمهيداً ضرورياً لقبلة نحو كعبة بلا أوثان..

كانت رؤية الحياة - من خلال منظومة أهل الكتاب - بديلاً مرحلياً - لرؤية الحياة الجاهلية..

★ ★ ★

«قد نرى تقلب وجهك..»..

تقلب وجهه الكريم، عندما شعر أنه قد آن الأوان..

عندما استشعر الرؤوس القديمة قد خلعت تماماً.. وأن الرؤوس الجديدة.. صارت جاهزة..

جاهزة لماذا؟..

جاهزة للوثوب، للانطلاق، جاهزة لفضاء جديد تستطيع أن تبدعه وتحلق فيه..

صارت الرؤوس الجديدة جاهزة، ولم يعد يناسبها إطار «أهل الكتاب».. صارت منظومتهم ضيقة بالنسبة للرأس الجديد.. ضيقة من جهة، ومترهلة من جهة أخرى..

قبلة أهل الكتاب لم تعد مناسبة..

وصار يجب أن يغادر الرأس الجديد تلك المنظومة.. كتطور حتمي..

كان الأمر يشبه أدوار استحالة، المرور بها ومن خلالها، ضروري للوصول إلى الطور النهائي..

★ ★ ★

.. وفي مفترق الطرق، بين طور وآخر، من أطوار الاستحالة، كان وجهه الكريم يتقلب..

.. ولم يكن وجهه يبحث عن جهة جغرافية.. بل كان يبحث عن رمز لرؤية الحياة الجديدة.. رؤية الحياة البديلة، التي هي ليست الرؤية الجاهلية، ولا رؤية أهل الكتاب..

إنها رؤية مختلفة، تنهل من منبع آخر، منبع صافي..

إنها رؤية أخرى تقتفي أثر تلك الخطوات الإبراهيمية، في الصحراء، وصولاً إلى الواد الذي بلا زرع..

وكان الاتجاه إلى المسجد الأقصى، ضروري ليس من أجل نسف الأوثان التي ملأت الكعبة فحسب..

ولكن من أجل نسف كل ذلك التراكم الذي ران على إرث إبراهيم..

إنها رؤية جديدة للعالم - ومنظار جديد.. للأمور..

كان وجهه الشريف يتقلب من أجل تلك العدسة التي ستلصق على العين الإنسانية.. عدسة ستكون متعددة الأبعاد، مجهر يقتحم المجاهل، وتلسكوب يقرب

.. ومسبار يغوص في الأعماق وينقب في الكنوز..

البحث عن القبلة، هو بحث عن عنوان لرؤية الحياة التي شكلها الإسلام.. كانت الرؤية الجديدة للحياة قد اكتملت فعلاً - عبر تلك الثورة التي شكلها الإسلام على الواقع الجاهلي - ومجتمعه البديل الذي أقامه على أرض المدينة وفي نفوس أهلها..

لكن تلك الرؤية احتاجت إلى هوية.. احتاجت إلى أن تسلخ نفسها عن أي منظومة حضارية قائمة فعلاً على أرض الواقع..

«.. قد نرى تقلب وجهك..»

★ ★ ★

.. أروع ما في الآية، وكل ما فيها رائع، لكن أروع ما فيها، هو أن وجهه الشريف كان يتقلب في السماء..

لكن الجواب الذي سينزل من السماء، سيدله إلى الأرض !!..

.. الجواب سيكون في الأرض، بالذات في ذلك الواد الذي بلا زرع.

الذي شكل التحام قيم السماء بالأرض..، بمثل التحام قيم نفخة الروح الإلهية في الطين الأرضي، الذي شكل الإنسان..

★ ★ ★

وبعد القبول، يأتي الرضا..

«فلنولينَّك قبلة ترضاها..»..

نعم، أولاً هناك القبول، هناك التوجه إلى مكان تشعر به يقبل عليك بينما أنت تقبل عليه..

ثم يأتي الرضا.. ذلك الانسجام بين الرؤية والرأي، ذلك التوافق بين العدسة وبين العين والأعصاب وكل ما حولها.

إنه الرضا النابع من كون تلك الرؤية، والتي أقيم على أساسها «البيت العتيق» - الرؤية التي تتخذ التوازن مرتكزاً لها.. وتضع الإنسان في رأس قائمة اهتماماتها.. وتجعل من سد حاجاته الأساسية محوراً لانسجام المجتمع، ومن وجود فكرة الحرام سداً مانعاً أمام الفيضان مرة والجفاف مرّة أخرى..

تلك هي الرؤية - القبلة..

ولأنها مبنية على الانسجام والتلاؤم..

فإنها تورث الرضا..

« فلنولينَّك قبلة ترضاها.. »

★ ★ ★

.. ولذلك كله، فإن القبلة أمر أكبر بكثير من مجرد «جهة للصلاة».

.. إنها جهة حياتك كله.. إنها الاتجاه الذي تأخذه في مسيرتك كلها.. ليس الأمر ركعات تنقرها على جبهة الأرض في اتجاه الكعبة.. بينما تكون وجهة حياتك كلها، وعقلك،.. وكل ما فيك، يتجه نحو اتجاه آخر تماماً..

ليس الأمر أن تضبط سجادتك نحو القبلة أينما حللت، والتدقيق في ذلك، بينما قلبك يتجه نحو مكان آخر تماماً.. قد يكون مناقضاً للقبلة..

.. ولذلك، فعندما تتجه نحو القبلة، في الصلاة القادمة، حاول أن تتذكر..

هل قبلة صلاتك هي نفسها قِبلة حياتك.. هل هي منسجمة مع رؤيتك للحياة..

.. وهل غريب بعد هذا، أن لا تشعر بالرضى، **إذا كان هناك تنافر بين القبلتين..**
أليس كل نصام متعب.. ومؤذي.. ويورث عدم الرضا؟..

★ ★ ★

.. عندما تؤدي صلاتك، وتكتشف أن اتجاهك كان منحرفاً عن القبلة، فإن تصحيح ذلك أمر سهل..

.. حركة بسيطة، بزاوية معينة، للسجادة كفيل بذلك..

لكن تصحيح قبلة حياتك، رؤيتك للحياة، أمر أصعب بكثير..

.. وكما مع كل الأشياء..

فالأمور الأصعب، هي الأهم دوماً..

عود ثقاب

هل شاهدت منظر الأطفال وهم يذهبون إلى الجامع؟؟..

هل شاهدتهم وهم يدخلون دورات حفظ القرآن..

يدخلون، بثيابهم الزاهية، في أيديهم كراريسهم، وأجزاء القرآن في أيديهم.. بعضهم يرتدي في رأسه عمة صغيرة والبعض الآخر يضعها في جيبه.. يتدافعون.. يضحكون.. يلعبون.. ويدخلون..

إنه مشهد جميل، والأهل يحرصون عليه، ويحرصون على أن يتقن أولادهم الحفظ.. وربما يساهمون في شراء الهدايا التشجيعية التي توزع في نهاية الدورة..

إنه مشهد جميل فعلاً، وما يلبث أن يتكرر بعد ساعة أو نحو ذلك، عندما يخرجون من المسجد، فيملئون الشارع ضجة وحركة وحيوية.. وأحياناً طيش بريء ومشاكسات طفولية..

أجمل ما في المشهد، هو «باكورة» حفظهم..

أنهم يحفظون - على الأغلب - أول ما يحفظون «جزء عم»..

.. وهو مشهد، حري بنا نحن الكبار.. أن نكون فيه، لنستفيد منه..

★ ★ ★

﴿عَمَّ يَتَسَآءَلُونَ﴾ يحفظ الأطفال في المساجد..

يرددونها، ويهزون أجسادهم الغضّة وهم يحفظون، في ترتيل جماعي..

.. وتردد أرجاء المسجد أصواتهم، كما لو كانت أصوات ملائكة..

﴿عَمَّ يَتَسَآءَلُونَ ۝١ عَنِ ٱلنَّبَإِ ٱلْعَظِيمِ ۝٢﴾ [النبأ]

لا، ليست أصوات ملائكة..

بل صوت من أمر الله للملائكة بالسجود له..

صوت الإنسان، وهو يتعلم واحداً من أهم ميزاته - التي تجعله متفوقاً حتى على الملائكة..

ميزة: التساؤل..

العصر: صدر الإسلام..

والموضوع هو تلك الدعوة الجديدة، وذلك الرجل الذي يتحدث أن الله يوحي إليه..

إنه أمر عجيب، الله يتحدث إليه هو؟.. ولم هو تحديداً؟.. لم ليس رجل أعظم مالاً وجاهاً ونسباً..

إنه كاذب حتماً. لا. ليس كاذب. لم يعرف عنه كذب قط. بل إنه عرف بصدقه وأمانته. لعله جن إذا.. لعله قد مس بجن أو شيء كهذا..

.. ولا هذه أيضاً تبدو عليه. إنه يبدو في منتهى الرصانة..

ماذا يقول بكل الأحوال؟..

إنه يقول أشياء غريبة، لقد ترك دين آبائه وصبأ.. ماذا تحديداً؟..

إنه يتقول مثلاً عن الآلهة، ويقول إنها مجرد أحجار لا تنفع.. ولا تضر..

كيف يتجرأ ويقول هذا عن آلهة الآباء والأجداد؟؟.. بل قل ماذا سنفعل لو أنها أزيلت؟.. ماذا ستكون مكة بلا آلهة العرب؟..

كيف سنعيش وكل تجارتنا قائمة على الحجيج الذين يأتون مكة من أجل الآلهة التي فيها.. كيف يقول هذا مكي هاشمي..

هل يريد القضاء على مكة.. هل يريدنا أن نموت جوعاً..

ليس هذا فقط، بل هو يقول ما أعجب وأغرب..

ماذا أيضاً؟..

إنه يقول ما لم تسمع به العرب يوماً، إنه يقول أننا بعد أن نموت، وبعد أن تبلى عظامنا، فإن الله سيبعثنا أحياء، ويبعث آباءنا وأجدادنا..، ويجمعنا وإياهم - ويحاسبنا على ما فعلناه..

.. يا للسخرية. يا للأمر العجاب.. لقد جن الرجل حتماً.. لكن ذلك لا يبدو عليه. ماذا لو أنه لم يكن كاذباً.. ولا مجنوناً.. ماذا لو أنه كان يحكي عن ربه ما سيكون حقاً..

لكن هل يعقل هذا؟. لم.؟.. لم لا؟..

★ ★ ★

إنهم يتساءلون فيما بينهم.. عن هذا النبأ العظيم الذي جاء به الرسول عليه أفضل الصلاة والسلام. وهم مختلفون في مواقفهم. بين رفض مطلق - ورفض نسبي - وبين تشكك من الأمر كله، وبين تفحص للأمر دون موقف واضح..

إنهم يتساءلون.. وإنهم مختلفون.

إنهم ببساطة: يناقشون الأمر.. يبحثونه فيما بينهم..

.. إنهم «يتساءلون»..

لم يأخذوا جانباً - لا مع الدعوة الجديدة، ولا ضدها..

لكن تساؤلهم هذا، سيجعلهم.. على الأقل سيجعل بعضهم..

«يعلمون!»

★ ★ ★

من جديد..

﴿ عَمَّ يَتَسَآءَلُونَ ۝١ عَنِ ٱلنَّبَإِ ٱلْعَظِيمِ ۝٢ ٱلَّذِى هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ ۝٣ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ ۝٤ ثُمَّ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ ۝٥ ﴾. [النبأ]..

لطالما فهمنا أن الآيات كانت تضع التساؤل في الذم..، وتضع الكفار في موضع سلبي، لأنهم يتساءلون عن النبأ العظيم ويختلفون فيه..

لكن، في الحقيقة.. إن تساؤل الكفار هنا.. بل تساؤل أي أحد على الإطلاق.. هو أمر إيجابي.. هو نقطة شروع التي يجب أن يبتدأ منها أي أحد، للانطلاق نحو الإيمان.. أو نحو الحقيقة..

.. أو نحو الطريق - الصواب..

★ ★ ★

.. لا مفر من كون التساؤل هنا، هو محطة إيجابية..

هل نستطيع أن نتخيل أن كفار مكة - كانوا سيؤمنون فور أن جاءهم نبأ الوحي - بكل ما يحويه من أنباء عظيمة - وغريبة ومغايرة لكل معاييرهم..

حدث ذلك بالتأكيد، لكن مع أفراد قلائل، عرفوا محمداً عليه الصلاة والسلام من زاوية قريبة جداً بحيث جعلتهم يؤمنون بما جاء به على الفور..

وربما حصلت مع أفراد آخرين - كانت لديهم «تساؤلاتهم» الخاصة.. التي جعلتهم مؤهلين لقبول سريع بما جاء به عليه أفضل الصلاة والسلام..

لكن، مع ناس لم يمتلكوا هذا القرب، ولا تلك التساؤلات، لا يمكن أن نتوقع «إيماناً».. يحصل، دون أن يمر بها وصفته الآية..

لو أنهم آمنوا فوراً، وكلهم، لكان ذلك غريباً. لكان هناك شيء ما غير مفهوم. وخارج عن أي منطق. بالذات كان سيكون أمراً خارجاً عن منطق النفس البشرية والطريقة التي تسلكها..

لكن ذلك لم يحدث..

والآيات الكريمات، التي يبدأ أطفالنا بها حفظهم، تسرد ذلك المشهد، كأنها ترسمه في رؤوسهم..

﴿ عَمَّ يَتَسَآءَلُونَ ۝١ عَنِ ٱلنَّبَإِ ٱلْعَظِيمِ ۝٢ ٱلَّذِى هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ ۝٣ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ ۝٤ ثُمَّ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ ۝٥ ﴾

إنها تغرس في عقولهم، أن التساؤل، بحد ذاته، يمكن أن يكون مركباً نحو النجاة..

نحو.. الحقيقة..

نحو العلم..

★ ★ ★

المشهد الافتتاحي لهذهِ السورة، يكاد يشبه حالة غليان يمر بها المجتمع..

تبدأ بنار هادئة، ثم تزيد، ثم تنشط..

إلى أن يفور التنور..

لو أننا أنصتنا، لاستمعنا لذلك كله.. لو أننا أغمضنا أعيننا الآن، وحالاً، لسمعنا ذلك الحوار الذي دار، آنذاك والذي لا يزال يدور، بطريقة ما..

نسمع أصواتهم، همهمات، غاضبة حيناً، مستنكرة أحياناً أخرى، هازئة في أحيان أخرى..

لكنك تسمع التساؤلات. تسمع نبرة التساؤل موجودة، كقاسم مشترك أعظم في كل ذلك..

تكاد تلمح إشارة الاستفهام مرسوم في وجوههم - على جباههم..

لو أنك أغمضت لملأت إشارة الاستفهام المساحة السوداء أمامك..

.. التساؤل هنا، هو بمثابة «القادح» الذي يشعل الأمر كله..

سيكون التساؤل هنا، بمثابة عود ثقاب سيشعل النار، ستكون هادئة أولاً، لكنها ما تلبث.. أن تسري وتسري..

.. وتنشر الغليان..

بعد التساؤل، سيكون الاختلاف..

والاختلاف، في أمر كهذا، يعني أن فئة كانت مؤيدة للفكرة الجديدة، للدين الجديد.. وفئة أخرى كانت ضد الفكرة، متمسكة بما آمن به الآباء والأجداد..

كان ذلك الخلاف أمراً إيجابياً، وكما كان«التساؤل»بمثابة قادح أشعل الأمر برمته، فقد كان الاختلاف هنا مجالاً لتلاقح الأفكار، مجالاً لتوليد الآراء..

الاختلاف هنا، عبَّد الطريق، نحو النتيجة..

«كلا سيعلمون»..

والنتيجة هي أنهم «علموا».. بعدما ابتدءوا من التساؤل، والاختلاف، فإن ذلك كله تفاعل في رؤوسهم.. وأوصلهم إلى أنهم«علموا..»..

وهكذا، فقد آمن من آمن منهم..

ولفظ «كلا» هنا - هي أداة نهر لكل من يتصور أن التساؤل والاختلاف سلبٌ كله.. كلا، إنهم سيعلمون، من حيث اختلفوا بعد تساؤلاتهم سيعلمون.. وسيكون علمهم هذا هو الذي يجعلهم مؤمنين..

هل سيحدث هذا مع الجميع؟، مع كل من تساءَل واختلف؟.. مع كل من وصل إلينا صوته وهو يناقش أمر النبأ العظيم في مكة؟..

كلا، كلا بالطبع.. ليس الجميع..

لكن حتى هؤلاء، سيأتي وقت لاحق، سيعلمون فيه..

«ثم كلا سيعلمون»..

لكن يكون الوقت قد فات..

★ ★ ★

.. والتساؤل الذي يقوم بدور القادح، أو عود الثقاب هذا، لا يكون أي تساؤل، عن أي أمرٍ كان..

إنه التساؤل عن القضايا الكبرى، هو الذي يحرك المجتمعات..

إنه التساؤل عن «النبأ العظيم»..

.. وليس السؤال، لمجرد ترف السؤال !.

★ ★ ★

.. ليتنا نعود أطفالاً الآن..

ليت عقارب الزمان تعود أدراجها.. ونجد أنفسنا هناك، في ذلك الزمان الذي كان أكثر براءة، وأكثر خصوبة.. وأكثر صفاءً..

ليتنا نتراكض مع رفاقنا الآن، بملابس بيضاء ناصعة، تعكس دواخلنا وربما صفحة ذنوبنا الفارغة..

.. هانحن ندخل المسجد وفي أيدينا أجزاء المصحف، إنه جزء«عمّ» أيضاً، أول ما يحفظه الأطفال عادة.. - هانحن في حلقات.. هاهو شعاع الشمس يدخل من نافذةٍ علوية، ويغمرنا بنور كما لو أنه جاء تواً من السماء..

.. نفوسنا وعقولنا مهيأة لاستقبال البذور القرآنية، ليتنا نجد من يقوم بغرسها على نحو مختلف..، إنها خصبة والبذور فيها لن تلبث أن تكبر وتنمو لتثمر بسرعة..

البذور القرآنية، في هذا العمر، لن تكبر لتثمر فحسب..

.. بل إنها ستشكّلنا..

ستكون جزءاً منا، من جيناتنا..

.. ليتنا نعود، إلى ذلك الزمان..، ليت عقارب الزمان تعود.. بطريقة ما..وقتها، لن يجب أن نردد دون أن نفهم..

وقتها يجب أن يغرس المعنى العميق..

معنى التساؤل - عود الثقاب.. والاختلاف.. حقل التلاقح.. الذي يؤدي إلى العلم.. إلى الإيمان..

ليتنا نفهم ذلك الآن.. ليتنا نغرس ذلك في الأطفال، حتى لو لم يرجع الزمان..

لعل الأوان لم يفت بعد..

المعجزة المختلفة

«.. وما هي معجزة نبي الإسلام؟..»

سيكون هذا السؤال لاحقاً للحديث عن معجزات أنبياء ما قبل القرآن.

.. عصا موسى التي انقلبت أمام أنظار الجماهير حية تسعى».. والتي فلقت البحر لاحقاً..

.. ويدُ السيد المسيح التي عندما لمست الأكمه والأبرص، منحت، بإذن الله الشفاء.. وعندما لمست الميت، منحت، بإذن الله أيضاً، الحياة..

.. نعم، إنها معجزات معروفة.. وقد كانت سبباً في إيمان غير المؤمنين، برسالة هؤلاء الرسل..

.. وسيكون السؤال اللاحق :«.. وما هي معجزة نبي الإسلام..»

.. سنقول بلا تردد: القرآن..

.. ولكن ما معنى ذلك؟؟..

لنفترض أن محدثنا كان شخصاً غير مسلم - وهذهِ هي المرة الأولى التي يسمع بالإسلام وبنبيه وبالقرآن..

بل لنفترض أن محدثنا كان شخصاً غير مؤمن بالمرّة.. وأن هذهِ هي المرة الأولى التي يسمع فيها بأي رسالة، وأي رسول على الإطلاق..

سنقول له: أن موسى فعل كذا وكذا، وأن السيد المسيح فعل كذا وكذا، وأن الناس آمنوا بهما، واتبعوهما من أجل أفعالهما هذهِ..

سيُبهر الرجل حتماً، موتى يعودون إلى الحياة، وعصا خشبية تتحول إلى كائن حي.. أمرٌ مبهر حتماً..

«وأنتم، ماذا فعل نبيُّكم الذي تقولون أنه الخاتم؟»..

.. سنشرح له أنه جاء بكتاب تحدى به قومَه أن يأتوا بمثله، وأنهم رغم كونهم «أهل لغة وبلاغة» لم يستطيعوا ذلك..

سيبدو على الرجل عدم الفهم، لن يتظاهر أبداً بالانبهار، أو ربما سيتظاهر قليلاً جداً من أجل الحرص على مشاعرنا، لكنه سيسأل المزيد، سنقول له أن البيئة فرضت نوعية المعجزة، فالقوم الذين أعجزتهم عصا موسى، كانوا قد برعوا في السحر وحيله – وكانت عصا موسى تتفوق على ذلك بطريقة تجعلهم يستسلمون..

.. وقوم السيد المسيح كانوا قد برعوا في أمور الطب والصحة، وكانت معجزات السيد المسيح، في هذا المجال، تتفوق على كل براعة مهنية في مجال الصحة..

.. سيحك محدثُنا المفترَض رأسَه، «.. إذا قريش كانوا قومَ شعر وبلاغة، كما كان أهلُ مصر قومَ سحر، وقومُ عيسى أهلَ طب؟؟؟»..

.. سنقول نعم.. بالضبط.. مؤكدين..

لكنه سيستدرك «لكن أمور اللغة والشعر، تختلف في مقاييسها عن الطب وحيل السحر..».

سنتوقف معه: كيف؟..

سيقول: إن الأمر مختلف، فربما كان الرجلُ أكثر العرب بلاغة أو مقدرة لغوية، لكن هذهِ القدرات – لا تشبه إحياء الموتى مثلاً..

سنرتبك قليلاً: أوه لم نقل لك، لقد تحداه قومه فأشار إلى القمر وانشق، وتحرك الحجر بأمره، وسعت الأشجار راكضة إليه، وكثر الطعام بين يديه الكريمتين حتى كفى جمعاً كبيراً..

سيقول لنا: إذا هذهِ هي معجزاته، لِمَ لم تخبروني منذ البداية.

قبل أن نفسر لشخص من كوكب آخر، معجزة نبي الإسلام.. ربما علينا أنفسنا أن نفهمها كما يجب.. وكما هي..

علينا أن نفهم جوهرَ المعجزة، لبَّها الداخلي، لا شكلَها الخارجي ومظهرها فحسب..

علينا أن نفهم المعجزة، ككل كما هي، من أجل أن نفهم معجزة الإسلام..

★ ★ ★

.. في كل معجزات ما قبل القرآن.. كانت هناك مجموعة من العوامل المشتركة التي تربط هذهِ المعجزات.

هناك أولاً - التحدي: تحدي القوم الكافرين من أجل جرهم إلى الإيمان، أو المؤمنين المتشككين من أجل زيادة الإيمان..

وهناك ثانياً - الانبهار: الذي سينتج عن «احتكاك الأبصار»، بالحدث المعجز الذي كان حدثاً بصرياً بالدرجة الأولى.. حدثاً شاهده المتلقون بأعينهم.. وانبهروا به..: «عصا موسى وتحولها إلى كائن حي يسعى، الميت الذي عاد إلى الحياة تحت أبصار الحشود حول السيد المسيح»..

وهناك ثالثاً - الخضوع بعد الانبهار: إعلان العقل عجزه عن فهم الحدث - استسلامه أمام المشاهدة، إعلان العقل أن أي شيء خارق كهذا يجب أن يصدر عن قوة عليا مهيمنة تستحق الخضوع..

.. وهكذا فلا معجزة بلا تحدي.

لا معجزة بلا «قوم» يشاهدونها - سواء كانوا من الكفار أو من المتشككين..

ولا معجزة بلا انبهار بصري.. لم نسمع عن معجزة ليست بصرية، ولا يقع تلقيها على الحس البصري..

.. إنها ثلاثة أركان تشترط في المعجزة التقليدية..

لكن ليس مع معجزة نبي الإسلام، صلاة الله وسلامه عليه..

★ ★ ★

.. مع القرآن، سيكون هناك معجزة من نوع مختلف..

«المدخل» لن يكون عبر البصر هذهِ المرّة.. البصر الذي أبهرته معجزات ما قبل القرآن.

سيكون المدخل، هذهِ المرّة، هو «العقل»..

إنه القرآن الذي نزل لقوم «يعقلون»..

★ ★ ★

ولكن إذا كانت معجزات ما قبل القرآن تدخل من بوابة البصر والحس لتصل إلى إعجاز العقل واستسلامه..

فإلى أين تصل المعجزة القرآنية، وهي قد دخلت أصلاً من بوابة العقل؟؟..

نقول: إن اختلاف الأبواب، والمداخل، والوسائل، يعكس بطبيعة الحال اختلافات جوهرية..

ومن هنا يبدو بأنه لا يمكن الإدعاء أبداً، أن معجزات موسى وعيسى كانت تشبه معجزة محمد..

لا من ناحية المدخل، ولا الجوهر.. ولا حتى النتيجة..

لكن.. لماذا؟ سيقول مجادلنا..

أما كان من «الأقوى» – و«الأكثر تأثيراً» – لو أن لمحمد معجزاتٍ بالمعنى «القديم» – البصري.. أما كان كفار مكة قد آمنوا بشكل أسرع.. وربما أكبر..

في الحقيقة، كان كفار مكة يطالبون بذلك دوماً.. كانوا يريدون شيئاً مثل هذا..

لكن طلبهم لم يُستجب له – لا لعدم القدرة على ذلك، ولكن لأن هذا النوع من المعجزات لم يكن كافياً لتغيير كفر الكفار..

لا فرعون ولا ملؤه الرافض لرسالة موسى، ولا بنو إسرائيل الرافضون لرسالة عيسى – كانوا قد استسلموا للمعجزات الحسية..

وهكذا مع كفار مكة، كانوا سيجدون طريقة للهروب من الخضوع، كانوا سيقولون أنه ساحر، وأنه المعلم الأكبر في السحر، كانوا بالذات يريدون استدراج الرسول، إلى المنطقة التي تلائمهم..

كانت المعجزات الحسية تناسب طريقتهم في التفكير، وتناسب أكثر، طريقتهم في التهرب من الأمر ورفضه..

أما عندما تكون المعجزة قرآناً – كتاباً، يستخدم العقل للدخول.. فالأمر أصعب عليهم..

★ ★ ★

لم نفهم إلى الآن.. أين هي المعجزة بالضبط؟..

هل هي تنحصر فيما قاله علماؤنا ومفسرونا عن عدم قدرة أي بشر في أي وقت وأي مكان، على الإتيان بمثله؟؟..

هذا جانب من جوانب الإعجاز حقاً.. لن يستطيع أي مخلوق أن يأتي بمثل القرآن..

لكن هذهِ مقارنة نسبية، وقد يأتي مجادل، من كوكب آخر، أو من طرف آخر، أو من ضفة أخرى، ليقول لنا إن أي كتاب لا يشبه الآخر، وأن لا شيء يشبه آخر في النهاية..

.. لا يمكن أن يكون «عدم الإتيان بمثله» هو المعجزة بشكلها النهائي..

ذلك ببساطة أمر غير مقنع..

لا بد أن يكون للمعجزة القرآنية معنى آخر..

★ ★ ★

حوارنا مع مجادلنا، سيجبرنا على الرحيل، لتلك الفترة التاريخية، عندما نزل الوحي، عندما كان أهل مكة يتلقون كلمات القرآن للمرة الأولى..

كيف كان سلوكهم؟..

البعض منهم، كان يضع أصابعه في أذنيه.. البعض كان يضع القطن لكي لا يسمع.. لكي لا تدخل الكلمات أذنيه.. البعض كان يلقي بالقاذورات على الرسول الكريم.. البعض كان يجمع الحطب.. والبعض كان يسلم فور أن تمس الكلمات قلبه ووجدانه وعقله..

البعض كان، كما في قصة عتبة بن ربيعة.. لا يستطيع حتى أن ينصت، كان يتوسل الرسولَ أن يكف: ناشدتك الله أن تقف.. قالها عتبة عندما وصل الرسول إلى «صاعقة عاد وثمود»، كما لو أن الآية كانت صاعقةً تضرب في رأسه..

والبعض كان غير مبال، لا سلباً ولا إيجاباً.. لا شيء على الإطلاق..

كلُّ هذا التنوع، لم يكن ليحصل مع «معجزة» تعتمد على البصر..

كلُّ هذا التنوع، لم يكن ليحصل إلا مع معجزة تدخل عن طرق العقل.. معجزة لقوم يعقلون..

كل ذلك حدث، لكنه مجرد «رد فعل» أولي..

لكن المعجزة الحقيقية كانت في ذلك التغير الذي حوَّل العرب، من مجرد قبائل وعشائر - حائرة بين البداوة والرعي والهامش - إلى أمة عظيمة غيرت مسار التاريخ، وفي فترة قياسية لا تتجاوز العقود الثلاثة..

المعجزة الحقيقية في أن القرآن (مس) شخصاً على هامش المجتمع، وهامش الأحداث، شخصاً كان قد تجاوز عقده الثالث بلا أي مواهب قيادية، بلا أي طموح، بلا أي أفق غير العبث الماجن والخمر واللاشيء..

لكن هذا (الرجل)، وقد مسه القرآن، صار واحداً من أعظم رجال التاريخ، صار رجل دولة من أعظم طراز.. شهدت له الإنسانية بأسرها.. إنه عمر بن الخطاب..

المعجزة الحقيقية في أن القرآن (مس) رجلاً لم يكن تُعرف له أي صفة غير أنه دمث وطيب يساعد الفقراء ويَعرف بالأنساب، فإذا هو رجل دولة من طراز أول، عرف كيف يقود - بحزم وحسم - دفة المجتمع في مرحلة دقيقة، كان يتحول خلالها إلى دولة عظمى بمقاييسنا الحالية..

المعجزة الحقيقية في أن القرآن مس رجلاً كان يعبد أوثاناً من تمر يأكلها عندما يجوع، فحوَّله إلى رجل صاحب قضية، صاحب طموح، صاحب هدف بل مجموعة أهداف، يمكن له أن يضحي بحياته في سبيلها..

المعجزة الحقيقية أن رجلاً كان يئد بناته وهنَّ أحياء، صار مستعداً لأن يقبل أن يأخذ دينَه وتفاصيل قانونه من امرأة..

المعجزة الحقيقية أن يتحول العرب، ولديهم أوثان بعدد أيام السنة - تعكس تشرذمهم وتفرقهم -، إلى أمة واحدة، وموحدة، تعبد إلهاً واحداً..

.. المعجزة الحقيقية أن ذلك كله، حصل في عقود قليلة..

ولا شيء يشبه ذلك في تاريخ الأمم: لا شيء - أبداً - في تاريخ الإنسانية حصل بهذهِ السرعة..

كلُّ النهضات في التاريخ، كلُّ التحولات التاريخية والانعطافات المهمة التي مرت بها الإنسانية، كلها استغرقت قروناً لكي تنشر إنجازاتها..

لا شيء أبداً، كان قد أتى من فراغ، كما جاءت تلك المعجزة، من صحراء قاحلة لا يُتوقع منها أي شيء..

تلك هي المعجزة الحقيقية، الإنسان الذي مسّه القرآن.. والمجتمع الذي نتج عن هذا التماس..

★ ★ ★

.. ولم يحدث أبداً - أن انطلقت الحضارة بعد كتاب سماوي مباشرة..

لا توجد أحداث تاريخية تُذكر بعد رسالة موسى، ولا رسالة السيد المسيح، حتى على صعيد محلي. استغرق الأمر قروناً بالنسبة للمسيحية مثلاً - لتصير جزءاً فاعلاً من منظومة الحياة - ولم يكن ذلك بشكل منفرد - لأن المجتمعات التي دخلتها كان لها إرثها الحضاري المتميز أساساً - وجاءت هي بقيم أعلى وأكثر رقياً لتمنح لهذهِ المجتمعات بعداً آخر..

لكن لم يحدث أن حصلت قفزَة حضارية - من لا شيء.. كما حصلت المعجزات القرآنية..

لم يحصل أبداً.. لا في قديم التاريخ، ولا في حديثه..

إنما هي مرّة واحدة.. فقط..

★ ★ ★

أعظم ما في هذهِ «المرة الواحدة»، أنها يمكن أن تتجدد وتستمر..

كل المعجزات السابقة، التي جاء بها أنبياءُ ما قبل القرآن، كانت محصورة في زمان ومكان عابر..

ميت السيد المسيح عاد إلى الحياة، ولكنه مات أيضاً بعدها..

عصا موسى التي تفجرت حياةً عادت خشبةً واختفت، ولا أحد يعرف عنها الآن أي شيء..

كذلك مائدة السماء التي نزلت على الحواريين، طعامُها كان لذيذاً بالتأكيد، لكنه نفذ ولم يعد له وجود..

كلُّ المعجزات السابقة، لم يعد لها أي تأثير..

لكن معجزة القرآن، يمكن لها أن تتجدد.. يمكن لها أن تستمر.. يمكن لها أن تكون.. ولهذا بالذات فهي معجزة الدين الخاتم..

لا يزال بإمكان القرآن، أن يفعل معجزته، أن يغيِّرَك، أن تكون مجرد إنسان على الهامش يخوض مع الخائضين بلا هدف ولا طموح ولا أي شيء، ثم يمسك القرآن، فإذا بك إنسان آخر..

لا يزال بإمكان القرآن، أن يكرر معجزته.. أن يغير الإنسان، أفراداً، ومجتمعات..

لا يزال هذا القرآن قادراً على أن يتحدث معك، على أن يعطيك ما تحتاجه لتكون أنت «المعجزة» التي تمشي على قدمين..

.. قد تكون تتنفس، لكنك ميت لأن حياتك بلا قيمة، بل إن بعض الموتى أكثرُ أهمية منك، ما داموا قد تركوا فوائد لغيرهم، وإذا بالقرآن يمسك، وإذا بك تعود إلى الحياة.. بل تدخلها للمرّة الأولى..

.. أنت وأنا، وأولاد لنا، ولغيرنا، نحن جميعاً معجزة القرآن التي يجب أن تكون..

لم يعد الإنسان متلقياً سلبياً، لينبهر بالمعجزة ويشهر الراية البيضاء..

.. صار الإنسان، طرفاً فاعلاً في كل شيء، حتى في المعجزة..

.. وعندما تحصل، فإنه هو نفسه سيصير راية..

لكن ذلك، مشروط أصلاً..

بأنه «القوم يعقلون..»

الحق لا ينتصر (تلقائيا)!

منذ أن بدأت قصة الإنسان، وهناك شيئان أساسيان يتنازعان الحكاية..

ممكنٌ أن تكون لهما أسماء كثيرة: الخير.. الشر، الأبيض.. الأسود، أتباع الرحمن.. أتباع الشيطان..

.. وربما بوضوح أكثر: الحق، الباطل..

منذ أن كان هناك حق، على هذهِ الأرض، صار هناك باطل، كوجه مضاد وسلبي للحق -.. مثل صورة سلبية للصورة الأصلية، كل ما هو أبيض في الصورة الأولى يظهر أسوداً - وكل ما هو أسود فيها يظهر أبيضاً..

والتدرجات أيضاً، في الصورتين، تعكسان، التضاد في التدرج بينهما..

.. الحق، والباطل.. وجهان، لكن ليس لعملة واحدة..

بل لفرعين متصارعين..

★ ★ ★

وفي أصل الحكاية، فإن الحق هو الأصل.. إنه القانون الأول الذي أرسى كل الأمور ابتداء..

أما الباطل، فهو كلُّ خروج عن هذا القانون، وكلُّ ما يحاول إبطال القانون، سواء بالمنطق أو بالنتيجة..

الباطل يلي الحق، لأن أي خروج عن القانون لا يكون خروجاً، ولا يكون باطلاً

.. والعلاقة بين الحق والباطل علاقة صراع حتمي.. وهذا الصراع هو جزء من طبيعة الحق، وطبيعة الباطل..

الحق، لأنه حق، فهو يجب أن يفرض نفسه.. كما قانون الطبيعة يسود ويفرض نفسه..

والباطل، لأنه باطل، فهو يجب أن يكسر القانون..

الصراع بينهما هو جزء من حقيقة وهوية وجوهر كل منهما..

كل منهما، يعبر عن نفسه، عن وجوده..

عبر الصراع مع الآخر..

★ ★ ★

هذا الصراع، بين الحق والباطل، لا يشترط أبداً أن يكون مواجهة بالمعنى التقليدي.. بشكل صدام عسكري بين طرفين..

الصراع بين الحق والباطل، ليس معركةً سيوف وخناجر وصواريخ ودبابات، وهو لا يشكل نفسه بمشهد من فيلم سينمائي تاريخي ضخم الإنتاج.

حتى لو اضطرت بعض نواحي الصراع أن تظهر بمظهر كهذا، حتى لو أن الباطل جرَّ الحق جرّاً، لصراع من هذا النوع.. إلا أن الصراع في حقيقته، ليس صداماً عسكرياً مسلحاً..

.. بل هو صراع بين فكرتين..

صراع الحق والباطل، هو في الرؤوس.. قبل أن يكون في أي مكان..

.. ولأن الحق - أساساً - فكرة، والباطل فكرة مضادة، فإن الصراع الفكري بينهما هو الأهم.. وهو الأكثر جدوى..

قد يتمظهر الحق بأشكال متعددة: في مؤسسات اجتماعية وثقافية اقتصادية، كذلك الباطل، سيتمظهر بمؤسسات مماثلة، تعبر عنه..

لكن الصراع أصلاً هو فكرة..

وهو يحتل رأسك - وهدفه الأصلي رأسك..

★ ★ ★

.. لكن الحق لا يسود من تلقاء نفسه، كما أن الباطل لا يزهق، هكذا من تلقاء نفسه..

أحياناً، تخفت شعلة الحق، وتدخل في مرحلة سبات طويلة، ويسود الباطل لعقود، وربما لقرون.. ويتخيل كل من يعيش في فترة سبات الحق، أن الأمر قد حسم، وأن الباطل سيلبس لبوس الحق، وكثيرون، سيخدعون لزهوته وانتصاره.. وسيتصورون أنه الحق..

سيتصورون أن مجرد انتصار الباطل لفترة طويلة من الزمن دليل شرعيته.. دليل كونه حقاً..

لا شيء - أكثر بطلاناً من هذا التصور..

فترك الأمور - على عواهنها - لن يؤدي إلى إحقاق الحق.. بل إلى سيادة الباطل، في أغلب الأحيان، على الأقل.

البعض سيعترض وسيقول: أن (نظرية الزبد)، المستقاة من القرآن تخالف ذلك..

★ ★ ★

﴿ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌۢ بِقَدَرِهَا فَٱحْتَمَلَ ٱلسَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًا ۚ وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِى ٱلنَّارِ ٱبْتِغَآءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَٰعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ وَٱلْبَٰطِلَ ۚ فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً ۖ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ ﴿١٧﴾ ﴾ [الرعد: ١٧].

هناك نظرة مسترخية، تتعامل مع هذا المثل القرآني بسلبية شديدة، وتحاول أن تستقي مبررات للانتظار، باعتبار، أن الحق، سيسود في كل الأحوال.. وأن الزبد الباطل، سيذهب جفاءً..

لكن الآية، في حقيقة الأمر، وبعد النظر المتعمق، تشير إلى شيء مضاد تماماً – لهذا..

صحيح أن الآية تشير إلى أن ما ينفع الناس، يمكث في الأرض، ولكنها تشير أيضاً، إلى أن الناس قد تخطئ، فتتصور (مخطئة) أنها تنتفع من الزبد الرابي.. أكثر مما تنتفع مما يمكث في بطن الأرض..

فالناس، مثلاً قد تهتم بـ (مما يوقدون عليه في النار ابتغاء حلية أو متاع)، وتشير الآية أن ذلك «زبدٌ رابي» احتمله السيل وسيذهب جفاء في نهاية الأمر..

إذا ما ينفع الناس، يتعلق بأفكار الناس، برؤيتهم للنافع والضار، فقد يتخيل الناس أن مصلحتهم في شيء ما، ويقضون حياتهم، وحياة أجيال لاحقة، في تكريس هذهِ المصلحة،.. ولكن، في حقيقة الأمر، وعلى المدى البعيد، يكون هذا النفع ضاراً، ويكون (الحق) هنا مجرد لبوس خارجي، لباطل في الباطن..

.. والآية هنا، لا تشير إلى انتصار الحق بصفته ماكث في الأرض، بل تشير، في حقيقة الأمر، إلى أن الناس تلتهي بالزبد الرابي، وتغفل عن (حق) ماكث في الأرض..

.. وقد يحتاج إلى حفر وتنقيب لاستخراجه..

★ ★ ★

سيقول البعض: ولكن القرآن الكريم يقول أيضاً ﴿ وَقُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُ ۚ إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴿٨١﴾ ﴾[الإسراء].

لا خلاف في ذلك، لكن الحق لا يجيء بسهولة.. وإزهاق الباطل ليس محض تابع للأحداث.. إنها هو صراع ضخم، وصدام شرس، وحرب حقيقية.. تحق الحق، وتبطل الباطل..

صدام يقع أولاً، في رأسك..

وبعدها قد يأخذ أشكالاً أخرى..

.. وهذا الكلام، ليس من عندي، بل هو من عند ذاك الذي يُحق الحق ويُبطل الباطل، في كتابه الكريم، حيث فصَّل لنا، في محكم آياته أمر الإزهاق..

﴿ بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمُ الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ ﴿١٨﴾ ﴾ [الأنبياء].

لفظة «بل» هنا تبدو أنها ليست استدراكاً على آية سابقة، بل هي استدراك على ذلك الفهم السلبي الخاطئ كله - الفهم الذي يقوم على انتظار أن ينتصر الحق، بلا جهد ولا مواجهة للباطل..

.. ولفظة«نقذف»- توحي بوجود هدف، هدف واضح محدد يتوجه له الحق.. هدف له إحداثيات محددة مسبقاً، ليس بأي طريقة مجرد قصف عشوائي.. أو حتى شيء قريب من ذلك..

هنا تأتي كلمة قرآنية «معجزة» تدلل لنا على أن الأمر له هدف واضح.. وأن قذائف الحق، يجب أن تتوجه إلى الرؤوس.. لا لقطعها، ولا لذبحها..

ولكن لتغيير أفكارها..

ومرة أخرى الكلام ليس من عندي أو من عند أي بشر، بل هو من عند رب العزة، إذ استخدم لفظة «الدمغ».. عندما أراد أن يبين لنا إلى أين تتوجه إحداثيات القذف، من أجل إزهاق الباطل..

فكلمة «دمغ»، تعني تحديداً، وحصرياً، «شجَّه حتى بلغت الشجَّة دماغه»..

إنها ليست أي ضربة - أو أي مشجة - بل إنها تعني الوصول إلى الدماغ..

إنها الوصول إلى الدماغ !.

★ ★ ★

نقف مبهوتين هنا، وقد «دمغنا» الحق، أي شجنا وصولاً إلى أدمغتنا..

فالباطل في أصله فكرة مضادة للحق، تسكن الأدمغة أولاً، ثم تنطلق من ذلك المسكن إلى أماكن أخرى..

وإزهاقها، يجب أن يكون أولاً، بالوصول إلى مكمنها وملجئها ومسكنها الأول..

الأدمغة..

وكل ذلك تقوله الآية، بإيجاز معجز، كالعادة،«بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه، فإذا هو زاهق»

هذه هي آلية إحقاق الحق، وإزهاق الباطل..

صدام فكري، حرب بالأفكار، صراع بالأدمغة..

قبل كل شيء..

.. وبعد كل شيء..

★ ★ ★

ليس صحيحاً أبداً، أن أول معركة في عهد الرسول عليه أفضل صلاة وأتم تسليم، كانت في معركة بدر الكبرى..

كانت تلك المعركة، ربما، أول مواجهة عسكرية.. بين فريقي الحق والباطل..

لكن الصدام، في أصله وأصل حكايته، بدأ منذ اللحظة الأولى التي نزل فيها الوحي بالحق، منذ أن عرفت مؤسسات الباطل الجاهلية، أن الحق قد عاد.. ومنذ أن استنفرت لمحاربته.. سواء كان ذلك عبر اتهامات – كانت وما زالت – ضد شخص الرسول حامل الرسالة، أو ضد الحق نفسه، بإدعاء أنه «أساطير الأولين».. أو أنه محض افتراء، أو.. أو.. أو..

الصدام بدأ منذ أن بدأ الأمر في شوارع مكة، ومجالسها.. وبيوتها.. ومنذ أن كان شباب فريق الباطل، والقاذورات التي يلقونها، والحطب الذي يحرقونه في درب الرسول الكريم..

★ ★ ★

.. منذ أن حدث كلُّ ذلك، والمواجهة كانت حاصلة فعلاً، ومحتدمة..

.. وكان الأمر دوماً صراع عقول.. صراع أفكار..

.. وكان الباطل يلجأ – دوماً – إلى أن يهاجم بشكل (مادي)، ليجر الحق إلى صدام عضلات.. أو صدام عسكري.. لأن الساحة الأولى، ساحة الأفكار، كانت ساحة صعبة عليه..

.. لذلك، لجأ ملأ مكة، إلى تعذيب المسلمين، في بطحاء مكة الساخن، من أجل إرغامهم على تغيير ما في رؤوسهم..

.. لجؤوا إلى البطش والقوة عندما علموا.. أن أمر الرؤوس صعب عليهم..

.. وكذلك، دوماً يفعلون..

.. وكان من السهولة بمكان، أن ينجر فريق الحق، إلى مواجهة بالمعنى ذاته، مع فريق الباطل..

كان من السهل جداً، مثلاً، أن يقتحم فريق الحق الكعبة، وهو يصيح الله أكبر، ويحيل أوثان قريش إلى ركام وهباء..

كان ذلك أمر سهل جداً، لكنه ما كان سيكون «حقاً».. بل سيكون باطلاً، قد لبس لبوس الحق ورفع شعاراته..

فالحق، ورؤية الحق، تعلم علم اليقين أن هذه الأوثان ليست سوى مظهر مادي لأفكار تؤمن بالأوثان والوثنية، أفكار لن تتأثر بالتحطم المادي للأوثان.. بل ستعيد بناءها بسرعة - وستجد سبيلاً ما لتغيير التحطم..

ولذلك فإن آلية إزهاق الباطل، قامت على الأفكار أولاً، وعلى بناء بديل اجتماعي واقتصادي - وحتى عسكري كتحصيل حاصل - من أجل أن تزدهر أفكار الحق، وتنتقض أفكار الباطل..

وهكذا، فإن أوثان مكة أزيحت من الرؤوس، عندما قام البديل المدني..، فتهاوت في فتح مكة، بلا نقطة دم واحدة..

★ ★ ★

معركة الحق والباطل، ليست معركة تدور أمامنا، بينما نحن مجرد شهود يتفرجون..

كوننا شهود فقط، يعني أن الباطل سينتصر..

إحقاق الحق، وإبطال الباطل، يحتم أن نخرج من مقاعد المتفرجين.. إلى الحلبة..

إحقاق الحق، يتطلب أن تنزل إلى الساحة..

وتشارك في الأمر..

من أجل أن يحصحص الحق !.

الغاية تسبق الوسيلة

ليسَ هناك، ما هو أسهل، في هذهِ الحياة، من الكلام..

خصوصاً إذا كان كلاماً كبيراً.. مثل الشعارات والخطب النارية..

.. وليس هناك، ما هو أصعب، في هذهِ الحياة، من تنفيذ الشعارات، من مطابقة الكلام على أرض الواقع..

من تنفيذ القيم بشكل عملي..

دوماً هناك هوة مخيبة للآمال، بين الفكر المحلق في الأعالي، والسلوك الوالغ في الطين..

دوماً هناك ذلك الفارق بين النظرية والتطبيق..

دوماً هناك تلك الهوة السحيقة، التي يسقط فيها كثيرون: دعاة، ثوار، مصلحون، وزعماء..

يكون كلامهم، خصوصاً في بداية الأمر، مختلفاً عن سلوكهم اللاحق..

وفي هذا الامتحان، الفتنة، يخفق الكثيرون..

لكن الإخفاق الذي نتحدث عنه، لا يشمل فقط هذا النوع من السلوك المغاير للقيم.. والذي يتهم أصحابه بالنفاق عادة..

بل هناك إخفاق أشد وأصعب، وأخفى أيضاً، وأقل وضوحاً.. من ذلك النفاق المعروف..

هناك إخفاق، بضع الخط الفاصل بين ما هو غاية، وهدف، وبين ما هو محض وسيلة للوصول إلى الهدف..

هناك إخفاق، لا يمكن أن يتهم صاحبه بالنفاق.. بل بعدم الفهم فقط..

لكنه «عدم فهم» خطير.. إذا إن الوسيلة تلتبس، وتصير غاية، وتضيع الغاية، أو تهمل.. في خضم تطبيق الوسيلة بحذافيرها..

وهذا الكلام لا يخص القادة والزعماء والمصلحين فحسب..

بل هو يخصنا نحن أولاً، الناس العاديين الذين يأكلون الطعام ويمشون في الأسواق.. إنه يخص أولئك الناس الذين هدف التغيير ومادته الأساسية في آن..

أنا وأنت، أولادي وأولادكم..

ويأخذنا القرآن الكريم، إلى جوهر العلاقة بين الغاية والوسيلة.. - وهي علاقة مهمة للجميع،.. مادام كل «فرد» يسعى، فهو له هدف في سعيه هذا، وهو يطبق وسيلةً ما، في تحقيق هدفه..

والقصة التي يعبر فيها للقرآن عن العلاقة - الملتبسة في أحيان كثيرة - بين الغاية والوسيلة، قصة جميلة جداً وبسيطة جداً في آن واحد..

★ ★ ★

﴿ قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا ﴿٦٦﴾..... ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴿٨٢﴾ ﴾ [الكهف ٦٦-٨٢]..

إنها قصة موسى ،والعبد الصالح الذي أصطلح على تسميته بالخضر.. وهي قصة معروفة جداً، لكنها عوملت ويا للأسف كما لو أنها تملك بعداً واحداً فقط هو بعدها الظاهر على السطح..

لكن القصة، كما كل آية في القرآن، تملك كنوزاً، تحتاج إلى من يحفر من أجل استخراجها..

★ ★ ★

سياق القصة يخبرنا أن سيدنا موسى، يطلب «العلم» من العبد الصالح..

.. وهذا وحده يحتاج إلى وقفة تأمل..

فسيدنا موسى، له مكانة عالية جداً، إنه واحد من الرسل «أولي العزم».. وهو «كليم الله»، كما أنه قد استلم الألواح الحجرية.. التي حوت على الشريعة ووصاياها العشرة الشهيرة..

كل ذلك، لم يجعله يأنف أن يطلب «العلم» ممن هو دونه..

والعبد الصالح، مهما كانت مكانته، فهو أقل مكانةً من سيدنا موسى..

وحتى لو كان ملكاً: فمكانة الإنسان، منذ أن أمر الله عز وجل الملائكة أن يسجدوا لآدم - هي أعلى من أي ملك..

ولكن موسى، لم يدَّع احتكار العلم، ولم تجعله مكانته هذهِ يأنف من طلب المزيد من العلم، ممن هم أقل منه مكانة..

لكن هذا، على أهميته، ليس بيت القصيد على الإطلاق !..

فليس الموضوع هنا هو تواضع سيدنا موسى، وكيف أن فوق كل ذي علم عليم.. وحثنا على التواضع أسوة بالرسل..

الأمر المهم هنا، هو أن سيدنا موسى، عندما طلب العلم، لم يذهب مع الفتى إلى صومعة معزولة في قمة جبل ليتعلم على يديه، ولم يذهب إلى خزانة الكتب والمخطوطات ولطائف علوم الأولين والآخرين..

لا.. لم يكن العلم الذي أراد سيدنا موسى الاستزادة منه هناك..

لذا، فإن العبد الصالح لم يأخذه إلى خزانة الكتب..

بل نزل معه إلى الواقع..

إلى الشارع، إن شئتم !!

★ ★ ★

والفرق بين خزانة الكتب، والشارع، هو الفرق بين الغاية والوسيلة..

وهو نفسه الفرق، بين الألواح الحجرية.. ثابتة وصلبة..

وبين واقع، متغير ومرن..

★ ★ ★

.. وإلى الشارع، والواقع.. نزل موسى، ليتعلم حقاً.. بل ليمتحن ما علمه من علم الألواح..

فالتطبيق، هو دوماً امتحان النظرية..

.. وهناك، في الواقع، تعلو النظرية وتزدهر عندما تنجح في الوصول إلى الغايات..

أو أنها تسقط، وتهان، عندما تفشل في الوصول إلى الغاية..

أو أنها تسقط في امتحان التمييز بين الغاية والوسيلة..

.. ويسقط أيضا من اعتبر الوسيلة غاية بحد ذاتها..

.. وضاع عن غايته الأصلية، في أثناء ذلك..

★ ★ ★

في كل موقف، من المواقف بين موسى والعبد الصالح، تنتصب الألواح الحجرية، وينتصب الفهم الصلب - الحرفي لها..

مقابل فهم آخر، يفرق بين غاية الألواح ووسائلها..

★ ★ ★

ثلاث مواقف يذكرها لنا الخطاب القرآني، شكلت مقارنة بين الغاية والوسيلة.. وبين «علم» حرفي، وعلم «مرن»، وبين معرفة بظاهر الأمر ومعرفة تخترق الظاهر للوصول إلى الجوهر..

.. في كل موقف، كان موسى، يفكر بطريقة الألواح الحجرية، ويجد أن العبد الصالح قد ابتعد عن هذه الألواح..

فالشريعة المحفورة في الألواح، أو بالأحرى الفهم ذو البعد الواحد لها، المتمثل في سيدنا موسى وهو في طور تعلم واقعي، لا يمكن له أن يتفهم أفعال العبد الصالح..

كيف يمكن لعالِم أن يخرق سفينة، وقد يؤدي خرقها هذا إلى إغراق ركابها؟.. لماذا يرتكب هذا العالم جريمة قتل لغلام دون ذنب واضح؟.. ولماذا لا يطالب هذا العالم بحقه في الأجر من أناس رفضوا إطعامهما وهما في أشد الحاجة إلى هذا الأجر؟؟

عندما تلتبس الغايات والوسائل. فإننا سنقف لنرى السفينة سالمة، وأهلها في أمان، لكن الملك الظالم الذي كان يغتصب المال الحلال، كان سيأخذها.. ويترك عمالها بلا عمل يعيلهم ويعيل أطفالهم..

.. وإذا حرصنا على تطبيق حرفي لوسائل الشريعة، فإن هذا الغلام كان سيظل على قيد الحياة، وكنا سنقف لنشاهد كيف أنه سيرهق أهله، ومن حوله، طغياناً وكفراً..

.. ولو كنا حريصين على استحصال حقوقنا وأجرنا تجاه عمل قمنا به - أو سنقوم به، فإنه من الممكن جداً، أن لا نقوم بالعمل لأن ما من أحد سيعطينا أجرنا، ونقف لنشاهد الجدار يسقط، والكنز الذي تحته يكون نهباً لأهل المدينة الذين رفضوا حتى إطعام غريبين..

.. وهكذا، وفي كل موقف، نرى أن الواقع، والإحاطة بظروفه وتفاصيله تتطلب تعديلاً في الوسائل والأساليب من أجل الوصول إلى الغاية..

لو أن سيدنا موسى، استطاع أن يفرض رؤيته، «حسب الأصول»، لكنا رأينا وسائل الشريعة تطبق، لكن غايات هذه الشريعة تكون قد أجهضت.. أو أنها أبعدت عن التطبيق..

★ ★ ★

.. ومنذ البداية، ينبهنا النص القرآني المعجز دائماً وأبداً، إلى أصل المشكلة التي تجعل البعض يقعون في الهوة بين الغاية والوسيلة..

إنه عدم «الإحاطة».. بالأمر..

﴿ وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ خُبْرًا ﴿٦٨﴾ ﴾ [الكهف].

الإحاطة هنا تعني فهماً يتجاوز مجرد حفظ المتون والغايات إلى ما هو أشمل وأكمل، إلى سبر الواقع وفهمه فهماً يمكن من موائمة الوسائل وتطويرها، نحو تحقيق الغايات والمقاصد..

.. وهذا الفهم «المحيط».. هو الذي يحقق «علماً راشداً».. هو العلم الذي طلبه موسى ابتداءً من العبد الصالح- ﴿ قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا ﴿٦٦﴾ ﴾ [الكهف].

ومع القصة، وتفاصيلها، سنعرف أن شرط الرشاد هو تلك «الإحاطة»، هو ذلك الشمول الذي يربط المقاصد بتطوير الوسائل، وتحقيق الغايات، عبر تغيير الآليات..

.. ورغم أن القصة تنتهي «بفراق بيني وبينك».. إلا أننا نعرف أن الفراق بين الغايات والوسائل لم يحصل حقاً ما دام هناك «عقل» يفكر ويرفض أن يفرض فكر الألواح الحجرية نفسه على الجميع.. ومادام النص القرآني قد سجل ذلك الخروج من خزانة الكتب والصوامع إلى الشارع والواقع..

★ ★ ★

جدل الغايات والوسائل لا يخص كبار المفكرين والفلاسفة فقط.. بل إنه يدخل في حياتك الشخصية أنت..

اسأل نفسك مثلاً هذا السؤال..

.. وأنت تعلم ابنك الصلاة.. هل فكرت أن الوسيلة التي تتبعها في ذلك، قد لا تخدم الغاية التي تريدها..

بل قد تكون، على العكس، تؤدي إلى ما هو مضاد ومعاكس تماماً..

هل فكرت أن الوسيلة المتبعة - قد تهدم أصل الغاية كلها - من الصلاة الصلة بالله سبحانه وتعالى.. وأنها قد تحول الأمر، في أحسن حالاته، إلى «تعويذ» للطفل على أوقات محددة..

.. وهل فكرت، أن هناك إمكانيات كامنة، لجعل تلك الصلة - أكثر توهجاً وأشد متانة - إذا نفذت عبر وسائل أخرى.. متغيرة..

وإلى أن يتم ذلك، سيكون هناك فراق بيننا وبين الغايات..

في رأسي معول

تبدل شكل المجتمعات كثيراً عبر عصور تطور الإنسانية..

تبدلت وسائط النقل. وتبدلت وسائل الراحة. تبدلت وسائل اللهو. وتبدلت القوانين. تبدلت وسائل الوصول إلى السلطة. وتبدل شكل المعرفة. تبدلت وسائل الاتصالات..

لكن أحياناً فقط، يبدو أن كل هذا «التبدل» شمل القشرة الخارجية فقط..

ولكنه لم يمتد لأكثر من ذلك..

وأن المجتمع البشري، خلف قناع القشرة الخارجية، في جوهره، لا يزال لم يتغير كثيراً..

بل إنه في بعض التفاصيل، لم يتغير، في جوهره، على الإطلاق..

.. لم تتغير سوى تفاصيل القناع وألوانه..

لكن التغييرات، لم تمس الجوهر..

في الغالب على الأقل..

★ ★ ★

.. كان الناس في سابق العصور، يعبدون الأوثان..

فهل لازالوا يتعبدون لها؟

نعم. إنهم لا يزالون يعبدون الأوثان، كل ما في الأمر أن شكل الأوثان تبدل، فبدلاً من أن تكون أصناماً من حجر أو مرمر أو من تمر..، صارت اليوم أوثاناً تأخذ أشكالاً هلامية، غير نمطية، مثل الإيديولوجيات، أو طرق العيش الحديثة..

بدلاً من أصنام الحجر التي كانت تملأ الشوارع - وتمثل قوة اجتماعية أو اقتصادية - صار اليوم هناك «إعلان» هائل الحجم، يُعبّر عن نمط كامل للحياة، يتعبّده الناس، ويتقربون إليه، ويظنون أن السعادة كل السعادة، لا تكون إلا عبر تمثل هذا النمط واقتناء رموزه..

هياكل الأمس تغير شكلها، لكنها لم تختفِ.. صارت في الشوارع اليوم، في الرؤوس.. في البيوت..

★ ★ ★

.. ودخل إبراهيم إلى الهيكل..

وفي رأسه خطة..

وفي يده المعول..

لكنه لم يكن مثل أي معول..

كان معولاً استثنائياً بامتياز.. كما أن رأس إبراهيم كان استثنائياً بامتياز.

﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِۦ عَٰلِمِينَ ﴿٥١﴾ ....ثُمَّ نُكِسُوا۟ عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَٰٓؤُلَآءِ يَنطِقُونَ ﴿٦٥﴾ ﴾ [الأنبياء: ٥١-٦٥].

إنه إبراهيم في الهيكل إذن. وقد توعد الأصنام أن يكيد لها..

والكيد الذي تحدث إبراهيم عنه، وتوعد الأصنام به، هو خطة مسبقة متقنة الوضع.. إنه ليس عملاً تلقائياً عفوياً، نتج عن مشاعر إحباط فرّغت في عمل «تخريبي»..

لا، بل هي خطة مرسومة بدقة..، ومعدة بإتقان،.. لا شيء عشوائي فيها..
ولا شيء متروك للصدفة..

★ ★ ★

.. ويخبرنا النص القرآني، أن إبراهيم كان يدرك أن قوة تلك الأوثان كانت في إيمان الناس بها، وأنها إذا تركت وحيدة من غير المؤمنين بها، تصير ضعيفة، وهشة، وقابلة للكسر..

قوة الأوثان الحقيقية، تكمن في رؤوس جموع المؤمنين بها، فإذا عزلت عنهم، أو عزلوا عنها، صارت تلك الأوثان عاجزة، صارت على حقيقتها..

لذلك، فإن إبراهيم يتوعد الأوثان ﴿ وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّوا مُدْبِرِينَ ﴿٥٧﴾ ﴾[الأنبياء]...

إدبار الناس هنا، هو الفرصة التي يمكن بها لإبراهيم أن يقتحم المشهد، حيث ينفرد بالأوثان..

★ ★ ★

وكما مع الأوثان في عصر إبراهيم، كذلك مع الأوثان في كل عصر..

قوتها، تكمن في إيمان الناس بها، إنها إيديولوجيات سائدة وأنماط للحياة يعتنقها الناس، وتستمد قوتها من إيمان الناس بها، أكثر مما يستمدون قوتهم منها..

.. وعندما ينصرف الناس عنها، لسبب أو لآخر..

فإنها تكون معرضة للانكسار من أول ضربة معول..

مثل نخلة ماتت، ولم تضربها الصاعقة بعد..

.. ، لأن قوم إبراهيم أدبروا، فقد أمكن لإبراهيم أن يحطم تلك الأوثان..

.. ويخبرنا النص القرآني، أن إبراهيم جعلهم «جذاذاً».. أي أنه جعل تلك الأصنام «أجزاء صغيرة».. فهل يعني هذا أنه انهال عليهم ضرباً بالمعول حتى صاروا أجزاء صغيرة؟.. أم أن ضربة واحدة، على قاعدة كل منها كانت كفيلة بنسفها، وتحويلها إلى قطع صغيرة؟؟

.. أم أن الأمر، كان أبسط من ذلك، وأن مجرد كشف الأوثان على حقيقتها من ضعف، سيجعلها تبدو صغيرة وتافهة حتى لو كانت عملاقة الحجم..

★ ★ ★

.. وكذلك أوثان العصر الحديث، كما أوثان عصر إبراهيم، إنها عملاقة من ناحية الحجم، لكنها مثل منطاد مجوف مليء بهواء، تكفيه وخزة صغيرة ليغدو كما لو أنه لم يكن..

.. يكفي أوثان العصر الحديث، أن تعرض لكسر ما، حتى تتفكك، وتكشف عن حجمها الحقيقي: مجرد جذاذ..

★ ★ ★

وعندما ترك إبراهيم كبيراً لهم لم يمسه، لم يكن يريد أن يلاعبهم أو يخادعهم أو يوهمهم بأن هذا الكبير هو من فعل هذا..

إنما كان يريد أن يشير لهم، أن طبيعة الأشياء، تفرض أن يسود «واحد»، وأن ينتصر «واحد».. وأن نظام تعدد الآلهة فاسد بطبعه لأنه كان سيؤدي إلى صراع الآلهة فيما بينها.. وانتصار إله واحد..

كان ذلك المشهد، وكبيرهم لم يمسه المعول، يعني أنه يجب أن تكون هناك مرجعية واحدة..

«لعلهم إليه يرجعون»..

.. ويذكرنا ما قاله قوم إبراهيم، عن إبراهيم عن كونه «فتى» ﴿ قَالُوا۟ سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُۥٓ إِبْرَٰهِيمُ ﴿٦٠﴾ ﴾ [الأنبياء]، عن كون الثائر الحقيقي، الأكثر تأهيلاً، لتحطيم الأوثان، قديمها وحديثها، هو الفتى – الشاب الطالع بأفكار جديدة الذي لم تتحكم فيه، ولم تسيطر عليه بعد، الرؤى التقليدية السائدة..

أمس، واليوم، وغداً، الشباب هم الأمل في التغيير.. هم الأمل في تحطيم الأوثان العملاقة.. وكشفها على حقيقتها: مجرد جذاذ..

.. وعندما تأتي لحظة المواجهة، عندما يأتي قوم إبراهيم ليكتشفوا ما حلّ بأوثان الهيكل، فإن إبراهيم يستخرج سلاحه الحقيقي.. إنه معول أيضاً، كذلك الذي استخدمه في تحطيم الأوثان.. لكنه معول من نوع آخر..

إنه معول يجهز على الأوثان، يقطع الإمدادات عنها، ألم نقل أن قوة الأوثان الحقيقية تكمن في رؤوس المؤمنين بها..

هذا المعول الآخر، يستهدف ذلك تحديداً..

وعندها، عندها فقط..

تنجز الخطة..

★ ★ ★

عندما جاء القوم وواجهوا إبراهيم بالتهمة التي تستحق الفخر، وسألوه، وهم شبه واثقين، «أأنت فعلت هذا بآلهتنا يا إبراهيم» [الأنبياء: ٦٢].. فإن إبراهيم يستغل الموقف، ليقلب الطاولة عليهم ويحاكمهم، ويحاكم آلهتهم، ويحاكم «العقلية» التي كانوا يفكرون بها ويدينون بالولاء عبرها..

في تلك اللحظة – الذروة – استل إبراهيم معوله، من رأسه، ليضرب به رؤوسهم..

___

﴿ قَالَ بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا فَسْـَٔلُوهُمْ إِن كَانُوا۟ يَنطِقُونَ ﴿٦٣﴾ ﴾ [إبراهيم] ..

لم يكن هذا جدلاً.. ولا مماحكة.. ولا تهرب من تهمة سيفخر بها إبراهيم..

بل كان يريدهم أن «يسألوا..»

السؤال هنا، هو الهدف.

وآلية التساؤل هنا هي معول إبراهيم الحقيقي..، الذي استله إبراهيم، عند احتدام الصراع..، ليواجه به مؤسسات مجتمعه الوثني..

التساؤل..

شهر إبراهيم التساؤل في وجوههم، في وجه عقولهم، في وجه معتقداتهم.. شهر إبراهيم إشارة الاستفهام فانفجرت - مثل لغم ناسف - في رؤوسهم..

التساؤل..

إنه معول إبراهيم الحقيقي - وهل نستغرب هذا منه، من إبراهيم تحديداً، هو الذي بزغ العقل في رأسه لينير ليل البحث عن الحق والحقيقة..

لا، يبدو التساؤل هنا، مكملاً ومتمماً لكل مسيرة سيدنا إبراهيم التي لم يغب عنها - لا العقل ولا التساؤل - يوماً..

وفي هذا المشهد، لم يكن تحطيم الآلهة والأوثان عبر معول مادي مهماً.. بقدر ما كان مهماً أن تحطم ألوهية الأوثان في الرؤوس..

وكان التساؤل ضربة معول في رؤوس الكافرين..

«فاسألوهم إن كانوا ينطقون»..

هذا هو ! هذهِ هي الضربة في الرأس الحقيقي. من الرأس إلى الرأس.

اسألوا تلك الأوثان المحطمة.. دعوها تنطق.. دعوها تتهم أحداً.. دعوها تقول إنه إبراهيم.. أو إنه كبير الآلهة.. أو أي أحد.. دعوها تفعل أي شيء..

كان إبراهيم يجرهم جراً إلى استخدام آلية التساؤل. تلك الآلية التي تحرص المؤسسات التقليدية على تعطيلها وإعدامها..

لكن إبراهيم، كان يحاول أن يبعث، عبر المشهد الصاعق، الحياة في إشارة الاستفهام في أعماقهم..

«فاسألوهم إن كانوا ينطقون..»!

★ ★ ★

.. أخبرهم إبراهيم أن يرجعوا إلى الجذاذ، أن يسألوه..

لكن، وبدلاً من أن يرجعوا إلى حطام الآلهة التي لا تنطق ولا تجيب.. «لعلهم إليه يرجعون»

فقد رجعوا إلى أنفسهم

«فرجعوا إلى أنفسهم فقالوا إنكم أنتم الظالمون»..

الرجوع إلى النفس هنا، هو مراجعة للذات، ومراجعة للفكر، ومراجعة للمرجعية كلها..

الرجوع إلى النفس، يعني أن آلية للتساؤل استطاعت أن تهز مرجعيتهم، وأن تهزها هزاً..

خاصة وأنها خرجت بنتيجة كهذه: «إنكم أنتم الظالمون..»..

﴿ثُمَّ نُكِسُوا عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ﴾ [الأنبياء: ٦٥]..

المشهد هنا يعامل على أن الرؤوس نكست حرجاً، أو خجلاً.. ونكاد أن نتخيل أن العرق يتصبب من الوجوه..

ربما..

لكن المشهد أيضاً يرسم، ويرمز لانتكاس طريقة تفكير كاملة.. تلك الرؤوس المنكسة.. كانت رمزاً لهزيمة تلك الرؤوس التي أمدت الأوثان بقوتها الحقيقية..

«رؤوس منكسة»، قد رفعت راية بيضاء، أمام آلية التساؤل..

.. للمعول فوائد كثيرة..

فالمعول لا يهدم فقط.. بل هو يحرث الأرض، وما فعله معول إبراهيم، كان أكثر من مجرد الهدم..

بل كان هدم من أجل البناء.. وكان حراثة في الأرض، وقتلاً لأدغالها وأعشابها الضارة.. - من أجل أن تتهيأ لاستقبال بذرة..

من أجل أن تبني بيتاً جديداً، عليك أن تزيل البيت المنهار..

عملية الهدم، جزء لا يتجزأ من عملية البناء.

كما أن استئصال الأدغال جزء لا يتجزأ من عملية الزراعة..

.. من أجل هذا كله فإن معول إبراهيم الحقيقي، لم يكن ليهدم الأوثان فقط.. أو لتحطيم أسس الهيكل..

بل كان سيساهم في بناء من نوع آخر..

وربما، كان رفع القواعد، لاحقاً من أهم تجلياته..

★ ★ ★

.. وفي الهيكل المعاصر نتجول اليوم..

نفس الأوثان موجودة، نفس الأسس لا تزال قائمة.. كل ما حدث أن الأسماء والأشكال تغيرت..

.. ونحتاج اليوم إلى معول..

معول ليضرب أسس تلك الأوثان وأساساتها.. معول يجعل الرؤوس منكسة، والراية البيضاء ترفع أمامه..

.. وفي داخل رأس كل منا، معول كامن، يمكن له أن يفعل ذلك..

فمن يمتلك «الرأس» اللازم لاستخدامه؟.

لا إنه ليس أبي

في حياتنا أمور ننتمي إليها بلا اختيار.. وقد نمضي شطراً كبيراً من حياتنا ونحن نحاول التأقلم أو التكيف - أو الفرار منها.

.. في حياتنا أمور مهمة، تترك أثرها علينا - على تكويننا، على شكلنا، على طريقة تفكيرنا، على سلوكنا.. لكننا لا نملك الخيار فيها.. قد نملك الإرادة - لاحقاً - للفرار من ذلك.. لكنه قرار محكوم أيضاً بتأقلمنا، أو بعدم تأقلمنا.. مع ما حُكمنا به..

.. في حياتنا أمور هي كالقدر، لا خيار مسبق لدينا.. في شأنها..

مكان ولادتنا مثلاً.. لا خيار لنا في اختياره.. نلج إلى الدنيا من خلاله.. ويحدد ذلك المكان الكثير من خياراتنا لاحقاً.. يحددها أو يوسعها.. لكنه يتدخل في كل الأحوال.. ونحن لا دخل لنا بتحديده..

مثل مكان الولادة، وقتها أيضاً..

وهو وقت يحدد أيضاً الكثير من مستقبلك.. لا عن طريق الأبراج الصينية.. بل على طريقة الأمر الواقع الذي يفرض نفسه.. ولادتك في مكان ووقت معين لتكبر في ظل ظروف عاصفة، حروب ومجاعات، وعنف مجاني، لا يشبه أبداً أن تكبر «تحت ظلال الزيزفون» أو في ظل ظروف مستقرة..

.. وهو أمر لا يمكن لك أن تتدخل فيه أيضاً..

كذلك شكلك، ومواهبك، والكثير من قدراتك..

تولد بها، يمكن أن تهدرها بسهولة - كما يفعل أغلب الناس..

ويمكن لك أيضاً أن تتشبث بها، وتجعل منها أداة لتغيير واقع الناس حولك..

لكن وجودها فيك أصلاً.. كان أمراً ليس ضمن اختياراتك..

.. وأهم من كل ذلك، ومما يؤدي له..

هو أنك لا تختار والديك..

من لقائهما تولد أنت، ومن صفاتهما تجمع صفاتك أنت».. قد يكون بعضها أفضل ما فيك.. وقد يكون غيرها أسوء ما فيك..

لكن، بكل الأحوال، فإن والديك هما من الأمور التي لاخيار لك فيها..

إنهما يشكلان انتماءً قسرياً..

لا فكاك منه.. «مبدئياً»، على الأقل..

ولأن الأمور مرتبطة ببعضها البعض، فإنك على الأغلب ستحمل اسم والدك.. الذي «اختارت» والدتك أن يكون شريكاً لها في عملية إنجابك.. سواء كان خيارها هذا برضاها أو عبر عملية قسر اجتماعية تعرضت لها..

إنه انتقاء قسري، كما تلاحظ.. وسواء كانت تعتز به أو تخجل منه، أو تخفي خجلك خلف ادعاء مضخم بالاعتزاز والفخر، أو كنت لا تبالي بذلك كله..

فإن علاقتك بأبيك، بالذات انتسابك له، هو أمر يدخل ضمن القسر البيولوجي..

لا مجال لاختيار واسع..

إنها علاقة تدخلها قبل أن يكون لك إدراك.. تقسر على دخولها..

★ ★ ★

.. ولكن العلاقات الأهم في حياتك، هي تلك التي تدخلها بكامل وعيك وإرادتك..

علاقة الابن بأبيه - الأبوة والبنوة.. والنسب.. كلها تحدث في بعد لا إرادي.. بينما علاقات الصداقة والرفقة والشراكة بكل أنواعها تحدث في «بعد» يمكن للإرادة أن تلعب فيه دوراً مهماً..

وهي علاقات، ستكون أكثر ثراءً، إذا أُحسن استخدامها..

★ ★ ★

ويأتينا القرآن الكريم، ناسفاً العلاقة الأبوية، التي ربطت عرب الجاهلية بآبائهم، والتي لا تزال تربط الأفراد والجماعات بنمط تفكير الآباء..

يأتينا القرآن الكريم، لينسف احتمالية، ولو مجرد احتمالية العلاقة الأبوية، بين«الأمة»بأسرها، وبين أهم شخص فيها..، بين الشخصية المحورية في الأمة.. وبين كل الأمة أفراداً وجماعات..

.. إنه محمد، عليه أفضل الصلاة والسلام..

الرجل الذي صار أمة..

والأمة هي نحن، هي كلنا جميعاً، ماضياً تاريخياً، ومستقبلاً قريباً كان أو بعيداً..

لكن العلاقة بيننا وبينه ليست علاقة أبوة..

★ ★ ★

نزل القرآن الكريم.. ليقول لنا، ﴿ مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ ﴾ [الاحزاب:٤٠]..

بغض النظر عن السبب المباشر لنزول الآية، والذي يصب أيضاً في نفس السياق الذي يلغي أبوته عليه أفضل الصلاة والسلام ولو بالتبني، فإن الآية، بإطلاقها، تتحدث عن نفي مطلق، لأي علاقة «أبوة» تربطنا، آباءً وأجداداً وأحفاداً.. بمحمد، عليه الصلاة والسلام..

.. لكن لماذا يا ترى؟..

★ ★ ★

.. كان المجتمع الجاهلي، كما معظم المجتمعات، قائماً، بشكل أساسي على علاقة الأبوة..

كان «الآباء» يمثلون الرصيد المعنوي والقيمي والعقائدي للمجتمع.. وكان الخروج عن ما قاله، أو آمن به، أو فعله الآباء.. وآباء الآباء.. كان من «غير المفكر فيه»..

كان كل فرد، خاضع لنظام آبائي يتجسد في نظام عشائري قبائلي متراكب من علاقات «آبائية» متداخلة..

.. وكان المجتمع، برمته، يدين بالولاء هذه الرابطة..

.. وهي رابطة بيولوجية.. رابطة قائمة على القسر.. لا شيء فيها بالإرادة والاختيار..

والآن ينتهي ذلك كله..

★ ★ ★

ما كان محمد أبا أحد من رجالكم..

إنه ليس أباً لأي منكم، ولا حتى بالتبني، ولا حتى مجرد تسمية.

إنه ليس أباً لأي أحد..

انسفوا هذا كله..، انسفوا فكرة «الأبائية» المسيطرة على عقولكم، انسفوا رابطة الدم التي تقيدكم وتقيد طاعتكم وولائكم..

.. الآن، لم يعد «الأب» هو المعيار..

لم يعد «الأب».. هو السيد

.. ويدلنا سبب نزول الآية الكريمة، على جزء مهم، ومؤثر، من عملية النسف التي أجراها القرآن لرابطة الأب الدموية هذهِ..

.. فقد كان زيد بن الحارثة، ابناً للنبي الكريم الذي ربّاه وهو صغير.. ونشأ في كنفه بعدما أهدته إياه زوجته خديجة.. وحسب مفاهيم المجتمع الجاهلي آنذاك، فإن الرسول الكريم، الذي لم يكن قد نزل عليه الوحي بعد، منح زيداً شرفاً عظيماً، إذ أعطاه اسمه، وهو القرشي الهاشمي..، بينما كان زيد ينتمي لقبيلة ليست.. (ذات شأن).. حسب معايير الجاهلية..

.. لكن ذلك كله آن له أن ينتهي.. لم يعد النسب هو المعيار، لم يعد الأمر أن ينتمي المرء لقريش أو لخزاعة أو لربيعة أو لمضر..

.. ذلك كله آن له أن ينسف..

وحتى الأبوة بالاسم المجرد - الذي يعرف فيه الناس بأمر الأب الحقيقي - كما قصة زيد - حتى هذهِ كان على العصر الجديد أن ينسفها نسفاً..

ولذلك، ومن أجل تكريس ذلك الإلغاء، مرّة واحدة وإلى الأبد، وبشكل عملي يجعل بقايا المفاهيم الجاهلية في حالة صدمة - فإن الرسول الكريم، يتزوج من طليقة زيد، زينب بنت جحش.. وعند العرب، وحتى في الدين الجديد، فإن الأب لا يتزوج طليقة ابنه مهما كان..

لكن محمداً تزوج زينب، لأن تلك الرابطة الوهمية - التي تعد نسباً معيناً شرفاً تحتكره بعض القبائل - قد ألغيت تماماً..

.. ولا بد أن يعود زيد «ابن محمد».. إلى أن يكون «زيد بن الحارثة»..

.. زواج الرسول من زينب، أعاد زيداً إلى أبيه الحقيقي..

.. ولا بد أن أفواه الناس قد فتحت من الصدمة، وهي ترى الرسول يتزوج من زينب..

لكن، ذلك فتح الرؤوس أيضاً: لندخل الفكرة، وتنسف ما يجب نسفه..

★ ★ ★

وشاءت الحكمة الإلهية، على الرغم من كون ذلك صوحب بألم كبير، أن لا يعيش للرسول الكريم، أولاد ذكور..

كان قد أنجب البنات، لكي تثبت الحكمة الإلهية صحته البدنية..

لكن أولاده الذكور، الذين ولدوا فعلاً، حكمت عليهم الحكمة الإلهية أن يتوفوا مبكراً، وهم صغار جداً..

لكي لا يكون للرسول «أولاد» يشوش وجودهم على النسف الذي حصل للعلاقة الآبائية..

ولنا أن نتخيل، أنه لو كان الأمر غير ذلك، ولو كان له عليه أفضل الصلاة والسلام أولاد ذكور - ما كان حدث، عند انتقاله للرفيق الأعلى..

من تصور، أن رابطة الدم والنسب.. ستحل، محل رابطة الفكرة والعقيدة..

★ ★ ★

.. وعندما استغل كفار مكة، هذا الأمر بالذات، عدم وجود أولاد ذكور للرسول الكريم، واعتبروه منقصة وعيره به أحد التافهين، قائلاً عنه «إنه أبتر»..

فإن القرآن الكريم، خاطب الرسول عليه الصلاة والسلام، قائلاً له أن من عيّره هو الأبتر..

.. واليوم، نحن لا نذكر اسم هذا التافه، رغم أنه على الأكثر كان لديه أولاد ذكور كثيرون..

أما، محمد، فاسمه يتردد في أرجاء الدنيا.. رغم أنه لم يكن أبا أحد من رجالكم، أو صغاركم.. أو أي من ذكوركم..

★ ★ ★

.. البتر.. ليس بأن لا يكون لك أولاد ذكور تنجبهم بيولوجياً..

البتر أن لا تترك فكرة.. لا تترك العالم بشكل أفضل مما جئت إليه..

.. إذا محمد ليس أبا أحد من رجالنا..

ليس أبي، وليس أبوك.. وليس جدي.. ولا هو جدك..

قرابة النسب الأبوي قد ألغيت تماماً..

هل هذا محزن؟.. هل كونه ليس أباً لنا أمر مؤسف؟..

.. أبداً..

علينا أن نفرح لذلك. علينا أن نكون ممتنين لهذا الأمر..

إن كونه ليسَ أباً لنا، يعني أن علاقتنا به، عليه أفضل الصلاة والسلام، ليست علاقة قسر بيولوجي.. ليست علاقة تحصل دونها إرادة أو وعي.. كما هي العلاقات الأبوية..

علاقتنا به، هي علاقة إرادة واعية، ندخلها بثبات وبكامل قدرتنا ووعينا.. - إنها ليست «قدراً» ننتسب له دونما إمكانية للخروج منه، كما مع الأب واسمه وجيناته..

بل علاقتنا به، قدر نختاره بأنفسنا، قدر نساهم فيه عبر اختيارنا الإيمان فيه..

محمدٌ ليس والد أيٍ من الرجال، لا الآن ولا قبل ألف سنة ولا بعد ألف سنة..

لكنه، تستدرك الآية وهي تقول لهم ولي، ولك..«رسول الله وخاتم النبيين»..

هذا هو محور علاقتنا به، إنه رسول الله إلينا، بل إنه آخر رسول للإنسانية..

وعندما يأتيك رسول، فإنك أنت من يحدد طبيعة العلاقة معه وليس أي شيء آخر..

أنت من يقرر، بكامل إرادتك ووعيك، أن تقبل تلك الرسالة.. أو ترفضها..

إنها ليست علاقة إقسار لا شأن لك فيها، كما في الرابطة التي تجمعك بأبيك وأخيك وأولاد عمك..

.. بل هي علاقة اختيار، تقرر أنت فيها، أنك ستقبل رسالة الرسول..

حكاية شعرة بيضاء[1]

كل شعرة، تبيضُّ، قبل أوانها، تكون لها قصة ما..

نعرف ذلك ونختبره على الصعيد الشخصي..

كلُّ شعرة يتغير لونها قبل ميقاتها، تحكي عن قهر ما، أو إحباط ما، أو انتظار ما، أو خيبة أمل ما..

شعراتنا البيض، تحكي قصتنا بالمختصر، وأيضاً بلا زيف، قد تبتسم عضلات وجهنا، عبر تقلص معين بإرادتنا، فيبتسم قناعنا بتهذيب.. وربما بتزييف..

أما الشعرات البيض فهي لا تكذب.. إنها تعبيرٌ لا إرادي عن تفاعل في باطننا.. في دواخلنا..

.. وبينما سيبتسم قناعنا بادعاء لسعادة وهمية.. ،ربما سيقول لساننا أن الأمور على ما يرام وأن كل شئ يسير حسب الخطة..

لكن شعرات، ابيضت، قبل الأوان.. ستقول شيئا آخر..

★ ★ ★

روحي فداً لشعرات بيض، في شعره الأسود.. ابيضت قبل أوانها..

أقول روحي فدا تلك الشعرات.. ليس من أجل التبرك المادي بآثاره عليه الصلاة والسلام..

---

(١) من (البوصلة القرآنية) بتعديل طفيف

بل لأن تلك الشعرات البيض، لم تبيض من أجل قافلة تجارة تأخرت، أو من أجل سفينة تحمل بضائع تعرضت للغرق.. أو من أجل ذكر لم يعش..

لا..

لقد ابيضت من أجلي أنا، من أجلكم أنتم أيضاً، من أجلنا جميعاً بطريقة ما..

لقد تجاوزت تلك الشعرات البيض، الهم الشخصي الضيق.. وعكست تفاعل ذلك الفرد - عليه أفضل الصلاة والسلام، مع الأمة.. وذوبان همه الشخصي في هم الإنسانية جمعاء..

..لقد ابيضت تلك الشعرات من أجلي وأجل أولادي..

فكيف لا تكون روحي فداه.. وفداها؟

★ ★ ★

الحديث هو عن ثلاث سور متتالية في القرآن الكريم..

ترتيب نزولها في مكة على صدر الرسول الكريم.. هو نفس ترتيبها الحالي الذي نقرأه دونما انتباه لكنز المعاني الذي قد يكون موجوداً في أعماق ما نتصور أنه «مجرد ترتيب»..

إنها ثلاثية السور: يونس، هود ويوسف...

التي قال الرسول الكريم عنها تحديداً إنها شيبته..

«شيبتني هود وأخواتها..»..

★ ★ ★

نستطيع أن نستنتج، من كون سورة يونس نزلت بعد سورة الإسراء، أن هذه الثلاثية المترابطة: هود وأخواتها، نزلت في فترة مكية متأخرة نسبياً، اعتماداً على كون

حادثة الإسراء قد حصلت.. في أغلب الروايات - قبل الهجرة بسنة واحدة، أي في الثانية عشر للبعثة، وحتى لو كانت حادثة الإسراء، أبكر من هذا الموعد، فإن (هود وأخواتها) ستظل محتفظة بموقع النزول في وقت ما من الثلاث سنوات الأخيرة في مكة..

وكانت تلك الفترة صعبة في حياة الدعوة، إذ اشتد فيها عداء قريش ومحاربة الملأ المكي لمحمد عليه الصلاة والسلام، خاصةً بعد وفاة أبي طالب عم النبي الذي مثل سنداً عشائرياً مهماً تمكن من حمايته في عدة مرات سابقة، وكذلك بعد وفاة خديجة زوجته التي كانت سنداً معنوياً مهماً منذ بداية بعثته.

من جديد، وجد نفسه عليه الصلاة والسلام وحيداً، رغم أن عدد اتباعه زاد - إلا أن إحساسه بالوحدة تضاعف بعد وفاة عمه وزوجته - وكان ذلك قبل حادثة الإسراء.

وكانت قريش تفننت - في هذه الفترة - بمحاربة الرسول عليه الصلاة والسلام، حتى أنها حاصرت بني هاشم في شعاب مكة ومنعتهم الأسواق، وكتبت في ذلك العهود والمواثيق، ورغم أن هذا الحصار كسر فيما بعد، إلا أن فترته الطويلة - سنتين إلى ثلاث سنوات - تركت أثرها حتماً على طبقة المؤمنين: لقد أفهمتهم لأي مدى يمكن أن تمضي قريش في حربها ضدهم.

ثم كانت وفاة أبي طالب، ثم خديجة.

ويمكن فهم حادثتي الإسراء والمعراج بمجملها بربطها بالوضع النفسي للرسول في تلك الفترة: لقد قدمت للرسول دعماً معنوياً ونفسياً هائلاً عبر إسرائه ومعراجه، ثم إنه عاد بالصلاة - واحدة من أهم أركان الدين الإسلامي..

رغم ذلك - فإن الوضع الداخلي في مكة قد ازداد سوءاً: فسخرية مشركي مكة وهزؤهم به عليه أفضل الصلاة والسلام - زاد أضعافاً بعد الإسراء والمعراج، بل إن بعض المسلمين أنفسهم قد افتتنوا بعد الإسراء والمعراج، كما تروي بعض الروايات.

كانت مكة قد صمت أذنيها عن سماع دعوة محمد، بل منعت وروجت عند بقية القبائل أن لا تسمعه. وبعد عشر سنوات من الدعوة، كانت لا تزال عند موقفها المتعنت الغبي، بعد عشر سنوات: كان الأذى والسخرية والاضطهاد والظلمة.

في تلك الفترة بالذات، المحملة بأقصى التحديات، تنزل هود وأخواتها، اللواتي شيبنه عليه أفضل الصلاة والسلام.

وتلك الشعرات عندما ابيضت، كانت تحكي وتعكس ذلك كله..

★ ★ ★

تبدأ سورة يونس بداية هادئة، مثل أغلب السور المكية.

﴿ إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ ۖ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ ۖ مَا مِن شَفِيعٍ إِلَّا مِن بَعْدِ إِذْنِهِ ۚ ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ (٣) ﴾ [يونس]

وتبدأ اللهجة بالتصاعد التدريجي، وهي تمتد بعرض واستعراض الجدال مع الملأ القرشي: ﴿ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولٌ ۖ فَإِذَا جَاءَ رَسُولُهُمْ قُضِيَ بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ (٤٧) وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (٤٨) قُل لَّا أَمْلِكُ لِنَفْسِي ضَرًّا وَلَا نَفْعًا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ ۗ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ ۚ إِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ فَلَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً ۖ وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ (٤٩) ﴾ [يونس].

ثم تمر مروراً سريعاً، أو يبدو، على الأقل، كذلك، ﴿ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا ۖ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنذَرِينَ (٧٣) ﴾ [يونس]- بخصوص قوم نوح ثم ومرة أخرى الغرق بخصوص قوم فرعون ﴿ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ بَغْيًا وَعَدْوًا ۖ حَتَّىٰ إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ آمَنتُ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ ﴾ [يونس: ٩٠]، بعد فوات الأوان.

ثم: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَن فِي ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا ۚ أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴿٩٩﴾﴾ [يونس: ٩٩]، والحوار الإلهي هنا يواجهه هو بالذات، محمد، الذي كان يواجه السخرية والاضطهاد التي واجهت الأنبياء قبله، مثلاً نوح، ومثلاً موسى، كل ما مر بهم يمر به الآن، يعانيه، يقاسي منه، وحسب الأمر الذي يدبره الله، فإنهم سيلاقون ذات المصير الذي لاقاه، قبلهم، القوم المكذبون قوم نوح وقوم فرعون..

وكان هذا ما لا يريده محمد: نبي الرحمة - الرسول الذي هاجسه الدعوة - كان يريد لهم الإيمان - والصلاح - والتغيير، لا الدمار بسيل يقضي عليهم أو بالزلزال أو الصاعقة.

فجاء الخطاب ﴿أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴿٩٩﴾﴾ [يونس: ٩٩]

وأكثر من ذلك: ﴿فَهَلْ يَنتَظِرُونَ إِلَّا مِثْلَ أَيَّامِ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِهِمْ ۚ قُلْ فَٱنتَظِرُوٓا۟ إِنِّي مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ ﴿١٠٢﴾﴾ [يونس]... إذا عليه أن ينتظر، ينتظر اليوم الذي سيلاقون جزاءهم فيه: الغرق مثلاً، الإعصار، أو الزلزال، وينتظر وقلبه يتفطر، قلب الداعية المحب لقومه والمتوسم فيهم، وفي من في أصلابهم خير ...

وتنتهي السورة بما هو أقوى: ﴿وَٱصْبِرْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُ ۚ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿١٠٩﴾﴾

إذا سيحكم الله، وعليه أن يصبر إلى أن يأتي هذا الحكم، وهو حكم قطعي وغير قابل للاستئناف: تراه الطوفان أم الإعصار أم الزلزال؟؟

هكذا كان محمدٌ يفكر ويتفاعل مع الخطاب القرآني، في تلك المرحلة الصعبة التي تكالبت عليه وعلى دعوته الصعوبات والفتن.

وكانت سورة يونس مجرد مقدمة تمهيدية لسورة هود، مجرد إحماء ذهني وفكري لما ستفعله سورة هود، التي وصفها، عليه أفضل الصلاة والسلام، تحديداً بأنها شيبته.

★ ★ ★

سورة هود.

﴿ فَلَعَلَّكَ تَارِكٌۢ بَعْضَ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ وَضَآئِقٌۢ بِهِۦ صَدْرُكَ أَن يَقُولُواْ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ كَنزٌ أَوْ جَآءَ مَعَهُۥ مَلَكٌۚ إِنَّمَآ أَنتَ نَذِيرٌۚ ﴾ [هود: ١٢].

﴿ فَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوْمِهِۦ مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ ٱلرَّأْيِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلِۭ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَٰذِبِينَ ﴿٢٧﴾ ﴾ [هود: ٢٧].

﴿ قَالُواْ يَٰنُوحُ قَدْ جَٰدَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَٰلَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٣٢﴾ ﴾ [هود: ٢٧]

﴿ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِّن قَوْمِهِۦ سَخِرُواْ مِنْهُۚ ﴾ [هود: ٣٨] ﴿ وَحَالَ بَيْنَهُمَا ٱلْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُغْرَقِينَ ﴾ [هود: ٤٣] ﴿ وَقِيلَ يَٰٓأَرْضُ ٱبْلَعِى مَآءَكِ وَيَٰسَمَآءُ أَقْلِعِى وَغِيضَ ٱلْمَآءُ وَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ وَٱسْتَوَتْ عَلَى ٱلْجُودِىِّۖ وَقِيلَ بُعْدًا لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٤﴾ ﴾ [هود: ٤٤]

إنها صورة مفجعة - تلك التي تقدمها بداية السورة - الأب وهو يرى ابنه بأم عينيه يغرق.

صورة مفجعة، الأب يحاول مع ابنه، ويتصور أن بإمكانه إنقاذه: فقط لو صعد إلى السفينة، لكن الابن يأبى، فيغرق: صورة مفجعة لأي أب يعرف طعم الأبوة وقيمتها، ولعلها مفجعة أكثر لنوح الذي ربما تذكر أنه دعا ذات مرة، في لحظة يأس: ﴿ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا ﴿٢٦﴾ ﴾ [نوح] - وها هو دعاؤه يستجاب: ونعم الاستجابة فتشمل ابنه نفسه.

وما إن تستوي السفينة حتى يقول نوح ﴿ رَبِّ إِنَّ ٱبْنِى مِنْ أَهْلِى وَإِنَّ وَعْدَكَ ٱلْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿٤٥﴾ ﴾ [هود: ٤٥] - مستذكراً أمر الله له: ﴿ ٱحْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ ﴾ [هود: ٤٠].

صورة مفجعة، ولعل أكثر الناس كان استشعاراً لها هو الرسول الذي نزلت الصورة كلها على قلبه: فقد كان أبا مفجوعاً هو الآخر، لم يعش له ذكور وشاهدهم بأم عينيه يموتون أمامه، وكان إحساسه يتجاوز مصيبة الأب المفجوع ليذكره بتجربة مر بها قبل فترة وجيزة: عندما مات عمه أبو طالب - الذي كان يكن له عميق الحب والتقدير - مات دون أن ينطقها، وظل محمد عليه الصلاة والسلام- بقلب ابن الأخ والربيب المحب - يستنطقه وهو على فراش الموت، ويطلب منه كلمة واحدة يحاجج ربه بها: بينما وقف شخوص الملأ المكي على الجهة الأخرى من الفراش: أتترك دين عبد المطلب؟

ومات، مات دون أن ينطقها، وترك في قلب محمد حسرة عميقة..

وإذا كان أبو طالب قد مات - وقضي الأمر- فقد كان محمد يشعر بأن الوقت قد بدأ يدركه بالنسبة لآخرين: أبناء عمومه وقرابة وأصدقاء صبا وشباب. الناس في مكة الذين لم ينطقوا بما يمكن له أن يحاجج ربه من أجلهم. الناس الذين أحبهم بقلب الداعية الذي يسع الناس جميعاً: صغاراً وكباراً، أشرافاً وصعاليك.

وكان يشعر - بعد عشر سنوات مضنية من الدعوة والصدود - أن الوقت بدأ ينقضي، وأنه سيأتي اليوم الذي يكون فيه: لا عاصم اليوم من أمر الله ... وقضي الأمر.. كذلك كان تفاعله مع تلك الصورة المفجعة لنوح - الأب - الذي شاهد ابنه يغرق أمام عينيه، ولنوح - الداعية والرسول: الذي شاهد قومه يغرقون.

وكانت تلك مجرد مقدمة... تحكي لنا الشعرات البيضاء.. انعكاس ذلك كله في داخل الرسول الكريم..

★ ★ ★

﴿ قَالُواْ يَٰهُودُ مَا جِئۡتَنَا بِبَيِّنَةٖ وَمَا نَحۡنُ بِتَارِكِيٓ ءَالِهَتِنَا عَن قَوۡلِكَ ﴾ [هود: ٥٣] ﴿ وَلَمَّا جَآءَ أَمۡرُنَا نَجَّيۡنَا هُودٗا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ بِرَحۡمَةٖ مِّنَّا ﴾ [هود: ٥٨] ﴿ وَتِلۡكَ عَادٞۖ جَحَدُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمۡ وَعَصَوۡاْ رُسُلَهُۥ وَٱتَّبَعُوٓاْ أَمۡرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٖ ۝٥٩ وَأُتۡبِعُواْ فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنۡيَا لَعۡنَةٗ وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ أَلَآ إِنَّ عَادٗا كَفَرُواْ رَبَّهُمۡۗ أَلَا بُعۡدٗا لِّعَادٖ قَوۡمِ هُودٖ ۝٦٠ ﴾ [هود]

﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ﴾ [هود: ٦١]

﴿فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ ذَٰلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ (٦٥) فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَالِحًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَمِنْ خِزْيِ يَوْمِئِذٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ (٦٦) وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ (٦٧) كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا أَلَا إِنَّ ثَمُودَ كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلَا بُعْدًا لِّثَمُودَ (٦٨)﴾ [هود]

﴿وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ هَٰذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ (٧٧) وَجَاءَهُ قَوْمُهُ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِن قَبْلُ كَانُوا يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ﴾ [هود: ٧٧-٧٨].

﴿فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ اللَّيْلِ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ إِلَّا امْرَأَتَكَ إِنَّهُ مُصِيبُهَا مَا أَصَابَهُمْ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ (٨١) فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ (٨٢)﴾ [هود: ٨١-٨٢].

﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ وَلَا تَنقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ﴾ [هود: ٨٤]، ﴿قَالُوا يَا شُعَيْبُ أَصَلَاتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا﴾ [هود: ٨٧].

﴿وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ (٩٤) كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا أَلَا بُعْدًا لِّمَدْيَنَ كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ (٩٥)﴾ [هود].

.. وتتابع الآيات، المفجعة، المشبية في سورة هود، تتلاحق الصور الواحدة تلو الأخرى، مثل جمرات محرقة يمر عليها قلب محمد، وتبيض شعراته فيه: لقد مر بذلك كله من قبل، لقد كان هنا من قبل. هذا الحوار بين الأنبياء وبين أقوامهم، لقد سمعه من قبل، كان جزءً منه من قبل.

لقد قال لقومه - أهل مكة - كما قال عادٌ لقومه، وصالح لثمود، ولوط لقومه، وشعيب لمدين. لعشر سنوات الآن وهو يعيد نفس الكلام.

ولقد سمع كلام الأقوام من قبل، ما قاله قوم عاد وثمود أهل مدين وقوم لوط: سمعه على لسان الملأ المكي، كما لو أن التاريخ يعيد نفسه.

لعشر سنوات وهو يسمع نفس الصدود والسخرية والاستهزاء.

لقد كان في قلب التجربة النبوية، في قلب المشهد المتكرر، وكان المشهد المكي مشابه للمشاهد السابقة، لدرجة المطابقة إلا في تفصيل واحد ونهائي: الختام الذي تنتهي به القصة كلها.

وكان ذلك المشهد لم يتوج الفصل المكي بعد، ولكن احتمالية ذلك كانت قائمة.

وكانت الآيات أشواك يتقلب عليها محمد، جمرات محرقة شيبت رأسه، فالمقدمات المتشابهة في الآيات ومكة - تحتم منطقياً أن تكون النتائج أيضا متشابهة.

وكان يتساءل - بلوعة وحرقة وخوف: هل يحدث لمكة ما حدث لمدين؟ هل يحدث لقومه ما حدث لقوم عاد ولوط وصالح وشعيب؟ هل يأتيه الأمر الإلهي فجأة: أن أسر بأهلك.. ويكون موعدهم الصبح - أليس الصبح بقريب.

ثم يأتي الأمر الإلهي متعدد الصيغ: يجعل عاليها سافلها، حجارة من سجيل، الصيحة، الصاعقة، الزلزال ... إلى آخره.

ويصير: ألا بعداً لمكة - كما بعدت غيرها من القرى..

وكان ذلك يعذبه، لقد كان لا يزال يحبهم، بعد عشر سنوات من الدعوة الصعبة والصدود المر كان لا يزال يحبهم، ويتمنى لهم الإيمان والتغيير والقيامة من نومة القبر التي يعيشونها وكان على خضوعه وانقياده للأمر الإلهي، يتمنى نهاية مغايرة لمكة وقومها.. وكان يشعر أيضا، أن له دوراً سيكون مختلفاً عن بقية الأنبياء، دور لا

يعرف كنهه ولا تفاصيله، لكنه - ربما اعتماداً على طبيعة معجزته ورسالته خصوصاً بعد الإسراء والمعراج - يتصور أن دوره مختلف ...

ولكنها على أي حال، عشر سنوات صعبة، وحتى الآن لم يكن هناك سوى المقدمات المتشابهة مع بقية القصص - وكل الأسباب التي يمكن أن تؤدي إلى النتائج المتشابهة:

المشهد الختامي الذي أنهى كل القصص بالعقوبة الإلهية.

★ ★ ★

وكان تتابع الآيات الجمرات يكاد يؤكد له - تلميحاً - صدق حدسه وتصوره (ذلك من أنباء القرى نقصه منها قائم وحصيد) ١٠٠ هود

﴿ وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِن ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ ﴾ [هود:١٠١]، ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِيَ ظَٰلِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴿١٠٢﴾ ﴾ [هود]، ﴿ وَمَا نُؤَخِّرُهُۥٓ إِلَّا لِأَجَلٍ مَّعْدُودٍ ﴿١٠٤﴾ ﴾ [هود]، ﴿ وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ ﴿١١٧﴾ ﴾ [هود]، ﴿ وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ ﴾ [هود:١٢٠]، إذا هواجسه تكاد تتأكد، لقد اقترب المشهد الختامي حقاً، إنه مؤخر لأجل معدود فقط، ومكة وأهلها يكادون يستنفذون فرصتهم الأخيرة، وهو يتمنى لو كانت هناك فرصة أخرى، ويتمنى لو كان بإمكانه أن يفعل شيئاً من أجلهم ... وكان ذلك يشبه فعلاً..

ثم تأتي الآيات الخاتمة للسورة المشية: ﴿ وَقُل لِّلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ٱعْمَلُواْ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنَّا عَٰمِلُونَ ﴿١٢١﴾ وَٱنتَظِرُوٓاْ إِنَّا مُنتَظِرُونَ ﴿١٢٢﴾ ﴾ [هود].

انتظروا ! إنا منتظرون؟..

ينتظرون ماذا؟ تساءل الرسول، الصاعقة؟ الصيحة؟ الزلزال؟ حجارة السجيل؟ الأمر الإلهي بالخروج؟

ينتظرون ماذا؟ تساءل الرسول وقلبه معلق بعرش الرحمن، وعيناه معلقتان في السماء ومتخوفاً من أي سحابة قد تكون مقدمة للمشهد الختامي...

وشعراته التي ابيضت، تواً، تختصر ذلك..

★ ★ ★

اذهب إلى المرآة الآن.. وواجه نفسك فيها..، لا ليس قناعك المبتسم.. الذي يقدم السعادة.. ولا قناعك المتجهم الذي يدعي الجدية..

دعك من ذلك، وتوجه إلى حيث لا إرادة لك.. إلى حيث لا زيف ولا تمثيل..إلى تلك الشعرات، التي يشي لونها بتفاعلات داخلية قد تحرص على إخفائها..

عد الشعرات التي ابيضت قبل الأوان، أو تذكر قصتها..

عن أي هم ستحكي يا ترى؟ هل هو هم المزيد من المال؟ المزيد من السلع؟

هل هو هم التوحد والجوع إلى الرفقة في عالم تزيد وحشته مع زيادة زحامه..

.. كل ذلك ممكن.. لكن الشعرات البيض هذه لن تكون إلا انعكاساً خارجياً لتفاعل داخلي..

لن تعكس رحلة العبور نحو التغيير.. لن تعكس هم التغيير..كما فعلت شعراته البيض، عليه الصلاة والسلام..

ليبيض شعرك قبل أوانه.. لكن ليكن ذلك من أجل مبدأ..من أجل قضية..من أجل هم قافلة مجتمع وسفينة الإنسانية..

عندها: لا تخف شعرك الأبيض..

بل دعه يسفر، يتألق..

حلم ليلة صيف[1]

على الحافة بين الحلم واليقظة نتأرجح..لثوان..و نلاحظ شيئا مختلفا..

كأنها ذاكرة مختلفة..كأنه طعم مختلف على لساننا..كأنه هواء آخر الذي نستنشقه..

شيء مختلف..كما لو كان واقعا آخر..

ونتفكر لثوان..ما الذي حدث بالضبط..؟؟

ونفهم..!

آه، انه الحلم..انه حلم الليلة الماضية الذي غادرناه توا إلى الواقع المحيط..

كم هو مؤلم انه مجرد حلم.. ليته كان بقى..ليته استمر..

يا ليته كان هو الواقع..

ونلتفت إلى الواقع: كأنه كابوس !..ليته لم يكن أكثر من مجرد كابوس ونصحو الآن منه..

بقايا طعم الحلم ينبهنا إلى «كابوسية» الواقع وشدته..

كما لو أن الحلم ينبهنا إلى ضراوة الواقع..

والتناقض بينهما بشير لنا بإمكانية تغييره..

★ ★ ★

يحدث ذلك أحياناً.. وقد حدث شيء مشابه مع الرسول الكريم عليه أفضل الصلاة والسلام..

---

(١) من (البوصلة القرآنية) بتعديل طفيف.

وسجل ذلك.. بترتيبه في القرآن الكريم..ليكون ذلك فرصة دائمة لشق جدار العاصفة وإلغاء الكابوس وإحلال حلم طفولي محله...

ومن ثم رحلة طويلة للخروج من الواقع الكابوس..إلى الواقع الحلم..

* * *

في مكة نجلس وننتظر وقد تماهينا مع قلق وانتظار كريمين لأكرم وأشرف من سار على قدمين..إنها الفترة التي شهدت نزول ثلاثية هود وأخواتها التي شيبته عليه الصلاة والسلام..هود ومن ثم يونس و بعدها يوسف..نفس ترتيب النزول هو الترتيب الحالي للسور في القرآن من أجل حكمة لا تخفى..ونحن في خضم ذلك الانتظار المرهق الذي وعدتنا به الآية ﴿ وَٱنتَظِرُوٓاْ إِنَّا مُنتَظِرُونَ ﴿١٢٢﴾ ﴾ [هود].

أبواب رؤوس الكفار وقلوبهم مغلقة بعد عشر سنوات من الدعوة وعشر سنوات من الصدود..

وهذا أمر لا يسر أحدا ولا يبشر بخير..لأنه ببساطة يشابه ما كان يحصل في المدن مع الأقوام الأخرى..ويحتمل أن العذاب الذي نزل في حق أقوام الصدود والكفر سيحل أيضا بقوم الصدود والكفر المماثل في مكة..

تشابه المقدمات قد يؤدي إلى تشابه النتائج.

إلى حين تلك اللحظة: لم يكن أحد يعلم ما الذي سيحدث بالضبط..

* * *

بعد كل ذلك التوتر والاستفزاز عبر مشاهد العذاب التي أصابت الأقوام السابقة، وبعد أن تهيأ خير من سار على قدمين نفسياً – بانتظار صعب وطويل أن يستقبل أمر الخروج الذي سيسبق المشهد النهائي للفصل المكي الأخير: الصيحة أو

وبعد أن أوشك على التيقن أن نهاية مكة ستكون كنهاية مدين أو ثمود ... أو قرية لوط وصالح. نزلت عليه فجأة، سورة تبدأ بحلم.. وحلم طفولي أيضا..

إنها سورة تبتدىء بمشهد طفل يخبر أباه عن حلم رآه: (إذ قال يوسف لأبيه يا أبت إني رأيت أحد عشر كوكباً والشمس والقمر رأيتهم لي ساجدين) يوسف ٤ وكانت آية الحلم هي عملياً أول ما أنزل فعلاً من سورة يوسف إذا إن الآيات الثلاث الأولى مدنية.

طفل ما، هو يوسف، ينهض من نومه، ويركض إلى والده ليحكي له عن حلم قد صحا منه للتو..المشهد حميم ودافئ..مثل دفء سرير طفلك وطفلي..ومثل دفء أنفاس طفلك وطفلي.. تكاد تشعر بدفء أبوة يعقوب ليوسف، تكاد تشعر بذراعيه تلف جسد الطفل الغض..

كأننا نلمح في المشهد فراشة حلقت على سرير يوسف وهو متدثر بحلمه.. ونجمة مرت من فوقه..وغمامة أنزلت ماءا لتروي له أحلامه..

لعلها كانت ليلة صيف لطيفة الجو.. أو ليلة شتاء دافئة..لا فرق كبير..لأننا سنرى لاحقا كيف أن الحلم برهن أنه لم يكن سحابة عابرة..

★ ★ ★

وهل كان حلمه فيه مبالغة؟؟

هل كان سجود الشمس والقمر والكواكب لطفل صغير أمر مبالغ فيه؟

لم؟

إنه الإنسان..

وقد أمر الله الملائكة أن يسجدوا له..

فلم ليس القمر والشمس والكواكب..؟

وكلها في النهاية مخلوقات لله..وحلم يوسف يعكس ذلك كله - سواء كان بوعي أو بلا وعي..يعكس رغبة الإنسان في استعادة دوره - **أنا الإنسان.. أنا الخليفة هنا..أنا سيد العالم..**

★ ★ ★

بدلاً من الزلزال أو صيحة العذاب وأمر الخروج، ينزل حلم طفولي شفاف على قلب الرسول الكريم..

تبتدئ السورة بذلك الحلم الشفاف الطموح - وبذلك المشهد الحميم بين الأب وابنه..، ومع تتابع الآيات نتابع يوسف وهو يكبر ويلاقي مصاعب-وكوارث، ولكن شيئاً لا يفت من عضده، يستمر والحلم - الرؤيا في الإطار العام لأفكاره وخططه: يستمر، وذلك الحلم الطموح - الإيجابي يشكل التربة الخصبة لكفاحه ولتغلبه على المعوقات أمامه.

... ونراه - أقرب الناس إليه يتآمرون عليه.. ونراه وحيداً ملقى في البئر ثم وهو يباع رقيقاً رخيصاً بثمن بخس: دراهم معدودة. ثم وهو يعمل كخادم - ويكاد يتعرض للإغراء والغواية. ثم يدخل السجن مظلوماً بتهمة مزيفة ،كل ذلك، ويوسف يكبر ولكن ذلك الحلم الطفولي البعيد- الذي يبدو تحقيقه مستحيلاً-يظل موجوداً في أعماقه.

لم يتمكن اليأس من قتل إيجابيته - وظل مع كل ذلك وحيداً: منذ ألقي في البئر، غريباً: من التقطه السيارة وباعوه في مصر. لكن شيئاً من ذلك لم يقتل روح الحلم في أعماقه. شيئاً من كل تلك المصاعب لم يستطع أن يقتل الإصرار والعمل والدأب في داخله..

.. وتنتهي السورة وإذا بالحلم الذي ابتدأ مع بدايتها يتحقق، إذا بيوسف الذي رأيناه يباع كرقيق رخيص، وفي السجن- إذا به متقلداً أعلى المناصب في أرقى دول زمانه.

وقد ابتدأ ذلك بحلم طفولي، رآه يوسف، وأسر به إلى والده..ذات ليلة دافئة وحميمة..لم يستطع شيء - أي شيء - أن يمحوها من ضمير وعقل يوسف الصغير..

★ ★ ★

تفاعل الرسول ﷺ مع الخطاب القرآني في هذه السورة بالذات، لابد وأنه كان مختلفاً ومميزاً - فنزولها بعد هود مباشرةً- وفي الظروف الصعبة التي كانت الدعوة تمر بها، لابد وأن جعلت من التفاعل معها يحمل مذاقاً خاصاً ومميزاً. عملياً كان الوعيد الإلهي في هود شديد اللهجة.

وكان الأمر بالانتظار «انتظروا إنا منتظرون» محملاً بإيحاءات ودلالات تتجه في معظمها إلى حدث عظيم مفاجئ سيغير السكون الذي بدأ يلف الأوضاع في مكة..

وكان من المفترض أن يحدث شيء ما..!

..أي شيء يغير رتابة الأمر الواقع الذي بدأ الملأ المكي يفرضه على الدعوة الجديدة. ففي كل الحسابات، لم يكن عدد أتباع محمد يتجاوزون المائة بعد عشر سنوات من الدعوة. هو رقم لا نستطيع أن نقول أنه مشجع جداً، خاصة في ظل ظروف الاضطهاد والاستكبار التي كانت تمارس ضد أتباع محمد - وفيهم مستضعفون وعبيد.

وبعد عشر سنوات، كان المتوقع أن يحدث ما حدث لقرى سابقة - وأمم سابقة: العقوبة الإلهية التي تنهي القصة بأكملها، ومن جذورها..

وفي ظل الانتظار المتعب - المتحدي «انتظروا إنا منتظرون» الذي اختتمت به سورة هود التي شيبته عليه أفضل الصلاة والسلام، تنزل على قلبه سورة بنسق مختلف وسياق متميز تبدأ بحلم طفولي شفاف وطموح كأنها لتغير معطيات التفكير وأولويات النظر، في تلك المرحلة الدقيقة التي كانت الدعوة تمر بها :، ولو استعرضنا نتائج التفاعل المحمدي مع الخطاب القرآني في سورة يوسف لوجدنا عدة نقاط مهمة:

لقد غيرت السورة من معطيات تفكيره التي سيطرت عليها مشاهد العذاب المفجعة في سورة هود. فهنا صار النجاح ممكناً. ولم يعد العذاب الإلهي هو الفعل النهائي في قصص الأنبياء. بل صارت هناك إمكانية النجاح والتمكين في الأرض والسيطرة على خزائن الأرض.

★ ★ ★

..كان يوسف، بعد كل شيء، وحده - إلا من إيمانه وطموحه ودأبه على الكفاح، لقد كان وحيداً منذ ألقي في البئر: لا إخوة ولا عمومة ولا خؤولة - ولا سند عشائري من أي نوع، كما أنه كان خالياً من أي مكانه اجتماعية مؤثرة منذ بيع كرقيق رخيص - بثمن بخس دراهم معدودة - ثم عمل كخادم، ثم صار نكرة منسية في السجن - لكن ذلك كله لم يعوق إمكانية نجاحه ووصوله إلى هدفه..

وكانت تلك النقطة مهمة في تفاعل محمد ﷺ مع الخطاب القرآني: فوحدة يوسف صارت فجأة تعني مواساة له عن فقدانه لعمه (السند العشائري) وزوجته خديجة (السند المعنوي والمادي) - فيوسف أصلاً لم يمتلك هذين السندين في قصة كفاحه الطويلة ومع ذلك: لقد فعلها ونجح...

★ ★ ★

.. أعطت سورة يوسف له -عليه الصلاة والسلام - تلك الفكرة المغايرة عن إمكانية النجاح في قرى أخرى، ومدن أخرى غير قريته ومدينته. قالت سورة يوسف

للرسول الكريم، ضمن ما قالت: ارحل إن شئت النجاح، إن تصورت أن أمر النجاح في مكة حاليا ليس واردا.. فالنجاح ممكن في أماكن أخرى، يوسف لم يتحقق حلمه إلا في مصر، وربما لو ظل في مجتمعه البدوي - العبري - لما تحقق له حلم ولا نجاح لكنه عندما نجح في مصر: وفيها أرقى حضارة في ذلك الوقت - استطاع أن يستقطب ويجذب أبناء عشيرته من البدو الرحل، الذين استوطنوا مصر وتقلبوا في ظروف مختلفة خلال بضع مئات من السنين إلى أن خرجوا مع موسى.

إن تلك الفكرة المغايرة جعلت من بصيرته عليه أفضل الصلاة والسلام تنفتح لترى أن مكة ليست الساحة الوحيدة للدعوة: وأن إمكانية النجاح في أماكن أخرى قد تكون أوفر.

وجعلته يرى أيضا: أن النجاح في أماكن أخرى قد يكون مدخلا للنجاح في مكة من جديد..

★ ★ ★

ورسمت سورة يوسف صورة نبهت إلى أهمية الانتقال من المجتمع البدائي - الرعوي، مجتمع الصيد والرعي - إلى مجتمع أكثر تقدماً من النواحي الإنتاجية: زراعي مستقر مثلا كما هو في وادي النيل..، ولقد أثبت سياق السورة تفوق ليوسف في هذا المجال عندما قدم نصيحته للملك بخزن القمح في مواجهة سنين جفاف متوقعة...

★ ★ ★

وقدمت السورة سياقا مختلفا، رغم كل الصعوبات التي تواجه يوسف، لغة هادئة، ومشاهد تكاد تعارض مشاهد سابقة في سورة هود: فبعد مشهد الأب - نوح المفجوع بابنه مرتين مرة لكفره ومرة لغرقه، هناك مشهد معارض في سورة يوسف: مشهد حميم بين يوسف ويعقوب في بداية السورة وآخر في نهايتها. إذا ليس كل الأبناء كفرة - وليس كلهم عاقون.

وحتى الإخوة الذين تآمروا على يوسف ورموه في البئر، حتى هؤلاء، أتى عليهم حين من الدهر ليعلنوا فيه توبتهم وندمهم.. وصلحهم.

.. وكان ذلك جديداً كله.

وقد فرض هذا الجديد نفسه لاحقا..

ولا يمكن أن نزيح من أذهاننا أن مشهد إخوة يوسف النهائي ﴿ وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى ٱلْعَرْشِ وَخَرُّوا۟ لَهُۥ سُجَّدًا ﴾ [يوسف:١٠٠]، يشبه، ذلك المشهد النهائي في مكة.. عندما قال الرسول الكريم: «اذهبوا فانتم الطلقاء»..

المشهد في يوسف أنهى القصة الطويلة بين الكابوس والحلم..

وقد استرشد الرسول الكريم بخارطة الطريق تلك..

ووصل لنفس النهاية..

وسورة يوسف ليست أبداً حكاية حصلت وانتهت..

إنها ليست أبداً قصة فتى «ضاع ووجدوه»..

بل هي قصتك أيضاً إن شئت..

قصة اختطافهم للأمل والحلم منك..وقصة بحثك عنه.. وإصرارك على أن تجده وتحققه بنفسك..

إن شئت..!

★ ★ ★

ولقد خذلك العالم كله ذات يوم..

وألقى بك إخوتك في البئر مرة تلو المرة..

وحيداً كنت معهم قبل أن يلقوك.. ووحيداً بقيت في البئر بعد أن رموك..

وأخذك السيارة والتقطوك - وكنت وحيدا معهم أيضا..

وباعوك بثمن بخس - دراهم معدودة..

بل إنك كنت أحيانا بلا ثمن - وبينها حياة أفراد آخرين لا تقدر بثمن وقد تقوم من أجلها حروب..فإنك مجرد رقم مهمل - مجرد شخص آخر ينتظر في طابور طويل من أجل عمل أو تأشيرة.. وأحياناً من أجل سقف ولقمة خبز..

مرة بعد مرة خذلك العالم.. مرة في سجن بلا تهمة.. ومرة في زنزانة بتهمة اسمك أو لون بشرتك أو اسم عشيرتك..

ونسوك سنينا في السجن كما لو أنك لم تكن..

مرة بعد مرة - حاصروك وأصروا على أن يسلبوك أهم وأقوى وأعز ما عندك.. ليس روحك ولا كرامتك ولا خبرتك ولا حتى اعتزازك بنفسك: كل هذا مجرد تفاصيل..

أهم ما عندك هو حلم نشب فيك ذات مرة وأنت طفل، ذات ليلة..و جعلك تحلق عاليا ولو بجناح طائرة ورقية.. أو على جناح طائرة نفاثة أو ربما صاروخ صنعه خيالك الجامح.. أو ربما تحلق بلا أجنحة.. فقط تحلق..

أهم ما عندك هو ذلك الحلم.. حلم الارتفاع.. حلمك بأن تكون..

وإذا تمكنوا من سلبك إياه.. أو اقتناصه منك فقد نالوا منك..

كل شيء إلا ذلك الحلم..

وكل شيء إلا أن يظل مجرد حلم عابر.. مثل سحابة صيف.. عابرة.

شيء في قلبي

قلبي - وقلبك أيضاً - ليس مجرد مضخة عضلية توزع الدم إلى سائر أنحاء الجسد..

.. بغض النظر عن ما يؤكده الأطباء، فأنا متأكد أنه أكثر من هذا..، أنه يشعر.. وأنا أشعر أنه يشعر، أشعر أنه يحس، ينقبض إذا اكتأبت، وينبسط إذا ارتحت.. يدق بشدة إذا أحببت، أو إذا هاجرت، أو إذا هاجر من يحب.

.. وهو يغوص في أعماقي، إذا أخطأت،.. أو إذا زللت..

ربما يكون الأطباء يتحدثون عن شيء آخر، وأتحدث أنا عن شيء مختلف، لكن هناك تشابهاً في الأسماء تشوش المسألة..

ربما كانوا هم يتحدثون عن مضخة قد تعطب فيعطب معها سائر الجسد، وأقصد أنا (مضخة)، إذا صلحت صلح سائر الجسد..

ربما كانوا يتحدثون عن عضلة كمثرية الشكل، ونتحدث نحن عن جوهر في الداخل، بلا شكل محدد.. ولكنه يعكس (عموم) ما نحس ونشعر ونستقبل دون تفاصيل..

ربما كانوا يتحدثون عن عضلة دأبها الانقباض والانبساط، وأتحدث أنا عن جوهر دأبه التقلب، سمي القلب، لأنه يتقلب، لماذا يتقلب؟.. هل لأنه مزاجي؟.. هل لأنه مراهق..؟؟..

أبداً.. هذا فقط ظاهره، هذا هو ظاهر تصرفاته التي أكسبته تلك السمعة..

لكنه ربما، كان يتقلب من أجل أن يستقر، وكان يتحول من أجل أن يصل لموقع أفضل، هو الموقع الذي خلق من أجله..

ربما كان قلبي، يتعلق أحياناً بالأشخاص الخطأ - والأشياء الخطأ - لأنه يتوهمهم - ويتوهمها - المكان الذي سيستقر عليه، وسيطمئن فيه..

لا تسيئوا الظن بقلبي - ولا بقلوبكم -.. إنه ليس مراهقا كما تظنون.. إنما قلبي يريد أن يطمئن، لا غير.. كل ذلك من أجل أن «يطمئن قلبي».. !.

★ ★ ★

ضوء قرآني ساطع، يأتينا من بين الآيات الكريمة، يكاد يسلط على قلبي، وعلى قلوبكم، وعلى قلوب ناس آخرين تحتاج لهذا الضوء..

هذا الضوء، المنبعث من الآيات، يتخذ من قلب سيدنا إبراهيم، هو المرآة التي عكست هذا الضوء إلينا..

من خلال قلب سيدنا إبراهيم وصلنا الضوء، اختصر قلبه قلوبنا.. واختزلت حكايته حكايانا..

وكان قلب سيدنا إبراهيم ممثلاً لقلوبنا جميعاً، وكان يتحدث بالنيابة عنا، وبالأصالة عن ذاته، في ذلك النص القرآني - الذي خرج من إطار المكان وسياق الزمان، ليصير نصاً مطلقاً..

..﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ أَرِنِى كَيْفَ تُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ ۖ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن ۖ قَالَ بَلَىٰ وَلَـٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِى ۖ﴾ [البقرة: ٢٦٠]..

.. إبراهيم، بعد أن وصل لما وصل إليه، وعبر عقله ورأسه أولاً، رتكللت رحلته بالوحي المبين، يعلن، أنه لا يزال يحتاج إلى أدلة أكثر..

يعلن إبراهيم هنا، أنه رغم كل ما فات.. لا يزال يريد أن يعرف عن «كيفية إحياء الموتى..».

ويأتيه الرد - لا ليسأل فهو الأدرى بالجواب - ولكن ليشارك إبراهيم في الحوار..

ولكي يصلنا هذا الحوار.. إلينا..

يأتي الرد الإلهي: أولم تؤمن؟؟..

« بلى..» يجيب إبراهيم..، لقد آمنت، ولكن..

★ ★ ★

يقف إبراهيم في هذا المشهد القرآني ليعلن صراحة، ما يدور في أذهان وقلوب الجميع سراً.. ولكن يتكتمون عليه..

قال إبراهيم، بلا لف ولا دوران، ولا تغطية من أي نوع، بلا اختباء خلف شعارات لا معنى لها..

قال إبراهيم «بلى، ولكن ليطمئن قلبي..».

ليطمئن قلبي..

ويعني ذلك، بلا شك، أن قلبي ليس مطمئناً.. وأني أريده أن يطمئن..

★ ★ ★

يعني ذلك، أني آمنت نعم، ولكن في إيماني شيء..

في قلبي شيء..

نعم هناك «شيء في قلبي..».

ومن أجل ذلك لقد قلت..

.. وهل هناك مشكلة أصلاً، في أن يكون قلب إبراهيم ليس مطمئناً؟..

.. ربما..

لكن المشكلة الأكبر، كانت وتكون حتماً ودوماً، في أن يكون القلب غير مطمئن..، ويتم التكتم على هذا - كما لو أنه جريمة - ويتم تجاهل الأمر.. وتخطيه كما لو انه غير موجود..

.. المشكلة أن تترك الأشياء دون أن تواجهها، أن تفر من مواجهة المشاكل كأنها غير موجودة.. والتغاضي عن كون «الزمن» الذي يمر بلا حل للمشكلة.. عاملاً أساسياً في تضخيمها ونموها وتحويلها إلى مشكلة مستعصية على الحل..

.. مع كل مشكلة، صغرت أو كبرت، لا يفيد التغاضي.. ولا يحلها التجاهل.. بل الاقتحام المبين هو الحل..

أو على الأقل، هو عنصر من عناصر الحل..

★ ★ ★

.. ولذلك لم يسكت إبراهيم - لم يحاول أن يتخطَّ الأمر بالتجاهل كما نفعل ويفعل الكثيرون -..

لا.. ذلك كان سيجعل قلبه أقل فأقل طمأنينة..

كانت «عدم الطمأنينة».. ستزيد.. وستنهش في قلبه.. وتصل ربما إلى عقله.. وقد تظل فترة كامنة ساكنة على السطح بينما تتفاعل في الداخل.. وقد تنفجر لاحقاً، في سلوك مفاجئ..

أو تنفجر، بأن تعطل كل المشاعر..

ويستولي الفتور، والملل والضجر، على كل تواصل مع الله، يفترض أن يضج حيوية وتدفقاً.. وخشوعاً..

★ ★ ★

.. الحل، كان عند إبراهيم، أن يواجه أصلَ المشكلة بلا تردد ولا خجل..

.. لذلك، لم يهرب من «عدم طمأنينته» نحو طمأنينة مزيفة..

بل قال، لربه، لربنا، لرب العزة.. «أرني كيف تحيي الموتى»..

لديّ مشكلة في فهم ذلك، ولو أني سكت عن ذلك، وعضضت على شفتي وأنا أتحمل ذلك، لكبر الأمر.. لأكل الأمر من قلبي..

وقلبي مخلوق يتقلب، ويبحث عن «الوجه» الذي يرتاح إليه.. يطمئن فيه..

إنما أريد أن يطمئن قلبي.. لذلك أعلنت إليك ربي.. صراحة.. أصالةً عن ذاته، ونيابة عنا جميعاً، قال إبراهيم ذلك كله..

.. ووجه الجواب الإلهي، إبراهيم، رداً على سؤاله إلى ميدان الواقع، إلى الطبيعة، حيث المحك، حيث الأجوبة الحقيقية..

لم يأت الرد على شكل موعظة لفظية.. أو قول مأثور.. أو نذير بغضب صاعق يحرق حناجر المتسائلين.. أو حناجر الذين يتجرؤون ويعلنون أن قلوبهم غير مطمئنة..

لا.. إنها تلك أساليب الردود في رسالات أخرى.. لعقول أخرى..

الآن، صار «العقل» أنضج، العقل الذي لم يجد غضاضةً في أن يعلن ضمناً أنه ليس مطمئن، هو ذاته العقل الذي سيكون مهيئاً للبحث في الطبيعة عن الجواب..

.. في الطبيعة، في الواقع العملي، فيما يمكن أن يسمى لاحقاً العلم التجريبي.. هناك يمكن أن نجد إشارات كثيرة، ووقائع كثيرة، تدلنا على الأجوبة..

.. ولقد كان هناك، من تصور، عن حسن نية، وضمن سياق تاريخي معين، أنه يجب أن ندفع عن إبراهيم ما تصوروه أنه تهمة، من أنه لم يكن مطمئناً بالإيمان.. رغم التصريح القرآني الواضح..

وقد ذكر من لا يذكر - على حد تعبير ابن كثير - أن«قلبي»اسم لرجل صالح كان مع إبراهيم.. كل ذلك من أجل دفع التهمة المزعومة..

ورغم أن الأمر ليس تهمة على الإطلاق، بل حقٌّ علينا، أن نضع وساماً على صدر إبراهيم..

لأنه، أولاً لم يهرب من مشكلته بتجاهلها، بل اقتحمها وواجهها وبالتالي أعطاني«خارطة طريق»لحل أي إشكال مشابه يمكن أن يحدث في رؤوسنا أو في قلوبنا..

.. وثانياً - لأنه عبر عن ذلك كله، وبالذات عبر تصريحه بذلك، كان يعبر عما عبر عنه الرسول الكريم في أوجز عبارة، حينما قال،«نحن أحق بالشك من إبراهيم»..

لم يكن إبراهيم بحاجة على الإطلاق إلى الشك..

لكنه كان ضمير الإنسانية وقلبها، ولذلك عبر، نيابة عن قلب الإنسانية أجمع، عن حق من حقوق هذا القلب..

★ ★ ★

.. وماذا يفعل القلب غير المطمئن؟!

حسب هذهِ الآية: يقتحم. يعلن. يقول.. يبحث عن حل..

لكن، ألا تقول الآية الكريمة الأخرى: ﴿أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ ۝٢٨﴾ [الرعد] ؟؟.. أليس هذا هو الحل للطمأنينة..

نعم هو كذلك. لكن مفهوم «ذكر الله» قد قصر على معنى الذكر اللساني والتكرار اللفظي عبر التسبيح والاستغفار..، وهو تحجير لواسع، فذكر الله، أيضاً وقبل ذلك، هو الإبحار في آياته، وفي سننه وقوانينه..

ذكر الله، هو أيضاً ما فعله إبراهيم، عبر فهم السنن التي خلق فيها قلبه.. والتعامل مع ذاته وقلبه حسب هذه السنن.. وليس عبر التجاهل والتعامي عن قلبه، وعن السنن !.

★ ★ ★

بل إن «عدم الطمأنينة»، يكون أحياناً ميزة..

القلب غير المطمئن، هو قلب قلق، يستشعر أن ثمة مشكلة، ويحاول أن يطمئن، أن يصلح حاله..

«عدم طمأنينته» مثل جرس إنذار، تجعله يستفز آليات معينة، تُقلبّه، بحثاً عن الجهة الأكثر استقراراً..

عدم الطمأنينة، هنا، تدل على الحيوية.. على كون هذا القلب لا يزال على قيد الحياة..

أما القلب الميت، فهو ساكن، لا يبالي، ولا يشعر بالقلق.. وقد يبدو للوهلة الأولى، من فرط استقراره، أنه مطمئن..

هكذا فعدم الطمأنينة، قد لا تكون دليل صحة كاملة، وعافية شاملة، مثل القلب المطمئن..

لكنها، على الأقل، دليل حياة، ونزوع إلى الطمأنينة..

★ ★ ★

.. وهي ميزة إنسانية أيضاً..

إنها مما يميز «الإنسان» عن بقية المخلوقات.. بل حتى عن جنس الملائكة نفسه، الذي أمره الله أن يسجد للإنسان، حصرياً..

..﴿ قُل لَّوْ كَانَ فِى ٱلْأَرْضِ مَلَٰٓئِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَلَكًا رَّسُولًا ﴿٩٥﴾ ﴾ [الإسراء]..

«لو..»..

لكن الذين يمشون في الأرض إنما هم بشر..

لذلك فهم.. أحياناً، غير مطمئنين، لكنهم يريدون الطمأنينة..

وذلك يميزهم كبشر، حتى عن الملائكة..

★ ★ ★

.. ولو أن «قلبي» كان رجلاً، لكان على الأكثر رجلاً يريد أن يصلح حاله..

لو أنه كان رجلاً، لربما كان متشرداً، يدور بين المدن والقرى، يبحث عن شيء ما، يعيد الطمأنينة إلى قلبه..

.. ولو أن «قلبي» كان رجلاً، لكان لون بشرته مثل لون الأرض، لوَّنها الكدح والعناء، وحرث فيها الأمل والعمل.. وانتظرت، وانتظر، أن يزهر الثمر..

لعله زنجي أسمر، قلبي، اختطفه قطاع الطرق - وهو طفل - ذات عصر، وباعه النخاسة في عصر آخر، وامتلك حريته بعد جهد جهيد في عصر لاحق.. وظل يبحث عن أمه التي كانت.. ويدور بين القارات، وهو يبحث، ويبحث..

.. تحت المطر، يدور قلبي في الشوارع، تحت المزاريب، دونها معطف.. دونها مظلة..

حضن أمه الذي يبحث عنه، هو طمأنينته المفقودة، هو دفء حضنها في السرير، وطعم حنانها الذي لم يفارق روحه رغم القرون..

.. الطمأنينة، هي داؤه ودواؤه.. هي غذاؤه وترياقه..

ولو أن قلبي كان رجلاً، لما كان مراهقاً ولا غراً، حتى لو دار في الشوارع وكتب على الحيطان..

بل إنه قد يكون شيخاً حكيماً، لم تمنعه حكمته - بل إن حكمته هي التي جعلته يعلن عن حاجته إلى الطمأنينة وذهب إلى الطبيب يشكو له، فقال له الطبيب: إن قلبك لا يزال على قيد الحياة..

.. لو أن قلبي كان رجلاً، لكان ممتناً جداً لإبراهيم، الذي قال «بلى ولكن ليطمئن قلبي».. لأنه اختصر حكايته.. وما اعتبر بحثه مراهقة أو نزقاً.. أو زللاً..

ولو أن قلبي كان رجلاً، ينتقل من قطار إلى آخر، في المحطات النائية، لكتب شيئاً ما، على نافذة القطار، على البخار المتراكم عليها، قبل أن يغادر القطار إلى آخر..

لو أن قلبي كان يكتب، لكتب: شكراً إبراهيم..

التوقيع: قلبي.

جائزة نوبل لسمكة صغيرة

يقولون: ما ذنب الأمم الأخرى، التي لم يصلها الإسلام، حتى تعاقب على عدم الإيمان؟.. ما ذنب تلك الشعوب أن تدخل جهنم بالجملة وهي لم تكن محظوظة كما نحن، ولم تولد مسلمة كما ولدنا آباءنا؟.. ما ذنب البيض الشقر؟ الذين نتمنى سراً وجهراً، أن تكون مثلهم، ما ذنب الهنود، ما ذنب الصينيين، ما ذنب اليابانيين (ما أظرفهم!)..

أولاً، يجب أن نثني على رقة قلوب القائلين، وعلى رهافة مشاعرهم، وعلى إحساسهم المفرط بالآخر..

ولكن يجب علينا أن نلفت أنظارهم، وأنظار قلوبهم الرقيقة ومشاعرهم المرهفة، إلى أن الأمر قد لا يكون كما يتصورون بالضبط.. لا لأن الحكم على (الشعوب بالجملة) – أمر غير منطقي – فحسب، ولكن لأن هذه المشاعر، تتضمن حكماً إيجابياً، مسبقاً، على وضع أمتنا، إذ إن هذه الشفقة على الآخر، تفترض أن وضعنا أفضل منه، في الآخرة، وهو أمر لا يعرفه إلا علام الغيوب، وكل الدلائل الموضوعية حالياً، لا تبدو مشجعة.. إن لم تكن تشير إلى غير ذلك.. بشكل أكيد..

«وصول الإسلام إلينا» مقابل «عدم وصوله إليهم» قد يكون، على العكس، حجة علينا، وحجة لهم.. فبعد كل شيء، الإسلام لم يصل إليهم، على الأقل ليس كما وصل إلينا، وهذا قد يكون حجة لهم، يوم العرض الأكبر.. يوم السؤال الأكبر..

أما نحن، فما حجتنا، الإسلام وقد وصل إلينا، لماذا إذا نحن سيئون هكذا، لماذا نحن ننافسهم في المساوئ، ويتفوقون علينا في بعض الإيجابيات على الأقل..؟

لماذا نقرر أنهم هناك، في النار، وهم قد يكونون كذلك، وقد نكون نحن في درك أسفل، أو أعلى، من النار نفسها.

★ ★ ★

جميل جداً.. لكن التساؤل، إذا أُخرج من سياقِ الغرورِ الأجوفِ، حقيقي، فلنفترض أننا عدنا لنؤدي دورنا، وقدمنا القيمَ الحقيقيةَ للإسلامِ الحقيقي، وعدنا لنكون خيرَ أمة، أمةَ الوسط، أمةَ الاستخلاف.. فما بال القرونِ الأخرى، ما بال الأممِ الصفراءِ والبيضاء؟..

ما ذنبها أنها لم تتعرف على الإسلام الحقيقي؟..

هكذا يكونُ التساؤلُ أكثرَ ارتباطاً بالمنطق، بمنطقِ العدلِ والتوازنِ الذي هو من أساسياتِ المنطقِ الإسلامي..

كيف يحاسبهم الله عز وجل وهو الحكم العدل، على مخالفتهم لقانونٍ لم يعرفوا بوجوده أصلاً؟..

★ ★ ★

سيكون الردُّ من جانبِ البعض مقتبساً من القرآن الكريم..

﴿ وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا وَلَٰكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١٣﴾ ﴾ [السجدة: ١٣].

إنها مشيئتك يا رب، ولا اعتراض على مشيئتك، إننا، كلّنا، ملكُك، وأنت حرٌّ فيما تملك يا رب.. لا تُسأل عما تفعل..

نعم.. لا اعتراض على حكمك يا رب.. فكل حكمك حكمة، وكل حكمك عدل.. وإن كنا قد لا نفهم هذه الحكمة أحياناً..

ولكن، لو حاولنا أن نفهم، فلربما تبينت لنا الحكمة، وزاد فهمُنا، وبطريقةٍ ما زاد إيمانُنا..

الآيةُ الكريمة، تتحدث عن «كل نفس» وعن هدى انفرادي لكل نفس على حدة.. تتحدث عن هدي خاص لكل واحد من بني البشر.. كتاب سماوي، لكل واحد منا، يأتي على قياس عقله ومنطقه ومزاجه وعواطفه وظروفه.. لو شاء الله ذلك، وهو على كل شيء قدير.. لحصل..

ولكن هذا كثير.. أكثر مما ينبغي..

لا هدى فردي، لا هدى خاص، لكل واحد على هدى.. ولكن هناك هدى «جماعي».. لكل البشر، بكل الأعراق والألوان والأصناف.. والظروف.. لكل الأزمان والأماكن..

هناك رسالةٌ عامة للجميع، تُسقِط حجةَ «عدم المعرفة» عنهم.. لا أقول إنها حجة عليهم، رغم أنها كذلك فعلاً، لكني أقول إنها الرسالةُ لهم، البلاغُ لهم، بلغةٍ فوق كل اللغات، بلهجةٍ أكثر حميمية وقرباً من لهجاتهم المحكية كل يوم..

.. إنها رسالةٌ عامة، تساوي بين البشر.. وتجعلُ نقطةَ انطلاقهم واحدةً في درب الإيمان.. تجعلهم قادرين على الوصول إليه، لو أنهم أرادوا، على الأقل..

لو أنهم تخلوا عن تلك العجرفةِ والتعالي، ذلك الشعورِ العقيم، بأنه يجب أن يكونَ لكلِّ نفسٍ هداها..

★ ★ ★

تلك الرسالة العامة، لا نجدها في صندوق بريد خاص بنا، ولا تصلنا عن طريق ساعي البريد.. ولا عن طريق وكالات البريد السريع العولمية العالمية، ولا حتى عن طريق البريد الآخر، صنو السلحفاة..

تلك الرسالة لا نفتح بابنا لنجدها على الأرض، ولا تصل إلى صندوق البريد الإلكتروني في غضون أجزاء من الثانية، كما أنها لن تصل كرسالة قصيرة على جوالك الحديث..

إنها أكبر من ذلك..

وتحتاج إلى صندوق بريد أكبر قليلاً من المعتاد..

ربما ليس «قليلاً»..

ربما العالم كله، الدنيا بأسرها، هي صندوقُ البريد ذاك، وهو بالكاد يكفي..

★ ★ ★

نعيش في داخل تلك الرسالة.. نقضي كلَّ حياتِنا ونحن فيها، نكبر بين أسطرها، ونعيش بين مفرداتِها، ونحقق ذواتنا ونجاحاتنا أو فشلنا بين كلماتها..

لكننا – لأننا قريبين جداً منها – لم نلتفت يوماً لنقرأ الرسالة، تعودنا عليها لدرجةِ التبلدِ وفقدانِ الإحساس..

لم نعتبر أنها رسالةٌ أصلاً.. لم نعتبر أن هناك صندوقَ بريدٍ نعيش فيه، اعتبرناه مسكناً فقط.. وأحرف الرسالة اعتبرناها مجردَ ديكور، مجردَ لوحةٍ جميلة.. مجردَ تصميمٍ جميلٍ ليس بالضرورة يحتوي على معنى.. وبالذات على معنى مباشر لنا..

ما هي تلك الرسالة التي نعيش فيها، ونعيش من خلالها؟..

★ ★ ★

إنها هذا العالم كله، بما فيه، بل بكل ما فيه، ونحن من ضمن ما فيه..

هذا العالم كلُّه، القائمُ على توازناتٍ محددةٍ بشبكةٍ من التوازناتِ المرتبطة، الواحدةِ تلو الأخرى، والتي لا تحتاج إلى جائزةِ نوبل في الفيزياء أو الأحياءِ أو الجيولوجيا لكي يستشعرها الإنسان..

أنت لا تحتاج إلى نوبل، أو حتى إلى شهادةِ الماجستير، لكي تستشعر ذلك «التوازن» الموجودَ في الكون.. إنه موجودٌ في الصباحِ والمساء، في الظلمةِ والنور، في تعاقبِ

الفصول، في نموِ النبات، في الثمرةِ على الغصن، في الطفلِ في رحم أمه، في الطفلِ نفسه على صدر أمه.. في الأرضِ تلتحم بماءِ السماء، فتخضرُّ وتزهو، وتنتجُ ما هو أكثرَ من مشهدٍ جميل، تنتج المرعى..

الأرضُ نفسُها تلتحم بجهدِ الإنسان وهو ينقب فيها، فتنتج معادنَ يحتاجُها الإنسانُ كما لو أنها قد صُممت بتوازنٍ من أجلِ تلك الحاجات..

التوازنُ في الأنهار، في مواسمِ فيضانها وجفافها، في ثورة البحار، في هدوئها، في الأرضِ تارةً منبسطةً ميسرة، وأخرى جبليةً وعرة.. في الإنسانِ نفسه، في حياتِه، شهيقِه، زفيرِه، في نبضاتِ قلبه، في العالمِ كلّه متوازن من أجل أن يهيء حياةَ هذا الإنسان..

إنه التوازنُ الذي لا يحتاج سوى مؤهلاتٍ عقلية بسيطة، لاستشعاره..

لذلك، فليس على المجنون حرج..

المجنونُ وحدَه، معه الحجة، في ذلك..

★ ★ ★

كلُّ ذلك التوازن، ضمنَ مقاديرَ معينة، التي يقوم عليها العالمُ بأسره، لا تحتاج أكثرَ من أن تنتبه قليلاً لما حولك، تنتبه لطفلك وهو ينمو ويكبر، وتنتبه له وهو يمرض، ثم يتماثل للشفاء، تنتبه له وهو يتعلم المشي، ويتعلم الكلام..

تنتبه للعالم، وقد أعد لك لكي تسعى فيه، وقد ملئ بمعدات لك، لكي تستعملها، لكي تستغله وتستغلها..

الإنسانُ الأول، الذي تقدمَ من النار وأخذَ منها شعلة، واستغلها في الطبخ.. التدفئة.. لم يكن يحملُ شهادةً في الفيزياء.. لكنه كان ينتبه..

الإنسانُ الأولُ الذي تمكن من تدجين الحيوانات، وانتقلَ من الصيدِ إلى الرعي، لم يكن يحملُ شهادةَ خبرةٍ في البيطرة، لكنه كان قد انتبه إلى ذلك التوازن الذي يسكن عمقَ الأشياء، واستطاعَ أن يستخدمَه، بتوازن، لصالحه..

———

الإنسانُ الأول، الذي اكتشف أنَّ الرعيَ ليس هو الخيار الوحيد، وأنه بذلك التوازن الموجود في الطبيعة، يمكن المضي إلى الزراعة، لم يكن يحملُ شهادةً عليا في الزراعة، لكنه انتبه إلى ذلك التوازن، وإلى إمكانيةِ استثماره.

في كلِّ شيء، مع كلِّ شيء، وداخلَ كلِّ شيء.. هناك ذلك التوازن.. حيث كلُّ شيء يكون بمقدارٍ معين.. بحسبِ المقدارِ المعينِ المطلوبِ بالضبط..

حيث كلُّ شيء، يكون، بقدر..

★ ★ ★

هذا العالم، الذي خلق بقدر، هو تلك الرسالةُ الموجهةُ للجميع.. وهذا هو القدر:

التوازنُ في عالمٍ متوازن، نحن جزءٌ منه..

ليس سراً غامضاً، وليس أحجية، وليس متاهةً نقضي أعمارَنا في الفوضى في دهاليزها..

إنه القدر، التوازن، تداخلُ الأسبابِ والمسببات، الذي يُنتجُ هذا العالم..

والذي لولاه لما كان هذا العالم كما هو الآن..

ولما كان ممكن أصلاً، أن نكون..

★ ★ ★

وأكثرُ ما يلفتُ النظرَ إلى هذا القدر، التوازن، الذي يرتكز عليه الخلق، هو تلك الأحيان القليلة التي يظهر فيها التوازنُ كما لو أنه قد اختل، زلزالٌ هنا، إعصارٌ هناك، فيضانٌ هنا، وبركانٌ هناك.. إنها المراتُ القليلة - الاستثناءات - التي تؤكدُ القاعدةَ الأصل.. قاعدةَ التوازن..

إنها الكوارثُ التي تحدث بين الحين والآخر، والتي تذكرنا كيف أن التوازنَ يستمر في كلِّ الأحيان الأخرى.. كيف أنَّ هذا العالم المتوازن، مبنيٌّ على قدر، بقدر، من قدر..

★ ★ ★

توازنُ العالم وهذا القدر الذي يشكل مشتركاً أساسياً في كل عنصرٍ من عناصر الخليقة، لا يمكن أن يكونَ بلا معنى، لا يمكن أن يكونَ مجردَ بناءٍ متسق، لا يمكن أن نعتبرَه مجردَ منظرٍ جميل، نقف أمامه، كما لو وقفنا أمام لوحةٍ جميلة، ونقولُ شيئاً بخصوصِ ذلك الجمال ثم نمضي..

الأمرُ أعمقُ من الجمالِ المجرد.. إنه يرتبطُ بالأسبابِ والمسببات.. يرتبطُ مع بعضه بعضاً كما ترتبط أحجارُ الدومينو مع بعضها، الكلُّ مرتبطٌ بالجزء، والجزءُ مرتبط بالكل، والعلاقةُ بين الجزء والكل مثل علاقة مرآتين متقابلتين..

قد لا يؤدي بك أمرُ الأسبابِ والمسببات إلى أن تهتديَ إلى هدي السنةِ النبويةِ وتفصيلاتها، لكن كل من يتوقف يوماً عن الركض، وينتبه إلى أن هناك رسالة في هذا الكون، سيصل – على الأقل – إلى أن هناك «قوةً عظمى» قادرةً ومهيمنةً، قد خلقت هذا العالم على هذا الشكل، سيصل إلى أن ذلك كلَّه لا يمكن أن يكونَ قد وُجد عن طريقِ الصدفة، وسيصل إلى أن يكفرَ بإلهِ الصدفةِ المزعومِ الذي لا وجود له.. وقد يصل أيضاً إلى ما هو أكثر..

إنه الخلقُ المتوازن.. القدرُ الإلهي الذي صنع عالماً متقناً، لن يخطئ فهمَ إتقانه إلا من قد رفع عنه القلم..

★ ★ ★

اعترف.. لسنين طويلة، بقيت أسيراً لوصفٍ رائع، لآية ﴿ وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ ۝٣ ﴾ [الأعلى].. تحدث عن الوصف، عن ثعابين السمك، التي تعيش على جانب من المحيط، لكنها تترك بيوضَها على الجانبِ الآخر، وتعود أدراجها.. وعندما تفقس البيوض، تخرجُ السمكاتُ الصغيرة، وهي في ذلك المنفى البعيد عن الموطنِ الأم، لكنها تعبر المحيط، دون أن تكونَ قد مرّت بالدربِ من قبل، لتعودَ إلى حيث تعيش السمكات الأم..

لقد قدّر، وضعَ تلك القوانين **فهدى**، جعلَ سمكاتٍ صغيرةً تهتدي إلى منزلها الأم، دون أن تعرفَ الدرب..

لسنين بقيتُ أتخيلُ ذلك المشهدَ في عمق المحيط، وذلك التقديرَ الإلهي المتماسك، الذي يرشد تلك السمكات، كلَّ مرةٍ مررت بها على الآية، كنت أمر على المحيط، وعلى رحلة الهداية تلك..

الآن أفكُّ أسري، وأخرجُ من المحيط إلى اليابسة، إلى أرضِ الواقعِ الذي نعيش فيه، فأجد تلك السمكات الصغيرة، حاضرةً في كلِّ بني البشر، فقط لو أنهم وقفوا يوماً لينتبهوا..

أجدنا جميعاً سمكاتٍ صغيرةً في عمقِ المحيطِ المظلم، يمكن لنا، لو أردنا، لو انتبهنا، أن نجد ضوءاً يهدينا.. يرشدنا إلى الدرب الصحيح..

أجدُ الأمرَ في أولادي، كيف خلقوا، كيف ولدوا، كيف كبروا.. كيف تعلموا أحرفهم الأولى، وخطواتِهم، كيف صاروا يسألون.. ويتساءلون..

أجدُ الأمرَ في رحلةِ حياتي، في كيف أنَّ قلبي ظلَّ يدقُّ كلَّ تلك السنين، ولم يحدث يوماً أن توقف.. في كيف أني أكتب الآن ما أكتب وأفكر فيما أفكر..

وأجده أيضاً فيكم، قراءً أو مستمعين، في ذلك التواصل الفريد بين البشر، في الأفكار تنتقل، وتُغير الرؤوس، وتصبح الأفكارُ غير، والرؤوسُ غير..

مثل سمكة صغيرة، داخل عالم الأسبابِ والمسببات، داخلَ عالمِ القدرِ المتوازن:

أقول نعم، لقد قدر فهدى..

قارب إنقاذ لا ينقذ أحداً

هل شعرت يوماً أنك تعيش في سفينة تغرق؟.. وأن غرقها هذا يحدث بالتدريج، وبشكل بطيء، بحيث أن الآخرين لا ينتبهون له..

هل شعرت يوماً أن عليك أن تجد لنفسك طريقة للخلاص من الغرق القادم، عبر قارب إنقاذ، أو طوق نجاة، أو عبر كتيب يعلمك السباحة؟؟..

هل شعرت يوماً أن هناك صافرة إنذار تطلق أصواتها في أذنك أنت فقط، ولا يسمعها أحدٌ سواك، تنذر خطراً قادماً لا محالة، وتنبهك إلى ضرورة الهرب..

ليس ذلك نادراً أبداً. كثيرون يشعرون إرهاصات الفرق، ويدركون أن النهاية قادمة، وبينما يكون الباقون «غارقين» في تفاصيل حياتهم اليومية ومباهجها ومآسيها، فإن أولئك يأخذون قرارهم ويحسمون أمرهم، ويحزمون حقائبهم.. ويركبون قارب إنقاذ، قد يكون على شكل طائرة..

حدث ذلك للكثيرين، أدركوا - من معطيات واقعهم المحيط بهم - أن الأمور تسوء، وأنها ستسوء أكثر، وأن السفينة تهبط أكثر فأكثر إلى القاع.. ولذلك فقد فضلوا القفز قبل فوات الأوان، قبل أن يحدث التزاحم على قوارب الإنقاذ محدودة العدد..

.. وعندما يحدث ما يحدث، لاحقاً، ويتأكد ما حدسوه، فإنهم سيتأكدون من صواب ما فعلوه..

والحقيقة أن حدسهم كان صائباً..

لكن ربما ما فعلوه لم يكن على نفس الدرجة من الصواب..

رغم أن ذلك هو ما فعله أكثر من حدس ومن أحس..

إلا أن ذلك ربما لم يكن هو الشيء الأصوب..

ما هو الشيء الأصوب إذا؟..

أن تنتظر دورك في الغرق؟؟

لا. ولا هذا..

ولكن أن تبني سفينة أخرى..

كما فعل نوح !.

لو حاولنا أن ننظر بالمجهر لقصة سيدنا نوح، لوجدنا فيها هذا، لوجدنا فيها أنه شعر، أنه لم يعد ممكناً الاستمرار في ما لم يعد ممكناً الاستمرار فيه..

لقد أدرك نوح، حتى قبل أن يخبره الوحي، وعبر مجسات إدراك يملكها الكثيرون، ولكنها تعطب وتصدأ من عدم الاستعمال..

أدرك نوح، عبر تلك المجسات، أن هذا المجتمع يهبط بالتدريج نحو قرار لا ارتفاع عنه.. نحو غرق كامل، قد يتخذ أشكالاً متعددة، الغرق المباشر عبر الطوفان هو مجرد شكل من أشكالها..

أدرك نوح أن تلك الأوثان المتعددة، التي تعبَّد لها قومه، كان لا بد أن تؤدي إلى تصدع المجتمع من الداخل، لأن كل وثن منها، كان يرمز لمركز قوة داخل المجتمع.. وكل من مراكز القِوى هذهِ، كان يحرص على احتكار السلطة واستئثارها لنفسه.. - ممثلاً عبر الوثن الذي يرمز له -.. وكان لا بد لصراع الاحتكارات هذهِ أن يتفرج..

وأدرك نوح أيضاً، أن بعد قومه عن الله سبحانه وتعالى، كان يجعلهم بعيدين عن سننه وقوانينه، وأن انفصالهم هذا، كان ولا بد يجعلهم في (معزل) عن التواصل مع سننٍ لا ينفع الانعزال عنها..

.. وكان يدرك تماماً، أن ذلك كله سينتهي بطريقة لا تسر قومه..

★ ★ ★

.. ينبئنا القرآن الكريم أن نوحاً كان قد اختبر كل الأساليب التي تجعل قومه يشعرون ما يشعر به من أن السفينة على وشك الغرق، من جعل المجسات عندهم تعمل..

﴿ ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا ﴿٨﴾ ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا ﴿٩﴾ فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ﴿١١﴾ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَارًا ﴿١٢﴾ ﴾ [نوح].

لو أن أي واحداً منا، كان من أتباع نوح، ووجده يقول كل ذلك، وهو يوشك مرّة أن يتوسل إليهم، ومرّة أن يصيح بهم مهدداً، ومرة أخرى يكاد يهمس في آذانهم.. لو أن أي واحداً منا شاهد نوحاً يفعل ذلك، لقلنا له، على رسلك يا رجل، لا تفعل هكذا بنفسك، ما على الرسول إلا البلاغ، لكن لا تؤذ نفسك.. أنت تؤدي ما عليك.. وليذهبوا هم إلى جهنم وبئس المصير..

نعم، أشخاص مثلنا، كانوا سيقولون ذلك..

أما أشخاص مثل نوح، فلم يكن ليقول ذلك..

لذلك، فنحن نبقى حيث نحن..

ويذهب نوح، إلى مكان آخر..

لا يقول ما نقوله نحن، إلا أشخاص غير مكترثين حقاً بما يقولون، ولا يقول ما يقوله نوح، إلا شخص يمتلئ حباً لقومه، ويمتلئ رغبةً بتغييرهم، ويكاد يقتله إحساسه بأن السفينة تغرق، تغرق.. تغرق..

★ ★ ★

يعطينا الخطاب القرآني، ضوءاً يدلنا على معنى عميق يرتبط بها سيبدو للوهلة الأولى مجرد (رقم) للمدة التي لبث فيها نوح في قومه..

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ ٱلطُّوفَانُ وَهُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿١٤﴾ ﴾ [العنكبوت].

للوهلة الأولى، ستكون الآية تشير إلى طول المدة التي استغرقها نوح في الإصرار على الدعوة.. وسنستخلص من ذلك صبره الطويل رغم صدود قومه وإصرارهم على الكفر..

لكن، بعد أن نتعمق أكثر ونتجاوز السطح، سنرى أن الأمر أكبر من مجرد ذلك..

فالآية تفرق هنا، بوضوح، بين«السنة» و«العام»، فنوح لبث حسب الآية «ألف سنة إلا خمسين عاماً».. وهذا يجعلنا نتوقف، ونتعمق، ونحفر.. لنجدَ ماذا هناك..

.. رغم أن الاستعمال الشائع مزج بين معنى السنة، ومعنى العام، إلا أن مجرد ذكرهما معاً في جملة واحدة، يعني أن هناك فرقاً ما بين المفهومين..

ولو عدنا لمعاجم اللغة، لوجدنا أن كلمة السنة تعني«الموسم»وقد تعني الموسم المجدب، موسم القحط.. كما في الآيات

﴿ وَلَقَدْ أَخَذْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ بِٱلسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٣٠﴾ ﴾ [الأعراف].

﴿ قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا ﴾.. [يوسف: ٤٧]..

فهل يعني هذا المعنى، أنها كانت ألف موسم مجدب؟.. إلا خمسين عاماً؟..

وربما يكون المعنى مرتبطاً لا بالمعنى الحرفي المباشر الزراعي للموسم بل بمعنى أوسع وأشمل، بالموسم على صعيد زراعة من نوع آخر، وحراثة من نوع آخر، وحصاد من نوع آخر، لثمر من نوع آخر.. زراعة قيم ومبادئ بديلة، وفكر مختلف، وحراثة النفوس والعقول، من أجل حصاد لثمرة التغيير..

.. ولقد كانت مواسم نوح مع قومه مجدبة في معظمها.. ألف موسم كان مجدباً - إلا خمسين عاماً.. لعله أثمر التغيير في نفوس البعض ممن اتّبع نوح)..

و.. أهم ما في الأمر، من هذا المعنى كله، هو أنه كان يحاول، موسم بعد آخر، رغم الجدب، رغم القحط، رغم الخسارة، ظل يحاول لألف موسم..

أي مزارع عادي كان سيكف..، لو أننا كنا مكانه لكففنا..

لكنه أحب أولئك القوم الذين أراد أن يغير..، لذلك ظل يحاول..

★ ★ ★

.. ويدلنا ذلك كله على شيئين.. مرتبطان ببعضهما بأكثر مما نتوقع.

أولهما أننا يجب أن نحاول، وكما حاول نوح لألف سنة إلا خمسين عاماً، وبمختلف الأساليب.. فإننا يجب أن نحاول..

وثانيهما، أن ذلك كله قد لا ينفع أحياناً !. مهما حاولنا، ومهما غيرنا في الأساليب، ومهما طال الأمد بنا ونحن نحاول..

أحياناً الأمر لا يجدي.. ومهما حاولنا وحاول نوح، أن نجعلهم يشعرون أن السفينة تغرق.. أو أن نجعل مجسات الإدراك عندهم تعمل..

أحياناً، ومهما حاولنا، الأمر لا ينفع !!

★ ★ ★

. . . ولكن لماذا؟؟.. لماذا يصر البعض على الغرق.. لماذا يفضل البعض أن يبقى في سفينة تغوص أكثر فأكثر نحو القاع؟..

ببساطة، لأنهم يعزلون أنفسهم عن الواقع، يحيطون أنفسهم بجدران عالية تجعلهم بعيدين عن التفاعل، وبالتالي عن الإدراك..

إنهم ﴿ وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوٓاْ أَصَٰبِعَهُمْ فِيٓ ءَاذَانِهِمْ وَٱسْتَغْشَوْاْ ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّواْ وَٱسْتَكْبَرُواْ ٱسْتِكْبَارًا ﴿٧﴾ ﴾[نوح].

.. إنهم ببساطة يرفضون الاستماع لأنهم لا يسمعون إلا صوت أنفسهم - لا يسمعون إلا ما يقولون هم - ولا يرون إلا رؤيتهم - الأصابع والثياب هنا مجرد أساليب قد تتغير، قد تكون في أوقات أخرى، وعصور أخرى، تأخذ أشكالاً أخرى.. قد تكون نمط خطاب وطريقة تفكير تصر على أنها هي الطريقة المثلى الوحيدة، قد تكون منبراً إعلامياً يختصر العالم كله من خلال زاوية واحدة..، وقد يكون حكماً مسبقاً على الأشياء - يحجز - أي تفاعل مع أي رؤية مغايرة..

الأصابع في الآذان؟ أليس هذا الوضع هو الأكثر شيوعاً. بمختلف الأساليب سواء كان حكماً مسبقاً يفسر كل ما سيقال بطريقة معينة، أو كان تكراراً عالياً في داخلك لصوت معين، أو كان سماعات صغيرة في أذنك تنتقي من خلالها ما ستسمعه..

حتى لو دوت صافرة إنذار، بشكل مباشر، لتخبرك أن سفينة مجتمعك تغرق، أو أن بيتك قد شبت فيه النيران..

كيف ستسمع؟؟

★ ★ ★

.. وبعد كل هذا، وبعد أن استنفذت المحاولات، كان لابد لشيء أن يحدث، السفينة تغرق، والترقيع لن ينفع، سد ثقب هنا وآخر هناك لن يجدي، لأن الأمر لا

يتعلق بثقوب.. العلة هي في تصميم السفينة نفسها - لا يمكن لها إلا أن تغرق.. مجتمع كهذا لا يمكن له أن يرمم.. لا بد أن يبنى من جديد..

﴿ وَٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا ﴾ [هود:٣٧]..

أعيننا.. إنها العين العليا - العين التي تحيط بكل شيء.. العين التي ترى تفاصيل الأمور ودقائقها كما ترى العموميات والكليات والمحيط الخارجي.. كل العيون الأخرى، عيون البشر، ترى تفاصيل خاصة من زاوية رؤيتها هي، لذلك تكون رؤيتها جزئية.. وقاصرة..

وكلما زادت سعة الرؤية البشرية، وحاولت أن تكون شمولية، كلما جعلها ذلك أكثر اقتراباً من مفهوم «أعيننا».. كلما خرجت الرؤية من إطار العين الفردية الضيقة، نحو إطار الجماعة - كلما اقتربت أكثر فأكثر من ذلك المفهوم القرآني «بأعيننا»..

★ ★ ★

.. وتذكر الإشارة القرآنية«واصنع الفلك بأعيننا»إلى أن السفينة قبل أن تكون خشباً وألواحاً ومسامير، هي رؤية مغايرة - هي رؤية مختلفة، وتلك الرؤية تسبق الخشب ومواد البناء - إنها بمثابة البوصلة والمحرك والشراع.. ولو أن هذهِ الرؤية كان فيها خلل ما.. لانتهت السفينة إلى الغرق أيضاً..

سفينة نوح لم تكن من خشب فقط.. لقد كانت رؤية شاملة مختلفة، كانت نمطاً مختلفاً في التفكير وفي رؤية الأشياء..

﴿ وَيَصْنَعُ ٱلْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِّن قَوْمِهِۦ سَخِرُواْ مِنْهُ ﴾ [هود:٣٨]..

ويسخرون، نعم يسخرون.. مادام يحاول أن يقدم رؤية مختلفة فإنهم سيسخرون.. لو أنه فكر ببناء قارب نجاة صغير، لما سخروا منه، بل لما اهتموا بالأمر.. لو أنه فكر بالهروب، لو أنه بحث عن تأشيرة إلى أرض يتوهمها أكثر أماناً، لو أنه وقف في الصف

الطويل على باب سفارة ما، لو أنه فضل جنسية أخرى وجواز سفر آخر بضمانات، لما سخروا منه، بل إنهم كانوا على الأكثر سيثنون عليه، وعلى حسن فطنه وإدراكه.. ولعلهم كانوا سألوه على التفاصيل، لعلهم يلحقون به.. لكن أن تحاول بناء سفينة - أن تحاول تقديم رؤية مختلفة.. أن تسهم ببناء مجتمع آخر.. لا.. إنهم سيسخرون..

في أحسن الأحوال، سيسخرون فقط.

★ ★ ★

﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَمۡرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ ﴾ [هود: ٤٠].

كان المرجل يغلي طوال الوقت، ربما بهدوء أحياناً، وبلا صوت أحياناً أخرى، لكنه كان يغلي..

كان يضج بالأسباب التي تتفاعل في داخله..

إلى أن فار التنور.. ربما بطوفان، بصاعقة، ربما بريح، ربما بانهيار اجتماعي وإفلاس، ربما بحرب أهلية..

إنها كلها أسماء مختلفة لاسم واحد، والحل هو، سفينة «بأعيننا»

★ ★ ★

﴿ وَنَادَىٰ نُوحٌ ٱبۡنَهُۥ وَكَانَ فِي مَعۡزِلٖ ﴾ [هود: ٤٢]..

لقد كان في معزل.. بالتأكيد كان في معزل. ليس قمة الجبل التي أوى إليها لاحقاً - بل كان في معزل دوماً حتى قبل أن يفور التنور.. إنها العزلة عن الواقع وعن المحيط وعن الحقائق.. إنها العزلة التي تجعل كل فرد يعيش لذاته ولدنياه دون تواصل مع الآخرين، حتى مع أسرته.. إنها العزلة التي تجعلهم يضعون أصابعهم في آذانهم..

أو سماعاتهم في آذانهم.. أو أصواتهم «هم» في آذانهم..

نعم.. لقد كان في معزل.. وتصورات النجاة الفردية ممكنة.. العزلة أوهمته ذلك.. العزلة أوهمته أن ذلك ممكن عملياً..

ولذلك فقد كان ما كان..

﴿وَحَالَ بَيْنَهُمَا ٱلْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُغْرَقِينَ﴾ [هود: ٤٣]

.. لقد حال بينهما الموج. لكن قبل ذلك كانت هناك حواجز أخرى، كالجبال كالموج بينهما.. ولذلك.. كان من المغرقين

★ ★ ★

.. هل تشعر الآن أن السفينة تغرق؟.. هل تلتقط مجساتك كهارب ذلك الشيء وهو ينذر بغرق قادم لا محالة.؟ هل تسمع صوت صافرات إنذار تدوي في أرجائك.؟؟

.. على الطرف هناك، قرب المسند، يوجد قارب إنقاذ، قد يسعك ويسع بعضاً من أفراد عائلتك.. ما رأيك أن تتسلل على أطراف أصابعك وتسحب أطفالك زوجتك وربما والدتك.. وتركب القارب بهدوء..

افعل ذلك بسرعة إن شئت، وبهدوء، حتى لا ينتبه أحد فيزاحمك عليه.. لكن، وبينما تسحبهم معك، إذا خرجوا من عزلتهم، تذكر أنك لن تكون في مأمن، وأن قارب الإنقاذ هذا، لن يكون أفضل من قمة جبل سيدركه الطوفان..

.. بدلاً من قارب إنقاذ، فردي وشخصي اشخص ببصرك إلى الأفق، إلى سفينة أخرى عليك أن تبنيها برؤية مختلفة..

وتذكر، لا نجاة فردية هناك في هذا العالم..

لا يمكن لك أن تنجو وحدك..

إنما هي سفينتنا كلنا..

الإنسان ذلك الكائن المسكين

في قنينة معزولة، يعيش كل واحد منا حياته المعاصرة.. أو أنه على الأقل، يتصور أنه يمكن أن يعيش فيها.. هكذا أفهموه وهو يكبر، دون أن يقولوا صراحة، قدموا له أنبوبة عصرية، وجذابة، وزاهية الألوان.. وقالوا له.. إن هذا المكان الأنسب الذي يمكن له فيه أن تنمو، وتزدهر، وتصير ناجحاً..

.. في قنينة معزولة.. نقضي حياتنا «الفعلية»، حياة الطموح، والتخطيط، وإذا شعرنا بالوحدة قليلاً، أو ضجرنا من جدران الأنبوب الباردة، فإننا يمكن لنا أن نتسلل قليلاً من سدادة القنينة، ونلهو أو نعبث مع الآخرين الذين يسكنون في القناني المجاورة.. لكن «عقلنا» لن يغادر القنينة.. عقلنا سيظل هناك محاصراً بعقلية القنينة المعزولة..

يقولون لنا، في ترويجهم للقنينة الزاهية، أنها الحاضنة الأفضل للشخص الناجح، الشخص الذي يصل إلى القمة.. يروون لنا قصصاً وحكايات عن أشخاص «امتلكوا كل ما نحلم به» عبر العيش في تلك القنينة واتخاذها مركبة توصلهم إلى ما نريده جميعاً، غير مدركين أنهم بهذه الحكايات، لا يشكلون طريقة وصولنا إلى ما نريد فحسب، بل إنهم يشكلون ما نريد أيضاً.. دون أن نعي..

يقولون لنا، إن القنينة ستجعلنا نركز على أنفسنا أكثر، وأن تركيزنا هذا سيجعلنا نرتقي بها، ونصعد بها، ذلك السلم الذي يتزاحم الجميع عليه حتى لو لم يشعروا..

سيقولون لنا: أنت مركز الكون، كل ما سواك لا يهم.. أنت الشخص الأهم في العالم. إقبل نفسك كما أنت، أنت.. أنت..

وسيكون ذلك كله جذاباً، ومثيراً، مثل شرائط ورقية ملونة، تغلف القنينة الزجاجية الباردة..

.. لا جدال أنك لكي تنجز شيئاً مهماً، فإنك يجب أن تؤمن بنفسك، تؤمن بقدرتك على إحداث شيء مهم.. تؤمن بأن لديك ما تقدمه..

لكن لذلك حدود معينة، وسقف بارتفاع معين.. إذا انخفض هذا السقف، حتى صرت تحني ظهرك - في خضوع دائم - وأنت تمشي، فإنك لن تستطيع أن تنجز ما هو مهم..

.. وإذا طار السقف، نزلت عليك السماء بمطرها وريحها وحرها وبردها.. وصرت بلا سقف، بلا مرجع يؤويك ويحميك.. ولو من نفسك..

ويرتبط هذا السقف، وارتفاعه المحدد، بنوعية الشيء الذي يمكن لك أن تنجزه..

هل هذا الشيء المهم يهم غيرك أيضاً، ويفيدهم، ويزيد حياتهم خصوبة وعطاءً، أم أنه يزيد غيرتهم وحسدهم فقط هذا إذا التفتوا إليه أصلاً..

هل هذا النجاح الذي يتحدثون عنه، هو نجاح بمعايير مطلقة، قابلة للخضوع والتطبيق على الجميع..

أم أنه نجاح بمواصفات خاصة، حددتها مرجعية معينة لها قيمها الخاصة؟

ما هو النجاح أصلاً؟

.. وما هي مواصفات ما نسميه ويسمونه الرجل الناجح؟.. الذي تسلط عليه الأضواء وتلاحقه الكاميرات ويعتبر أنه «القدوة» أمام الجيل الطالع؟

.. قد يكون السائد أنه الرجل «العصامي» الذي صعد إلى القمة منطلقاً من بداية عادية جداً، أو متوسطة..

مرّة أخرى: ما هي القمة التي يقصدون؟

أوه.. إنها قمة المال والأعمال طبعاً، إنها الرصيد المكون من ستة أصفار فما فوق، والعيش في نمط حياة «خمس نجوم فما فوق»، والمنازل الفارهة.. و.. و..

ثم سيستدركون، وقد حدسوا أن هناك فخ ما: والجمع بين ذلك النجاح مع قيمنا الشرقية الأصيلة التي لا غنى عنها..

تصفيق..

إنه نجاح مادي إذاً..

لا أحد يمكن له أن يجادل ضد أهمية المادة، لكن الأمر هنا مختلف، مقياس النجاح ومعياره، صار مرتبطاً بالمادة بشكل أساسي ومهيمن.. وتحديد ذلك بضوابط صار صعباً جداً..

لا أحد يتحدث عن نجاح بطبيعة أخرى.. لا أقصد الطبيعة غير المادية فقط،.. لكن أتحدث عن نجاح غير فردي.. عن إسهام في إنجاح المجتمع.. في إثراء المجتمع على كافة الأصعدة..

لا أحد يتحدث عن نجاح برصيد من نوع آخر، برصيد لا يتراكم في البنوك ولا يستثمر في البورصات..

لكنه يحدث أثراً أكبر – على المدى البعيد..

لأننا أسرى تلك القنينة الباردة، ولأن عقولنا قد نمت وتشكلت وتقولبت داخل هذه القنينة، فإن أي مفهوم آخر لم ينبت فيها سيبدو كما لو أنه قادم من كوكب آخر..

ولذلك فإن الحديث عن أي نجاح، بطبيعة أخرى «غير فردية» سيبدو نشازاً.. سيبدو كما لو أنه حديث خيالي، عن فشل نلبسه لبوس النجاح..

.. وجهة نظر..

لكن حكماً صادراً من خارج القنينة.. سيكون له تعريف آخر..

وقد يكون العكس هو الصحيح، حسب هذا الحكم، قد يكون ما يسمونه اليوم نجاحاً باهراً تسلط عليه الأضواء ووسائل الإعلام.. قد يكون هذا بالضبط «فشل»، وقد تلبس لبوس النجاح..

لن أقول إن الأمر نسبي، رغم أنه قد يكون كذلك..

لكني أقول إن الأمر يرتبط بالتعريفات المستخدمة..

لا لكلمة نجاح فقط.. بل حتى لكلمة إنسان..

الإنسان؟..

وهل من خلاف في تعريفه؟ حتى لو كان هناك خلاف لفظي فهذا لن يغير من جوهر الأمر، الخلاف لفظي، والإنسان هو ذلك المخلوق الأرقى الذي غزا الفضاء وخطا بقدميه على سطح القمر.. إنه الإنسان الذي وصل إلى أعلى ما يمكن تخيله من ازدهار. إنه بيل غيتس، فورد، أو ارمسترونغ..

مع كل الاحترام، لأفراد ساهموا في تدوير عجلة حضارتهم.. لدينا مرجع آخر، نقدمه على حضارتهم.. وعلى معطياتها وإفرازاتها وإرهاصاتها..

لدينا مرجع آخر.. فلنراجعه.. في ذات الكلمة..

الإنسان..

نبحث عن الاستخدام القرآني للمفردة، نصدم.. نتلعثم، نعبس، نحاول أن نلملم الموضوع، نحاول أن نغيره..

آه، ماذا كنا نقول قبلها؟؟..

لكن لا مفر.. لا مفر من المواجهة، بالذات مع الأشياء التي تصدمنا. فذلك يعني أنها مختلفة عن المفاهيم التي في رؤوسنا، وإذا كان الاختلاف في أمور جذرية وأساسية فهذا يعني أن واحد فقط من هذه المفاهيم سيكون صواباً.. والآخر المختلف سيكون خطأً..

وبما أن المقارنة هنا هي مع المرجعية القرآنية..

فإن الغلط حتماً، في رؤوسنا نحن.

إذن، نعود إلى القرآن، ولفظة الإنسان..

★ ★ ★

﴿إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَظَلُومٞ كَفَّارٞ ۝٣٤﴾ [إبراهيم]، ﴿وَكَانَ ٱلۡإِنسَٰنُ عَجُولٗا ۝١١﴾ [الإسراء]، ﴿وَكَانَ ٱلۡإِنسَٰنُ كَفُورٗا ۝٦٧﴾ [الإسراء]، ﴿وَكَانَ ٱلۡإِنسَٰنُ قَتُورٗا ۝١٠٠﴾ [الإسراء]، ﴿وَكَانَ ٱلۡإِنسَٰنُ أَكۡثَرَ شَيۡءٖ جَدَلٗا ۝٥٤﴾ [الكهف]، ﴿خُلِقَ ٱلۡإِنسَٰنُ مِنۡ عَجَلٖۚ﴾ [الأنبياء: ٣٧]، ﴿إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَكَفُورٞ ۝٦٦﴾ [الحج: ٦٦].

﴿وَحَمَلَهَا ٱلۡإِنسَٰنُۖ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومٗا جَهُولٗا ۝٧٢﴾ [الأحزاب]، ﴿إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَكَفُورٞ مُّبِينٌ ۝١٥﴾ [الزخرف]، ﴿إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ۝١٩﴾ [المعارج]، ﴿بَلۡ يُرِيدُ ٱلۡإِنسَٰنُ لِيَفۡجُرَ أَمَامَهُۥ ۝٥﴾ [القيامة]، ﴿قُتِلَ ٱلۡإِنسَٰنُ مَآ أَكۡفَرَهُۥ ۝١٧﴾ [عبس]، ﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَيَطۡغَىٰٓ ۝٦﴾ [العلق]، ﴿إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لِرَبِّهِۦ لَكَنُودٞ ۝٦﴾ [العاديات]، وحتى عندما ﴿لَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ فِيٓ أَحۡسَنِ تَقۡوِيمٖ ۝٤﴾ [التين]، يكون ﴿ثُمَّ رَدَدۡنَٰهُ أَسۡفَلَ سَٰفِلِينَ ۝٥﴾ [التين].. وعموماً ﴿إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَفِي خُسۡرٍ ۝٢﴾ [العصر].

فلنقل إنها صورة محبطة جداً.. على الأقل - للوهلة الأولى -

إنها صورة ترسم للإنسان صفات سلبية، وتصفه بأنه «كفور ظلوم جهول قتور هلوع.. الخ».

الأكثر إحباطاً من هذه الصورة هو أنها ذات مصداقية عالية إذا قارنّاها فعلاً بالواقع الإنساني المحبط - على الأقل المحيط بنا..

إنها تبدو مثل واقع وانعكاسه في المرآة.

سيقولون: قلنا لك يا أخي لا داعي لهذا الكلام، هذا يقدم صورة سلبية عن الإسلام.. هل تقول إن الإسلام ألغى وهمش دور الإنسان؟ كيف تقول ذلك، على العكس، لقد كان الإسلام هو الذي أطلق طاقات الإنسان... الخ..

لدينا نصوص من القرآن، تتحدث بوضوح عن «الإنسان» لا نستطيع الهروب منها، وتلافيها، من أجل تعميمات لا تستند على نصوص واضحة..

محبط جداً، على الأقل للوهلة الأولى..

لكنه حقيقي.. فلنرَ المزيد، لعل المزيد يوضح هذا..

تقدم لنا سورة البلد على قصرها.. صورة حركية.. لهذا الإنسان الذي نتحدث عنه..

﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ فِى كَبَدٍ ۝١ ﴾ [البلد].

إنه في حالة صراع دائم ومشقة دائمة.

﴿ أَيَحْسَبُ أَن لَّن يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ ۝٥ ﴾ [البلد].

إنه يحسب ذلك حقاً إذا ، يتصور أنه لن يهزم، ولا يمكن لأحد أن يقدر عليه

﴿ يَقُولُ أَهْلَكْتُ مَالًا لُّبَدًا ۝٦ ﴾ [البلد].

يستكثر من كل ما ينفقه ببخل، يتصرف كمرابٍ يهودي.. مع الجميع حتى مع ذاته..

.. هل هذا هو الإنسان؟

﴿ أَلَمْ نَجْعَل لَّهُۥ عَيْنَيْنِ ۝٨ وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ ۝٩ وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ ۝١٠ ﴾ [البلد]..

كل هذا لم ينفع؟.. كل هذهِ الحواس التي وهبها الله له لم تنفع؟

.. ولا يزال دون العقبة.. لا يزال لم يستخدم هذه الحواس من أجل أن يفعل ما يجب فعله.. لا يزال في صورته السلبية لم يخرج منها..

لكن ما هي العقبة التي لم يقتحمها هذا الإنسان «السلبي»؟

سؤال وجيه جداً.. وجيه لدرجة أن النص القرآني نص عليه

﴿ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْعَقَبَةُ ۝١٢ فَكُّ رَقَبَةٍ ۝١٣ أَوْ إِطْعَٰمٌ فِى يَوْمٍ ذِى مَسْغَبَةٍ ۝١٤ يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ ۝١٥ أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ ۝١٦ ﴾ [البلد].

«اقتحام العقبة» هو هذا التواصل مع الآخر إذا.. «فك رقبة» هنا لا يعني فقط شراء العبيد ومنحهم حريتهم بالمعنى الذي كان سائداً آنذاك.

فك الرقبة أيضاً، يعني أن تحرر الآخر من أسر جهله، أن تشعل له شمعة تحرره من عبوديته لظلامه.. والجهل عبودية أيضاً، وأغلال وسلاسل الجهل التي تقيد عقل «الإنسان» إلى منظومات قيم معينة قد تكون أشد غلظة وقسوة من السلاسل والأغلال التقليدية، أيام الرق..

الإطعام خصوصاً وقت الشدة والفقر، هو كناية عن ذلك التواصل مع الآخر.. عن الإنفاق من أجل الآخر..

والمسكين هنا، ليس بالضرورة، شخصاً آخر، إنه قد يكون أنت، أنت يا من عزلت نفسك داخل ذاته، داخل سجن فرديتك المظلم، أنت مسكين وأنت بحاجة إلى تواصل، إلى اقتحام العقبة في داخل ذاتك..

وكيف يكون ذلك؟؟.

﴿ ثُمَّ كَانَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَوَاصَوْاْ بِٱلصَّبْرِ وَتَوَاصَوْاْ بِٱلْمَرْحَمَةِ ﴿١٧﴾ ﴾ [البلد].

.. إنه يكون بالانتماء إلى الجماعة، إلى الآخرين، إلى مجتمع له مرجعية قيم مختلفة.

.. ولا غرابة بعد ذلك كله أن يكون اسم السورة «البلد» فعظمة أي مدينة، أو بلدة، وقوتها تتجلى في هذه«الصورة».. في إنسان يقتحم العقبة ويحطمها ليتواصل وليصل إلى مجتمع «يتواصى» فيما بينه..

.. إذا ليس الإنسان بالمطلق هو الذي يأخذ تلك الصور السلبية التي رسمتها الآيات.. بل هو إنسان القنينة العازلة، الإنسان - الفرد المعزول، إنسان«نفسي نفسي».. كل تلك الصفات تلبسه عندما يلبس نفسه وحده ويمتنع عن التواصل مع الآخر.. إنه«ظلوم» ولا يرى غير مصلحته إذا حبس نفسه داخل ذاته، لكنه سيعتدل ويتوازن نحو العدل إذا تواصل مع الآخر، وهو أيضاً«جهول» إذا أصر أن يرى بعين واحدة هي عينه، لكنه سيصل إلى العلم إذا استطاع أن يرى ضمن رؤية اجتماعية أوسع، وهو«هلوع» إذا كان وحده، لكن اجتماعه وتجمعه مع الآخرين سيجعله أقوى، وهو «قتور» إذا أمسك يده بنفسه، لكن يده إذا صارت مع أيادٍ أخرى ستكون أكثر إنفاقاً.

كل تلك الصفات التي قدمها لنا القرآن، تخص إنسان القنينة البائس..

فإذا خرج منها، صار كالمارد.. متمرداً على سلبيته..

★ ★ ★

.. تلك القنينة رغم بهرجها، رغم الشرائط التي تزينها وتروج لها، هي في حقيقتها بمثابة قنينة تحمل رسالة استغاثة، ألقيت في البحر، لعل وعسى أن يكون هناك من يجدها ويقرؤها..

.. إنها رسالة استغاثة، تقول، «أنقذوني..»

من كتبها؟

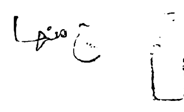
. إنه إنسان القنينة نفسه.. المعزول المتوحد.. وتلك القنينة تقسر إنسانيته التي تعني حاجته إلى الإنس والاجتماع.. تسلب منه حتى تعريف «الإنسان».. لذلك فهو يشعر بالضيق، حتى لو لم يدرك لماذا، حتى لو كان شعوره هذا لا واعياً بالمسألة.. لكن في أعماقه يشعر أنه يريد أن يستغيث..

.. وتلك القنينة، تحمل رسالة استغاثة..

وتقول :«أنقذوني»..

.. ومن كتبها لا يعرف أن مفتاح زنزانته في يده..

في اقتحام العقبة..



رجل من كوكب الأرض

.. من الممكن أن يولع أطفالك بشخصيات خارقة، يرونها في التلفاز، ويلعبون بدمىً تحاكي ما يرونه في التلفاز.. ممكن أن تكون هذهِ الشخصية موجودة على جدران غرفهم.. وعلى كتبهم.. ودفاترهم..

.. ممكن أن تكون هذهِ الشخصية مرسومة في خيالهم، وأن تسكن في أحلام يقظتهم، أو أحلام نومهم..

.. ممكن أن يمتلكوا زياً يمثل هذهِ الشخصية، وممكن أن تكون أنت بنفسك قد ابتعته لهم كهدية، مستغلاً حبهم لها، من أجل أن يحبوك أكثر..

.. هذا كله شائع، ورغم اعتراض الكثيرين، لأسباب كثيرة، فإنه منتشر وسائد..

ولكن رغم ذلك، فإن هذهِ الشخصيات الخارقة نادراً ما تتحول إلى قدوة..

الأطفال ينبهرون بها، ويعجبون بما تفعله، لكنهم لا يقلدونها، لأنهم يعرفون، سلفاً، وبشكل فطري، أن هذهِ الشخصيات بما أنها قادمة من كواكب أخرى،.. فإنها غير قابلة للاقتداء، غير قابلة لأن تكون قدوة.. وباستثناء بعض الحالات، التي يحاول فيها الأطفال الطيران، مقتدين بأبطالهم الخارقين، فلا يحدث معهم كما يحدث في التلفاز، بل يسقطون وتنكسر رقابهم..

.. الشخصيات الخارقة، مبهرة، وقد تكون مسلية، لكنها لا يمكن أن تكون قدوة، لأنها غالباً، تكون، قادمة من عوالم خيالية، من كواكب افتراضية، مزودة بقدرات خارقة، لم تبذل هذهِ الشخصيات أي جهد في الحصول عليها، بل حصلت عليها بمجرد انتمائها لعرق غير بشري.. من كوكب آخر..

لذلك كله، الرجل الخارق، أو الرجل العنكبوت، أو أي مسخ آخر، يمكن أن يكونوا مبهرين ومسلين، لكن «بطل العالم في أي رياضة»، ممكن أن يكون مثلاً وقدوة بالنسبة للأطفال، أكثر من أي منهم..

* * *

.. نفس الذي يحدث مع الشخصيات الخارقة، التي هي من صنع خيال مبدع، حدث أيضاً مع شخصيات حقيقية، من لحم ودم، ومن كوكب الأرض، ومن نسل آدم ما غيره..

هذهِ الشخصيات تحولت، عبر خيال الناس وأساطيرهم وحكاياهم ومبالغاتهم، وحتى رغبتهم في التسلية والامتاع، إلى شخصيات خارقة، مثلها مثل شخصيات الخيال المحض..

فالبطل القوي الشجاع، الذي يبز أمثاله وأقرانه في مجتمعه، تضاف إليه، وإلى سيرته، وإلى قائمة منجزاته، أمور كان الرجل يعرف جيداً أنها ليست في قدرته، ولا في قدرة أي من هو من نسل آدم..

.. في خيال الناس، يتحول هذا البطل إلى شخصية خارقة، فإذا هو يصارع الأسود، ويروض النمور، ويقتل الفيلة، ويحطم أبواب الحصون والقلاع، وكل ذلك يحدث كما لو أنه أمر طبيعي، ودون أن يبدو عليه أي جهد.. .. وهذا كله، يقتل، مرة أخرى، المثل والقدوة في هذا البطل لأنه يصير ببساطة شخصية خارقة، محاطة بأيقونات المبالغة والتهويل، الناس تسمع حكايته وتتناقلها وهي فاغرة أفواهها إعجاباً وتأثراً وانبهاراً..

لكن لا اقتداء.. فهذا شخص خارق.. والوصول إليه أمر ليس في متناول اليد..

.. وما حدث مع شخصيات البطولة والشجاعة، حدث أكثر، وبصورة أكثر شدة ومبالغة، بالذات مع الشخصيات التي ينبغي أن تكون هي القدوة.. هي التي ينبغي أن تكون المثل، والأسوة..

.. لقد حدث ذلك مع أشخاص، كان كل مهمتهم في هذا الوجود، وجوهر وجودهم أن يكونوا قدوة!..

من؟..

إنهم الأنبياء من غيرهم!..

★ ★ ★

﴿ وَقَالُواْ مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأْكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي ٱلْأَسْوَاقِ لَوْلَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُۥ نَذِيرًا ﴿٧﴾ ﴾ [الفرقان].

منذ أن كان هناك رسل وأنبياء على وجه الأرض.. كان هناك موقفان يقتلان دعوتهم..

الموقف الأول من الكفار، الأعداء الطبيعيين أو المتوقعين لدعوة الرسل والأنبياء..و كان من أسلحة هذا الفريق إنكار نبوة الأنبياء باعتبار أن هؤلاء مجرد ناس اعتياديين :يأكلون الطعام ويمشون في الاسواق..و كانوا يطلبون أن ينزل ملك من السماء ليكون مصداقا لهم

والموقف الثاني يأتي من أتباع الأنبياء ومن أولئك الذين يقولون إنهم يؤمنون بهم وبدعوتهم.. ولكنه ممكن أن يكون أكثر ضرراً حتى من موقف أعداء الدعوة..فقد كان يحول الأنبياء إلى ملائكة: أي أنه ينصاع إلى ما يريده الفريق الاول.

فالموقف الأول، من الكفار، هو مجاهر بالعداء والرفض والصدود والتحدي..

أما الموقف الثاني، فهو، يعلن القبول والرضا، لكنه يقتل فحوى الدعوة وجوهرها، وربما دون قصد، وربما بحسن نية، لكن هذا ما يحدث كتحصيل حاصل..

الموقف الأول يحدث عبر التكذيب وعبر الإصرار على الشرك وتعظيم الأوثان والأصنام..

والموقف الثاني: يأتي عبر تقديس هؤلاء الأنبياء، وتحويلهم هم أنفسهم إلى أشباه آلهة، أو أنصاف آلهة.. أو أبناء آلهة..أوملائكة..

.. وذلك كله، عندما يحدث، فإنه يفقد الأنبياء أهم وظائفهم، ويمنعهم من أن يكونوا القدوة، والمثل الأعلى للناس من حولهم.. وأولئك الذين يتبعونهم ولو بعد وفاتهم..

إنك تستطيع أن تقتدي بالرجل الصالح، بأخلاقه وإخلاصه وتفانيه في خدمة مجتمعه... ـ لأنه إنسان صالح..

أما عندما يكون هذا «الرجل» نصف إله، أو شبه إله، أو ابن إله، أو إله ـ فإنه يكف فوراً عن أن يكون قدوة..

صفاته الصالحة ستعزى فوراً لأسباب، ما وراء طبيعية، خارقة، إلهية.. غير إنسانية..

★ ★ ★

وفي هذا الذي يحدث، هناك نور مقابل نور مقابل نور..

نور مزيف، مثل أضواء النيون الباهتة، يظهر، ونور حقيقي، ينطفئ..

النور المزيف هو نور الهالات التي ترسم حول هذهِ الشخصيات، سواء كانت لرجال صالحين أو لأنبياء أو رسل..

ورغم أنه نور مزيف إلا أنه مثل عملة رديئة، تطرد العملة الجيدة من السوق..

ويطرد النور الحقيقي الذي يضيء الدرب.. نور القدوة.. نور المثل الأعلى..

الأيقونات، والهالات حول الرؤوس الصالحة، قد تكون صوراً جميلة.. لكنها لا يمكن أن تكون صالحة للاقتداء..

لا يمكنك أبداً أن تقتدي بشخص يملك هالة حول رأسه.. أو يسكن داخل رأسك في أيقونة..

إنه شخص قادم من عالم آخر.. لذلك لا يمكنك الاقتداء به..

.. والأيقونات، والهالات، ليست بالضرورة «رسماً» أو لوحة على الجدار في معبد أو صومعة..

الأيقونة يمكن أن تكون في أشكال مختلفة، تسكن الذهن والرأس في شكل تمجيد لغوي، يبعد هذا الرجل الصالح، عن صفاته البشرية.. إلى صفات فوق بشرية.. خارج نطاق الجهد الإنساني في الترقي والرقي..

والأثر السلبي، لنمطي التمجيد هذا، هو مشابه، وعلى حد سواء في الحالتين..

★ ★ ★

.. من أجل هذا، كانت بوصلة القرآن شديدة الوضوح وهي ترسم العلاقة بين الرسول الكريم، صلوات الله وسلامه عليه، وبين أتباعه.. سواء أولئك الذين تشرفوا بحضوره الكريم.. أو أولئك الذين اتبعوه دون أن يروه..

﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ ﴾ [الأحزاب: ٢١].

.. هذا الذي لكم فيه، هذا هو حصتكم في التعامل معه، الأسوة الحسنة، قد يكون عليه الصلاة والسلام أبعد من أن يختصر بوصف واحد، ولكن الذي لكم من كل ذلك، الذي يهمكم من كل شخصه، هو هذا بالذات..

أنه «أسوة حسنة»..

.. وكونه إنسان،.. هو أعظم مؤهلاته التي تجعل منه أسوة كونه بشر مثلنا بنص القرآن الكريم، هو ما يجعله القدوة.. وهو ما يجعله المثل الأعلى..

لأنه الإنسان ابن الإنسان، لأنه ليس من نسل الأوثان والأوهام، لأنه كان يخصف نعاله بيديه، ويضع طعامه بيديه، لأنه كان يمشي في الأسواق، ويأكل الطعام، فهو مؤهل لأن يكون أسوة حسنة، ونحن، ما دمنا نؤمن به أنه «بشر مثلنا» -بنص القرآن-، فنحن مؤهلون لأن نتأسى بأسوته الحسنة..

.. ما صنع شيئاً خارقاً لطبيعته البشرية قط، لأنه ببساطة ما كانت له طبيعة أخرى، غير طبيعته البشرية. كان يأكل ويشرب، وينام، ويتزوج، ويداعب الأطفال، ويسابقهم، وتقول زوجته إنه لم يصل أكثر من إحدى عشر ركعة في اليوم والليلة.. وهي كلها أمور تقع ضمن نطاق القدرة البشرية، ضمن ما هو مقدور للجميع..

لو أنه، عليه الصلاة والسلام، كان يصوم ولا يفطر، ويقوم الليل ولا ينام، ويصل الصلاة بأخرى، وينقطع عن الناس متفرغاً للعبادة.. لبدا ذلك معجزاً لنا، بل لبدا أنه ليس من طبع البشر... ولما كانت إمكانية الاقتداء والتأسي ممكنة أصلاً..

.. ليس في عبادته وعباداته فقط.. ليسّ في تعامله مع الناس فقط، بل حتى في قيادته لمجتمعه. في ذلك البناء الذي أرسى أسسه، في حروبه وهو يدافع عن هذا البناء، لم يحدث أبداً أن استعان بقوى غير بشرية.. في ذلك.. لم يحدث أن ضربت الصاعقة أو الزلازل القرى التي حاربته، لم يحدث أن ضرب لوباء الجيوش التي حاربها..

كل ما حدث حدث بالجهد الإنساني.. متوجاً بالتوفيق الإلهي، الذي يتوج من بذل مثل هذا الجهد..

.. وكل هذا من أجل أن نفهم.. من أجل أن نعي تماماً أن كل ما نحن مطالبين به نحوه.. هو الاقتداء..

هو كونه «أسوة حسنة»..

★ ★ ★

.. وتعبير «الأسوة الحسنة» يجعلنا نقف قليلاً..

فخلف معنى «القدوة» الذي نعرفه، هناك معان أعمق ستكرس الاقتداء والاتباع وتعمقه..

فاللفظ مشتق من«أس».. وهو نفس الفعل الذي تشتق منه كلمة «الأسس» وحفر الأساس.. وشق الأساس..

.. كما لو أن الآية، كانت تحفر، في العقل المسلم، أساس التعامل بين الرسول.. وبين أتباعه، سواء الذين رأوه مباشرة.. أو أولئك الذين جاؤوا في عصر آخر..

.. عميقاً، يبدو هذا الأساس: أساس الأسوة الحسنة..

★ ★ ★

.. ونزلت هذه الآية، تحفر هذا الأساس العميق في التعامل مع النبي الكريم وتطيح بالنزعة البشرية في التقديس التي تعطل دور القدوة، بل وتحفر خندقاً حول العقل المسلم، يمنعه من الانزلاق نحو ذلك الغلو المرفوض، لا لأنه يخالف جوهر التوحيد فحسب، بل لأنه يعطل دور القدوة والمثل الأعلى..

.. نزلت هذه الآية لتحفر هذا الخندق ـ الحاجز ـ بينما كان المسلمون يحفرون الخندق حول المدينة..

.. فقد نزلت إبان غزوة الخندق!..

★ ★ ★

.. وفي لفظ الأسوة أيضاً معنى المواساة.. والتعزية، وهذا حق وحقيق، فالبشرية، بعد تاريخها الطويل من المعاناة، من الإفراط والتفريط، تستحق مواساة متوازنة من هذا النوع.. من نوع شخصية الرسول الكريم عليه أفضل الصلاة والسلام.. فقد رأت البشرية، في تاريخها شخصيات كثيرة، كان هناك مصلحين نادوا بالسلام والرحمة، وكان هناك طغاة استخدموا الجبروت والقوة.. ولكن خيط التوازن الذي مثلته شخصية الرسول الكريم، بين الحق والقوة، بين السلام والعدل.. كان هو الخيط، المواساة،التعزية، الذي كانت تحتاجه البشرية.. بل الذي لا تزال تحتاجه البشرية..

★ ★ ★

رغم أن دور القدوة، الأسوة الحسنة، لم يتفعّل، للأسف، إلا إن إمكانية تفعليها قائمة..

كل ما نحتاجه هو أن نزيح الستار عنها، لتظهر كما هي أسوة حسنة، بشر مثلنا، نتمكن من التواصل والتفاعل معها بلا اعتبارات أنها كانت كذلك لأنها غير بشرية..

.. لم يخلق من نور، فالنور كان ينبعث من حضوره الكريم، من عمق أخلاقه وتعامله السمح مع الناس، وليس من طبيعة خصته وميزته عن غيره..

دمه الشريف كان مثل دمنا: فيه كريات دم بيض وحمر، أجسام لمفاوية، وأجسام مضادة..لم يكن فيه شيء غير إنساني بمعنى عضوي، لكنه تمكن من الترقي بإنسانيته، عبر جهاده لنفسه ومع نفسه ليكون أفضل البشر.. وفتح الباب لأتباعه من خلفه بأن يحاولوا فعل الشيء نفسه..

عرقه الطاهر الشريف لم يكن كذلك لأنه كان يفرز من غدد مختلفة عن تلك التي في أجسادنا..بل لأنه كان يتعرق من أجل المجتمع، من أجل بناء كوكب مختلف..من أجل كل الناس

.. لم يكن قادماً من كوكب آخر، خارج مجموعتنا الشمسية أو داخلها، بل إن أعظم ما فيه أنه كان من كوكبنا هذا، أنه كان أرضياً للنخاع.. وأنه كان يختار أن يعرف عن نفسه بهذا التعريف الأرضي «جداً»: (إنما أنا ابن امرأة تأكل القديد في بطحاء مكة).. الفرق أن انتماءه الأرضي جعله يعمل من أجل أن يكون الكوكب مكاناً أفضل....

من أجل كل ذلك، كان هو، هو وحده، «الأسوة الحسنة»..

صلوات ربي وسلامه عليه..

الليل، ذات ليلة

للأرق أسبابٌ عديدةٌ، بعضها قد يكون بسيطاً وعابراً، والبعض الآخر قد يكون مركباً معقداً..

بعض الأرق يفيد معه حبة منوم تبتلعها قبل نصف ساعة من النوم، مع كوب ماء..

.. وبعض الأرق لا ينفع معه لا حبة منوم، ولا حتى حقنة تخدير..

بعض الأرق يصاحبك حتى في النوم، ويهاجمك وأنت تتوهم أنك نائم، فيثقلك أكثر بكوابيسه التي تفصح عن أوجاعك ومخاوفك، فيكون ذلك الكابوس مثل مرآة جارحة ترى فيها ما تهرب من رؤيته في الواقع المعاش..

.. وأحياناً يكون بعض الأرق هروباً من تلك الكوابيس تحديداً، فتفضل أن تتقلب وتروح وتجيء حتى لا يأخذك النعاس إلى عوالم تريد أن تتجاهل أنها واقعك الحقيقي..

.. وبعض الأرق قد يكون شخصياً جداً، يخص مشاكل تخص فرداً بعينه وبعض المحيطين به..

.. ولكن أرقاً آخر قد يعبر عن مشاكل أعمق، مشاكل تخص أفراداً أيضاً، لكنها توحدهم مع أفراد آخرين يتقلبون جميعاً على فراش الشوك والسهد.. ويصير هذا الأرق عنواناً لحالة تهدد المجتمع بأكمله..

.. والأرق، من النوعين، يعبر عن إحساس عميق بعدم الاطمئنان، يظهر على السطح عندما تحاول أن تأوي إلى فراشك، فيشهر سيفه، ويكشر عن أنيابه وينهش- بالسيف والأنياب ـ في داخلك..

قد يكون قلقاً من أجل سقف يأويك وأطفالك ويجب أن تدفع إيجاره، وقد يكون من أجل شتاء قادم ليس في جيبك حق كسوته ووقوده.. وقد يكون من أجل مستقبلٍ غامضٍ لأولادك وأنت بين المهاجر والمنافي..

«قد يكون هكذا كله..»

وقد يكون أكثر..

★ ★ ★

بعض الأرق، أرقى.. وأعمق..

يتجاوز القلق نحو الكسوة والغذاء والسقف، إلى ما هو أشمل وأكثر عمقاً..

لا عيب أبداً أن تؤرقك حياتك الخاصة وهمومك تجاه أولادك..

لكن ثمة قلق من نوع آخر، وأرق من نمط مختلف..

الأرق الآخر، الأشد رقياً، يعكس قلقاً نحو الوجود ككل، بالذات يعكس قلقاً تجاه الأجوبة السائدة التي يقدمها المجتمع، نحو الأسئلة التي تداعب ذهن الإنسان منذ أن كان هناك إنسان..

.. إنه ليس أرق المترفين، كما قد يبدو تجاه المؤرقات الأخرى، لكنه أرق يتجاوز الهموم الآنية العابرة نحو الهم الإنساني ـ الوجودي بشكل عام..

إنه أرق تجاه تلك الأسئلة التي شغلت ذهن الإنسان منذ أن بزغ وعيه بذاته.. تجاه إشارات الاستفهام التي اسمها في مخيلته تجاه الكون من حوله.. من؟ لماذا؟.. وكيف؟..

وبالذات تجاه الأجوبة عن هذهِ التساؤلات..

★ ★ ★

عندما يقصون علينا تأريخ العالم، فإن أسماء مثل الاسكندر الأكبر، وجنكيز خان، ونابليون، ستذكر، وتذكر معها الحروب والغزوات، والدماء والويلات.. التي يعدونها منجزات..

.. لكن للإنسانية تاريخ آخر.. قد يكون أهم، بل إنه أهم، أحداثه قد تكون ليست زاعقة مثل الحروب والغزوات والانتصارات والهزائم.. لكنها أكثر جدوى، وأكثر تأثيراً ـ بإيجابية ـ على المدى البعيد.. وبعضها قد يكون فاتحة لعصر جديد من الوعي الإنساني..

.. يمكن لهذا العصر أن يؤرخ بحادثة، ستبدو بسيطة جداً للوهلة الأولى..

إنها محض لحادثة أرق.. لكنها غيرت وجه الوعي الإنساني..

.. هل كانت ليلة كبقية الليالي؟..

لعلها كانت كذلك..

لم يذكر قط أنها مختلفة، لم يذكر قط أن نيزكاً ما قد أضاءها ولو لثواني، أو أنها كانت أطول أو أقصر من بقية الليالي، أو أكثر برودة أو أكثر دفئاً..

كانت مجرد ليلة أخرى..

لكن.. تلك الليلة، كانت ذلك الحد الفاصل بين تاريخين..

★ ★ ★

﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ رَءَا كَوْكَبًا قَالَ هَٰذَا رَبِّي﴾ [الأنعام: ٧٦]..

.. لقد جن عليه الليل إذاً..

.. «وَجَنَّ» تعني اشتد ظلام الليل عليه.. على سيدنا إبراهيم..

فهل كانت هذهِ أول مرة يشتد ظلام الليل عليه..؟؟ أم أن اشتداد الظلام هذهِ المرّة كان سبب عين إبراهيم، بصيرته. التي صارت ترى الأشياء على حقيقتها أكثر..

صار يرى زيف الأكاذيب التي يروجها مجتمعه الوثني، بسدنته وكهنته وحكامه.. لذلك صار الليل يبدو أشد سواداً وظلمة حتى من ذي قبل..

.. ولذلك جنَّ عليه الليل..

.. وفي الظلمة، وسوادها واشتدادها، نرى أحياناً بوضوح أكبر، مما لو كنا نرى تحت الضوء الساطع..

في الظلمة تنسحب الأشياء، وتزول التفاصيل، ويختفي كل ما هو زائف، ولا تبقى إلا الحقيقة، تتحدى قوانين النظر والظلمة..

.. في الظلمة نرى الأشياء على حقيقتها، بلا بهرجة الألوان وزينتها، وبلا مهرجان الضوء، يلعب على أوتار البصر..

في الظلمة تزول الظلال، ولا يبقى سوى الجوهر، تستطيع أن تراه أفضل، ربما ليس بعينيك، وربما ليس بحاسة البصر مجردة..

لكن شيء ما فيك، أكبر من مجرد حاسة النظر، سيرى في الظلمة أحسن..

★ ★ ★

.. وفي الظلمة رأى إبراهيم كوكباً..

هل كانت هذهِ هي المرة التي تقع فيها عيناه عليه؟..

بالتأكيد لا.. لكن هذهِ المرة لم تعد حواسه وحدها ترى، هذهِ المرّة صار يرى بطريقة أخرى.. صار يرى بطريقة انتقادية، متسائلة، كل ما تقع عيناه عليه صار يدخل في قمع خاص في رأسه.. قمع التساؤل الذي لا يمرر شيئاً دون أن يعيد النظر فيه..

لم يعد الكوكب محصناً كما هو عند قومه الذين يعبدون الكواكب والنجوم والقمر من ضمن ما يعبدون.. بحصن القداسة المزعومة، قداسة كل ما هو قديم ومتوارث وسائد..

كان الكوكب، كما بقية المعبودات، قد يقدم ما هو مقنع لبعض الناس، لبعض الوقت..

لكن ليس عندما يبزغ التساؤل..

وليس مع إبراهيم..

.. وعندما انسحب الكوكب، كان ذلك بمثابة إعلان صريح لهزيمته في معركة التساؤل أمام إبراهيم وهو يرى الكون بعين محضة بالنقد وبإعادة النظر..

.. وعندما يتهاوى حجر ما، تستند عليه بقية أحجار الهيكل.. فإن الهيكل كله لن يعود قادراً على الصمود أمام السلاح الجديد سلاح التساؤل

★ ★ ★

.. وبعد الكوكب، جاء القمر..

لا يكون الليل شديد الظلمة مع بزوغ القمر..، لكنها ليست ظلمة الليل الاعتيادية بل هي ظلمة الظلم، ظلمة البعد عن الحقيقة، ظلمة البعد عن النور الحقيقي.. ليس نور الشمس أو نور القمر، بل نور الحقيقة..

.. وجاء القمر!..

لكن عين إبراهيم صارت بمثابة مجهر، يفحص الأشياء التي يقدسها قومه، يعيد النظر فيها، يسائلها، ولا ينتظر جوابها، بل يبحث بنفسه عن جواب، يحاور مع أجوبتها، ويبصر ما يراه لم يعد قادراً على الإقناع.. لا يتظاهر بالاقتناع فقط لأن الآباء والأجداد اقتنعوا يوماً ما، لا يقسر نفسه على الاقتناع فقط لأن ذلك هو السائد..

إلى القمر، بعين المجهر، وعقل التساؤل، نظر إبراهيم، ولسان حاله يقول: لو أنك أيها القمر ربٌ بحق، لما انسحبت لحظة واحدة.. لبقيت..

إبراهيم يتحدى القمر.. يتحدى الكذب والزيف والخداع الذي يسود عند قومه وتروجه المؤسسات المهيمنة في مجتمعه..

.. والقمر ينسحب.. إنه يخسر التحدي..

.. وإبراهيم لم يربح بعد.. إنه لا يريد أن يحطم ما هو قائم على كذب وخطأ فحسب، إنه يريد الحقيقة.. إنه يريد البديل الذي لا بديل عنه..

.. ﴿لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ ﴿٧٧﴾﴾ [الأنعام].

إنه تحدي آخر هنا.. لكن هذه المرة هو لا يتحدى معبودات الزيف، بل يتحدى نفسه.. إنه يتحدى نفسه ويستفزها ـ إن لم يصل إلى الإله ـ الحق ـ الإله الحقيقي، فإنه سيكون من القوم الضالين ـ والآن بعد أن تبين له مدى ضلالهم لكنه يراهن هنا، أنه يضع عقله ورأسه ووجدانه وحياته كلها، وما بعد حياته، على هذا الرهان..

إن لم يهدني ربي لأكونن من القوم الضالين..

لقد وعى إبراهيم في تلك الليلة المؤرقة، أن البحث عن الإله الحق يتطلب شيئين اثنين..

.. **أولاً أن يبحث هو، بنفسه، عن الحق.. متجاوزاً كل التلقين والتلقيم السائدين..**

وثانياً هو الهداية.. أن يهديه ربه إلى الحق.. وإلى نفسه.. إلى ذاته الكاملة..

لم يعد الأمر مجرد تطلع في الكون.. وفي مظاهره وآياته..

بل صار يتطلب اتصالاً بما هو غير منظور..

صار يتطلب اتصالاً وتواصلاً بإله هذا الكون..

.. وانسحب الليل.. لكن النور لم يبزغ، فالظلام ليس بالضرورة ظلام الليل فقط.. إنه ظلمات متعددة.. بعضها لا يطرد بمجرد صياح الديك إيذاناً بيوم جديد..

.. وبزغت الشمس.. وعاد إبراهيم ليتفحص قوانين السائد والمهيمن.. إنها أكبر، والقوانين المتعارف عليها تجعل الأكبر هو الأفضل والأقوى والأكثر استحقاقاً.. الجيش الأكبر، الدولة الأكبر، الصنم الأكبر، والقصر الأكبر..

فهل تكون الشمس هي الرب الحق، فقط لأنها الأكبر؟..

هل ينطبق قانون البشر على الكون.. وعلى إله الكون؟؟

.. وتربص إبراهيم للشمس، كان يعرف أنها ستغيب لا محالة، لكنه كان يتربص بالحقيقة لمنطق أن الأكبر هو الأقوى، كان يتربص للمنطق الذي ينصب تلك المخلوقات الآفلة على عرش الخلق كله.. كان يتربص لمنطق يجعل من «البصر» هو المقياس الذي تعبر من خلاله الأشياء..

.. وعندما أفلت ـ كان المنطق الذي يقف وراءها يأفل..

وكان إبراهيم، يتلمس منطقاً آخراً ونمطاً مختلفاً في الرؤية، رؤية تتجاوز حاسة البصر والحواس الأخرى، إلى أفق آخر، لا ينكر الحواس، لكنه لا يقف عندها، بل يأخذ معطياتها ليصل إلى مغزى أعمق، ومعنى أبعد..

★ ★ ★

.. هنا انهزم الليل حقاً.. هنا رفع رايته البيضاء.. هنا أشهر ذلك المنطق حقيقته، على الأفل بينه وبين إبراهيم..

هنا أعلن إبراهيم أن الحواس لا تقدر وحدها، وأن ما لا نراه لا يعني أنه غير موجود، بل يعني أن حواسنا غير مصممة على رؤيته..

.. أدرك إبراهيم هنا أن «الأكبر» شيء آخر غير كل ما تعودنا أن نقيسه بمقاييس الطول والعرض والارتفاع.. بل أن الأكبر حقاً لا يكون خاضعاً أصلاً لتلك المقاييس..

.. وقال إبراهيم: ﴿يَٰقَوْمِ إِنِّي بَرِيٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٧٨﴾﴾ [الأنعام].

إنها البراءة هنا، لقد حصل على حكم البراءة، وأعلن براءته من تلك الجريمة التي يقترفها الإنسان عندما ينساق إلى القطيع دونما تمييز، دونما تساؤل.. دون أن يقف ليعيد النظر..

الآن، بعد كل هذا التحدي، يثمر أرق إبراهيم براءةً من ذلك كله..

ويضع الحجر الأول، في جسر آخر، يصل بين الإنسان وذاته، والإنسان وخالقه، والإنسان والكون من حوله..

.. من ذلك الرأس الذي تساءل، وحقق، وتحقق، تبزغ أشعة شمس ما، شمس مختلفة، لن تعبد هذهِ المرة، بل ستدل الطريق إلى المعبود الحق..

★ ★ ★

ليس كل أرق سلبي.. فبعضه إيجابي جداً..

.. وليس كل قلق سلبي، فقليل منه أو كثير ـ قد يكون دليل ضمير حي وقلب فاعل..

.. بعض الأرق، لا يجدي الهرب منه بحبة منوم.. بل الأجدر أن يواجه، الأجدر أن نتفاهم معه.. وربما نشرب معه فنجان قهوة.. نتحدث معه، ويتحدث معنا.. نحاول اختراقه، بدلاً من أن نتركه يخترقنا..او نتقلب على أشواكه دونما جدوى ودونما محاولة لايجاد حل..

بعض الأرق يجعلنا نرى بشكل أفضل: يبدو الليل معه أكثر ظلاما ربما، لكن أحيانا الظلمة هي المكان الأكثر مناسبة لكي ترى الحقائق على حقيقتها...بلا رتوش، بلا ظلال..

أن تقتحم ارقك – يعني أن تقتحم مشاكلك – أن تقتحم هواجسك – أن تقتحم مخاوفك الداخلية التي تخدر نفسك عنها في بقية نهارك ويومك..لكنها تكون متأججة أكثر في الليل..

فعل ذلك، هو الطريقة الوحيدة للتغلب، لا على الأرق والقلق، بل على الليل نفسه..

فكل ليل-مهما بدا طويلا، مهما كان حالكا- يمكن أن ينسحب، يمكن لشمس ما أن تهزمه

كل ليل يمكن أن يهزم.. ذات أرق، ذات مواجهة، ذات تساؤل...

ذات ليلة..

كل ليل-مهما طال- يمكن أن يصير مجرد ليلة وانتهت..

يمكن أن يصير «ذات ليلة»...

الطريق إلى الطريق الصحيح

هل انتابك الرغبة يوماً ما في أن تتأكد من أنك أغلقت مفتاح الغاز بعد أن تركت البيت؟.. هل عاملت تلك الرغبة كوسواس خناس وتعوذت منه بالله؟.. أم أنك، عدت أدراجك، وأحببت أن تتأكد بنفسك حرصاً على حياة أطفالك..

لعل ذلك حدث مرة، أو اثنتين.. أو لعله يحدث دوماً.. ولعل الأمر مثار تندر من حولك، وتشخيص البعض منهم أن الأمر «وسواس قهري».. رغم أنك تعتبره مجرد حرص طبيعي..

وهل حصل أنك ذهبت يوماً إلى طريق تعرفه جيداً، وتسلكه يومياً، كل كل يوم، منذ عشرين عاماً وأكثر، بل منذ أن وعيت، هل حصل أنك تقف لتتأكد من المارة، وتسألهم أنك على الطريق الصحيح؟..

.. الأولى قد تحصل كثيراً..

أما الثانية فهي نادراً ما تقع..

سنقول، وسيقولون أن الأولى مجرد «وسوسة»..

أما الثانية فهي أقرب إلى الجنون..

.. هذا للوهلة الأولى فقط..

لكن من منظار قرآني، قد يبدو الأمر مختلفاً..

فالأولى، قد تكون مجرد وسوسة، أو محض حرص، لا أكثر ولا أقل..

أما الثانية، فحسب المنظار القرآني، هي عين الصواب..

بل هي ما يجب أن تفعله كل يوم..

كل يوم!. وليس مرة واحدة.. بل حوالي عشرين مرة.. أو أقل قليلاً..

سيقول من يقول، إنك تبالغ، وأن هذا جنون، ولا ينبغي أن نلقي بهذا على عاتق الكتاب المجيد..

لكني أصر، وبثقة، أن القرآن يطلب منا ذلك.. يطلب منا أن نقف دوماً، كل يوم، لنتأكد من صحة الطريق الذي نسير فيه..

.. وعندما تقف لتسأل عن الطريق، فهذا يعني أنك لا تعرفه، أو أنك على الأقل لست واثقاً منه..

.. أو أنك تريد أن تتأكد، أنك لم تضل طريقك..

★ ★ ★

لنرتب الأمر الآن بشكل منطقي..

لكي نصل إلى ما نريد الوصول إليه..

إذا سألت عن الطريق، بينما أنت تسير، وتوقفت لتسأل بعد كل ركن أو زاوية، فهذا يعني أنك لست واثقاً من معلوماتك عن الطريق.. وأنك تريد أن تتأكد..

.. عندما تسأل عن شيء، أو عندما تسأل شيئاً، فهذا يعني، بلا شك، أنك لا تعرفه «بشكل أكيد».. أو أنه على الأقل، ليس بين يديك..

مرة أخرى، سيقولون.. هذا منطق واضح.. لكن ما علاقة هذا كله.. بكتاب الله العزيز..

أوضح الأشياء، أحياناً، هي التي لا ننتبه إليها، أوضح الأشياء هي التي تغيب عنا، ونلتفت لتفاصيل التفاصيل، أو لهوامش الهوامش، ولا ننتبه لمركز الكون!..

آية، نمر عليها مرور اللئام - ولو دون قصد - نكررها كثيراً، بل إن الصلاة لا تقبل إلا بوجودها - ومع ذلك، فإننا لا ننتبه إلى أنها من المفروض أن تبرمجنا على ذلك.. على السؤال عن الطريق، والتأكد منه، في كل لحظة، وكل خطوة.. نقطعها عليه..

عن أي آية نتحدث..

عن ﴿ اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴾ [الفاتحة].

تخيلوا..!!

★ ★ ★

كل آية من آيات القرآن، هي بمثابة لؤلؤة نفيسة، حجر كريم لا تنضب معادنه وطاقاته ومفاجآته..

لكن هل سيقدر اللؤلؤة من لا يفقه معنى اللؤلؤ.. وهل سيقدر كرم الحجر، ونفاسته، من لا يفهم في جدول العناصر الدورية؟؟..

.. بالطبع لا.. لا فرق عند هذا، بين الحصى.. والماس..

وكذلك فعل البعض منا.. مع آيات القرآن.. حفظناها صماً وكررناها بلا تنقيب.. لم نعتقد أي عالم مختلف يمكن أن يكون كامناً خلف هذه الزاوية أو تحت هذا الركن..

«اهدنا الصراط المستقيم». قلناها كثيراً، أكثر من قدرة الإحصاء على الإحصاء..

لكن.. في هرولتنا المعتادة نسينا أن نقف عندها..

عند طلبنا من رب العزة، أن يدلنا على الطريق الصحيح..

سبعة عشر مرة - كحد أدنى مقبول - في اليوم!..

لنقف عند هذا المنجم ونحاول اقتحام كنوزه ونفائسه..

ولو قليلاً..

.. عندما تكون هذه الآية، صيغة للدعاء، في سورة هي فاتحة الكتاب كله، ولا صلاة بلا الفاتحة، والآية تكاد تكون محور هذهِ السورة المحورية.. إن جاز التعبير، فالسورة تبدأ بالحمد والثناء لله عز وجل، ونعطي له أوصافاً لو وقفنا عندها لاحتجنا إلى أعمار إضافية فوق معدل العمر العادي، لم تصل إلى أن تطلب منه هذا الطلب الوحيد «اهدنا الصراط المستقيم»..

.. وخاتمة السورة تركز على ما نطلب الاهتداء إليه: الصراط المستقيم وأوصافه..

أي أن هذهِ السورة، ترتكز على هذا الدعاء ـ كمحور أساس لها..

.. وكما قلنا، عندما تطلب شيئاً، فهذا يعني أنك لا تملكه..

.. هل يعني هذا أننا لسنا على الصراط المستقيم.. لمجرد أننا نطلب من رب العزة أن يهدينا الصراط..

لا.. ليس بالضرورة..

لكنه يعني بالتأكيد، أن الصراط المستقيم ليس مضموناً، وهو ليس شيئاً نحتكره ونحوز عقد ملكيته الأبدية..

ما تحتاج للتأكد من أنه موجود عندك، أو أنك تسير عليه، هو بالتأكيد أمر أبعد ما يكون عن أن يكون مضموناً..

رغم أن البعض استعمله بشكل مغاير، إلا أن «اهدنا الصراط المستقيم» تطيح بالغرور الذي ينتاب البعض، ممن سيتصور أنه امتلك، بشكل نهائي، الصراط المستقيم.. ويتصور أن ذلك خاص به فقط..

لكن الآية.. بموضعها المركزي هذا، تجتث هذا الشعور من جذوره..

.. وتنبهك أن كل لحظة في حياتك قد تكون حاسمة، وأن كل خطوة تقوم بها ستضعك على مفترق طرق، حتى لو لم تراه، حتى لو لم تكن هناك إشارات مرورية عملاقة تقول لك ذلك ـ بل بالتأكيد لن يكون هناك إشارات.. لكن كل خطوة ستضعك على المحك، وسيكون هناك عدد لا نهائي من الاحتمالات، واحد منها فقط هو الخيار الصحيح..

.. ولا توجد عليه إشارة دالة تقول لك إنه ذلك..

إنه امتحان صعب.. في كل لحظة..

ولأنه صعب، فإنك تحتاج فعلاً، إلى أن تتأكد دوماً..

تحتاج الدعاء، والطلب من رب العالمين..

«اهدنا الصراط المستقيم»..

★ ★ ★

.. من أعظم المعاني هنا، أن لا تركن إلى ما أنت عليه، أن لا تطمئن أبداً إلى ما ورثته أو ما كونته أو ما وصلت إليه، أو ما وصل إليك..

«اهدنا الصراط المستقيم».. هي إشارة إلى البحث المستمر، إلى رفض القبول المسبق أو الرفض المسبق، عليك دوماً أن تتحرى الصراط المستقيم، وأن تطلب عوناً إلهياً من أجل ذلك، أن لا تعتقد أن ثمة خريطة جاهزة يمكن من خلالها أن تعرف الصراط المستقيم، الخرائط الجاهزة ستجدي مع التضاريس الثابتة، على الجبال والوديان والسهول. أما مع حياة كثيرة التغير، متسارعة المعطيات، فإنك تحتاج تجديد مستمر للخريطة، ولعلك تحتاج إلى خريطة جديدة بين الحين والآخر، إذا فاتك متابعة التحديث..

«اهدنا الصراط المستقيم» تقول لك إن الصراط ليس بالضرورة يكون معبداً بالإسفلت أمامك، بل إنك تحتاج أن تعبده بنفسك، وتتأكد من الاتجاه، سبعة عشر مرة في اليوم..

.. والصراط المستقيم، ليس بالضرورة مستقيماً بالمعنى الهندسي المجرد، فالاستقامة هنا هي استمرار للتقويم والتعديل، واستمرار لتقصي الدقة والصواب، والبديهية الرياضية القائلة أن «الخط المستقيم هو أقصر مسافة بين نقطتين» لا تنطبق على هذا الصراط، الذي قد يكون أحياناً طويلاً جداً، ومرهقاً جداً، وقد يكون مفروشاً بالأشواك، وبالزجاج المطحون، وقد يكون مليئاً بالمصاعب والمخاطر كما لو كان حقلاً للألغام..

الصراط المستقيم «حقاً» لن يقف أمام الجبل الشامخ ليحاول اختراقه، بل الصراط المستقيم يعرف هدفه جيداً ويحدده، وإذا حدث ووجد عائقاً أمامه، فإنه يتجاوزه، ليس بالضرورة بالاختراق، فذلك قد يكون مستقيماً من الناحية الرياضية الهندسية، لكنه سيعطل هذا الهدف، ربما من الممكن البحث عن منفذ آخر، عن نفق ما، عن تحويلة ما، تحقق الوصول إلى الهدف، ولا تكون خروجاً عن الاستقامة، ما دامت كذلك..

.. ومن السهل جداً، على شخص ما، أو مجموعة من الأشخاص، أو أمة من الأمم، أن تظل تتناطح مع جبل ما، عائق أمام دربها على الصراط، وتتوهم أنها لا تزال على الصراط..

رغم أن استقامة الصراط، يجب أن تجعلها ترنو إلى الهدف أمامها، لا أن تقف عند الحواجز..

اهم واعظم ما في «اهدنا الصراط المستقيم» أنه يجردك من أوهامك بأنك
.. ننت الصراط لمجرد «صدفة» لا دخل لك فيها أنك ولدت عند أبوين مسلمين..، لم
يذلا ها أيضاً كبير جهد في الحصول على الصراط إلا عبر الإرث..

هذا الوهم السائد للأسف، تفجره هذهِ الآية وتنسفه من جذوره، تقول لك، لا
أنت ولا أبوك ولا جدك.. لكل منكم ما سعى، وفي كل لحظة تحتاج، تحتاجون جميعاً،
إلى التأكد من كل خطوة..

على العكس، يبدو هذا الإرث تكليفاً لا تشريفاً، وامتحاناً صعباً لا نزهة يسيرةً..

إنك الآن تعلم، بل إنك تعلم ذلك من خلال سورة هي فاتحة الكتاب كله
وحفظها هو جزء من ألف باء وبديهيات الإسلام، أنت تعلم الآن، أنك مطالب
بالتحري،.. ومطالب بالبحث، ومطالب بأن لا تركن لما وصلك ـ ولما وصلت إليه،
بل أن تستمر، وتستمر.. وتستمر.. كأن جزء من المشي على الطريق أن تتيقن من
اتجاهك عليه، ومن اتجاهه هو..

وبينما تجردك الآية من أوهامك ومن غرورك باحتكار الطريق الصحيح، فإن
الآية بالمقابل، تمنحك «الصلاحية» و «الأحقية» بأن تعبد الصراط المستقيم، وتقوم
اعوجاجه، وتصلح انحرافه.. وكل ذلك بهداية من رب العالمين،.. لكنك أصلاً
مطالب بالمبادرة في ذلك، وبالمبادرة في طلب الهداية من أجل ذلك..

«اهدنا الصراط المستقيم» تقول لك أنك مؤهل لطلب ذلك.. وللقيام بذلك..
بل إنك بعد ذلك، مطالب بذلك!

إن خارطة الصراط المستقيم إذاً، لن تكون خريطة واضحة المعالم تقول لك امش
عشرة خطوات إلى أن تصل إلى المكان الفلاني واستدر نحو اليمين واحسب عشرين
خطوة وبعدها انحرف يساراً.. الخ، إلى أن تصل إلى المكان المطلوب الذي قد يكون

لكن لو كان الأمر كذلك، لما كان هناك فضيلة في الوصول إلى الكنز، بل لما كان هناك جهد أصلاً في العثور عليه، غير اتباع دقيق للتعليمات، لكن في درب الحياة الحقيقية، وصراطها المستقيم، الأمر لا يكون هذهِ السهولة أبداً، وخارطة الصراط المستقيم، ستحتوي على إرشادات عامة عليك أن تفهمها وتفهم أن تطبيقها على أرض الواقع يحتاج إلى «عدة خاصة» أهم ما فيها قد زودك بها نفس الذي تطلُب منه أن يهديك الصراط المستقيم..

تلك العدة هي ذلك الرأس الذي فوق كتفيك..

إنه هو الذي يمكن له أن يسأل، ويتساءل، ويتأكد من الطريق..

.. هو الذي يمكن له أن يصوب الخطأ، ويفهم حقاً إرشادات الصراط المستقيم..

ذلك الرأس هو الذي يمكن له أن«يحدث» فهم الإرشادات، ويحدث تطبيقها على أرض الواقع..

.. ومهما تغير الواقع، وتغيرت المعطيات وبدت الخريطة مختلفة عبر العصور..

فإن الثابت فيها، الذي لا يتغير، أن نقطة الانطلاق تكون من هناك، من الرأس..

الطريق إلى الطريق الصحيح، لا بد أن يبدأ هناك..

العنوان، أُحد..

في حياتنا نحتاج إلى أدوات كثيرة.. بعضٌ منها صار بالتدريج مما لا غنى عنه.. قد تكون بعضها كهربائية، وقد يكون بعضها شديد التعقيد..

.. وأخرى تكون بسيطة، بتصميم بسيط وفكرة عبقرية..

بعض الأدوات بدا في بدايته مجرد إكسسوار زائد، لكن مع الوقت، ولسبب أو لآخر.. صار أمراً ضرورياً.. والحصول عليه أمرٌ حتمي..

.. وبعض هذهِ الأدوات توفر الوقت والجهد، وبعضها تهدر الوقت والجهد والمال، بعض الأدوات تزيد المعلومات وتثري العقل، وبعضها تنقص العلم وتسطح العقل..

.. على كل حال، إنها أدوات تزحم حياتنا وتملؤها ضجيجاً، وتكاد تصير جزءاً أساسياً ليس مما حولنا فقط، بل جزءاً أساسياً من أنفسنا، ومن رؤيتنا لأنفسنا، من رؤية الناس لنا، فالنقال الذي في يديك لم يعد مجرد وسيلة للاتصال، بل هو وسيلة لأن يعرف الناس أنك قادر على اقتناء جهاز حديث وباهظ كهذا، ومواكب لأحدث التقنيات وتطوراتها..

أدوات، أدوات، أدوات، تلاحقك عند الزواج وعند الإنجاب، وعند تربية الأولاد.. بعضها بتقسيط مريح، وأخرى بتقسيط غير مريح، وكل ما يبدو أنه حديث ومناسب عند بدء الدفع، سيكون قد قدِم وبلي عندما تنتهي الأقساط.. وهكذا.. يتم شراء واحدة أحدث، سرعان ما تبلى.. وتستمر طاحونة الأدوات وتحديثها، وتكديسها.. وكل ذلك من باب لزوم ما لا يلزم، الذي هو باب أساسٍ من بوابات الحياة المعاصرة..

.. لكن في زحمة تلك الأدوات، سقطت أدوات أخرى، سهواً أو عمداً.. رغم أنها أكثر أهمية بكثير من تلك الأدوات التي يسمونها سلعاً استهلاكية..

هناك أدوات أخرى، ليست سلعاً، ولا استهلاكية.. ولكنها سقطت في زحمة الأدوات وطاحونة الأدوات..

مثل ماذا؟.

مثل أدوات «الشرط»!.

★ ★ ★

أدوات الشرط مهمة جداً.. إنها تجعلنا نترك الركون إلى ما كنّاه، إلى ما كنا عليه، تجعلنا نعيد النظر دوماً في الظروف من حولنا، تجعلنا ندرك أن الحياة ليست ساكنة، بل هي دائمة الحركة، وأن حركتها هذهِ مرتبطة بحزمة من الشروط، ومن أدوات الشرط، وأن رؤيتنا إذا صارت سكونية وجامدة، بينما العالم يتحرك من حولها، فإن ذلك يقطع أواصرها مع أدوات الشرط.. وبالتالي مع الرؤية الموضوعية.. مع العالم..

الرؤية الثابتة الجامدة، تشبه صورة طفل في الخامسة من عمره، ونحن نحاول أن نقسرها لتخيلنا له وقد صار شاباً في الخامسة والعشرين من العمر..

.. أدوات الشرط تتبع رؤيتنا هذه لأنفسنا وللعالم من حولنا، تعيد التحديث، وتتابع التحديث، وتعيد ترسيم العلاقة بين الأشياء، وبين ظروف الأشياء، وما ينتج عن تغير العلاقة بين الأشياء، من تغير في طبيعة الأشياء نفسها..

أدوات الشرط، تذكرنا بأن علاقتنا بالعالم «مشروطة» وأن جواب الشرط هذا مرتبط بما نفعله بأنفسنا.. وبالعالم..

.. ولذلك، فعند ما تنزل آية ما، تستعمل أدوات الشرط في الحوار معنا، وهي تقول «إن كنتم» فإن ذلك يجب أن يلفت أنظارنا إلى الجملة التي سبقت ذلك الشرط، والجملة التي تلت ذلك الشرط.. لأن العلاقة بينهما غير ثابتة، وغير مؤكدة، وغير جامدة..

بل هي، بالتعريف، مشروطة..

وبالتالي.. معرضة للتغيير.. والانقلاب ارتداداً.. أو رجوعاً إلى الخلف..

★ ★ ★

.. وعندما يتنزل الذكر الحكيم، وهو يفعّل عقول المؤمنين به، والمتماهين معه.. وهو يقول لهم ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾﴾.. فهو يضعهم ويضعنا معهم، في أشد حالات التوتر، لكي ننتبه إلى الجملة التي سبقت هذا الشرط..

.. وعندما يتعلق «الإيمان» بشرط قد لا يكون متوفراً، فالأمر يصير جد خطير.. وجد جاد.. وهو يتطلب أن نستنفر كل حواسنا وأفكارنا لنرى الأمر..

فحظيرة الإيمان نفسها، لم تعد ملكاً عقارياً حصلنا على سند ملكيته مرّة واحدة وإلى الأبد.. بل صارت بيتاً نستأجره ونسكنه وفق شروط وأدوات شرط نؤديها، فإذا فقدنا تلك الأدوات، طردنا من ذلك البيت.. وظلت عودتنا إليه مرتهنة باستعادة تلك الأدوات.. وتفعيلها..

.. لا يعني هذا أبداً أن إيمان أفراد الجيل الأول، الذين كانوا أول جيل يتلقى كلمات ذلك الوحي، كان محط شك أو تشكيك..

لكن ذلك يعني أنهم لم يستحقوا تلك المنزلة الرفيعة إلا بعدما وضعوا إيمانهم في موضع الشرط، وتحققوا من وجود الشروط، وكان إيمانهم بعد ذلك، تحصيلاً حاصلاً، أو تحقيقاً لشرط..

أدوات الشرط، تلك التي حرص أفراد الجيل الأول على تحقيقها، كانت بمثابة مجاذيف، سبح بها أفراد ذلك الجيل عكس التيار، وتمكنوا من خلالها، ومن خلال أدوات أخرى، لا من السباحة عكس التيار فقط.. بل من تغيير مسار التيار كله.. من تغيير مسار التاريخ.. كله..

.. وعندما تنزل آية مثل ﴿وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ في ظل ظرف عصيب كالذي نزلت فيه، بعد موقعة أحد، فإنها تتحمل مستويات كثيرة للفهم، لا يناقض بعضها بعضاً، بل تتكامل معاً وبتصعد فهم إلى آخر، إلى حيث الفهم الأرقى..

.. سيكون هناك فهم، بانتشار مفهوم الطابع، يقول إن «الأعلون» هنا مرتبطة بالثبات على القيم، والمبادئ، وعدم التزحزح عن قيم التوحيد، حتى لو كان قد حصل انكسار على أرض الواقع..

.. هذا المفهوم من«العلو» مفهوم، وهو قد يمنح عزاءً ومواساة، وقد يرفع المعنويات، ويؤهل النفسية للصمود من أجل تجاوز الأزمة..

نعم، بالتأكيد..

.. لكن للحجر الكريم أوجه لا تنتهي..

.. والآية الكريمة، لم تواس المؤمنين، وتقول لهم«أنتم الأعلون»مهما كان.. مهما حدث.. مهما انكسرتم.. ومهما هزمتم..

الآية قالت «أنتم الأعلون».. نعم..

لكن هناك «أداة شرط»في هذا العلو..

إنه ليس أمراً مضموناً بشكل مؤبد، لكي نعتبر الأمر محض مواساة..

«أنتم الأعلون».. ثم «إن كنتم مؤمنين»..

العلاقة الشرطية هنا بين العلو، وبين الإيمان شديدة الوضوح، ونستطيع طبعاً أن نصر أن العلو هو علو القيم والمبادئ، حتى لو كان مصحوباً بهزائم وانكسارات..

لكن من الواضح تماماً، أن «العلو» كان أكثر، أعلى من ذلك بكثير، بالنسبة لأفراد الجيل الأول..

.. من الواضح تماماً أن الآية لم تقل لهم إنكم «أعلون» لأنكم مؤمنين.. وهم كفار..

الآية قالت لهم: أنتم الأعلون، إن كنتم مؤمنين..

وكان ذلك يعني، لهم على الأقل، أن العلو والرفعة كان أبعد ما يكون عن كونه مجرد مبادئ مجردة عن الواقع، في الرؤوس والأفكار فقط..

بالنسبة لهم، كانت المبادئ العالية والقيم العالية يجب أن تثمر واقعاً عالياً.. وكان الإيمان، وأن تكون مؤمناً، يجب أن يكون ذلك منتجاً لواقع عالي.. مماثل لذلك الإيمان..

هذا ما آمن به أولئك الذين أصابهم انكسار في أحد، ولم يكتفوا أبداً بالقيم في رؤوسهم، بل عملوا على تغيير واقعهم المحيط بهم، وعملوا على كسر التيار.. ولو أنهم قنعوا بأنهم الأعلون لمجرد وجود قيم في رؤوسهم، لمكثوا هناك في الصحراء، ولما أنجزوا أكبر طفرة في تاريخ الإنسان، ولما كنا نتحدث عنهم أصلاً الآن..

لقد آمنوا أن النتائج يجب أن تتوافق مع القيم.. وأن القيم الجيدة يجب أن تنتج واقعاً جيداً..

.. وهكذا كان..

★ ★ ★

إذا، ما الذي حدث حقاً في أحد؟؟.

لا نشك في إيمانهم، وفي إخلاصهم، ولا في عمق تلك القيم في رؤوسهم.. لكن نعرف أن ما حصل في أحد كان انكساراً كبيراً..

فما الذي حدث حقاً هناك؟..

ولماذا حصل ما حصل هناك؟.. إذا كانت علاقة الشرط قائمة وغير منتهكة..

علينا أن نعود إلى أحد.. ونرى ما الذي حصل هناك.. أو بالأحرى لعل علينا أن نبحث عن الذي لم يحصل هناك..

الذي لم يحصل، وإنما الذي حصل الضد والعكس منه، هو أن أعضاء ذلك الجيل، الذين تعرضوا لانكسار يوم أحد، لم يكونوا بتاتاً وبأي شكل من الأشكال، قد تعرضوا لهزيمة قبل الهزيمة، أي أنهم لم يكونوا مهيئين للهزيمة، ولم يكن وضعهم النفسي هو الذي أدى للانكسار..

لم يكونوا كسالى يقضون الوقت في التثاؤب أو التنظير المكرر أو تمجيد فوائد النوم، لم يكونوا يتصورون أبداً أن الله سينصر أناساً لا يستحقون النصر، لذلك كان «الدعاء» بالنسبة لهم أمراً متمماً لأمور أخرى يفعلونها ويبذلون الجهد فيها.. لم يكن الله بالنسبة لهم، جل وعلا، حداداً يصنع السيوف، إنما هو مالك الملك، وواضع السنن، واتباع هذه السنن هو الأمر الذي سيجعل من الدعاء مستجاباً..

.. بالنسبة لهم، لم يتركوا الأمور على عواهنها، لم يتركوا الرياح تقرر ما تفعله بالسفن، ولم يجعلوا من أفعالهم مجرد ردود أفعال لما يفعله العدو، سواء كانت محسوبة أو غير محسوبة..

لقد أخذوا بأيديهم زمام المبادرة، وجعلوا من العدو هو الذي تكون أفعاله ردود أفعال لأفعالهم.. فقادوا، عبر ذلك، التفاعل كله إلى حيث يريدون.. وعندما كانت تستجد الأحداث، لم يكونوا يقولون «يحلها حلال» «عندما تتبين الأمور، فالحل الأمثل لا يأتي إلا عبر التفكير والتدبير والتخطيط المسبق، وكل شيء غير هذا لم يكن مقبولاً لأنه لم يكن سيؤدي إلا إلى الكوارث والهزائم والانكسارات..

.. وعندما جاءت أحد، كان لدى ذلك الجيل خطة واضحة، مشروع عمل واضح، محدد المعالم والقسمات، وليس شعارات فضفاضة، ونوايا طيبة، وحماس فائر دونما مشروع يلم ذلك كله..

.. فما الذي حصل إذا عند أحد، ما دام الأمر كذلك؟..

لم تكن أحد منذ بدايتها خسارة وانكساراً، بل كانت تسير حسب الخطة ومشروع العمل، وكانت يمكن أن تكون انتصاراً بحجم بدر أو حتى أكبر.. لكن خطأً بشرياً في التطبيق، خلق ثغرة عند الجبل، عندما استعجل الرماة.. وكان يمكن لهذهِ الثغرة أن تمر، وأن لا تحدث ما حدث، لو لا أن عيناً خبيرة، في الجانب الآخر عند العدو، كانت تراقب بمهارة وبحذق ما حصل، واستطاعت أن تستثمر تلك الثغرة.. وتحولها إلى انكسار كبير للمسلمين.. وانتصار لغيرهم..

★ ★ ★

.. بين كمال النظرية، وبشرية التطبيق.. فوارق لابد من الإقرار بها.. والإقرار بإمكانية حصولها.. بل وبضرورة حصولها، فنحن بشر، نزل ونخطئ ونعود إلى الصواب، ولكن طموحنا أبداً يظل أكبر من إمكاناتنا.. ويظل الكمال المستحيل قمة جبل عالٍ تراود آمالنا وحبالنا وعدة تسلقنا.. وكلما صعدنا المزيد، كلما بدت القمة أبعد، كما لو كانت سراباً..

.. هذا الأمر أكيد، والإقرار به هو جزء من الإقرار بطبيعة الأشياء وخواص العناصر.. البشر يتعرضون للفشل والهزيمة والانكسار - أحياناً - كما يتمدد الحديد عند الحرارة.. ولا يمكن أن يكون ذلك دليلاً على فشل الأفكار التي في رؤوسهم..

لكن استدامة الفشل، وتحوله إلى وضع دائم هو الأمر الذي يجب أن يلفت النظر، إلى احتمالية أن النظرية نفسها فاشلة..

بعبارة أخرى، الفشل المقبول، الذي هو جزء من الطبيعة البشرية، هو الذي يكون بنسبة إحصائية متدنية، أو مقبول...

المسافة بين النظرية الكاملة والتطبيق الإنساني الناقص يمكن أن تظل مقبولة ما دامت لم تتحول إلى هوة سحيقة، تسقط فيها الأفراد، وتتكسر عندها الأحلام والآمال..

.. بسبب ذلك كله، فإن «أحد» لم تكن أكثر من مجرد عثرة، على طريق طويل حافل بالانتصارات والمنجزات، لم تتحول «أحد» إلى عقدة في نفوس وعقول أفراد الجيل الأول، تمنعهم من خوض التجربة، وتجردهم من القابلية على التكرار، بل تحول «أحد» إلى منصة ينطلقون منها إلى قمم أخرى.. وأخرى..

كانت أحد هزيمة نعم، لكنها - ويا للمفارقة - رغم ذلك كانت أفضل حتى من انتصاراتنا الحالية، أو ما يسميه البعض تجاوزاً بانتصاراتنا القليلة..

فالانكسار في زمن منتصر، أفضل بكثير من نصر في زمن منكسر..

★ ★ ★

.. ويشير لنا مفهوم «الأعلون» إلى مفهوم آخر، غير مذكور بصراحة، لكنه وارد ضمناً وبوضوح..

إنه «الأدنون».. الأقلون.. الأذلون..

الأعلون لا يكونون كذلك إلا بالمقارنة مع غيرهم، ومع أوضاع غيرهم، ولا يوجد - على الأقل في المقاييس الأرضية - «أعلون» بالمطلق، بل هم أعلون - أو أدنون - بالمقارنة مع غيرهم..

.. على مقياس سلم التقدم.. والنماء..

.. والأمر جدير بأن يدق صافرات الإنذار في رؤوسنا.. لأن «الأعلون» هنا لم تكن تعني مبادئ مجردة عن الواقع.. بل كانت تعني واقعاً مثمراً إيجابياً، لا نستطيع أبداً أن ندعي امتلاكه اليوم..

.. ولقد قالت الآية، «.. إن كنتم مؤمنين».. وأداة الشرط هنا تبدو كما لو كانت سكيناً حاداً يغوص في أحشائنا..

.. يمكن لك أن تتعثر هنا، وتزل قدمك هناك، فأنت بشر.. ولا مشكلة أبداً في عثرة هنا وسقطة هنا..

أما المشكلة أن يكون تاريخك كله عثرات، وحاضرك كله سقطات، المشكلة أن تظل أسيراً للهزيمة والانكسار، وتسكن مرآتك كما لو كانت في ملامحك وقسماتك..

.. لا مشكلة إن زارك الانكسار مرة أو اثنتين، المشكلة إن صار من أهل بيتك، يأكل وينام ويتسامر معكم..

.. أحد كانت مجرد محطة في طريق ذلك الجيل.. مروا بها وحطوا بها.. ثم تركوها إلى أخرى وأخرى..

أما نحن، فقد اتخذنا منها سكناً دائماً، وعنواناً ثابتاً.. توقف بنا الزمن فيها، وسكن الانكسار فينا وسكنا عند سفح أحد.. لم نحاول حتى الوصول إلى قمته لنتجاوز وننطلق كما فعل الجيل الأول..

عند سفح «أحد» سكنا.. وضعنا خيامنا أولاً، ثم بنينا أسساً لبيوتنا على ذلك السفح، وانشغلنا بتأثيث البيوت وملئها بالأدوات..

ووضعنا كل ما نحتاجه وما لا نحتاجه من الأدوات فيه.. ولكن نسينا واحدةً من أهم الأدوات.. أدوات الشرط..

.. ولو أننا كنا مؤمنين.. ما كنا فعلنا ذلك.. ما كنا سكنا هناك..

.. ولا وصلنا إلى ما وصلنا إليه..

طاووس على سطح صفيح ساخن

في داخل كل منا طاووس رابض، ينتظر الفرصة السانحة لينفش ريشه ويزهو، يتجول ويتبختر، ويستعرض جماله متباهياً كما لو لم يخلق الله سواه..

في داخل كل منا طاووس رابض، سيسقط في عشق ذاته ألف مرة كل يوم، المرآة ستكون حدود العالم بالنسبة له، وذاته ستكون مركز الكون.. لا شيء سواه يهم في هذا العالم بأسره..

في داخل كل منا طاووس، ولو صغير، لكنه، في الوقت المناسب، سينمو، وسيكبر، وسيطل برأسه قليلاً قليلاً، ومن ثم ينفش ريشه بالتدريج.. ويغطي كل شيء.. كلما وجد الفرصة المناسبة ليفعل..

وعادة ما تكون الطواويس كامنة عند الجميع، لكن ظروفاً معينة عند البعض قد تضعفها لحد القتل نهائياً، وظروف أخرى تجعلها تدخل في سباق يضمر الفرصة المناسبة، وظروف أخرى ستجعل هذه الطواويس بحجم الفيل، يكاد يخنقك، لأنه يستنفد كل الاوكسجين المخصص لك..

يجد هذا الطاووس فرصته الذهبية، عندما تحوز النجاح، عندما تصل إلى قمة ما، عندما تحقق«نصراً ما» عندما تصل إلى هدف كنت ترومه..

عندها يكشر الطاووس عن أنيابه، ويظهر ذلك الحيوان الجميل على حقيقته: يفترسك أنت تحديداً، وليس غيرك..

في داخل كل منا طاووس، سيزاحمه على قمته، وعندما تتربع هناك على المركز الأول، لن تدرك أنه قد احتلها معك.. وأنه ربما سيطردك عنها بهذا..

عند النجاح، عند النصر، عند العُلا، سيطل هذا الطاووس، وسيكون من الحذق والإغراء بأنه سيجعلك لا تنظر إلا إليه - أي إلا إلى نفسك من خلال مرآته.. وسيعميك ذلك عن رؤية أمور مهمة وأساسية: مثل أسباب وصولك إلى قمتك أصلاً..

ولأنك ستكون مشغولاً به وبجماله، فإنك لن تنتبه إلى أن السجادة بدأت تنسحب من تحت أقدامك..

مع كل نجاح، مع كل نصر، هناك طاووس ما يزهو ويتبختر.. والحل هو أن تتصرف معه استباقياً..

★ ★ ★

يحدث هذا دائماً. يجعلنا النجاح نزهو بأنفسنا.. يجعلنا النصر نتصور أنه حكرٌ لنا. يجعلنا التفوق نتخيل أن ذلك سيكون دوماً مرصود لنا..

لذلك، كان لابد.. ويكون لابد.. أن يحدث «شيء ما» يوقف ذلك الزهو..

ويجعل المنتصر، يواجه بعض الحقائق..!

★ ★ ★

وفي عز انتصار بدر، وهو أول انتصار عسكري حققه الجيل الأول، جاءت الآيات لتواجه ذلك الطاووس الكامن الذي كان سيجد كل الفرص في النمو والاستئثار والاحتكار..

كان النصر، الذي تحقق في بدر يستحق أن يتحول أهل المدينة كلهم إلى قبيلة طواويس.. فقد كان ما جرى مفاجئاً، حسب المقاييس المادية المجردة، مقاييس العدّة والعدد، وكان حرياً بمَن انتصر بهذا الشكل، أن يزهو بنفسه، وبإمكاناته، لقد جاءت

قريش من أجل أن تستأصلهم تماماً، كان المسلمين مجرد سكان قرية صغيرة تمردت على التقاليد الجاهلية، وقد جاءت قريش لتنهي التمرد مرة واحدة وإلى الأبد.. لكن الذي حصل كان أن المعادلة قلبت، وأن قريش لم تهزم فقط، بل خسرت أهم قادتها وخسرت ما هو أهم بالنسبة لها: هيبتها أمام العرب..

لا أعرف ظرفاً أنسب للطاووس، لكي يتضخم بالحجم. لا أعرف ظرفاً تشتغل هرمونات النمو فيه أكثر من هذا.. لكنّ..

لكن ينزل القرآن الكريم، ليوقف هذا الطاووس عند حده..

★ ★ ★

﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ قَتَلَهُمْ ۚ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ ۚ وَلِيُبْلِيَ ٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَآءً حَسَنًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٧﴾﴾ [الأنفال].

إنه النصر في بدر..!

ولكن لا أكاليل للمنتصر.. ولا تهاني بالانتصار الساحق. السياق القرآني كله، في سورة الأنفال، سورة ما بعد النصر، يكاد يكون سياقاً تقريعياً مؤنباً – كما لو أن الانتصار ذنب يستحق التأنيب، على العكس من السياق القرآني فيما بعد أحد، في سورة آل عمران، حيث كان السياق العام مهدئاً مثل ضمادة لجرح نازف..

إنه النصر إذا، وهو النصر الأول، وربما الأكثر تأثيراً في المسار كله.. لكن لا أكاليل غار للمنتصر، ولا حتى تهاني.. ولا أي شيء مقارب..

بل هناك ﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ قَتَلَهُمْ ۚ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ﴾ [الأنفال: ١٧].

إذا لا فضل لك في الانتصار: أنت لم تحارب اصلا، لم تكونوا أنتم من قتل المشركين وأنت لم ترم اصلا...و لكنه الله هو الذي فعل كل شيء..

لم الزهو إذن؟

..لم تعتقد أن من حقك القليل من الزهو والخيلاء.. أنت لم تفعل شيئا...فكف عن هذا..

كان المقصود من هذا الخطاب ذلك الطاووس الرابض بالتأكيد، الموجود في الطبيعة البشرية والذي يتحين الفرص..

كان المقصود من هذا الخطاب ايقافه عند حده..ترويضه...قد تصل الامور لحد قتله نهائيا..

كان المقصود من هذا الخطاب مواجهة الطبيعة البشرية بما يجعلها تواجه هذا الطاووس وتنكمش بطريقة لا تترك له الفرصة للتمدد..

★ ★ ★

والذي يلفت النظر في سياق الآية الكريمة أن النص يتحدث عن النصر، بصيغة الماضي..أي أن الآية تتحدث عن فعل «حدث فعلاً» - مضى - أي بعد أن انتهى..لقد حدثت الحرب وحدثت المعركة وحصل القتل وحصل الرمي فعلاً..وبعد أن حدث جاءت الآية لتقول للمخاطبين أن الله هو الذي فعل..

هل كان الأمر سيكون ذاته لو أن المعركة لم تبدأ بعد؟ هل كان سيكون ذاته قبل الفعل؟

ما كان يمكن أبدا أن نتخيل أن الآيات تقول لهم، قبل بدء المعركة بدقائق مثلا،أن الله سيرمي.. وأن الله سيقتل المشركين وأنه سيفعل الفعل كله بالنيابة عنهم..

كان ذلك سيكون بالتاكيد مريحا للمؤمنين- لكنه سيكون مريحا أكثر مما ينبغي.. كان سيكون مثبطا لهمة العزم والتركيز..كان سيجعل الوهن يتسرب إلى إرادة الأداء.. والإتقان..لما كان الأداء جاء بنفس الجودة والإتقان..

لكن الآية نزلت بعد الانتصار..بعد أن بذلوا أقصى جهودهم..لتقول لهم..أن الفعل ليس فعلهم..بل هو فعل الله..

لو أن ذلك سبق، لكان تغيرت أشياء كثيرة من ضمنها نتيجة المعركة..

ويخبرنا سياق الآيات الكريمة، قبل هذه الآية بالتحديد، أن البدريين، كانوا يحاربون فعلاً..ونزل الأمر لهم بوضوح: ﴿فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ ﴿١٢﴾﴾[الأنفال] فالضرب هنا كان فعل أمر موجه إلى الجيل الأول- إلى البدريين..

ولو أن الأمر كان غير ذلك، وكان فعل القتال منسوباً لله، لما احتاجت المسألة أن يأمرهم عز وجل، بالقتال، ولما احتاج الأمر أيضاً أن ﴿سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ﴾ [الأنفال: ٨]، فإن فعله أصلاً لا يحتاج إلى رعب الكافرين، لكن **ضرب المؤمنين للكافرين، في المعركة، كان سيكون أدق، وأقوى، عندما عرفوا أن الله قال** ﴿سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ﴾ [الأنفال: ٨].. **والآية نفسها تشير أيضاً إلى تثبيت المؤمنين** ﴿إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ [الأنفال: ٨]..

ماذا ينفع التثبيت إذا اذا لم يكن لهم دور في الفعل؟

بل إن خبر المدد الإلهي ﴿بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ ﴿٩﴾﴾ [الأنفال] يفسر نوراً بأنه بشرى ومدد معنوي من أجل طمأنينة قلوب المؤمنين ﴿ وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ ﴾ [الأنفال:١٠]..

بل إن كلمة «مردفين» - وهي تصف ملائكة المدد الالهي-و لتي تعني ان الملائكة كانوا ردفا للمؤمنين- أي كانوا خلفهم- في مؤخرة الجيش.. المؤمنون كانوا في مقدمة الجيش وعبء القتال الأكبر عليهم.. مدد الملائكة كان لتقوية الظهر والإسناد..

كل ذلك يعني أن البدريين حاربوا فعلاً - نزلت بعض هذه الآيات أثناء القتال فعلاً، في خضمه - وكانت ترفع الروح المعنوية وتسدد من الأداء..

أما عندما انتهت المعركة، وتحقق النصر، فقد كانت اللهجة مختلفة.. ﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ﴾ [الأنفال: ١٧]..

انتقل السياق من المضارع المستمر، في خضم القتال، إلى الماضي، عند النصر، بعد أن تحقق.. بعد أن صار فعلاً ماضياً.. ذلك أن مقصد كل سياق، مختلف..

★ ★ ★

بين أن يأمر الله بالقتال، في السياق الأول، وبين أن ينفي نسبة فعل القتال لمن أمرهم به - مسافة زمنية قصيرة، هي التي تحقق خلالها النصر..

وسياق القتال، له متطلبات مختلفة: الحرص على قوانين الاداء والإتقان أهمها.. وكذلك روحية الاداء.. أما سياق النصر، فمتطلباته الأولى: تفادي الانزلاق نحو مشاعر الزهو والخيلاء التي تطيح بدرس النصر كله..

سياق القتال يتطلب أن تثير الشجاعة والإتقان والإقدام.. ولكن سياق النجاح والنصر يتطلب أن تقتل ذلك الطاووس الذي قد يقتلك..

لذلك كان، ﴿وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدَامَ ﴿١١﴾﴾ [الأنفال: ٨] في السياق الأول، و﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ رَمَىٰ﴾ [الأنفال:١٧] في السياق الثاني.

★ ★ ★

الزهو عند النصر يجعلك تنخدع بنفسك قليلاً، أو كثيراً.. وتعتقد أن النصر كان من ذاتك، كان شيئاً منفصلاً عن ظروفه التي أدت إليه، والتي لم تكن أنت سوى

الزهو يجعلك تركز على ذاتك كسبب أساسي للنصر، وتغفل عن الأسباب الأخرى، التي قد تكون أكثر أهمية منك: وهن العدو مثلاً، ظروف المكان، التوقيت.. إلخ.. وكلها أسباب مهمة لأي نصر، مثلما هناك أسباب موضوعية لأي نجاح، قد تكون مرتبطة كذلك بأسباب محيطة بالمنتصر.. أكثر مما تتعلق بذات المنتصر، وإمكانياته وقدراته..

الفراغ قد ينتج منتصراً ما من بين مجموعة ضعفاء، ولن يعني ذلك إلا أنه أفضل من الآخرين قليلاً، أو أن ظروفه كانت أفضل منهم.. رغم ذلك، فإنه سيزهو بنصره، وسيملؤه الخيلاء، ولن يرى في المرآة غير ذاته.. بمعزل عن كل الظروف التي أدت إلى النصر..

حتى لو كنت متمكناً من أدواتك، مستحقاً للفوز، فإن الزهو سيفقدك هذه الأدوات، سيجعلك تركز على ذاتك أكثر مما تركز على الأسباب والأدوات التي استخدمتها للوصول إلى ما وصلت إليه.. وسيجعلك هذا عرضة للسقوط.. لمغادرة المكان الذي وصلته..

من أجل كل هذا، كان لابد من إغلاق الباب بوجه الطاووس..

★ ★ ★

تلك الأسباب التي يستخدمها المنتصر للوصول إلى نصره، هي في حقيقة الأمر، وفي بدايته ونهايته، السنن الإلهية، والقوانين التي وضعها الله عز وجل في الكون لتسيير شؤونه، ليصير الكون الذي نعرفه اليوم..

ويشمل ذلك كل شيء، مادياً كان أو معنوياً.. أو مزيجاً من الاثنين.. ويعني ذلك، أن تلك القوانين، مهما كان من سار على نهجها، ومهما كان من يطبقها، تظل قوانين الله، وتظل سننه، ويظل عز وجل، هو «الفاعل» بهذا المعنى.. بمعنى أنه واضع كل السنن التي نستخدمها.. والتي لا نستخدمها ولا نعرفها أيضاً..

الأمر يشبه مع فارق في القياس - وبدون تشبيه - أن أديسون لا يزال موجوداً مع كل مصباح مضيء.. ولذلك فإن القوانين التي تتحكم بالرماية، والتصويب، وهي قوانين وسنن نصفها اليوم بأنها فيزيائية، وعندما تؤدي إلى الموت، في سنن تتداخل بين الكيمياء والفيزياء والأحياء قد تسمى الفسلجة.. فإن كل ذلك بطريقة، أو بأخرى، يعود إلى من وضع السنن في المقام الأول.. أنت لم تفعل سوى أنك استخدمت تلك القوانين.. لذلك لا تغتر كثيراً فيما حققته.. ولا تجعل النصر حظيرةً للطواويس..

★ ★ ★

ولأن للنصر مخاطره وأضراره الفادحة، إذ يجعلك تغفل عن السنن، وتركز على ذاتك، فإن الآية الكريمة ذاتها، التي تنتف ريش الطاووس عنك، تخبرك أيضاً بأن النصر، رغم أنه المطلوب، رغم أنه الهدف، فإنه أيضاً: بلاء..

إنه امتحان هائل، أن تنتصر، وأن تحافظ رغم ذلك على توازنك داخل بقعة الضوء، أن تنتصر، فلا تزهو بنصرك، ولا تشعر بالخيلاء، بل تظل ممسكاً بزمام فهمك للنصر، فهمك أن أسباب النصر لم تكن تعود لشيء فارق فيك، أو لأن النصر حكر لك.. بل بسبب السنن..

وإذا استطعت أن تفعل ذلك، أن تنتصر دون أن ينتصر الطاووس عليك، سيكون ذلك، كما قالت الآية -: ﴿وَلِيُبْلِيَ ٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَآءً حَسَنًا﴾ [الأنفال:١٧]..

وهل يحتاج الأمر أن نذكر هنا إلى أن النصر هنا هو أي انجاز تنجح في تحقيقه، وليس مجرد النصر العسكري..قد يكون نجاحا ماديا... قد يكون نجاحا اجتماعيا.. قد يكو ن فتحا علميا..قد يكون نجاحا في تغيير الناس من حولك..

أمام كل نصر - كل نجاح..يجب أن نقف والآيات التي نزلت بعد بدر في وؤوسنا...

★ ★ ★

خيط رفيع جداً يفصل بين الأمرين.

لكنه خيط مهم جداً. وفاصل وحاسم، ومراعاة هذا الخيط، وفهمه، أمر أساسي من أجل إنجاز النصر - أي النصر، ومن ثم من أجل عدم الوقوع في الفخ الطاووسي إياه..

خيط رفيع جداً يفصل بين مواجهة أي أمر في ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحْفًا فَلَا تُوَلُّوهُمُ الْأَدْبَارَ ﴿١٥﴾ ﴾ [الأنفال] والفعل.. والقدرة على الفعل..

وبين ﴿ فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ ۚ ﴾ [الأنفال: ١٧] التي تعني تجريدك من نسبة الفعل لك..

هذا الخيط -المعجز، هو أن تؤمن بقدرتك، على الفعل، وعلى الأداء، وبقدرتك على التغيير، في أثناء العمل نفسه، في خضم الإنتاج..

عليك أن تؤمن بنفسك، عند الإبداع، عند الإنجاز، وأن تطلب العون الإلهي لك في فعلك، وأن تؤمن أن المدد الإلهي رديف لك، يدفعك ويسندك، ويقويك.. وسيكون ذلك بمثابة أن تحصل على أجنحة إضافية تساعدك على التحليق أكثر في فضاءات الإبداع..

ولكن - ما إن تنتهي من ذلك الإنجاز - عليك أن تنفصل عن ذاتك، عليك أن تكف عن الإيمان بنفسك، تكف عن النظر إلى ذاتك باعتبارها مركز الكون، باعتبارها ذلك المحرِّك الذي حلقت به..

لحظة الانتهاء من الإنجاز.. عليك أن تعود إليه، إلى مسبب الأسباب، إلى الفاعل الأول، بذلك فقط تستطيع أن تتوازن، بذلك فقط تستطيع أن تظل تثمر..

بذلك فقط، تستطيع أن توقف ذلك الوحش الكاسر في أعماقك، الذي قد يبدو للوهلة الأولى طيراً شديد الجمال وشديد الاعتزاز بريشه وألوانه..والذي سيظل يتلوى على سطح صفيح ساخن متحينا الفرص للظفر بك..لكنك مهما حلقت عاليا، فإنه إن ظفر بك سيجعلك تهبط..

إنه طير شديد الجمال..لكنه لا يجيد التحليق..وسيأخذ منك جناحيك..

كل الطرق التي لا تؤدي إلى روما

مدينة كبرى، هي حاضرة العالم في عصرها وزمانها، أسموها عاصمة الدنيا، وكانت مضرب المثل في العمران والبناء والترف والازدهار.. كانت مبانيها هي الأجمل والأكثر حداثة، وحدائقها بمثابة صورة عن الجنة ونعيمها.. كان الناس يتوافدون إليها من كل حدب وصوب، وكانت بضاعتها هي الأجود، وسلعها هي الأغلى، سواء كانت هذه البضاعة قطعة قماش أو طراز ثياب أو فلسفة وكتاب.. كل شيء كان ينتمي لها، كان يكون «الرقم واحد» بلا جدال..

.. كذلك كانت ملاهيها، وملاعبها.. ومعازفها ومغانيها.. كل شيء كان فيها يفوق المدن الأخرى التي كانت ما تلبث أن تحاول أن تنافس، وغالباً ما تكون المنافسة مجردة محاكاة وتقليد.. وليست النائحة كالثكلى، بكل تأكيد.. والأصل يظل أصلاً، والنسخة مجرد تقليد..

.. وكان العالم كله يدور حولها.. ولو إلى حين..

.. لن أقول لكم احزروا اسم المدينة، فهذه ليس أحجية. ما سأكتبه ليس برنامج مسابقات «آخر».

لكن حتى لو قلت لكم احزروا، فعلى الأغلب أن كل إجاباتكم ستكون صحيحة..

ذلك أن هذه المواصفات انطبقت على الكثير من المدن عبر التاريخ.

إنها مواصفات لمدينة بعينها، بل هل مواصفات لمدينة يتغير اسمها وموقعها دائماً..

قد تكون روما. قد تكون بابل. قد تكون أور. قد تكون ممفيس. وقد تكون مدائن كسرى. أو أوغاريت.

قد تكون عاصمة الإمبراطورية التي لا تغيب عنها الشمس..

ومرة أخرى ليس ذلك وصفاً لمدينة بعينها.. وإن اشتهر بها ولصق بها.. لكنه مرة أخرى وصف معين لمدن تتغير..

وفي حواضر التاريخ القريب، والمعاصر مدناً أخرى قد تكون حلاً للأحجية.. باريس، لندن.. موسكو.. نيويورك..

ولو أن الموضوع أعيد مرة أخرى، بعد مائة عام، لأضيفت مدناً أخرى إلى القوائم: ربما بكين.. ربما نيودلهي..

قد تتمنون الآن أن تكون عواصمنا من بينها. لكني لا أنصح بأمنية كهذه الآن. وستعرفون لاحقاً لماذا.

.. الأمر الذي يخفيه الوصف السياحي لهذه المدن، هو الجانب الآخر من الحقيقة، الجانبَ المظلم الذي تحاول «أضواء المدينة» أن تخفيه..

إنه الظلم الذي بني عليه كل ذلك البنيان. ترف الأغنياء وقصورهم ولهوهم كان مبنياً على فقر آخرين وأكواخهم وعوزهم.. حرية الأسياد والنبلاء كانت مرتبطة بعبودية الآخرين وباستعبادهم..

ربما «الآخرون» طبقة تنتمي لنفس المجتمع.. قد يكونون طبقة كبيرة منه، غالبية الشعب، لكن التاريخ لا يذكر شيئاً عنهم، لأن أكواخهم وأحياءهم الفقيرة اندثرت، بينما بقيت قصور الأغنياء وأسواقهم..

وربما كان «الآخرون» شعوباً أخرى كاملة، تم استعبادها ونهب ثرواتها وخيراتها، واستغلال ضعفها واستسلامها، من أجل ثراء سكان القصور، ومن أجل زيادة جبروتهم واستكبارهم..

.. كل ذلك كان يحدث، وأكثر، فخلف الغلاف البراق الزاهي، كانت هناك سلاسل وأغلال ودماء..

لكنك طبعاً لا تتوقع أن يذكر ذلك في نشرة سياحية!..

ولا تتوقع أن يذكر أيضا ان ذلك كله خاضع لقانون ما..

★ ★ ★

﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هَلْ تُحِسُّ مِنْهُم مِّنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا ﴾ ﴿٩٨﴾ [مريم]

أنه قانون شامل وكامل، يضم كل القرى والامم والحضارات الظالمة

.. ورغم أن ذلك لا يذكر عادة، إلا أن بعض عواصم الحضارة الإسلامية، ومراكزها المهمة، كانت ضمن القائمة.. قائمة عواصم العالم - والتي امتلأت ثراء وفساداً فاحشين..

ورغم أن ذلك الظلم كان أقل، مقارنة بغيرها من عواصم العالم، إلا أنه أمر مؤسف.. أنك لا تلوم الظالم الذي بلا قيم ولا مرجع أخلاقي.. أما عندما يأتي الظلم من عاصمة يفترض أنها مركز إشعاع للقيم، مستندة أصلاً على مرجع سماوي.. فذلك أمر مؤسف جداً.. ومخيب للآمال.

★ ★ ★

.. دعونا لا ننجر إلى إنكار أن بعض تلك المدن كانت إسلامية.. فالإنكار لن يجعلنا نفهم لم حصل ذلك.. وفهم ذلك مهم حتى لا يتكرر ذلك.. وتكرار ذلك أو عدم تكراره أمران مهمان ومترابطان بعضهما ببعض.

★ ★ ★

صحيح أن كل مسلم يود أن تكون مدينته «عاصمة» للعالم، لكن، لنكن منسجمين في أمنياتنا ومع إسلامنا، فالعمران الباذخ، والبهرج الكذاب، ومنتجعات يدور فيها ما يدور مما يغضب الله ويسخطه.. كل هذا، قد يبدو في مقاييس الغير أنه «حضارة» و«تقدم» و«إشعاع».. لكن، لنكن صادقين مع أنفسنا.. إنه ليس كذلك بحسب مقاييس الإسلام..

العمران والتطور في مقاييس الإسلام لا يحسب بعدد الطوابق في ناطحة سحاب صممها مهندس مستورد ونفذها مهندسون مستوردون وبنتها أيدي عاملة مستوردة..

العمران والتطور في مقاييس الإسلام لا يعني أن نمتلك أسواقاً فارهة ضخمة، نشتري ونستهلك فيها بضاعة حديثة لم نحاول أن نساهم فيها ولو قيد أنملة..

عاصمة العالم، وحاضرة الدنيا، بالمقاييس الإسلامية، لا تكون عمراناً في المباني والعمارات - فحسب - بل تكون أيضاً عمراناً في القيم، إعماراً في التوازن والعدل..

لا، ليست المدينة الفاضلة على الإطلاق، فذلك أمر لن يبنيه ابن آدم ما دام ابناً لأبيه آدم.. المدينة الفاضلة حديث خرافة، وفلسفة كتب سطرت في برج عاجي، أما المدينة المتوازنة، فهي أمر ممكن.. لن تخلو من العصاة، لكنها لن تخلو من التائبين أيضاً. ولن تخلو من الناس الذين هم«بين - بين».. لكنها مدينة فاعلة ومتوازنة في فعلها، وعادلة مع ناسها وناس غيرها.. مدينة كهذه، ستكون إشعاعاً حقيقياً، لن تكون مع «روما» في قائمة واحدة..

.. وعندما تولد، علينا أن نحميها من أن تكون مثل روما.. علينا أن نحميها من أن تذهب في تلك الطرق، التي تؤدي دوماً إلى «روما»..

«روما» - المدينة الرمز - ظاهرة تتكرر في كل عصر وأوان.. أسماء الأباطرة والقياصرة الذين حكموا روما قد تكون مهمة في تاريخها: أسماء مثل الإسكندر

الأكبر ويوليوس قيصر واوغسطوس ونيرون.. كل هؤلاء ساهموا بشكل أو بآخر في بناء روما.. لكن روما نفسها وكل قياصرتها.. كانت تحت تأثير قانون آخر.. قانون آخر يضم أسباب النشوء والازدهار.. وأسباب الانهيار والانحطاط..

.. روما، قاهرة العالم، التي كان اسمها مرة بابل ومرة ممفيس ومرة نيويورك.. خاضعة لقانون من قوانين الطبيعة..

.. وإن كنا لا ندرك ذلك، للوهلة المباشرة الأولى.

★ ★ ★

.. والقرآن تحدث عن ذلك القانون الذي يشيد روما ومن ثم يهدها مباشرة..

أين؟..

في سورة الروم!..

﴿ الٓمٓ ﴿١﴾ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ﴿٢﴾ فِيٓ أَدۡنَى ٱلۡأَرۡضِ وَهُم مِّنۢ بَعۡدِ غَلَبِهِمۡ سَيَغۡلِبُونَ ﴿٣﴾ فِي بِضۡعِ سِنِينَۗ لِلَّهِ ٱلۡأَمۡرُ مِن قَبۡلُ وَمِنۢ بَعۡدُۚ وَيَوۡمَئِذٖ يَفۡرَحُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ﴿٤﴾ ﴾ [الروم].

تعودنا، للأسف، أن نضع هذه الآيات الكريمات، ضمن سياق حدث تاريخي معين، وهو انتصار الفرس على الروم، ومن ثم انتصار الروم عليهم مجدداً، وهذه الحادثة، تعد سبباً آنياً للنزول.. لكن القرآن في جوهره خارج إطار الزمان والمكان، وإذا كانت الآية قد نزلت ضمن ظرف تاريخ معين، فإن معناها يظل يتجاوز تلك الحادثة.. ليمنح فهماً متجدداً صالحاً لكل زمان ومكان..

الآية الكريمة تتحدث بوضوح شديد عن سنة، عن قانون من قوانين الحراك الإنساني، عن الهزيمة والانتصار، عن الازدهار والانهيار، عن أنهم (غلبوا)- بضم الغين وكسر اللام-، وعن كونهم (سيغلبون) ثانية.. والأمر ليس نبوءة بقدر ما هو تقرير لواقع حضاري..

الروم هنا، ليسوا قوماً بعينهم بالضرورة، إنهم روم كل زمان ومكان، المنتمين لروما - قاهرة الدنيا في كل زمان ومكان، التي تطفو على السطح لفترة، وتزدهر وتبهر بها الدنيا، ثم ما تلبث أن تنكسف، ويحول عليها الحول، وتظهر روما أخرى، روما مختلفة الاسم، وربما اللون والعنصر.. لكنها روما أيضاً.. مدينة البهرج الزاهي التي تخفي خلفها الظلم واللا توازن والزيف..

ولكن لماذا سيفرح المؤمنون بانتصار روما على الفرس، إذا كانت رمزاً لكل ما هو ضد ما يؤمنون به؟..

يسود طبعاً تفسير لهذا الفرح، يدور حول أن الروم يدينون، على الأقل، بديانة سماوية، بريئة طبعاً من كل الظلم والفحش في روما، بينما لا يدين الفرس، بغير ديانة وثنية تعبد النار..

هذا طبعاً سبب وجيه للفرح، لكن لعل هناك أسباب أكثر وجاهة..

منها أن انتصار الفرس على الروم، ومن ثم انتصار الروم على الفرس، أي تداول النصر والهزيمة بينها، وفي بضع سنين، كان يعني أن القوتين منهكتان، وأنهما خرجتا من الصراع وقد استهلكتا، وهذا بحد ذاته، قد يشكل ظرفاً موضوعياً لصعود قوة أخرى، غير الفرس والروم، قوة مختلفة الطبيعة، وتملك قيماً شابة، قيم هي بمثابة المادة الأولية لحضارة جديدة، لا تشبه حضارة روما في شيء..

السبب الآخر.. ولعله أكثر وجاهة.. يتوضح من خلال سياق الآية نفسها، التي تشير مباشرة إلى أن «للهِ الأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ» أي أن «سنة الله» هي التي انتصرت، بغض النظر عن الغالب والمغلوب..

واللحظة التي يتجلى فيها انتصار سنة الله، عندما تنهار روما، وتقوم روما أخرى، هي لحظة نادرة جداً في عصر الإنسان العادي، فقد تولد وتموت في عصر تسود فيه روما واحدة، وتهيمن فيه وحدها على العالم، ذلك أن أعمار الدول أكثر من متوسط

عمر الإنسان.. لكن عندما تأتي تلك اللحظة، وتأتي في حياتك، وترى فيها «سنن الله» وهي تظهر جلية - تخرج من عمق خفائها - لتظهر على السطح بشكل حدث تاريخي مدوي..

إنها لحظة تاريخية بلا شك، لحظة انهيار القوى العظمى.. وبزوغ القوى الجديدة..

★ ★ ★

.. فلنتبه هنا، إلى أن المؤمنين الذين فرحوا، كانوا مؤمنين «بالسنن» ولذلك ففرحهم ليس فرحاً عاطفياً مراهقاً.. إنه فرح ناضج، فيه من الترقب والتتبع.. إنه فرح من يعرف «القانون» عن ظهر قلب.. وها هو يبتسم عندما يرى نتائجه تتطابق مع الواقع..

★ ★ ★

وتعبير «أَدْنَى الأَرْضِ».. تعبير معجز، تعبير طالما استخدم من أجل تحديد الموقع الجغرافي لهزيمة الروم.. لكن هذا التعبير يشير أيضاً، إلى معنى آخر، إنه يشير إلى أن روما - رغم تطاول بنيانها، رغم بهرج بناءها.. كانت في (أدنى الأرض)، إن سلم قيمها كان في أدنى مراتبه، أن تطاول بنيانها، كان يؤدي بها إلى هاويتها.. إلى أدنى الأرض..

في أدنى الأرض غُلِبت روما.. بالتأكيد، ليس في أدنى الأرض، فحسب، بل بسبب أنها كانت في أدنى الأرض.. غُلِبت روما..

★ ★ ★

روما.. تَغلبين وتُغلبين.. يا روما..

في عز انتصارك، تنسين يا روما، أن روما أخرى ستنتصر عليك.. وأنه سيقضي عليك يا روما.. كما قضيت على روما التي سبقتك.. في عز انتصارك يا روما، في زهوة مجدك يا روما، لا تنتبهين إلى ما هو قادم

.. وكيف ستدركين يا روما، وأنت لا تعلمين غير ظاهراً زائلاً من الحياة الدنيا، وعن خواتيم الأمور أنت غافلة..

.. روما، وأنت منتصرة اليوم، في ذروة انتصارك اليوم، أحاول أن أتجرد من الانبهار العابر المريض بك، أو من الكره المنتقم لك.. لأفكر فيك كظاهرة علمية: تنمين، تكبرين، تزدهرين، تَغلبين يا روما، ومن ثم، تنحدرين، تنهارين، تُغلبين يا روما..

إنه عالم السنن الإلهية يا روما. سنن الإله الذي خلق الكون. هل تذكرينه يا روما.. أم أنه مجرد اسم وشعار في عالم مادتك الذي لا ترين غيره..

تلك السنن يا روما، هي علة هزيمتك القادمة، كل طرقك، لا يمكن أن تؤدي إلا إلى مكان واحد..

في أدنى الأرض يا روما..

صورة لبطاقة شخصية

يوماً ما، في حياتك، سيفاجئك وجهٌ ما في المرآة.. ستقف عنده، وأنت تدرك أنه وجهك، لكنك لوهلة، ستسأل نفسك، وقد تسأل الوجه أمامك: هل هذا أنت حقاً؟..

يوماً ما، في حياتك، بين الثلاثين والأربعين، عندما يكون ما قد ذهب من عمرك، على الأكثر، أكثر مما سيأتي، ستقف لتشاهد وجهك كما لو أنك تراه للمرة الاولى..

سيداهمك شعور غريب، كما لو أنه ليس الوجه فقط هو الذي تراه لأول مرة.. بل الشخص خلف الوجه أيضاً.. كما لو أنك تتعرف على هذا الشخص، الذي هو أنت، لأول مرة..

يوماً ما، في حياتك، وأنت تقف أمام المرآة، ستدرك أنك قد استنفذت الحد الأعلى من خياراتك، وأن كل شيء، من الآن فصاعداً، سيكون أقل.. وأقل.. وأقل..

يوماً ما في حياتك، ستلاحظ أن الزمن بدء يترك بصماته على ذلك الوجه في المرآة، ربما لا يكون ذلك واضحاً جلياً للجميع، لكن ها هو الزمن، الذي كنت تعتبره حليفاً إلى قبل فترة قصيرة، ها هو يتخلى عنك.. ويترك «نذره» كما لو كانت توقيعاً على وجهك..

يوماً ما في حياتك، مهما كان نجاحك كاسحاً، أو فشلك كسيحاً، ستقف أمام المرآة، وسيداهمك ذلك السؤال الصعب: **هل هذا هو الشخص الذي كنت تريد أن تكونه قبل عقد، أو أكثر من الزمان.. عندما كنت أول الطريق.. أول شبابك؟**

مهما كابرت، مهما أنكرت، مهما كنت قد حققت، وأنجزت، مهما كنت تحب أولادك، وأسرتك.. فإن ذلك كله لن يشبه ما كنت تريد أن تكون عندما كنت لا تزال في البداية..

ذلك الوجه في المرآة، سيقول لك بلا مجاملة إنك ابتعدت كثيراً عما أردته.. وإن إنكارك لذلك محض مكابرة.. وإنك لو التقيت بذلك الشاب الذي كنته لأنكرك ولرفض الاعتراف بك.

يوماً ما في حياتك، سيكون كئيباً، لا لشيء، إلا لأنك التقيت بشخص ما في المرآة.. وكنت على وشك ألا تعرفه..

★ ★ ★

نستطيع أن نعالج هذه الكآبة سويةً، بمجموعة من الضمادات النفسية، سيكون أهمها، أن نتساءل، وأن نشكك، بأهمية مارسمه شاب، في أول شبابه، لصورته بعد عشر سنوات وأكثر؟.. ربما يكون غراً حالماً.. وتكون الصورة التي في ذهنه كذلك.. بينما حقيقتك اليوم أكثر واقعية.. وأكثر إيجابية في الوقت ذاته..

صحيح. سأوافق. سنوافق. ويوماً ما في حياتك ستشيح بوجهك عن الوجه الذي في المرآة، وستقول لنفسك إن هذه كانت مجرد أحلام شباب.. وانتهت..

★ ★ ★

المشكلة الحقيقية ليست هنا..

فإذا كنت قد أصبت باكتئاب عند رؤيتك للتناقض والاختلاف بين ما أردته أن تكون، قبل عقد أو عقدين من الزمان، وبين ما أنت عليه فعلاً الآن.. فالمشكلة ستكون أكبر، وأكثر مدعاة للكآبة، إذا قارنت بين ما أنت عليه الآن.. وبين ما كان يجب أن تكونه..

لا أقصد ما أردت أنت أن تكون..

بل أقصد ما (أُريد) منك أن تكون..

أقصد (المراد) أصلاً، من كونك.. من أن تكون على الإطلاق..

★ ★ ★

أي فجوة تعتقد ستكون أكبر: الفرق بين صورة رسمتها لنفسك في خيالك، وبين حقيقة واقعك الآن..

أم صورة أخرى، لواقع مختلف، وشخص كان يجب أن تكونه..شخص كان يجب أن لا يترك سدى...

لا ضماد نفسياً هنا يمكن أن ينفع..للأسف!

★ ★ ★

﴿ أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى ﴿٣٦﴾ ﴾ [القيامة].

الأمر هو أننا قلّما نفكر بالأمر من هذه الزاوية..

نرسم لأنفسنا أهدافاً، ونادراً ما نحققها، وقد نتحسر على ذلك، ونقضي الوقت في البكاء أو التباكي على ذلك، أو إعادة الكرة، ومحاولة تحقيقها من جديد.. ومن جديد.. إلى أن تنتهي كل فرصنا.. ويكون الوقت قد فات لأي شيء..

لكننا لا نحاول أن نعيد تقسيم أهدافنا المرسومة.. لا نحاول أن نعيد النظر فيها.. إننا نقرر أن حق رسم الأهداف هو حق شخصي ومكفول لنا وحدنا، كما لو أننا «نملك» أمرنا كله.. كما لو أن الأمر لا يخص أحداً غيرنا..

ستقولون إننا نحن فعلاً من نملك ذلك؟.. وليس لأحد حق الوصاية علينا.. أو على أحلامنا..

هذا صحيح. ولكنه صحيح إلى ما حد ما، إنه صحيح عندما يتعلق بالمجتمع، بالعائلة، بالمؤسسات التي غالباً ما تدعي أنها تعرف ما هو أفضل بالنسبة لنا، وغالباً ما تكون لا تعرف الصواب من غيره، حتى بالنسبة لها..

لكن هذا ليس صحيحاً بالمطلق..

لا نملك الحق بالتصرف التام في رسم أهدافنا..

نملك أن نسيء التصرف، وأن نسيء رسم الأهداف، وأن نفشل، وأن ننجح في تحقيقها..

لكن «الحق» شيء آخر.. ونحن لا نملكه..

★ ★ ★

كيف؟.. ستقولون.. كيف لا نملك الحق في رسم ما نريده لأنفسنا ونحن أحرار؟..

عفواً أستميحكم عذراً.. أستميح كل ما حُشِيَ في رؤوسنا..

لسنا أحراراً..ليس لهذه الدرجة..

إننا عبيد.. عبيد لخالقنا..

أم أننا نسينا ذلك؟..

★ ★ ★

ولأننا عبيد له، عز وجل، فإننا ملزمون بأهدافه، جل وعلا، من خلقنا..

الأمر يشبه، بلا تشبيه، أن تكون قد استُقدمنا إلى هذا العالم من أجل وظيفة معينة، لكننا قضينا وقتنا - المحدود - أصلاً، في كل ما يخطر، وما لا يخطر، في البال، من وظائف اخترعناها نحن، ولم يكلفنا أحد بها غير أننا قررنا أنها هي ما قد جئنا من أجله..

الذي حصل.. أننا اعتبرنا أن أهدافنا - التي غالباً ما ألقمنا إياها عبر المجتمع - الذي ندعي أننا أحرار منه وأن لا وصاية له علينا، لكنه في الحقيقة قد كرس فينا أعمق أغلالنا.. فكل أهدافنا - غالباً - تكون انعكاساً لما زرعه المجتمع فينا من أولويات وأهداف.. وغالباً تدور هذه الأهداف حول المزيد من المال، المزيد من المركز الاجتماعي، المزيد من الوجاهة.. إلى آخره..

لا نحقق جميعاً هذه الأهداف. بل إن بعضنا يفشل فشلاً ذريعاً. المشكلة ليست هنا..

المشكلة أنها ليست الأهداف التي جئنا إلى هذا الكوكب من أجلها..

★ ★ ★

كان ذلك هو أهم ما فاتنا من دروس على الإطلاق.. أهم ما فاتنا فهمه.. وبالتالي فاتنا تطبيقه.. بل فاتتنا حتى محاولة تطبيقه..

لم ندرك أن هناك مقصد وهدف من كل هذا، قالوا لنا أشياءً هنا وهناك، ولم تكن مقنعة تماماً، ولكننا لم نجرؤ أن نقول ذلك، فتظاهرنا بالاقتناع، وجعلنا ما قيل أنه الهدف يتماشى، جنباً إلى جنب مع أهدافنا التي رسمناها نحن.. والتي علمنا إياها المجتمع..

وهكذا أقنعنا أنفسنا أن لا خرق ولا تناقض، لكننا نعلم جيداً ما قيل لنا أنه الهدف من خلقنا، يأتي في المراتب الأخيرة لأولوياتنا حتى لو كنا نقول غير ذلك، حتى لو كنا نصر عليه..

★ ★ ★

كل شيء في حياتنا كان قد حصل كما لو أنه لا مقصد هناك في هذه الحياة..

لا هدف «نهائي».. لا هدف محدد ومسبق، جئنا من أجله إلى هنا..

كل ما تراكب في أذهاننا ورؤوسنا من أهداف، كان في الحقيقة، لا علاقة له بالهدف المسبق، بل هي مجرد أهداف مرحلية، تتعلق ببيت نمتلكه، أو رصيد نحاول جمعه، أو نحاول تضييعه، أو نعتبر أن الهدف من وجودنا كله هنا على هذا الكوكب هو أن نقضي وقتاً ممتعاً..

.. لا أكثر، ولا أقل..

★ ★ ★

الأمر هو أن، الإنسان، عندما يتخلى عن إيمانه بوجود مقصد ما، لا في وجوده هنا فحسب، بل في كل شيء يفعله هنا، يتخلى عن إنسانيته نفسها.. يتخلى عن هويته الإنسانية فالإنسان وحده، من بين كل مخلوقات هذا الكوكب، يرتبط وجوده بالهدف والمقصد..

كل مخلوقات الله لها هدف من وجودها، من النملة إلى الفيل، لكن الهدف من وجود بقية الكائنات لا يرتبط بإرادتها الحرة، بل هي تؤديه بشكل غريزي، غير مدركة لما يجب عليها فعله، الذبابة تؤدي دورها في التوازن البيئي، وهو الهدف من وجودها، دون أن تدرك أن علينا أن تفعله.. إنها تفعله فحسب..

كذلك كل المخلوقات الأخرى، تؤدي دورها، مهما كان، فقط بمجرد الوجود.. بل إن بعضها يؤدي دوره بمجرد أن يموت، فيصير غذاءً لهذا المخلوق الذي هو سيد المخلوقات.. والذي يتميز عنهم جميعاً بأن إرادتهم الحرة - وحدها - هي التي تجعله ينفذ الهدف من خلقه.. رغم أنه نادراً ما يفعل ذلك..

إلا أن إمكانية فعل ذلك تظل قائمة..

وعندما يتجاهل الإنسان الهدف والقصد من وجوده، ومن كل ما يفعله، فإن هويته الإنسانية يتم إسقاطها بشكل آلي.. يتم حرمانه من جنسيته، لا الطبقة المنتمية إلى بلد الولادة والسكن.. بل تلك التي تشير إلى انتمائك إلى الجنس الإنساني كله..

وربما تكون قد حصلت على بضعة جنسيات، من تلك التي تجعل موظفي المطارات يقفون لك احتراماً عندما تبرز جواز سفرك، ناهيك عن فتح أبوابهم لك..

ربما تكون قد حزت على جوازات سفر، بطاقة شخصية، تجعلك مواطناً عالمياً من الدرجة الأولى، وبامتياز..

لكنك في خضم ذلك، ربما تكون قد غفلت أن جنسيتك الإنسانية قد تم إسقاطها نهائياً..

* * *

وعندما يتم إسقاطك من جنس البشر، فإنك تدخل في سجلات نوع آخر، ويتم إصدار هوية خاصة بك، حتى لو لم تقدم طلباً بذلك..

إنها أسهل هوية ستحصل عليها على الإطلاق.. بلا رسم يدفع مسبقاً وبلا طابع وبلا واسطة ولا رشوة ولا تملق للموظفين..

إنها هوية حيوانية طبعاً..

* * *

لكن الإنسان الذي يفقد هويته الإنسانية، لا يحصل على انتماء للنوع الحيواني بأسره..

بل إنها هوية محصورة بحيوان واحد فقط..

فبعض البشر، ممن كفوا عن أن يكونوا بشراً، سيسعدهم جداً أن ينتموا لبعض الحيوانات..

لكن لا خيار في هذا.. لن تكون نمراً أو فهداً أو طاووساً أو حتى كلباً مدللاً..

ستكون شيئاً آخر: ستكون ناقةً مهملة.. مسيبة.. ناقة كفت عن أن تكون مفيدة.. صارت بلا فائدة من أي نوع.. وجد مالكها أن كلفة الاحتفاظ بها ستكون أكثر من أي فائدة مرتجاة منها.. ففضل أن يتركها.. أن يهملها.. أن يتركها تسرح في الأرض، بعيداً عن قطيعه الذي يحرص عليه.. دون أن يحاول المطالبة بملكيتها.. إنها لا تساوي حتى هم ذلك..

مجرد حيوان كبير وضخم بلا أي فائدة، كف عن أداء أي دور، يستهلك من الأوكسجين والغذاء أكثر مما يقدم.. يحتل حيزاً من الأرض - دون أن يساهم في المقصد من وجوده.. مجرد ناقة مهملة.. هذا هو ما يصيره الإنسان الذي كفَّ عن أداء دوره.. حتى لو كان ناجحاً جداً في أداء أدوار أخرى.. لم يسندها أحد إليه..

★ ★ ★

تشبيه مفجع ومخيف.. لكن من أين تجيء بهذا الكلام؟..

ليس من جيبي، ولا من خيالي.. إنه، ويا للهول، من القرآن..بل من الآية التي مرت

﴿ أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَـٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى ﴿٣٦﴾ ﴾ [القيامة].. وتلك الناقة المهملة التي صارت بلا فائدة ولا هدف، هي بالذات ما تعبر عنه كلمة (سدى).

هل حسب الإنسان أنه سيكون مثل تلك الناقة التي تركها مالكها؟.. وهل هو إلا كذلك، حتى لو كان ناجحاً جداً، في شتى المجالات، ما دام لم يخلق من أجل أي منها..

هل حسب الإنسان أنه مجرد ناقة مهملة، تفعل ما بدا لها، ويبقى إنساناً؟.. السؤال هو، هل يتصور أنه قد خلق لكي يكون قيمة مهملة، مجرد كمّاً زائداً لا وزن له ولا سعر ولا أهمية في هذه الحياة، ليس بمعايير الناس السائدة، بل بمعايير ما قبل الخلق..

★ ★ ★

يوماً ما في حياتك، سيداهمك ذلك الشعور بأنك لا شيء.. بأنك لم تحقق أي شيء مما كان يجب أن تحققه ابتداءً منذ أن خلقت، لا ما فكرت فيه فقط يوماً عندما كنت غراً وفي أول شبابك..

يوماً ما في حياتك، ستمتلئ بغم لا حدود له، لأنك ستشعر أنك لم تنفذ ما كان يجب أن تنفذه.. مرة واحدة، أو مرتين، إذا كنت محظوظاً جداً.. سيداهمك هذا الشعور، أقول إنك ستكون محظوظاً به، لأن مجرد هذا الشعور، ولو النادر، سيكون دليلاً على أنك لم تمت تماماً.. وأن الإنسان فيك لا يزال يحاول أن يتشبث بهويته.. ويرفض أن يكون ناقة مهملة..

مرة واحدة، أو مرتين، سيداهمك ذلك الشعور الغامض، وستشعر بالرغبة في العودة إلى صورتك، لا قبل عقد أو عقدين، عندما كنت في أول شبابك، قبل أن يترك الزمن بصمته على وجهك.. بل صورتك الأبعد والأقدم. صورتك التي لم ترَها أصلاً.. والتي لم يلتقطها لك أحد.. إنها صورتك يوم كنت جنيناً، في بطن أمك.. هناك، وفي ذلك المكان والزمان، حيث كان الهدف من خلقك ومن وجودك قد تحدد، وليس في أي وقت آخر..

صورتك تلك، التي تشبه صور غيرك من البشر إلى حد التماهي، هي التي ستقرر إن كنت ستنضم إلى قطيع إبل مهمل بكامله، أم ستكون مجرد نطفة أخرى بين النطف، أم أنك ستحدث خرقاً، وتحقق ما خلقت من أجله..

هل ستنظر إلى وجهك في المرآة، وتقول إن الوقت قد فات، وأن ذلك كله يمكن أن يكون لو أنك عرفت مبكراً بوجود هدف ومقصد..

نعم، ستقول ذلك، والقرآن يعرف أنك ستقول ذلك.. لذلك فهو يعاجلك: ﴿ أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَن يُحْيِيَ ٱلْمَوْتَىٰ ﴿٤٠﴾ ﴾ [القيامة] ليس مهماً كثيراً أن تسرع لتقول هنا «بَلَىٰ» ﴿ وَأَنَا۠ عَلَىٰ ذَٰلِكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٥٦﴾ ﴾ [الأنبياء].. بل أن تنتبه أنك أنت أولى بالحياة من الموتى.. وأنه إذا كان بعث الحياة في الموتى ممكناً، فالأولى لك، أن تبعث إنسانيتك، أن تبعث حياتك الحقيقية التي خلقت من أجلها..

لم يفت الأوان بعد مهما كان عمرك.. فقط تذكر أن ذلك الرجل الذي غير العالم، لم يكن يعرف أنه سيفعل ذلك، إلى أن بلغ الأربعين.. صلوات ربي وسلامه عليه..

★ ★ ★

الإقامة خارج الأوقات الخمسة

تعود إلى بيتك منهكاً، لا تكاد تدخل حتى تسرع إلى سريرك وتلقي بنفسك عليه.. لا تقوى حتى على تغيير ملابسك.. لعله كان يوماً مرهقاً، أكثر مما هو معتاد.. ولعلك أضعت وقتك ذات اليمين وذات الشمال، إلى أن وصلت إلى هنا، على السرير.. ولا تكاد تقوى حتى على فتح عينيك..

قبل أن تنام تماماً، ستتذكر شيئاً، ستتنبه إلى شيء كالشوكة في رأسك، شيء يمنعك من النوم.. شيء يجعلك، رغم نعاسك لا يمكنك أن تواصل السير نحو النوم..

ما هو؟

إنك لم تصلِّ.. انشغلت، نسيت، فاتك الوقت، ثم ها أنت على السرير.. وأنت لم تصل..

لكن عدم صلاتك تؤذيك.. وتمنعك من النوم..

بعد جدل، وتوسل، ووعود من جانبك للشوكة، إنك ستصلِّ لاحقاً، سينتهي الأمر إلى أن تتعكز على ما بقي من قوتك.. تقوم عن السرير.. وتصلِّ..

إنه أمرٌ عظيم. وجديرٌ بأن تهنأ بنومك بعدها..

لكن لا تفرح كثيراً..

فالصلاة لها أهدافٌ أخرى: غير أن تنام براحة.. وإقامة الصلاة، أمر أكبر بكثير، من أن تقوم من فراشك، ذات ليلة كنت مرهقاً فيها.

★ ★ ★

.. ليس غريباً أبداً، أن القرآن الكريم، وهو يعيد تشكيل الإنسان، والمجتمع، لم ينص أبداً على الأمر بالصلاة، بالصيغة المجردة، «صلِّ» مع استثناء واحد وحيد، يخاطب الله سبحانه وتعالى رسوله الكريم: ﴿ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ ۝٢ ﴾ [الكوثر].

أما عموم الآيات التي تحث على الصلاة، فهي لا تأتي إلا مع كلمة (الإقامة).

إنها إقامة الصلاة.. دائماً، وأبداً، لا توجد (صلاة) وحدها، بدون (إقامة الصلاة)..

لماذا يا ترى؟.. ربما لأنه لا معنى للصلاة - لا مقصد متحقق منها - إذا كانت مجرد صلاة.. (بلا إقامة للصلاة..!).

والسؤال الذي يجب أن نوجهه إلى أنفسنا، هو، ببساطة، يتعلق بما نفعله عندما نقف لنصلي..

هل هي مجرد صلاة.. أم إنها إقامة صلاة؟!..

★ ★ ★

تعبير (إقامة الصلاة)، صار أكثر من مجرد كلمتين أدمجتا في خضم الآيات الكريمة لتعبر عن حالة خشوع في الصلاة..

الأمر أكبر بكثير، وليس هذا تقليلاً من شأن الخشوع.. ولكنه بالتأكيد تقليل من مفهومنا الجامد الذي يحصر الخشوع في ذرف الدموع بغزارة..

إقامة الصلاة، أمر أكبر.. وأعمق وأوسع.. خاصة، لو أننا عدنا بالذاكرة قليلاً، وتذكرنا، أنها كانت مرتبطة بإقامة مجتمع!!.

★ ★ ★

والتدقيق التاريخي، في البحث عن الزمن المحدد الدقيق، لوقت نزول الأمر بإقامة الصلاة، أمرٌ غير ممكن - من الناحية العملية.

لكننا نعرف، أن الصلاة بأوقاتها الخمسة المكتوبة، لم تفرض على المسلمين، إلا بعد الإسراء والمعراج، أي في وقت ما، قبل الهجرة بسنتين أو ثلاثة..

كانت هناك صلاة بشكل ما وبهيئة ما، طبعاً، في السنوات العشرة الأولى من البعثة.. لكن فرضها في مواقيت معينة ارتبط بالإسراء والمعراج.. قبل الهجرة بسنتين أو ثلاثة.. أي قبل المباشرة في بناء المجتمع المسلم في المدينة..

عفواً، (إقامة المجتمع)..

★ ★ ★

إقامة الصلاة إذا ، كانت خطوة سابقة، محتمة، لإقامة المجتمع، وبنائه.. بل هي، بهذا المعنى، أكثر من مجرد خطوة تمهيدية.. إنها جزء من عملية البناء الاجتماعي ككل، [illegible]امة الصلاة، جزء من عملية إقامة المجتمع، وكونها قد سبقت - بخطوة - الشروع [illegible]لي في بناء المجتمع يؤكد أهميتها في عملية البناء ككل..

عدم وجود (إقامة للصلاة)، أو كونها مجرد صلاة، بلا إقامة لها، سيعرقل عملية البناء ككل.. وقد يقتلها في مهدها، بل حتى قبل أن تولد..

لكن ما معنى إقامة الصلاة أصلاً؟.. ما معنى الربط المستمر الدائم بين الصلاة وبين الإقامة.. حتى صارت الكلمتان مرتبطتين تماماً؟..

حسب النظرة السائدة، فإقامة الصلاة مرتبطة بالحرص على وقتها، وعلى حسن أدائها، وخصوصاً على الخشوع وعلى حضور الذهن خلالها.

.. وكل هذا مهم، وأساسي، ولا نقاش في أهميته..

لكن من قال إن الإقامة هي فقط ذلك؟..

ربما هي أكثر من ذلك..

وربما كل ما سبق، هو مجرد تفاصيل تمهيدية، لا غنى عنها - بالتأكيد - للدخول في معنى الإقامة الأصلي..

★ ★ ★

ترى كثيراً، أناس يؤدون الصلاة، ويحرصون على وقتها، وعلى هيئاتها، لكنهم في الوقت ذاته، يرتكبون ما لا يليق بهذه الصلاة..

لا أقصد طبعاً أن نتهمهم بالنفاق، كما لا نقصد طبعاً أن نفترض أن المصلي يجب أن لا يخطئ أبداً، رغم أن بعض المتصيدين للدين، يعمدون إلى ذلك.. إنما أقصد، أن أخطاءَهم ليس مجرد زلات هي جزء من الطبيعة البشرية، بل هي تتعلق بنمط حياتهم ككل، ربما بسلبيتهم، ربما بعملهم، أو ربما بلا عملهم، بعموم سلوكهم..

أو ربما، بشكل عام، بكل حياتهم..

هؤلاء، رغم صلاتهم، ورغم حرصهم على أوقاتها، وعلى هيئاتها، إلا أنها لم تفعل شيئاً لهم.. لا شيء في حياتهم يدل عليها، إلا ذلك الوقت الذي يقضونه فيها.. لكن صلاتهم لم تفعل شيئاً لهم.. لم (تقم) بشيء.. لم تؤدِّ دورها..

إنها غير فاعلة - لذلك، فهي غير قائمة!..

★ ★ ★

وهذا يعني، أن الصلاة التي تحقق شروط (الإقامة)، هي الصلاة التي (تقوم) بمهمتها، التي تحقق المقصد من أدائها، إنها الصلاة التي (تفعل) شيئاً ما لمصليها..

إقامة الصلاة، بهذا المعنى، ترتبط، بما بعد الصلاة، وما بين الصلاة، وما قبل الصلاة.. ولا يرتبط فقط بوقت أداء الصلاة.. إنه الوقت، خارج أوقات الصلاة الخمسة، هو الذي يحدد، إذا كان ما نفعله، عندما نصلي، إقامة حقيقية للصلاة، أو مجرد نقرات، نحاول أن نركز فيها مقياساً، كما لو كانت تمريناً للتأمل.. أو اليوغا.. يعتبر ذرف الدموع فيه على أنها حققت أقصى المنى..

وهو مقياس، يستحق أن نبكي عليه، عندما نتذكر مقياس إقامة الصلاة الأول، الذي أقيم على أساسه المجتمع..

★ ★ ★

للأسف، سيكون هناك من يستغرب من ذلك الطرح كله.. من وجود مقياس لإقامة الصلاة، من أن تقوم الصلاة بدور ما، أن يكون لها هدف على الإطلاق، غير هدف أداء الفريضة نفسها، وطلب المغفرة، وتكفير الذنوب ما بين صلاة وأخرى..

طالما عوملت الصلاة، على أنها من أجل ذلك فقط، لأهداف أخروية محضة، لا يمكن التحقق منها على الإطلاق، لأنها عند علم ذاك الذي يعلم وحده ما في القلوب وما في الصدور..

لكن للصلاة أهداف دنيوية أيضاً، هذا إذا سلمنا أصلاً بوجود تمييز حقيقي بين الدنيا والآخرة، فالدنيا هي مزرعة الآخرة، ونجاحنا في تحقيق الأهداف الدنيوية، هو الطريق الوحيد الذي نعرفه، لتحقيق الأهداف الأخروية..

لكن ما هي الأهداف الدنيوية للصلاة التي يكون تحقيقها ذلك الحد الفاصل بين إقامة الصلاة.. وبين عدم إقامتها؟..

بل هل هناك من سيسأل: هل هناك شيئاً كهذا أصلاً..

لن نستغرب، ولعلهم هم سيستغربون..

★ ★ ★

رغم استغرابهم، إلا أن للصلاة دوراً، بل وأدواراً عديدة.. ذكرت في النص القرآني.. وليس حصرها هنا وارداً.. ولكن على سبيل المثال..

الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر.. إنها تقوم إذا بوظيفة الضمير الاجتماعي، الرقيب الجماعي، الذي يطل خمس مرات في اليوم والليلة، ليراقب كل الوقت خارج الأوقات الخمسة.. والفحشاء والمنكر، التي تنهى الصلاة عنهما، ليست مجرد الزنا

ومقدماته، والخمر.. وما يشبهها.. الفحشاء قد تكون أيضاً ظلماً اجتماعياً فاحشاً، والمنكر قد يكون واقعاً سلبياً شديد التدني ويستحق الإنكار.. ليس الشاب الذي يقضي وقته في ملاعبة غرائزه يستحق أن تنهاه صلاته عن ذلك وحده، بل أيضاً الشاب الذي يكتفي بأن لا يفعل شيء، بل يقضي الوقت - بين صلاة وأخرى - في بطالة منكرة وعطالة فاحشة.. ويخفي ذلك كله خلف شعار انتظار الصلاة والاستسلام لإرادة الله وقضائه وقدره..

الفحشاء والمنكر، ليستا مجرد (أفعال) سيئة يجب أن نتوقف عنها، وعلى الصلاة الحقة أن تنهانا عنها..

الفحشاء والمنكر أيضاً، حالة (عدم فعل)، اقترافها قد يكون أكبر من أي ذنب نفعله..

★ ★ ★

والصلاة الحقة، تحول مؤديها، من مجرد أشخاص عادين، من المسجد إلى البيت ومن البيت إلى المسجد، إلى أشخاص مصلين، إيجابيين، يقومون، بالإضافة إلى الخطوات بين المسجد والبيت، بخطوات نحو إصلاح المجتمع، خطوات في العمق، تغوص نحو أسس المجتمع، التي قد تكون تحتاج إلى إصلاح جذري.. إنهم مصلحين.. ليسوا مجرد وعاظ، ليسوا مجرد متحدثين، وإن كان الوعظ قد يصلح، والحديث قد يساهم في الإصلاح، لكنهم مصلحون بالمعنى الأعم والأشمل.. مصلحون بكل ما يتطلبه ذلك..

﴿ وَٱلَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِٱلْكِتَـٰبِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُصْلِحِينَ ﴿١٧٠﴾ ﴾ [الأعراف]، أجر الصلاة هنا لم يكن أجراً للصلاة المجردة، للصلاة الشعيرة، التأمل الذهني في دقائق الصلاة، بل كان من أجل إقامة الصلاة، من أجل تحقيق أهدافها.. من أجل الإصلاح..

★ ★ ★

———

ولكن لماذا نرى مصلين، ومساجد ملآنة، وآذان يصدح؟ ولكن لا نرى أهدافاً متحققة للصلاة؟.. لا نرى مجتمعاً قد انتفع بكل ذلك؟.. بل على العكس، نرى، مجتمعاً يكاد يكون العكس من كل ما أراده الكتاب، وأرادته الصلاة، عندما فرضت.. والسؤال هو لماذا؟..

* * *

عندما تتناول وجبة طعام صحية، مليئة بالمقويات والفيتامينات، فإن جسمك يأخذ الفوائد كاملة من هذه الوجبة، حتى لو كنت لا تدرك أي شيء عن أهمية هذه الوجبة وفوائدها – خلاياك تقوم بالعمل دونما الحاجة إلى أن يشرح لها أحد أهمية ما تقوم به..

مع الصلاة، وإقامة الصلاة، الأمر مختلف.. لن تقوم الصلاة بدورها وفاعليتها في المجتمع، ما لم تكن مدركاً تماماً لهذا الدور، أو على الأقل للخطوط العامة العريضة له..

إذا اعتقدت أن أهداف الصلاة، هي أخروية فقط، فإنك لن تنتبه إلى أن أهدافها «الأرضية» لا تتحقق، لأنك لم تعلم أن هناك أهدافاً أرضية بالأصل، وسيكون تركيزك دوماً على الهدف الأخروي، الذي ربما لن يتحقق أصلاً إذا أغفل الهدف الأرضي.

* * *

وإذا قيل لك: إن للصلاة فوائداً أرضية، مثل الشعور بالراحة النفسية، أو الحصول على اللياقة البدنية، كما يقال أحياناً، فإنك ستبحث عن هذه الفوائد، وقد تحققها أحياناً، ما دمت قد وضعتها في ذهنك..

أما «المسكوت عنه» من الوظائف الاجتماعية، التي تمثل الإقامة الحقيقية للصلاة، فإنها تعامل، في أحسن الأقوال كما لو كانت مجرد زيادة خير.. مجرد شيء زائد.. لذلك فإنه يفتقد إذا لم يتحقق.. وغالباً ما لن يتحقق ما دام قد عومل على أنه كذلك..

* * *

وأهم ما هو جوهر في جوهر الصلاة، أنها تنزع عنك شعورك بالوحدة.. سواء كنت وحيداً باختيارك أو بغير اختيارك، فإن الصلاة تقتحم عليك خلوتك، تكسر قوقعتك، لتضمك إلى «الجماعة»، لتكسر حواجز الذات، لتقتحم جزيئاتك، جزيئات «الأنا»، وتذيبها في «النحن»..

«الأنا» في «النحن»، هذا هو ما تفعله الصلاة، ما تهدف إليه، في أعمق أعماقها، في إقامتها للمجتمع..

كيف يحدث ذلك؟ ليس عبر صلاة الجماعة فقط، على أهميتها، بل في الصيغة التي ستتحدث بها، وستكلم ربك، ولو أنك وحدك، ولو أنك مجرد«واحد»، إلا أنك ستحدثه بصيغة الجمع: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝ اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ۝﴾ [الفاتحة]، لن تتغير هذه الصفة أبداً، لن يحصل شيء ليغيرها، ستظل تتحدث كما لو أنك تمثل جماعتك بأسرها، كما لو أنك تعلن عن انتمائك للجماعة.. في كل مرة تقف بين يديه.. سبعة عشر مرة في اليوم!. هل يمكن إلا أن يقوم مجتمع من هذا الانتماء؟ هل كان يمكن إلا أن يكون ذلك مقدمة حتمية لنتيجة حتمية: هي بناء ذلك المجتمع الذي كان؟

★ ★ ★

كانت «إقامة الصلاة» هي بمثابة تكوين العمود الفقري للمجتمع.. قيد التكوين والإنشاء.. والعلاقة بينهما تظل قائمة، فأنت لا تتخلى عن عمودك الفقري، حتى بعد أن تتعلم المشي والاستقامة.. وكل ما يمسه بسوء أو ضرر، سيمس بناءَك كله..

هكذا كانت الصلاة القائمة، الصلاة التي تحقق مقصدها..

لذلك، فقد كان المجتمع، يومها، قائماً..

ولذلك أيضاً، فمجتمعنا اليوم، يكاد يكون غير موجوداً لأننا راكمنا أشياء كثيرة..

لكننا نسينا العمود الفقري!

★ ★ ★

وأحياناً سيزعجك زحام المصلين، وتزاحمهم..

ستقول: إن هذا الأخ عن يمينك يبالغ في الالتصاق بك، وإن قدم الآخر آذتك، وستتذمر من سوء التهوية في المكان بسبب أنفاس الجميع.. وستقول إن ذلك كله يؤثر على خشوعك وتركيزك في الصلاة.. معك حق، الأمر يؤثر على ما فهمته من أمر الخشوع، لكن هل فكرت أن تقبلك للآخرين، وتحملهم، على ما هم عليه، هو من أهم مقاصد الصلاة؟

هل فكرت أن الكتف على الكتف، ومحاذاة الأقدام، وتقبل ذلك هي من أهم مقومات البنيان المرصوص اجتماعياً..

يمكنك أن تحمل ذلك معك أينما ذهبت. أو ترفض حمله أينما رحلت..

يمكنك أن ترفض الفكرة في داخلك، فتكون صلاتك منفردة، حتى لو أديتها في الحرم المكي بين الألوف..

ويمكنك أن تؤمن بالكتف على الكتف، فتحس بذلك، وتسري كهارب الجماعة في أعماقك.. حتى لو أديتها وحدك، حتى لو صليتها في الربع الخالي..

أو على سطح القمر..

قبل ذلك كله: لاتقس صلاتك كما لو كانت وسيلة لاستدرار دمع الخشوع..

بل راقبها: هل هي قائمة بدور ما في حياتك، خارج الأوقات الخمسة؟

★ ★ ★

الجريمة والعقاب

في مسيرتها غير الظافرة، ورحلتها المتعثرة، ودربها الوعر، ارتكبت الإنسانية أخطاءً شنيعة وجرائم من الصعب تناسيها أو نسيانها..

حروب مدمرة، ومجازر وحشية، حمامات دم مجانية، تم ارتكابها بدم بارد، ووجدت من يلصق بها الشعارات المنمقة، والإيديولوجيات الأنيقة: تحرير، سلام، نشر الدين، رفع الاستبداد.. إلى آخر المعزوفة التي صرنا نعرفها جيداً، وصار بعضنا يعزف على ألحانها..

وكل ذلك، طبعاً، كان مجرد شعارات، لتحقيق المصالح، واحتكار الثروة ومقوماتها، وربما تحقيقاً لشهوة الانتقام..

من الصعب جداً تصور قطعة من الأرض، لم تحدث فيها مجزرة من هذا النوع أو ذاك. ولم تصل فيها الدماء إلى الركب، ولم يسارع فيها المنافقون من أصحاب اللسان الحذق، إلى تبرير ذلك كله..

إنها جرائم معروفة تماماً. ولا توجد إمبراطورية في التاريخ لم تتورط فيها، بدرجة أو بأخرى..

في كل الأحوال، فإنك لا تستطيع حجب دماء كل الضحايا، بغربال الشعارات.. ورغم أن ماكنة الدعاية، قد تجعل من الضحايا مجرمين يستحقون كل ما جرى لهم..

★ ★ ★

هذه الجرائم عموماً، غير مسكوت عنها، كثيراً ما يجد الضحايا من يحكي عما جرى لهم، ربما لا يعاقب المجرم دوماً، بل ربما لا يعاقب أبداً، وربما يكون أوان العقاب قد فات، عندما فتح الموضوع برمته..

المهم أنها وجدت من يثأر لها.. ولو بالكلام..

★ ★ ★

لكن هناك جرائم أخرى، ترتكب بدم أشد برودة من صقيع القطبين الشهالي والجنوبي معاً..

وهي لا تقل فظاعة عن حمامات الدم تلك، إن لم تكن أشد خطورة..

ولكنها رغم ذلك، لا تجد تغطية إعلامية على الإطلاق.. ولا تتصدر نشرات الأخبار، لا تجد مكاناً لها حتى في الصفحات الداخلية للصحف.. ربما، لأنها، حسب مقياس وسائل الإعلام، أقل إثارة.. لا يوجد فيها العنف الذي يستهوي البعض.. لا يهرق فيها اللون الأحمر الذي هو اللون المفضل للثيران، ولبعض البشر!..

★ ★ ★

إنها جريمة لا يهرق فيها الدم - رغم أنها قد تؤدي إلى ذلك، وإلى كل الجرائم التي تتسابق وسائل الإعلام لاحقاً في تغطيتها..

عن أي جريمة نتحدث؟؟

جريمة تشويه الأفكار.. جريمة قتل المعتقدات وتفريغها من محتواها..

★ ★ ★

أستطيع أن أتصور خيبة الأمل على الوجوه..

تقول جريمة قتل الأفكار، وتقارنها بمجازر إبادة بشرية وتصفيات عرقية؟

نعم.. أقول.. وأقارن..

أكثر من هذا، إذا كانت أكبر المجازر الدموية قد ارتكبتها الحضارة الأخرى، فإن هذه الجريمة - الأكبر، وإن كانت الأقل دموية - تقع على عاتقنا نحن..

فكرة، هي عقيدة كاملة، بل هي منظومة شاملة للحياة، وحتى للموت، عوملت بابتذال شديد، بأقصى ما يمكن من تسطيح..

عوملت كما لو أنها مجرد ألفاظ - بلا معاني في العمق.. صارت مجرد جملة، ببعد واحد، أو أحياناً بلا بعد على الإطلاق..

نستعملها كإشارة تعجب، فنقولها ما هو غريب، أو ما هو مؤسف، كموت أحدهم..

وفوق كل هذا وذاك، وقبله، فإننا نعتبرها كلمة سهلة، كما لو كانت بضاعة رخيصة، مجرد التلفظ بها كفيل، باعتقادنا على الأقل اعتقاد الكثيرين منا.. بالانتقال من جهة إلى الجنة!، ومن حظيرة الكفر.. إلى حظيرة الإيمان..

إنها كلمة عظيمة، تعبر عن فكرة شديدة الأهمية.. وكانت جريمتنا الكبرى، أننا بذلنا جهداً عظيماً في تقزيمها وتسطيحها.. بالذات في تجريدها من مقصدها..

إنها كلمة التوحيد طبعاً..

لا إله إلا الله..

★ ★ ★

لو أن أحداً قال لنا: اعلموا أنه لا إله إلا الله، أو هل تعلمون أن لا إله إلا الله؟، لعبسنا في وجهه، ولربما قلنا له إننا نعلم ذلك قبل أن يعلمه هو، وأن عليه أن يتأدب في الحوار مع الآخرين..

ولو أنه تأدب، وقال لنا.. إنها آية كريمة هي التي تخاطبنا بالقول، ﴿ فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ ﴾ [محمد] لاعتدلنا في جلستنا، ولتأدبنا نحن أيضاً، ولقلنا إن ذلك مقبول جداً، لأن القرآن أصلاً نزل على ناس مشركين، وكانوا في حاجة ماسة فعلاً إلى أن يعلموا أن لا إله إلا الله..

لكن يبدو أن محدثنا يستدرجنا ببراعة.. ها هو يقول لك إن السياق في الآية يخاطب الرسول الكريم عليه أفضل الصلاة والسلام..

قد نرتبك قليلاً.. تحاول أن تغير الموضوع.. قد تفكر أن الآية قد تكون مكية مبكرة.. قبل أن تنطق ذلك، سيقول لك محدثك الماكر إن الآية مدنية، وإنها مدنية متأخرة أيضاً، في سورة محمد..

وسيذكرك، أن الرسول الكريم ﷺ لم يسجد في حياته لصنم أو لوثن.. وأن الأمر على ذلك «هو سواء..»، مدنية كانت الآية أو مكية: الرسول لم يسجد لصنم.. لكن نزولها المدني هذا سيجعلنا نعيد النظر في فكرتنا التقليدية عن التوحيد.. عن أنه مجرد عدم السجود لصنم..

★ ★ ★

﴿ فَاعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَىٰكُمْ ﴿١٩﴾ ﴾ [محمد].

كانت «لا إله إلا الله» قد صارت حينها شعاراً لمجتمع اختار التوحيد ونبذ الأوثان عن إرادة تامة، وصارت «لا إله إلا الله» بمثابة هوية انتماء لذلك المجتمع، الذي بدأ بالتدريج يصير دولة.. دولة المدينة..

«لا إله إلا الله» بالمعنى التقليدي الذي يعني نبذ الأوثان وحصر شعائر العبادة لله عز وجل؛ كانت قد صارت من بديهيات هذا المجتمع، ومن الأمور التي نسميها اليوم «معلومة بالضرورة».

لكن الآية، المدنية، نزلت في النصف الثاني من الفترة المدنية، أي بعد أن استقر هذا المفهوم تماما في العقول والنفوس..

ومع ذلك، فهي تقول: «فَاعْلَمْ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاّ اللهُ» كما لو أن المعلومة جديدة..

★ ★ ★

المعلومة ليست جديدة بالتأكيد، لكن مفهومنا عن التوحيد هو الذي يحتاج إلى تجديد، ليس مفهومنا - نحن فقط، أعني المسلمين اللاحقين، بل مسلمي كل عصر وكل زمان، مفهوم «لا إِلَهَ إِلاّ اللهُ» هو الذي يتجدد دوماً، وهو الذي يظل يولد أبعاداً جديدة ويفتح آفاقاً وأعماقاً أبعد..

كل فهم جديد لن يلغي الفهم السابق، بل سيقويه، لن يكون هناك يوماً ما مفهوم«لا إله إلا الله» يتساهل مع الأوثان والأصنام - لكن سيكون هناك فهم جديد، يبحث عن أوثان بأشكال جديدة، ويهدم أصناماً بمسميات مختلفة.. قد تكون شخصاً، وقد تكون طريقة حياة، وقد تكون منهجاً في الفكر ورؤيةً للعالم..«لا إله إلا الله» تبقى، وعلينا أن نعلم أنها كذلك - لكن وضع المعبودات الأخرى، وضع تلك الآلهة المزعومة يتغير، ففهمنا لها يجب أن يتجدد.. ويجب أن تكون تلك«معلومة» جديدة دوماً.. حتى نكتشف أي إله جديد، يحاول أن يدخل إلينا.. أو يحاول أن يجرنا إليه..

★ ★ ★

وتلك«المعلومة» تمثل المرجعية الفكرية الأساسية في التصور الإسلامي للكون، وللإنسان، وللخليقة كلها.. إنها القاعدة الأساسية التي يرتكز عليها البناء الفكري للمسلم: الإنسان المسلم، والمجتمع المسلم.. فإذا كانت تلك القاعدة، قد تجاوزها الزمن، دون أن تتعرض لتحديث يواجه الأوثان المستجدة، فإن البناء المرتكز عليها، كله، سيكون مختلاً، ولا يخلو من انحراف..

أما إذا تجددت تلك القاعدة، مع معطيات العالم المتغير وأوثانه وأصنامه الجديدة، فإن البناء المرتكز على القاعدة، سيكون صامداً بوجه التغيير، سيكون متناسقاً مع نفسه، منسجماً مع قاعدته وركيزته..

★ ★ ★

لكن لماذا جاءت هذه المعلومة، في هذا السياق أصلاً، لماذا جاءت هذه الصيغة شديدة الوضوح في سورة مدنية متأخرة؟..

السبب يوضحه السياق أيضاً. وهو سبب سيظل يتكرر، ونراه يتكرر اليوم أكثر من أي وقت مضى..

﴿ وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّىٰٓ إِذَا خَرَجُوا۟ مِنْ عِندِكَ قَالُوا۟ لِلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مَاذَا قَالَ ءَانِفًا ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَهْوَآءَهُمْ ﴿١٦﴾ ﴾ [محمد]، لقد ذهبوا للذين (أوتوا العلم) – وهم أهل الكتاب – في السياق الأساسي، وطلبوا منهم، أن يفسروا ما قاله القرآن.. أو ما جاء به الرسول (عليه الصلاة والسلام).. لقد اختاروا مرجعية أخرى، تفسر، وتقيم، ما جاء به القرآن..

وتطلب هذا أن تنزل تلك المعلومة -القديمة الجديدة -: «فَاعْلَمْ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ اللهُ»..والذين «خرجوا من عند الرسول» لم يذهبوا ليمارسوا شعيرة أو طقس تعبدي موجه إلى إله ما.. لكن جعلوا هناك مرجعية أخرى، جعلوا هناك جهة أخرى، يقيسون بمقاييسها، ويحكمون من خلال أحكامها، ويزنون الأمور بمعاييرها..وموازينها..

بل إنهم، أخذوا القرآن ليحكموا عليه من خلال منظار أولئك.. ولهذا فقد«خرجوا» كما تقول الآية..

ولهذا تأتي الآية «فَاعْلَمْ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ اللهُ»..

★ ★ ★

ما حصل يومها وتطلب نزول هذه الآية الكريمة، لا يزال يحدث..

ولا يزال ينبهنا إلى أن«لا إله إلا الله» ستظل تواجه تحديات جديدة، الأوثان القديمة – بشكلها التقليدي – متضمحل، وستضاءل.. ولكن سيكون هناك أوثان أخرى: أشخاص يدعون احتكار العلم، أو مؤسسات تدعي ذلك، أو إيديولوجيات،

أو منظومات فكرية، أو مجرد وجهات نظر.. لكنها تعامل على أنها «العلم».. ولا يزال البعض «يخرجون» من منظومة القرآن، ويذهبون إلى تلك المنظومة الأخرى، ليحاكموا القرآن، وفق ذلك المنظور الآخر..

ولأننا عاملنا «لا إله إلا الله» بتلك الطريقة الجامدة.. فإن ذلك أحدث فرقاً كبيراً، وصار الكثيرون، يخرجون، ويقيسون، ويحكمون، من خلال الذين أوتوا العلم، أو الذين نتصور أنهم أوتوا العلم، أو الذين يتصورون أنهم أوتوا العلم.. دون أن يدركوا أنهم بذلك يخرجون من عند القرآن.. دون أن يدركوا أنهم يخرقون «لا إله إلا الله»..

إنها، بهذا، ليست مجرد مجموعة من اللاءات: لا تسجد لصنم، ولا تتعبد لغير الله، ولا تقدم النذور إلا له..

★ ★ ★

الأمر أكبر وأوسع وأشمل.. إنه ان لا يكون لك مرجع إلا هو، أن يكون هو، وحده، من يشكل رؤيتك، وطريقتك في الحكم على الأشياء، تقيس الأمور من خلال المقاييس التي أعدها لك، وتزنها بميزانه وحده: نجاحك.. فشلك.. سعادتك.. تعاستك.. علاقتك مع نفسك.. مع أسرتك.. مع الناس من حولك.. مع الناس الذين ليسوا حولك.

إنه أرضك الصلبة، التي تقف عليها..

أي أرض أخرى، تستوردها، تستعيرها، تظنها «أرض الأحلام» ستكون مهتزة وهشة وقد تبتلعك أنت وأحلامك..، «لا إله إلا الله» هي ذلك المرجع الثابت الذي يمنحك البوصلة، والرادار، الوسادة، والملجأ، السقف والعكاز.. المرفأ.. اللواء.. المهد والحاضنة..

★ ★ ★

ورغم أنها كل ذلك وأكثر، إلا أننا عاملناها كما لو كانت أسهل الأشياء وأخفها وزناً.. وأبخسها ثمناً..

عاملناها كما لو أنها مجرد ألفاظ مسطحة - أصوات وحروف - يقولها الإنسان فيصير مسلماً.. أو يقولها فيضمن الجنة.. من دون بذل جهد أكثر من تحريك عضلة اللسان..

تلك أمانينا، ليست أكثر من مجرد أماني ضالة، تضللنا وتكاد تودي بنا.. إنها أمانينا التي جعلتنا نرتكب أكبر جريمة، بحق الفكرة الأعظم.. والمفهوم الأعظم.. جريمة لا نزال مستمرين في أدائها.. دون أن يحاكمنا أحد، او حتى دون أن نحاكم أنفسنا..حتى الآن!

★ ★ ★

﴿وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مُتَقَلَّبَكُمۡ وَمَثۡوَىٰكُمۡ ١٩﴾ [محمد].. كأن هذه الآية تشير إلى ما قامت به البشرية مراراً وتكراراً ودائماً: التجربة والخطأ، التقلب المستمر بين اختيارات خاطئة، والنهايات الحتمية لكل اختيار خاطئ، ويبقى ذلك الخيار الواحد الوحيد.. الذي كنا أكبر مسيئين له، عندما اعتبرناه مجرد ألفاظ سهلة المنال.. تقال وينتهي الأمر..و ندفع دوماً ثمن ذلك..

★ ★ ★

قد تبدو حياتك عادية من الخارج.. وقد يبدو قناعك الاجتماعي منسجماً وأنيقاً، أو أنه مجرد قناع اجتماعي ملائم للمجتمع من حولك..

لكن خلف القناع، وتحت الجلد، قد تكون هناك عواصف وأعاصير، ومواسم قحط وجفاف، وسيول جارفة وفيضانات.. قد تكون هناك أوبئة.. وقد تكون هناك مجاعات.. وكل ذلك في الداخل.. ولا يعلم به أحد، قد يبدو على قناعك

بعض الإرهاق، بعض التعب.. بعض الكآبة.. لكن لا أحد يعلم ما يحصل معك هناك.. خلف القناع.. وحدك تعاني من ذلك كله.. وحدك تصارعه.. وتكابده.. وعلى «قناعك» قد توجد ابتسامة..

لكنك مع ذلك، قد تعلم، وقد لا تعلم، أن الصراع هناك، خلف القناع، هو انعكاسٌ للصراع فوق، على سطح الأرض، في الواقع الاجتماعي.. الذي تحاول جاهداً الانسجام مع تناقضاته..

الأمر الذي لا تعلمه هو أن تلك العواصف والبراكين، وتلك السيول وذلك الجفاف، كله ناتج عن صراع بين آلهة مزعومة، تتنازعك وتتنازع ولاءك في الداخل، لأنها تتنازعك وتتنازع مجتمعك بأسره في الخارج.. في الواقع..

قد يسمون الأمر «ضغوط الحياة».. وقد يسمونها متطلبات..أو متغيراتها. قد تكون أسرتك تقودك – بوسائل ما – إلى حيث لا تريد..

مهما اختلفت التسميات، مهما تنوعت التبريرات، والتفسيرات.. أنت الآن تعلم.. ﴿ فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ ﴾ [محمد:١٩].

ولا تقل أنك تعلم ذلك منذ أن وعيته.. فما علمته وما وعيته كان جزءاً بسيطاً منه..

في كل حين هناك إله جديد يتحدى.. لكنه لا يسمي نفسه قط إلهاً حتى لا يخيفك ويجعلك تفر منه..

إنه يكتفي منك بأن يأخذك منه، أن يرسم لك طريقك.. أن يستدرجك إليه..

في كل لحظة هناك ذلك الخيار..هناك إله جديد مزعوم يتغير..و هناك «الله» وحده الصمد أمام كل التغيرات..

وفي كل لحظة هناك تلك المعلومة الجديدة..المتجددة..

لا إله إلا الله..

أسلحة «البناء» الشامل

منذ أن اكتشفَ الإنسانُ التصنيف وأعملَ عقلَه فيه، بتصنيفِ الأشياءِ من حوله وترتيبها، وإطلاقِ الأسماءِ والمصطلحاتِ عليها، وهو يقومُ بتسهيل النظرِ إلى العالم، والتنقيب فيه.

لكن، في الجانب الآخر، فإن هذا التصنيفَ اختزلَ بعضَ الأمور، وسطَّح أخرى، وألغى أخرى من الوجود كما لو أنها لم تكن أصلاً..

ربما يعود الأمرُ إلى «العين» التي تصنف، وإلى خلفيتها الثقافية، والسياقِ العام الذي شكلها، والذي يجعلها تنظر إلى بعدٍ معينٍ من الأمور وتصنِّف على أساسه، بينما لو كانت هناك عين أخرى بعصبٍ حضاري آخر وسياقٍ ثقافي مختلف، لربما رأت تصنيفاً مختلفاً وأسماءً أخرى..

ربما يعود الأمر إلى أنَّ بعضَ الأشياء، وربما بعض أهمِّ الأشياء، غيرُ قابلةٍ أصلاً للخضوعِ إلى التصنيف، لأن التصنيف سيجزئها وسيقسمها وسيقسرها على قالبٍ هي أكبر منه بكثير..

وهكذا، فإن هدفَ تيسيرِ الأمور، وهو الأساسُ من التصنيف، قد ينتهي إلى قتلِ بعض الأمور، أو إلى تسطيحها على الأقل..

بعضُ الأمورِ أكبرُ من التصنيف..

★ ★ ★

وهكذا فإن طلابَ الطب يدرسون نظرياً جسمَ الإنسان كما لو كان مؤلفاً من عدةِ أجهزةٍ مستقلةٍ ومنفصلةٍ عن بعضها، لكن دراستَهم العملية لاحقاً، ودخولَهم

مضمارَ التشريحِ العملي، سيجعلهم أمامَ الحقيقةِ التي هي أكبرُ من التصنيف، حقيقةِ أنَّ الأمورَ متداخلة، وأن ما هو سهلُ التبويبِ في الكتبِ عسيرٌ على التقسيمِ في الواقع..

★ ★ ★

وهكذا، نشأت في أفكارنا ثنائيات، تكاد تقسم العالم، تقولب رؤيتنا بهذا التقييم.

وهي قسمة ضيزى بالتأكيد، إذ إنها، كما شايلوك اليهودي، تريد أن تفصل لحم الإنسان عن دمه.. عقله عن عاطفته، روحه عن جسده.. هكذا نشأت تلك القوالب، تفصل الروح عن الجسد، والعقل عن العاطفة، والأخلاق عن المصالح، كما لو أن هناك عالم مختلف لكل منها، كما لو أن الإنسان لا يتكون من كل هذا، دفعة واحدة دون تقسيم وتصنيف..

★ ★ ★

وهكذا إذا تحدثتَ عن العقل أو كتبتَ فيه، أو فكرتَ من خلاله، فإنك يجب أن تتركَ المشاعرَ جانباً.. لأنها في فصلِ «العاطفة» وليست في فصلِ «العقل»..

وإذا تحدثتَ عن الأسبابِ والمسببات، وعالمِ السننِ الإلهيةِ والكونية، فإنك يجب أن تفعلَ ذلك بلغةٍ باردةٍ جامدة، لا حياة فيها ولا مشاعر، لأن الحديثَ يأتي ضمن سياقِ العقلانيةِ الذي لا يتحمل ذلك.

وإذا تحدثتَ عن الخشوعِ لله عز وجل، وجبَ عليك أن تنتقلَ إلى فصلِ العاطفة ومحاولة استدرار دموعك أو دموعِ من يسمعك أو يقرأك، عبر البكاء، أو التباكي.. وتحضيرِ المناديلِ الورقيةِ لمسحِ الدموع.

وهذا كله مرهقٌ ومحبط، ويجعلك تشعرُ بوطأة خطأ ما في الأمر كلِّه.. يجعلك تشعرُ بانفصامٍ ما في شخصك، فأنت كلٌّ واحد، ولا يمكن لك حقاً أن تقسم بين عقلك وعاطفتك..

ستشعر أيضاً بأن في الأمر خللٌ ما، في كلِّ لغةٍ من اللغتين هناك نقصٌ ما، لا تعوضه اللغةُ الأخرى بالضبط، بل يجب أن تكونَ هناك لغةٌ واحدة تنسف ذلك الجدارَ العازلَ بين العقلِ والعاطفة..

ذلك كله ممكن، بل وضروري.. خاصة عندما نواجَه بسؤالٍ من طفلٍ لم يدجن بعد، ولا يزال قادراً على التعليق والتساؤل عندما يسألك:

إذا كان العالمُ محكوماً بالسنن والقوانين.. فلماذا إذا «الدعاء»؟؟..

★ ★ ★

﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِى وَلْيُؤْمِنُوا بِى لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴿١٨٦﴾ ﴾[البقرة].

رغماً عن أنفِ محدثكم، وأنوفِ كلِّ المتحدثين، فإنَّ الدعاءَ سيظلُّ موجوداً، وآياته ستظلُّ موجودة، وفهمُنا للسنن والقوانين هو الذي يجب أن يتبدل..

المشكلةُ هي أنَّ السننَ الإلهيةَ التي تتحكمُ في الكون من الذرةِ إلى المجرة، ستظلُّ موجودةً أيضاً، وستظلُّ آياتُها موجودةً في القرآن، لا تتبدلُ ولا تتغير، مرةً أخرى، فهمُنا هو الذي يجب أن يتغير..

★ ★ ★

ربما كانت المشكلةُ موجودةً في أننا ننظرُ إلى الأمرين وفكرة مسبقة تحتل رؤوسنا: وهي التعارضُ بين السننِ الإلهية والدعاء..

لكن، ربما، لو كنا ننظرُ بشكلٍ مختلف، ودون أن نضعَ الحواجز مسبقاً.. لرأينا أنَّ الأمرين قد لا يتعارضان.. بل قد يتعاضدان.. ويتكاملان..

فبعد كل شيء، من قال إن الدعاء لا يدخل أصلاً ضمن السنن الكونية؟..

من قال إن السننَ جامدةٌ مثلُ قانونٍ فيزيائي لا تترك مجالاً للإنسان لكي يكون طرفاً فيها؟..

قد تكون السننُ شيئاً أوسعَ بكثير من رؤيتنا الضيقة المقولبة، وقد يكون لنا دورٌ فيها..

دورٌ في السنن التي تتحكم بالعالم..

★ ★ ★

لنتأمل الآيةَ من جديد، ونحن نضمرُ نزعَ الحواجزِ المسبقةِ في عقولنا.. التي تقسم بشكلٍ ظالم، وتضعُ العقلَ في خانة، والعواطفَ في خانةٍ أخرى، وتضع السننَ في خانةِ العقل، والدعاءَ في خانةِ العواطف..

الآن لنكسر الحواجز..

ولنقرأ من جديد الآيةَ كاملة، لا نقف عند جزءٍ منها ونترك الباقي المكمل والمتمم للمعنى، كما يحدث غالباً، وإن كان دون قصد..

﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴿١٨٦﴾ ﴾[البقرة].

الله قريب، يجيبُ الدعاء.. إذا دعا الداع.. هذا واضح، ومهمٌ وأساسي..

لكن هذا ليس كلَّ شيء، هناك تتمةٌ في الآية تزيد المعنى وضوحاً، وتُوازنه.. وتنسفُ الحواجزَ بين الخانات..

«فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ»..

هنا الصورة تكمل.. ويكون للدعاء ولإجابته بعدٌ آخر، طرفٌ آخر من معادلةٍ متوازنة..

«فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي» إنه طرف آخر من معادلة الاستجابة، الأمر ليس مطلقاً أبداً ـ إجابة مطلقة للدعاء بلا شروط - انها ليست«أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذا دَعانِ» وينتهي الأمر هنا، بل هناك تتمة: «فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي»، فلينفذوا ما طلبتُ منهم، فليفعلوا هم، بالإضافة إلى الدعاء، ما دعوتهم إلى فعله، وسيكونُ هذا الجزءُ مرتبطاً بذاك.. إنها الإجابةُ والاستجابة..

الإجابةُ منه عز وجل، القريب من «العباد»، والاستجابةُ منهم.. فعلُ ما يريد منهم أن يفعلوا..

★ ★ ★

ولكن ماذا يريد منهم بالضبط، لكي تتوازنَ تلك المعادلة، السُّنة الكونية التي يكون الإنسان طرفاً فيها..؟

سيكون الردُّ التقليديُ متمركزاً حول العبادات.. الفرائض والأركان..

وسأكون هنا مؤيداً لهذا ولو من طرف خفي.. لا من جهة الأداءِ المجردِ الذي يعتمدُ على أداء الفريضة كيفما كان لإسقاطِ العقوبةِ والإثمِ على عدمِ تأديتها.. ولكن من جهةِ كونها فاعلةً في المجتمع، من جهة كونها مؤديةً لدورها.. ومحققةً لمقصدها..

عندما يكون هذا، ولو بالمحاولة الجاهدة من أجل ذلك، فإنَّ المعادلةَ تكون متوازنة.. والإجابة تكون متوقعةً أكثر.. ومتسقةً مع قانونِ الإجابةِ والاستجابة..

★ ★ ★

والإشارةُ إلى الرشد هنا، في خاتمة الآية «لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ» توضح نوعيةَ التصورِ الذي يجب أن ينشأ عند المؤمنين، تصورهم للعلاقةِ مع الله سبحانه وتعالى، فهو يجب أن يكونَ تصوراً ناضجاً راشداً، لا يطلب فيه المؤمنون من الله أن يحققَ لهم طلباتِهم التي قدموها عبر الدعاء دون أن يكونَ عليهم جزءٌ من العمل والفعل.. دون أن يسعوا هم لتحقيقِ شيء ما من الأمر..

الله غنيٌّ عنهم وعن فعلهم، لكن ذلك من أجلهم، من أجل أن يصلوا إلى الرشد..
إنه من أجل «لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ»..

★ ★ ★

ياخيبة الأمل، سيعلق البعض، حتى «الدعاء»، الصادر من قلبٍ محروق، نابضٍ بالألمِ وبالأمل، حتى هذا، خاضعٌ لقانونٍ، ولسنَّةٍ ما.. حتى هذا صارَ خاضعاً لقانون كما لو أنه تجربةٌ كيميائيةٌ باردةٌ في أنبوبةِ اختبارٍ زجاجيةٍ في مختبرٍ تفوحُ منه رائحة المعقمات..

سيكون ذلك مخيباً لآمالِ البعض، وكلما زادَ الكسل والتواكل وزادت السلبية، كلما زادت خيبةُ الأمل.. فالكسلُ يجعل منا نريدُ الأشياءَ جاهزة دوماً، دون أن نبذلَ فيها جهداً، وهو أمر نادراً ما يحدث في الحياة الواقعية، لكن هناك من يأمل، ويظلُّ ينتظرُ أن يحدث، ويكونُ الدعاءُ، في نظرهم، وسيلةً ممكنةً لتحقيق ذلك، بما يشبه السحرَ والعجائب، ولذلك فبدلاً من السعي للتغيير، ولتحقيقِ الأهداف، يكون هناك الدعاءُ، والمزيدُ من الدعاء، وكلما تأخرت إجابتُه سبحانه وتعالى، عاجلنا أنفسَنا بتفسيرِ التأخير بأنه امتحانٌ لصبرنا، بأنه اختبارٌ لقدرتنا على المواصلة والإلحاح في الدعاء..

وعندما لا يحدث شيء، سنقول طبعاً إنه ربما لم يكن الأمرُ خيراً لنا، وإنَّ الله دفعه عنا لأن الخير في مكان آخر.

والحق أن الخير بالتأكيد في مكان آخر.. وليسَ الأمر مجرد احتمال.

إنه في العمل، إنه في الاستجابة لما خُلقنا من أجله، إنه في أن نكون، إنه في تتمة الآية ﴿فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴿١٨٦﴾﴾ [البقرة].

★ ★ ★

وعلى مقدارِ خيبةِ الأمل عند أولئك الذين يريدون أن تصلَ اللقمةُ إلى أفواههم دون بذلِ جهدٍ في السعي، فإنَّ هناك آخرين، سيرون في المعادلة منتهى العدل والإنصاف، سيرون أنه من الظلمِ أن تتساوى إجابةُ الدعاءِ بين أولئك الذين يستجيبون ويرشدون، وأولئك القاعدين النائمين..

تلك المعادلة، تشبه كثيراً الصورةَ الأكبر، صورةَ العالمِ المتماسكةِ المعتمدةِ على قوانينَ وسنن.

الأمر هو أن في هذه المعادلة، صرنا نحن طرفاً، صرنا جزءاً من الأسباب والمسببات، لم نعد مجرد طرف متلق، يدعو وينتظر إجابة الدعاء..

★ ★ ★

ولكن..

لكل قانون، مهما كان صارماً، استثناءاتُه.. وهي استثناءاتٌ لا تلغي القانون، بل بمثابة الاختبار له، كما أنها ليست استثناءاتٍ اعتباطية، أو وليدة صدفة بلا قانون، إنها الهامشُ على القانون، الذي يفتحُ البابَ نحو قانونٍ آخر، خاص بهذا الاستثناء، وليس خروجاً حقيقياً عن القانون الأصلي، بل هو قانونٌ آخر يتكامل معه ومع غيره من القوانين، ضمن إطار الصورة الكاملة..

ما هو هذا القانون الذي يفتحُ الاستثناءَ من المعادلة إياها ؛ لعلنا نكون مشمولين به ونخلص من عبء الاستجابة؟؟!.

إنه قانون «الاضطرار»..!

حيثُ يكونُ المضطرُّ بلا حيلة، بلا بابٍ آخر، بلا خيارات..

حيث يكون قد بذلَ كلَّ ما في وسعه، وبذلَ كلَّ جهده، ولكن لم يبق إلا هذا..

﴿ أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ ﴾ [النمل]..

إنه المضطر.. وليس النائم، ليسَ المتثائب، ليس المتثاقل إلى الأرض، ليس الذي لم يفعل شيئاً لحياته، في حياته، بحياته..

المضطر، الذي توضح قانونه آيةٌ أخرى.. ﴿فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ﴾ [البقرة: ١٧٣].. ليست تلك الآية محصورةً بمن يضطر إلى أكل الدم والميتة، إنها توضح من هو المضطر حقاً، إنه ذاك الذي لم يبغِ على نفسه أولاً بالكسلِ والسلبيةِ ويضعها في موضعِ المضطر وهو ليس كذلك، ولم يعتد على القوانين التي تحكم الكونَ بتجاهله لها، واتكاله على انتظارِ تحقق الدعاء..

المضطر حقاً، هو الذي يشمل بقانون الاضطرار، وهو الذي يجيب الله دعاءَه، وليس هذا فقط.. وليس أنه يجيب الدعاء، ويكشف السوء فقط، بل إنه ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ ٱلْأَرْضِ﴾ [الأنعام: ١٦٥].. أي إن الدعاء هنا لم يكن فقط من أجل أزمة عابرة، سفينة تواجه المصاعب على الرغم من أخذ ربانها بكل الأسباب، أو مصاعب اقتصادية تعصف بمؤسسة ما، صغرت أو كبرت، الأمر يصل حتى إلى الهدف من وجودنا إلى الأرض.. أن نكون خلفاء..

تخيلوا أمة مضطرة، تخيلوا إنساناً مضطراً، قد اتخذ كل الأسباب، ولا يزال لم يصل لما يريد، وفي عمق صلاته، في ذروة سجوده، كان يدعو الله: اجعلني الخليفة في الأرض..

لا أظن هذا الشخص، يشبهنا في شيء..

★ ★ ★

وهل تكذبُ قلوبُنا عندما ترتجف، وهي تدعو، هل تكذبُ دموعَنا عندما تنهمر، ونحن ندعو الله أن يجعلَنا نجتازُ أزمةً ما، أو نحققُ نجاحاً ما..

لا، ربما ليس الكذب، لكن ربما سوءُ الفهم، ربما عدمُ الفهم أصلاً، ربما لأننا تقولبنا على اعتبارِ الدعاء فعل طلب من جهتنا، وفعل إجابة من العزيز القدير.. ولذلك فقد تصورنا أن لا شيء غير الدموع، سيثبتُ كم نحن جادون.

كلما زادت حرارةُ الدموعِ وشدةُ انهمارها في الدقيقة، كلما عنى ذلك أننا جادون أكثر..

للأسف، ذلك فهمٌ خاطئ، فجديةُ الدعاء لا علاقة لها، حسب النص القرآني، بغدد الدمع.. بل باستجابتنا لأوامرِ الله، في أن نكونَ ما خلقَنا من أجله، في أن نقيمَ تلك الحضارة، في أن نكون الخلفاءَ في الأرض..

الإجابةُ مرتبطةٌ بالاستجابة أولاً، وبالاضطرارِ الحقيقي ثانياً، وتلك قوانين يمكن لنا بعد أن نحققها أن نبكي كما نشاء، يمكن لقلوبنا أن تنبضَ وترتجفَ، وترتعشَ من الخشوع..

ويمكن عندها للدعاء، أن يكون سلاحاً حقيقياً، لأنه إذا كان مجرداً عن الاستجابةِ والعملِ بالأسباب، فسيكون مجردَ وسيلةٍ لتمضيةِ الوقتِ في انتظارِ ما لن يأتي..

أما عندما يكون مرتبطاً بما هو مربوط به، فإن الدعاء لن يكون سلاحاً تقليدياً في معركةِ«حرب»، بل سيكون سلاحاً غير تقليدي.. سلاحاً يبني الإنسان الذي يبني المجتمع الذي يبني الحضارة، التي تحقق ما خلقنا من أجله.. إنه سلاح البناء الشامل..

الثلاثة في واحد

حدث أحياناً، وليس غالباً، أن تشتريَ جهازاً ما، فتكتشفَ فيه مزيةً جديدة، ووظيفةً أخرى، غيرَ تلك التي ابتعته خصيصاً من أجلها..

مثلاً، تبتاعُ حاسوباً من أجل أن يساعدَ أولادَك على الدراسة، فإذا به يتحولُ إلى وسيلةٍ لإلهائهم عنها، وإلهائك أيضاً، وسرعان ما يتحولُ إلى «ضرةٍ» لزوجتك، التي لن تكفَّ عن «التلهي» بالتذمرِ من ذلك طولَ الوقت..

يمكن أيضاً أن تبتاعَ تلفازاً جديداً، تضعه في صدرِ غرفةِ المعيشة، وتنفي الآخرَ القديمَ إلى غرفةٍ أخرى، ويكون هدفُك من الشاشةِ الأكبر، أن تلمَّ عائلتَك وترفِّهَ عنها، لكن الذي يحدث أنها تتشظى عادة، حيث يقررُ البعضُ أن يفرَّ نحو التلفازِ الآخر، ليشاهدَ شيئاً آخر..

على الأغلب سيحدثُ الشيءُ ذاتُه مع كلِّ وسائلِ الاتصالِ الجديدة، فبينما تبتاعُها من أجلِ المزيدِ من التواصل، فإن الذي يحصلُ عادة هو مزيدٌ من التباعد، والتوحد..

يمكن أيضاً أن تشتريَ جهازاً لا تستخدمه، فيتحولُ بسرعة إلى منضدة، يكوِّم عليها الآخرون، وأنت أيضاً، حاجياتٍ لم تجد مكاناً آخر لوضعها فيه..

وهكذا، لكلِّ جهازٍ عدةُ استعمالات، بعضُها لم يخطر في بالك يوم ابتعت الجهاز.. ولم يخطر في بال من صممَ الجهازَ أو صنعه..

والأمرُ أعقدُ وأكثرُ إشكالية، عندما يكون لديك جهاز، وأنت لا تعرف كيفية استخدامه، أو لا تعرفُ أصلاً ماهيةَ استخدامه، عندها يمكن للفرنِ الحديثِ أن يُستخدم كخزانة، وكذلك غسالةُ الملابس، ويمكن لجهازِ التعقيمِ أن يصيرَ فرناً.. وللثلاجةِ أن تصيرَ مخبئاً أميناً لبعض الأغراض..

ورغم انه ليس جهازاً، ولا حتى شيئاً مادياً.. إلا أنَّ في حياتنا أداةً مهمةً استخدمناها دوماً، بل وتفننا باستخدامها.. واعتبرنا أن من استخدمها مميزٌ عن غيره.. حتى أننا أطلقنا لقباً يميزه باعتباره قد استخدمَ تلك الأداة.

لكن المهمةَ من الاستخدام كله، كانت غيرَ هدفِ التصميم..

بتعبيرٍ آخر، مقارب أكثر، والقياسُ مع الفارق..

كان لدينا آلةٌ للزمن.. للسفرِ عبر الزمن..

ولكننا استخدمناها، كغسالة !!.

★ ★ ★

ستفرك عينيك، وستقولُ إنني بالغتُ أكثرَ من المعتاد: آلةٌ للزمن، وتُستَخدم كغسالة؟!..

«آلة الزمن» لوحدها، مبالغةٌ أكثرُ من المعتاد، فنحن نراها في أفلامِ الإثارةِ والتشويق، وقد نحبس أنفاسَنا ونحن نرى البطلَ يُبحر نحو عصرٍ آخر ليُنقذ العالمَ، أو ينقذ جدةَ حبيبته، أو جدَّه شخصياً، من خطر ما.. لكنْ كلُّ ذلك محضُ إثارة.. وخيالٌ «لا» علمي..

لا تغلق الكتاب، اصبر قليلاً..

★ ★ ★

لنقف أولاً، عند الغسالة..

في حياتنا مفهومٌ يشبه الغسالة، نستعمله كثيراً، أو على الأقل، نأملُ في استعماله، وهو يغسلنا فعلاً، حتى نخرج منه كما دخلنا إلى الحياة.. كما ولدتنا أمهاتُنا..

بلا ذنوب أقصد..

أتحدث عن الحج طبعاً..

★ ★ ★

الحجُّ فريضةٌ إسلامية، تُعامَل كما لو كانت غسالة، باعتبار أنها تغسلنا من ذنوبنا..

ولا شك أنها تفعل ذلك، ما دام ذلك قد ثبتَ عن الصادقِ الأمين..

لكن لا يُشترط أن يكون ذلك هو الهدف.. قد يكون هناك هدفٌ ومقصدٌ من نوعٍ آخر، وتكون المغفرةُ وغسلُ الذنوب نتيجةً نهائيةً للهدفِ الأول..

لكن، عدا الولادة من جديد دونما ذنوب، ربما تكون هناك مقاصدُ لهذه العبادة، التي عوملت كما لو أنها تصفرُ عدادَ الذنوب، ومسكُ الختامِ النهائي، حيث يفضَّل أن تقومَ بها قبل أن تبلغَ العمرَ الذي تتوقع فيه موتك ! من أجل أن لا تجدَ الوقتَ الكافي لارتكابِ عددٍ كبيرٍ من الذنوب حتى لو أردت ذلك.. لأنك ستموت قبلها..

هذا التبسيط والتسطيح، هو للأسف، ما فعله البعضُ بتلك الفريضةِ العظيمة، وذلك الركنِ الخامسِ من أركانِ الإسلام...

وقد غُفل، في غمرة الركض وراء تصفيرِ الذنوب، عن المعاني العميقة وراء تلك الرحلة..

★ ★ ★

﴿ فِيهِ ءَايَٰتُۢ بَيِّنَٰتٞ مَّقَامُ إِبۡرَٰهِيمَۖ وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنٗاۗ وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلۡبَيۡتِ مَنِ ٱسۡتَطَاعَ إِلَيۡهِ سَبِيلٗاۚ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٩٧﴾ ﴾ [آل عمران: ٩٧]

أول ما يلفت النظر، أن «وَلِلَّهِ» «عَلَى النَّاسِ» هذا الركن وحده..

لم يشر إلى شيءٍ مماثلٍ في كلِّ الأركانِ الأخرى، بل لم يكن هناك أيُّ ذكر، في النصِّ القرآنِي كلِّه، لأيِّ شيءٍ مماثل: «وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ» لا مع إقامة الصلاة، على أهميتها، ولا مع الزكاة، ولا مع الصيام، ولا حتى مع شهادة لا إله إلا الله..

الحج، هو الوحيدُ الذي ذكر أنه «وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ» صيغةٌ توحي بأن ذلك دينٌ ما في أعناقنا لله سبحانه وتعالى، وهو الغنيُّ عن أدائنا لهذا الدين أو نكراننا له..

هذه الصيغةُ الفريدةُ توحي بأهميةٍ خاصةٍ لهذا الركن، وكلُّ الأركانِ مهمةٌ بالتساوي، لكن هناك شيء ما في هذا الركن، يجعله «لله»، ويجعله أيضاً «على الناس»..

إنه علينا.. عليك.. وعليّ.. وهو ليس لأحد آخر، ليس للناس.. بل لله..

في أعناقنا دينٌ ما، علينا أداؤه، آجلاً، أو عاجلاً، لله..

★ ★ ★

هذه الإشارة، ترتبط على الفور، بـ «مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً».

وكأنه عز وجل، بواسعِ رحمته، يضعُ شروطاً مخفَّفة لأداءِ ما علينا له، فتأتي الإشارةُ إلى أن ذلك مرتبطٌ بالاستطاعة.. لكي لا تثقل على من لا يستطيع حقاً.. وإن كان الأمر سيظل في أعناقنا، فعندما تكون مداناً، وفي ذمتك دين ما، فإنك ستفكر فيه، وفي قيمته، وفي صعوده ونزوله، إلى أن «تستطيع»، أو «لا تستطيع» سداده..

★ ★ ★

تقدم آية الحج، بآيةٍ أخرى مرتبطةٍ بها ﴿ إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ ﴿٩٦﴾ ﴾ [آل عمران]

إنه البيتُ الأولُ إذا، ذاك الذي وُضع للناسِ.. في مكة..

لعل كونه «البيتَ الأول» هو الذي يجعله بهذه الأهمية، يجعلُ الذهابَ إليه وقصدهُ، ركناً من أركان هذا الدين..

.. ربما..

لكن ربما هناك شيءٌ آخر، وآخر، وآخر..

بالذات الإشارة هنا إلى أنه «وُضِعَ لِلنّاسِ».. تأخذنا فوراً إلى الآيةِ التي تليه «وَللهِ عَلَى النّاسِ»..

إذا البيتُ «وُضِعَ لِلنّاسِ».. والحجُّ إليه هو «عَلَى النّاسِ».. وُضع لهم، والحجُّ إليه، دَينٌ عليهم..

أمرٌ ملفت للنظر.. ومثيرٌ للاهتمام.. بل إنه يستحقُّ أن نجلبَ أدواتِ التنقيبِ والحفرِ.. لنغوصَ فيه..

★ ★ ★

وُضع البيتُ للناس.. لكلِّ الناس.. لم يوضع من أجلِ طبقةٍ معينة، أو نخبةٍ بعينها، أو فئةٍ بعينها..

ليس لعرقٍ معين، أو قبيلةٍ بعينها.. أو عشيرةٍ معينة.. لجنسٍ معين بل للناس، لكلِّ الناس.. دونما وساطةِ كهنوتٍ أو رياسة، دونما تمييزٍ بين«ناس وناس»..

لقد وُضع للناس.. من أجلِ الناس.. من أجلِ أن يكونَ مكاناً يقبلون عليه.. ويقصدونه..

إنه لهم، ولكنه «عليهم» في الوقت نفسه..!

★ ★ ★

وهو أيضاً«مبارك».. ربما هو ليس بناءً فخماً، ولا قصراً منيفاً، ولا زخارفَ فنيةً فيه، بل هو بلا تفاصيل، مجرد بناءٍ مكعبِ الشكل، لا يمكن أن يقارن من ناحيةِ الهندسةِ المعماريةِ لا بالجنائنِ المعلقةِ في وادي الرافدين، ولا بأهراماتِ الفراعنة، ولا بمعبدِ الكرنك، أو فخامةِ الفاتيكان، وضخامةِ الكرملين. لكن هذا هو الأمر فيه، إنه خارجُ كلِّ مقارنة، بل خارج كل تصنيف، كلُّ تلك الأبنية الضخمة، وطرازها الفخم، بكلِّ ما تمثله، ترمز ضمناً لحضارةٍ معينة، وفترةٍ تاريخيةٍ معينة، والناس يقبلون

عليها سائحين، ويعجبونَ بها كتحفٍ فنية تعبر عن تلك الفترة أو تلك.. الناسُ تشهقُ إعجاباً بهذه الأبنية وتلتقطُ صوراً تذكارية فيها تثبتُ للجيرانِ والمعارفِ أنهم قضوا إجازةً باهظةَ الثمن..

أما مع ذلك البناءِ المكعبِ البسيط، فالأمرُ خارجٌ عن إطارِ كلِّ زمانٍ وكلِّ فترةٍ بعينها..

إنه يشبه ما يمكن أن يبنى مع أول إنسان، وأيضاً مع آخر إنسان، بتصميمٍ شديدِ البساطةِ وشديدِ التجرد، بلا أي تفاصيل ستقع حتماً في أسرِ زمانٍ معين..

من أجلِ ذلك إنه «مبارك» فهو يتجاوز بشاره موسمَ الزمانِ والمكانِ المحدد، وهو مباركٌ لأنه يظلُ يجتذبُ الناس، الناسَ من كافةِ الأعراقِ والأجناسِ والألوانِ والطبقات.. وهو يظلُ يولِّد من خلال الناس تلك الصلة «المباركة»، التي تظل تتزايد، وتنمو، بين «الناس»..

هو البيتُ الذي وُضع للناس، من أجلِ الناس، وكان ديناً على الناس أن يقصدوه..

★ ★ ★

ومقامُ إبراهيم.. أكثرُ - كآية، كرمز - من مجردِ مكانٍ صلى فيه إبراهيم.. وصار جزءاً من مناسك الحج وشعائره..

لا، الأمرُ أكبرُ وأعمقُ، فسيدنا إبراهيم، هو الشخصيةُ المركزيةُ في رحلةِ الحج ومقامه، في هذه الرحلة، أهمُّ وأكبر، من أن يُحصر بمكانٍ محدد، إلا إذا اعتبرنا هذا المكان رمزاً، لكلِّ ما قام به إبراهيم، لكلِّ تلك الرحلة التي قام بها، منذ تلك الليلة التي أسقط فيها الأوثان، وأعلن أنه لا يحب الآفلين، إلى تجواله بين حضاراتِ الزخرفِ المزيف، المستعارِ المبني على الأسسِ الهشة، إلى أن وصلَ إلى هنا، إلى البيت، إلى القواعدِ المختلفة، الركائزِ المتينة، المبنيةِ على معطياتٍ مختلفة، عن تلك الحضارات الآفلة..

مقامُ إبراهيم، رمزٌ لكل ما قام به إبراهيم، والصلاةُ في «المقام» واتخاذُه «مصلى» هو اتصالٌ بتلك الرحلة كلها، وبكل ما قام به إبراهيم..

★ ★ ★

وكيف يكونُ من يدخله آمناً؟.. ونحن نعرف أنَّ التاريخَ شهدَ بعضَ حوادثِ الدخول، التي لم تنته نهاياتٍ آمنة..؟

لكن من قال أنَّ الدخولَ يعني هذا التواجدَ الفيزيائيَ الذي نفهمه عن الدخول؟..

ومن قال أن «الأمان» يعني أن تكونَ سالماً من الناحيةِ الجسمية؟..

إنها قواعدُ مختلفة، هذه التي بُني عليها البيت... والدخولُ والأمانُ كذلك، يجب أن يكونا بمفاهيمَ مختلفة..

والدخولُ، لا يعني فقط التواجد، بل هو هنا يعني التماهي مع تلك الرحلة، مع المقصدِ منها، مع هدفها، مع عمقها الإبراهيمي الضاربِ في جذورِ التاريخ، ومع كلِ القيمِ المتضمَّنة والمؤسسة في الرحلة.

ومن يحقق الدخول بهذا المعنى، يكون آمناً فعلاً، ليس بالضرورة جسدياً.. لكنْ «روحُه»، «فكرُه»، «توازُنُه»، يكون قد أمن.. لأن رحلةَ التاريخ تلك، بكل مشاقِّها وأهوالها ومصاعبها، تمنح أيّاً من يفهمها «حصانة» ما، ضد كل ما يمكن أن يواجهَه من مشاق ومخاطر.. فبعد كل شيء، فإن إبراهيم زرع بذرة مختلفة، في أرضٍ غيرِ ذات زرع، في صحراء قاحلة.. ومع ذلك، نجح..

ويعني ذلك أنك يمكن أن تنجحَ أيضاً مهما كانت قسوةُ ظروفك..

★ ★ ★

يأخذك الحج، من قفصك الضيق، قفصِ الزمانِ الحاضر، إلى أبعادٍ متناهيةِ العمق، فإذا بك تكبرُ وتتسعُ، مع اتساعِ أفقك ومداك.. أنت في رحلةٍ عمقُها آلافُ السنين، بل إن أحداً لا يعرف بالضبط كم ألفَ سنةٍ عمقُ هذه الرحلة، ويمنعك الإحساس بالمنعة والقوة، أنت لم تولد بالأمس، ولست عابراً على التاريخ، لست لقيطاً على باب الملجأ، ولم تلج الدنيا من ثقبٍ في حائطٍ منسي، بل أنت عميق، وعريق، وقضيتك عميقة وعريقة..

يأخذك الحجُّ من إحساسك العابر بأن كلَّ شيءٍ عابر، بما فيه أنت، ريجعلك ترى نفسَك من منظورٍ مختلف، منظورِ المشاركةِ المتراكمةِ في مسيرةِ الإنسانية.. حتى الحجرُ الصغيرُ الذي ترميه لترجمَ به الشيطان، تراه كجزءٍ من حجرٍ أكبر تكوَّن من أحجارٍ صغيرة، كجزءٍ من المواجهةِ العتيقة بين الإنسانِ والشيطانِ منذ أن كان على الأرض..

يأخذك الحجُّ من حاضرك الذي لا ترى فيه إلا تفاصيلَ ستبدو كبيرةً لأنك لا ترى سواها، لكنك لو ابتعدت فسترى اللوحةَ بأسرها.. وسيكونُ كلُّ شيء ضمن حجمِه الحقيقي..

★ ★ ★

ولا تكتف آلةُ الزمنِ بربطك بذلك العصرِ الموغلِ في العراقة، بل تأخذك أيضاً إلى المستقبل، إلى الزمن البعيد جداً، ليس مستقبلَ العقدين القادمين، وآلاتها الحديثة ونمطَ العمارةِ وملابسه الغريب، بل هو يقودك إلى الزمنِ الأبعد، إلى الزمنِ الذي يلمُّ عواقبَ الأمورِ وخواتيمها.. إلى آخر كلِّ أمرٍ ونهايته.. إلى الآخرة.. وهو يضعك على حافةِ ذلك عبرَ حركةٍ بسيطةٍ جداً، حيث تلبس ملابساً بيضاء، كالكفن، تضعك أمام حقيقةِ الموت، حقيقةِ أنه قادمٌ لا محالة، وأنَّ عليك أن تفعلَ شيئاً ما حيالَ تلك الرحلة الإبراهيمية المستمرة، قبل أن تلبسَ الكفنَ حقيقةً..

إنها آلةُ الزمن، تضعُ الأبعادَ الثلاثةَ للزمن، الأمس والآن والغد، في بعد واحد، تسحبك من قفص «الآن» الضيق، وتضعك في بعدي التاريخ العميق، والمستقبلِ الأعمق، تجعل من حاضرك جسراً يستفيد من رحلةِ الماضي كوقودٍ تستخدمه في رحلتك نحو المستقبل: المستقبلِ الذي ترسمه أنت، وتخطط له أنت، وتحسنُ الإعداد له.. ثم تحققه أنت.. مستفيداً من ذلك الوقود الذي اختزنَتْه قيمُ تلك الرحلة – الركن..

★ ★ ★

«لبيك اللهم لبيك» ليس مجردَ كلماتٍ ينطقها لسانُ الحجيج، أثناء أدائهم المشاعر..

إنه أن تكون هذه الكلمات جزءاً من أسسِ الحضارةِ التي تبنيها..

إنه أن يكونَ ذلك البيتُ الذي تطوف به مصدرَ قيمك، وأن تكونَ أعمدتُه وأركانُه، أعمداً وأركاناً لبيتك الذي تعيش فيه، ولحياتك التي تعيش فيها.. ولمجتمعك الذي تعيش فيه..

إنه «نسكي ومحياي ومماتي».. كما قال سيدُنا إبراهيم يوم كان ما كان..

تلك الرحلة – تخوض بك عبر الزمن – نحو ذلك كله..

أو بالأحرى، إنها يفترض أن تفعل ذلك..

لكن لأن أحداً لم يخبرنا بذلك، فقد تعاملنا مع آلةِ الزمن على أنها غسالةٌ للذنوب - لا أكثر ولا أقل.. ولم نحاول إضافةَ خطوةٍ أخرى في المسيرةِ الإبراهيميةِ التي هي جوهرُ رحلةِ الحج..

بالمناسبة: تعامُلنُا مع فريضةِ الحجّ على هذا الأساس هو ذنبٌ أيضاً.. ولا أعرف إن كان يدخل ضمن ما تزيحه الغسالة..!

★ ★ ★

الانحياز الإيجابي

بعضُ الأمور لا يجدي معها الحياد.. بل تتطلبُ دوماً الحسمَ والوضوح..

إما أن تكونَ مع، أو ضد..

إما الأبيض، أو الأسود..

لا بين بين..

لا لونَ رمادياً هناك...

بعضُ الأمور لا يمكن أن تتساوى بالنسبة لك..

لا يمكنُ أن تمرَّ بها، فتهزَّ كتفيك لا مبالياً، وكأنَّ الأمرَ لا يعنيك..

لأنه يعنيك فعلاً..

يعنيك حقاً..

يعنيك وإن تظاهرتَ أنه لا يعنيك..

بعضُ الأمور لا يمكن أن تكونَ محايداً تجاهها..

لا تحبها، ولا تكرهها..

لأن الحيادَ في هذه الحالة، سيكونُ في جانبٍ معين، ولعله سيكونُ في جانب (الضد)..

لا يمكنكَ مثلاً، أن تكونَ محايداً تجاه خطرٍ يهدد حياةَ أطفالك..

لا يمكنكَ أن تكون لا معَ، ولا ضد..

لأنك إذا كنت كذلك، فإنك - عملياً - تفسحُ المجال لمن يهددُ حياةَ أطفالك، حتى لو كنت نظرياً تتشدقُ بحيادك المزعوم في كل شيء..

لا يمكنكَ مثلاً أن لا تحبَّ ولا تكره بعضَ الأمور، عندما تكون هذه الأمورُ تمس صميمَ وجودك..

بعضُ الأمور تقبلُ الحياد..

لكنَّ أموراً أخرى، بطبيعتها، لا تقبل ذلك..

★ ★ ★

لا يمكنك مثلاً أن تكونَ محايداً في مشاعرك، تجاه من خلقك..

تجاه الله عز وجل..

إنه إما أن تحبَّه، وإما أن تكونَ غيرَ ذلك..

ولكن.. مع ذلك..

هناك من لا يكن أيَّ مشاعر..

لا بالسلب، ولا بالإيجاب..

هناك من يحاولُ أن يكونَ محايداً تجاه ما لا يمكنُ الحيادُ تجاهه..

تجاه الله..

★ ★ ★

والحبُّ، في النهاية، وفي البداية أيضاً، يحتاجُ إلى براهين..

براهين وأدلةٍ تمنحُ المصداقيةَ لهذا الحب..

ومن الخيالِ إلى الواقع..

ومن أن يكونَ مجردَ مشاعرَ مسفوحة، إلى أن يكونَ موقفاً حقيقياً..

دون هذه البراهين، سيكون هذا الحب «لا حباً..»

أي أنه كرهٌ.. ولو قلنا غيرَ ذلك طوال الوقت..

★ ★ ★

وما هو البرهان على حب الله؟..

أي على كونه حباً حقيقياً – وليس مجردَ عواطف مسفوحة..

بلا مواربة، ومن آخر لآخر، يخبرنا القرآنُ الكريم عن هذا البرهان:

﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ ﴿٣١﴾ ﴾ [آل عمران: ٣١].

إن كنت تحب الله، فلا تتشدق بذلك طوالَ الوقت..

لا تقل كم شُغف قلبُك بذكر الله، وأنه معك طوالَ الوقت..

الحبُّ ليس بالكلام..

إنه ببرهانِ الفعل ومصداقيته..

وبرهانُ حب الله هنا هو اتباعُ رسوله.. عليه الصلاة والسلام..

اتباعُه..

نقطة انتهى..

★ ★ ★

الاتباع، هو ذلك الحسمُ الحازمُ الذي لا يشوبه تردد..

إنه أقوى حتى من الطاعة..

فالطاعةُ أن تسمعَ أمراً محدداً فتنفذه..

أما الاتباع فهو تفويضٌ مطلق..

إنه أن تراه يسلك طريقاً فتحسمَ أمرَك وتحزمَ حقائبَك وتتبعه..

إنه أن تنحازَ له، ولطريقِه، وللدربِ الذي يسلكه..

أن تتبعَ خطواتِه على ذلك الطريق..

★ ★ ★

هذا الطريق، ليس مجردَ دربٍ سار فيه عليه الصلاة والسلام..

بل هو طريقةٌ كاملة..

نمطٌ كاملٌ للحياة، تتداخل فيه التفاصيلُ الصغيرة مع اللافتاتِ الكبيرة، وتتكاملُ معاً وتتناغمُ سويةً..

إنه الطريقُ إلى تلك الحضارةِ الأخرى..

حضارةِ لا إله إلا الله..

الطريقُ الذي قد يكون خالياً موحشاً أحياناً، وعراً في أحيانٍ أخرى..

لكنه الطريقُ الذي شقه عليه الصلاة والسلام، من قلبِ الصحراء، إلى بناءِ ذلك للمجتمع الآخر، المبني على قيمِ الحضارةِ الأخرى..

وخطواتُه تلك، على ذلك الطريق، هي التي نتبعها كبرهانٍ على حبنا، الذي هو أكبرُ بكثيرٍ من مجردِ عاطفةٍ مسفوحة..

★ ★ ★

يوهموننا.. فيتحدثون عن الحيادِ الإيجابي..

والحقُّ أن أهمَّ ما في الحياة، لا يتحملُ الحيادَ الذي بلا لونٍ ولا طعمٍ ولا رائحة..

بل إن أهمَّ ما في الحياة، يتطلب منك أن تكون منحازاً دون قيدٍ أو شرط..

لكنه الانحيازُ الإيجابي هذه المرة..

الانحيازُ إلى قيمِ الخيرِ والحق التي يمثلها ذلك الطريقُ الذي شقه عليه الصلاة والسلام بيديه الكريمتين..

ذلك الطريق الذي لا يمكنك أن تكونَ محايداً تجاهه..

فإما أن تسلكَه وتساهمَ في شقه وتعبيده..

أو أن تتركَه.. وتسلكَ سبلَ الآخرين..

لكن تذكر..

ذلك سيعني أن حبَّك لله محضُ ادعاء..

وأن مشاعرَك تقع، في حقيقتها، في الجانبِ الآخر..

فهل ستستطيع أن تحسمَ الأمر؟..

هل ستستطيع أن تكونَ مع نفسك؟

مع ما يجب أن تكونَه؟

مع ما خُلقتَ من أجله؟

أم أنك ستفضل أن تكونَ بلا لونٍ ولا طعمٍ ولا رائحة؟..

والأسوأ من هذا: هل ستفضل أن تكون ضدَّ نفسك؟

البحث عن الذات

بعيداً خضتُ في المحيطات، وعميقاً غطستُ في مجاهلها، بين أصدافها ولآلئها..

رحلتُ في الصحاري الخالية.. وتسلقتُ أعلى قممِ الجبال..

نقبتُ في باطنِ الأرض، واستكشفتُ مجاهلَ الغابات..

وطئتُ بقدمي سطح القمر.. وأرسلتُ تذكاراً مني إلى المريخ..

غزوتُ الفضاء ونطحتُ السحابَ وقهرتُ الطبيعة..

صنعتُ الحدائق المعلقة، وبنيتُ سورَ الصين.. وشيدتُ الأعمدةَ الرشيقة في الأندلس.. تطاولتُ في البنيان هنا وهناك..

أقمتُ برجاً مائلاً هنا.. وشيدتُ قصراً عجيباً كالتاج من أجل إرضاءِ زوجةٍ هناك..

زورتُ التاريخَ مراتٍ عديدة، بعد أن صنعتُه بنفسي - أو صنعَه أجدادي، لا فرق..

تبوأتُ كرسيَّ السلطان.. وعرشَ المُلك.. وسدةَ الرئاسة..

وسكنتُ فيَ مكانةِ العبدِ الذليلِ المستضعف..

كنتُ أحياناً مع أثرى الأثرياء - وأحياناً ضمن أفقر الفقراء..

لم يبق مكانٌ يخطر في بالي، أو في بالكم، إلا وذهبتُ إليه..

لكني في خضم ذلك، نسيتُ أن أذهبَ إلى مكانٍ واحد.. كان يجدرُ بي أن أذهبَ إليه.. ذهبتُ إلى البحرِ والجبلِ والسهلِ والصحراءِ، إلى كلِّ مكانٍ يخطر في بالي أو بالكم..

ولكني نسيت أن أذهبَ إلى نفسي..

★ ★ ★

نعم، لقد ذهبنا إلى كلِّ مكان.. إلى حيث يجب، أو حيث لا يجب..

لكنْ، جوهرُنا، حقيقتُنا، أنفسُنا.. انشغلنا عنها.. بكل ما هو غير مهم..

★ ★ ★

بين ركامِ الأقنعةِ والتفاصيل، نبحث عن ذلك الجوهر، عن تلك الذات..

هل سنفاجَئ أو نُصدَم إذا اكتشفنا أنَّ تلك الذات – بقناعِها المبهرجِ وغلافِها البراق.. ليست سوى **ذات العبودية**..؟؟

رغماً عن كلِّ أنوفنا، وكلِّ ألقابنا ومناصبنا، وأرصدتنا وسنداتِ ملكياتنا..

لسنا، في الجوهر، سوى عبيد..

ليس هناك مفرٌّ من تلك الحقيقة..

مهما حاولتَ الفرار..

مهما حاولتَ تجاهلَها..

لست سوى عبد..

سواءٌ كان رأسُك محاطاً بتاجٍ مطهَّم، أو كنت مهموماً بالركض خلف لقمةِ الخبز..

لست سوى عبد..

بغض النظرِ عن كلِّ النظريات التي في رأسك..

بغضِّ النظر عن نظرتك لذاتك..

أنت لست سوى عبد..

اسمعها جيداً..

ثلاثة أحرف؛ ع، ب، د..

هذا كلُّ شيء..

عبدٌ..

نقطة انتهى..

★ ★ ★

لكن لِمَ يجب أن يكونَ ذلك محبطاً؟..

لم وضعنا كلمة (العبد) في إطارٍ ذهني معين، وصورةٍ ذهنية معينة..

صورةٍ ليست جميلة بالضرورة، ومفارقةٍ لكلِّ قيم الجمال، حتى صارت جلودُنا تشمئز من حقيقةِ أننا عبيد..

على عكس السائد في أفهامنا، قد يكون العبدُ أقصى ذروة يمكن أن يصلَها إنسان..

وقد تكون العبوديةُ مرتبةً عليا نحققُ من خلالها ذاتنا حقاً..

ولا يكون ذلك، إلا إذا استطعنا الوصول إليها، أو على الأقل حاولنا ذلك..

★ ★ ★

ولذلك، فقد اقترنت حادثةُ الإسراء وما تلاها من معراجٍ إلى السماء، بوصفِ الرسول عليه الصلاة والسلام بأنه (عبدٌ) لله تعالى..

﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ①﴾ [الإسراء].

الإسراءُ والمعراج كان حادثةً خارقة، وعلامةً شديدةَ التمايزِ في مسيرته عليه الصلاة والسلام، ومسيرةِ المجتمعِ الجديدِ والنهضةِ التي أقامها..

الإسراءُ منحه - عليه الصلاة والسلام - ذلك التواصلَ مع سلسلةِ الرسلِ الذين هو خاتمهم النهائي..

ومنح ذلك التواصلُ، لرسالته، عمقَها التاريخي..

وعندما اجتمع الرسولُ، عليه الصلاةُ والسلام، بالرسل الذين سبقوه - عليهم الصلاةُ والسلام أجمعين - في المسجدِ الأقصى وصلى بهم إماماً في تلك الليلة التي انكسرت فيها قوالبُ الزمان.. فإن إمامتَه لهم عليه الصلاةُ والسلام، كانت بمثابة ذلك التجسيدِ الشعائري لكونه خاتمَ تلك السلسلة.. وقائدَها النهائي.. وإمامَ الإنسانية جمعاء..

أما المعراج، فقد كان البابَ الذي دلف منه عليه الصلاةُ والسلام، ليس إلى أعلى نقطةٍ وصلها هو فحسب، بل إلى أعلى نقطةٍ وصلها أيُّ إنسانٍ على الإطلاق..

(قابَ قوسين أو أدنى)

كانت هذه هي النقطةَ التي تمثل الحدَّ الأعلى الذي سيصله أيُّ إنسان..

ولن يصلَها أحدٌ سواه، عليه الصلاةُ والسلام.

ولكنْ، ما علاقة ذلك كله، إسراءً ومعراجاً، بالعبودية؟..

علاقتُه أنه ارتبطَ بكونه عليه الصلاة والسلام عبداً لله..

وجاء النصُّ القرآني الذي نقلَ لنا خبرَ الإسراء وقد وصفَ الرسولَ الكريمَ بذلك.. بكونه عبداً لله..

ليس ذلك مصادفةً أبداً..

كما أنه ليس محاولةً لموازنةِ ارتفاعِ مكانةِ الإسراء عبر توصيفٍ تقليلي من هذا النوع..

على العكس..

كانت العبوديةُ هي البابَ الذي دخل منه عليه الصلاة والسلام لذلك كلِّه..

كانت العبوديةُ هي الدرجةَ الأولى والحتمية لذلك السلم المضيء الذي ارتقاه عليه الصلاة والسلام، إلى أن وصلَ إلى الدرجةِ العليا المستحيلة لسواه، درجة قابَ قوسين أو أدنى..

ولأنه توغلَ في عبوديته، في أعماقها، وصلَ إلى أقصى ما يمكن الوصولُ إليه.. إلى سدرة المنتهى، قابَ قوسين أو أدنى..

* * *

عبوديتُك لله عز وجل هي التحقيقُ الأكملُ لذاتك العليا..

كلما كنتَ عبداً - لله - أكثر، كنتَ نفسَك أكثر..

وكلما كنتَ نفسَك أكثر، اقتربتَ أكثر من تحقيق ما خُلقت من أجله..

كما لو أنَّ الاقترابَ من كل ذلك، لن يكون إلا بالعبودية.. بالمزيد منها..

* * *

واسجد واقترب..

تلك هي، بكلمتين اثنتين، خارطةُ الطريقِ للوصولِ إلى الذات..

سجودُك له - عز وجل - هو مفتاحُ اقترابك من نفسك، من ذاتك..

من ذاتك التي يجب أن تكون..

ووصولُك إلى ذاتك.. سيكون خطوةً حاسمةً في اقترابك منه عز وجل..

اسجد له لتقتربَ من ذاتك..

وكلما اقتربتَ من ذاتك، من حقيقتك كعبد.. ازددت اقتراباً منه..

واقتربت منه أكثر..

السير على زجاج مطحون

يقولون لنا غالباً: إن العبادةَ تريحنا، تخففُ من أعبائنا في حياةٍ متعِبة..

حياةٍ نلهث فيها خلفَ أشياءَ مختلفة..

من لقمةِ عيشنا، إلى حليبِ أطفالنا، إلى عكازِ أمراضنا..

حياةٍ مليئةٍ بالتنافسِ المضطرم..

الصراعُ فيها هو القانون..

والتنافسُ فيها هو المقياس..

هنا تكون العبادةُ بمثابةِ كوةٍ ننعمُ فيها بالسكينة..

منسحبين إليها من عالمِ الصراعِ وإرهاقه..

من شجونه، ومن اضطراباته..

يحدث ذلك فعلاً أحياناً..

ويروَّج لنا ذلك دوماً..

تبدو العبادةُ وسيلةً لتخفيفِ الضغط..

مثلَ صمامِ أمانٍ ننفسُ من خلاله تراكماتٍ تعتمل في داخلنا، كي لا تصلَ إلى حدٍّ تنفجر فيه..

ربما يفلحُ ذلك في تخفيفِ الضغطِ أحياناً..

وربما لا..

لكن، ثمة مشكلةُ في ذلك كله..

مشكلةٌ كبيرة..

★ ★ ★

العبادةُ هنا وسيلةٌ لتخفيف الضغط..

لجعلِ الاستمرار أكثر يسراً.. وسلاسة..

لكنَّ العبادةَ، أصلاً، قدمت لنا في القرآن على أنها الهدفُ من وجودنا..

الهدفُ من خلقنا..

﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ ﴾ [الذاريات]..

فكيف صار الهدفُ مجردَ وسيلةٍ لتخفيفِ الضغط؟

كيف صار الهدفُ صمامَ أمانِ الانفجار، أو تأجيلاً له !؟..

لا ريبَ أن هناك مشكلةً ما..

ولأن الأصلَ هو النصُّ القرآني، الذي لا يأتيه الباطلُ من أي مكان، فلا بد لأفهامنا أن تتشكلَ إذا حسبَ هذا النص..

والنص يقول: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾..

★ ★ ★

لكن، ومن البدء، من قال إنَّ العبادةَ محصورةٌ بذلك الشكلِ الشعائري الذي نعودناه..

إنها موجودةٌ هناك طبعاً وقطعاً..

لكن ربما هي تتجاوز ذلك - لتشملَ حياتَنا كلَّها..

وربما معناها العام والشامل، هو الذي يمكن أن يساعدَنا لفهم لِمَ خُلقنا..

يساعدنا في فهمِ لماذا نحن هنا على هذا الكوكب..

★ ★ ★

بين العبادة، بمفهومها العام الشامل، والتعبيد، تعبيد الطرق، علاقةٌ تتجاوز علاقةَ التشابه بالألفاظ..

فالأصلُ واحد، والفعل عَبَد يعني الخضوع والإذلال..

والطريق المعبد، يتعرض لإخضاع من نوع ما، بحيث يعادُ تشكيلُه وصبُّه، بحيث يصير معبداً..

هل يذكرنا هذا بشيء..؟

أليست العبادة بمعناها العام والشامل، بكونها اسماً جامعاً لكل ما يحبه الله ويرضاه، تشبه هذا الطريق المعبّد أيضاً نحو كل ما يريده الله ويرضاه..

أليست العبادة، هي هذا الدرب الذي نعبِّده ونمشي فيه في آن واحد - خطوة خطوة.. نحو ما أمرنا الله به..

نحو ذلك العالم الذي أُمرنا أن نصنَعه..

★ ★ ★

﴿ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ أَرْضِى وَٰسِعَةٌ فَإِيَّٰىَ فَٱعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ ﴾ [العنكبوت]

إنهم عبادُه، عز وجل..

وهو، جلّ وعلا، يناديهم بذلك..

لكنه يشير لهم، إلى أن العبادةَ ليست، ولن تكون، محصورةً في صوامعَ منعزلة في قمم الجبال، أو ما يوازيها، عبرَ القطيعةِ والعزلةِ التي يختارها بعضُهم، زهداً في ما يتصورونه أنه قد يبعدهم عن الله عز وجل..

ولكن هاهو النص يأخذهم من عزلتهم إلى «أرض الله الواسعة» التي يجب أن ينتشروا فيها، ليتعبدوه من خلال إصلاحها..

من خلال إعادةِ بنائها وبناءِ قوانينها لتكونَ أقربَ إلى إرادةِ الله..

وإنها أرضٌ واسعة، لذلك لا وقت هناك للابتعاد عنها..

لا بد من جعلها، كلِّها، معبَّدة لتصير درباً نحو كل ما أمرَ الله به..

وإنها أرضٌ واسعة، وحياتُنا بالكاد ستكفي لتعبيد جزءٍ يسيرٍ منها..

وكلُّ ما يهمنا نحن..

كلُّ ما يهم في النهاية، هو إسهامُنا في ذلك..

في تعبيدنا لتلك الأرض..

في جعلها طريقاً ممهَّداً لذلك العالم الذي يجب أن يكون..

★ ★ ★

حياتُنا يمكن أن تختصر بأنها المسافةُ بين نقطتين..

نقطةِ الانطلاق، ونقطةِ الوصول..

وكلما كانت المسافةُ بين النقطتين يسيرةً، ومفروشةً بالورود، جاز لنا أن نشكَّ في صواب الاتجاه..

في كون نقطةِ الوصول تؤدي إلى هاويةٍ ما، أو قرارٍ سحيق..

لا يمكن أن تكونَ اختباراتُ الحياةِ المصيريةِ يسيرةً جداً، وإلا لكان هناك خطأ ما..

والوصولُ إلى النقطةِ الصواب يتطلب أن يكون الدربُ صعباً وشاقاً، ومفروشاً أحياناً بالزجاج المطحون..

وليس التعبيدُ أمراً يسيراً على الإطلاق..

أحياناً تكون الأرضُ صخرية، وعليك أن تخمشَ بأظافرك لتحفر فيها..

وأحياناً تكون الأرضُ رملية، تبدو سهلة، لكنها لن تحتملَ عبءَ التعبيد..

أحياناً تكونُ الأرضُ رخوة، ما إن تبدأ بالتعبيد فيها حتى تخسفَ بك..

وأحياناً ستضطر إلى التعبيد على فوهة بركان، أو على حافة زلزال..

ليس التعبيدُ أمراً يسيراً على الإطلاق..

أحياناً ستكون الأرضُ مفروشةً بالزجاجِ المطحون، وتكون قدماك عاريتين..

وستضطر إلى الزحفِ على الزجاج، وأنت تعبدُ الأرضَ بيديك..

من قال إن العبادة، بمفهومها الشامل والعام أمرٌ يسير؟..

من قال إنها تشبه النزهة، أو صيد الفراشات؟..

كلا..

بل ربما تشبه صيدَ التماسيح، أو مصارعةَ الديناصورات، أو التناطحَ مع غيلان الأساطير...

العبادةُ ليست صمامَ أمانٍ عابر..

بل هي وسيلةٌ لتحقيقِ الأمانِ الحقيقي.. ولو على المدى البعيد، الذي لا يمكن النظرُ المباشرُ إليه..

★ ★ ★

نستطيع أن نراهم هناك..في بطحاء مكة..

يقاسون ويعانون أشد العذاب على الرمال الحارقة..حيث يسومهم كفار قريش وملأها المستكبر أفظع أنواع العذاب لكي يردوهم عن «الدين الجديد»..

نستطيع أن نستشعر ثقل الحجر الكبير على صدورنا..والسياط تلهب ظهورنا.. والرمل الساخن يزيد عذاب كل ذلك..

ما كان أسهل التخلي عن كل ذلك..

كلمة واحدة كانت ستزيح الحجر الجاثم..وتوقف السياط..وربما سيكون هناك شربة ماء تروي الظمأ الصحراوي القاتل..

ما كان أسهل أن تقال كلمة واحدة عن ذلك الصابئ ودينه الجديد..

لكن في لحظة ما..في خيار ما..في تقاطع طرق يلخص حياة كل إنسان وحقيقته وجوهره..بدا إن تلك الكلمة التي تدين الدين الجديد أصعب من كل ما كانوا يقاسونه..فجأة بدا إن السير على الزجاج المطحون..بأقدام عارية..على رمال ساخنة هو الخيار الأمثل..هو الخيار الصحيح..هو الصواب بعينه..

فجأة بدأ إن كل ذلك العناء هو الشيء الذي يجب فعله بلا مساومة ولا مفاوضة ولا حلول وسط لا ترضي من يستحق أن يرضى..

فجأة بدا لأولئك الذين يقاسون في بطحاء مكة..إن السير على الزجاج المطحون هو الطريقة الوحيدة لتعبيد الدرب إلى عالم أفضل..فجأة بدا لهم إنه لا بد من دفع ثمن ما لعالم أفضل..والثمن المدفوع لعالم أفضل لا يمكن أن يكون بخساً..

لا بد..أن يكون باهظاً...

* * *

يمكن لنا أن نرى المسافة بين نقطتين ممثلة في حياة واحد من الصحابة الكرام..

نقطة البداية: عبد حبشي لا يذكر..لا يمكن أن يتخيل أي أحد أن اسمه سيبقى يوما واحدا بعد وفاته..

نقطة النهاية: صوت قرع نعليه..يسمع في الجنة..واسمه ينتقل بين القارات..و يسمى به الناس تيمنا

أرحنا بها يا بلال..

الصلاةُ هنا، ليست صمامَ أمان..

بل هي حقنةٌ من القوةِ والنشاطِ والطاقةِ لمواصلةِ الطريقِ على مصاعبه..

ليست الصلاةُ هنا كوةَ الانسحابِ من العالم، من أجلِ الهدوءِ والسكينة..

بل هي عمادُ الدين، الذي يصير عماداً لشخصيةِ الفردِ والمجتمع..

نعم، أرحنا بها يا بلال..

فدربُ العبادة شاقٌّ أحياناً..

يدمي الأقدامَ عندما تسير عليه..

ويدمي الأيدي عندما تعبده..

أرحنا بها يا بلال..

فالدربُ طويل.. والعبءُ كبير..

وأرضُ الله الواسعة تحتاجُ إلى كلِّ أيدينا لكي نعبّدها..

وهذا هو امتحاننا الأرضي..

خُلقنا من أجل أدائه..

وسنحاسَب، يوم نحاسَب، عليه..

أرحنا بها يا بلال..

فنحن متعبون لأننا بشر..

ولأن المهمةَ التي أوكلت إلينا ليست يسيرة، كما هي كل الأمورِ الأساسيةِ في الحياة..

أرحنا بها يا بلال..

نحتاجها لكي تمدَّنا بوجبةٍ من الطاقةِ من أجلِ المواصلة..

المواصلةِ على ذلك الدربِ الذي لا مفر من السيرِ عليه، إذا كنا نريد أن نصلَ حقاً إلى ما ينبغي الوصولُ إليه..

أرحنا بها يا بلال..

فقد خُلقنا من أجل تعبيد ذلك العالم..

والتعبيدُ شاق..

ويحتاج إلى الصلاة..

العجلة، أحياناً، من الرحمن

يحذروننا منها..

يقولون لنا: في التأني السلامة.. وفي العجلةِ الندامة..

يحثوننا على التأني والتروي، ويحذروننا من عواقبِ العجلة ومن مخاطرها..

يصورون الأمرَ دوماً كما لو أنَّ العجلةَ مرتبطةٌ بخرقِ قانونٍ ما، بتهور، بطيش..

وكما لو أنَّ التأني دوماً مرتبطٌ بالحكمةِ والنضجِ والتعقل..

والأمرُ أحياناً صحيح..

ولكن ليس دوماً بالتأكيد..

فالتأني أحياناً يكون تردداً قاتلاً..

يكون حسماً مؤجلاً في أمورٍ لا تحتمل التأجيل..

التأني أحياناً يكون تبريراً للتسويف، تسويغاً للتأجيل..

وقد تَضيعُ حياتُك كلُّها وأنت تتأنى في هذا الأمر أو ذاك..

وقد تمرُّ حياتُك وأنت تتأنى..

ويضيعُ العمرُ كلُّه تحت شعار أنَّ في التأني السلامة..

★ ★ ★

هل يمكن أن نقول: إن في التأني السلامة، بينما البيتُ يحترقُ مثلاً؟..

هل يمكن أن نقول: إن في التأني السلامة، بينما البناءُ يوشكُ على الانهيار؟

هل يمكن أن نقول: إن في التأني السلامة، بينما صافراتُ الإنذار تعلنُ الخطر، ونقول إننا يجب أن «نفرَّ بجلودنا على نار هادئة»؟..

لا طبعاً..

هناك سيكون في التأني الندامة.. وفي العجلة السلامة..

★ ★ ★

وفي حياتنا دوماً، لحظاتٌ «مفصلية» تدق فيها صافراتُ الإنذار.. تنذرُ بالخطرِ القادم لا محالة..

وتلك اللحظات لا سلامة فيها إلا للعجلة..

لا مجال للتأني فيها..

فأي ترددٍ سيكون معناه أن الخطرَ قد اقترب أكثر، فأكثر..

وأن فرصَ النجاة تقلُّ أكثر فأكثر..

وعندها، لابد من العجلة..

★ ★ ★

﴿وَمَآ أَعۡجَلَكَ عَن قَوۡمِكَ يَٰمُوسَىٰ ۝٨٣ قَالَ هُمۡ أُوْلَآءِ عَلَىٰٓ أَثَرِي وَعَجِلۡتُ إِلَيۡكَ رَبِّ لِتَرۡضَىٰ ۝٨٤﴾ [طه]..

هنا العجلة لم تكن من الشيطان..

هنا العجلة كانت من أجلِ الرحمن..

كانت للرحمن..

هنا العجلة كانت جالبةً للسلامة..

كانت «حرقاً للمراحل» من أجلِ الوصولِ إلى الهدف..

وعجلت إليك رب لترضى..

★ ★ ★

ولم يكن الشوقُ إلى الله، وحده، هو دافعَ تلك العجلة.. بل كان أيضاً ذلك الإحساسُ الداهم بالخطر، بالحاجةِ إلى الفرار من واقعٍ سيئ يوشك على الانهيار..

كانت العجلةُ مدفوعةً بذلك الإحساس بأن الاستمرارَ في الوضع الراهن لم يعد ممكناً..

وأن صافراتِ الإنذار، التي لم تكف قط عن الإنذار، صارت مسموعةً فجأة..

★ ★ ★

لم يكن «الوضعُ الراهنُ» شيئاً مستجداً..

كان قد استمر لعقودٍ طويلة، وربما حتى لقرون..

وكان وضعاً سيئاً بالمقاييس كلها:

عبوديةٌ وذلٌ عاشهما بنو إسرائيل في حضن أكثرِ الحضاراتِ طغياناً في عصرها، الحضارةِ الفرعونية..

كان استلابُ وسلبيةُ بني إسرائيل قد جعلتهم يتعودون على ذلك الوضع، بكل ما فيه من جبروتٍ واستبدادٍ فرعوني.

إن موقعَهم بوصفهم أدنى الأمم، وموقعَ آل فرعون بوصفهم أعلى الأمم، هو حتميةٌ لا سبيلَ للخروج منها أو تغييرها..

ولعلهم كانوا يقولون، كما يقول غيرُهم في عصورٍ أخرى:

لا فائدة من المحاولة، لقد سبقونا بمراحل..

إنهم الأعلى دوماً..

الحضارةُ والتقدمُ ستكون دوماً حكراً لهم، والقيمُ ستكون دوماً قيَمَهم..

كان ذلك هو الوضعَ الراهن..

ولم يكن راهناً بشكل مستحدَث، لقد كان متراكماً منذ قرون..

وقد ظلوا متقبلين له باعتبار أنه لا مجال للتغيير..

ثم جاء الوحي ليغيرَ ذلك كلَّه..

ليجعلَهم ينتبهون إلى أنَّ ذلك كلَّه يجب أن يتوقف..

جاء الوحي ليسهلَ لهم الخروجَ من واقعٍ لم يعد ممكناً الاستمرارُ فيه..

﴿وَلَقَدْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِى فَٱضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِى ٱلْبَحْرِ يَبَسًا لَّا تَخَٰفُ دَرَكًا وَلَا تَخْشَىٰ ﴿٧٧﴾﴾ [طه].

وهل هناك دركٌ يمكن أن يُخاف أو يُخشى لمن تعود العيشَ في ذلك القاع؟..

كان الخروجُ، ولو إلى البحر، ولو عبر البحر، أهونَ كقرار، من قرارِ البقاء في ذلك الواقع، الذي كشف الوحيُ - فجأة - كم كان سيئاً..

كان الخروجُ هو ذلك القرار الذي يجب ألا يتأنى فيه أحد، وإلا كان في ذلك التأني الندامة..

★ ★ ★

﴿وَمَآ أَعْجَلَكَ عَن قَوْمِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿٨٣﴾﴾ [طه]؟..

ما الذي جعلك تتقدمُ عنهم هكذا؟..

هاهم أولاء على أثري..

ذلك أن عجلةَ موسى لم تكن ولا يجب أن تكون حادثاً فردياً معزولاً عن الحراك الاجتماعي..

فعجلةُ موسى وإسراعُه في خطاه إلى الطريقِ الحق، إلى الله عز وجل، كانت مثالاً ونموذجاً لكل قومه.. من أجل أن يعجلوا هم أيضاً على أثره..

كانت عجلةُ موسى أبعدَ ما يمكن عن الفردية.

كانت «عجلته» من أجل تحريكِ عجلةِ المجتمع ككل..

ربما لم يكن المجتمع موازياً لعجلته..

ربما لم يكن بنو إسرائيل أولاء على أثره..

لكن المهم هو أن تحاول..

أن تجعلَ المجتمعَ يتحرك..عبر عجلتك أنت..

★ ★ ★

وبين العجلة والاستعجال فرقٌ كبير..

فالعجلةُ تعني أن تقومَ أنت بما يجب القيامُ به..

أن تحرقَ المراحل، وتحرقَ القيودَ التي تحيط بيديك وبإرادتك..

أما الاستعجال فهو أن تطلبَ من الآخرين أن يقوموا بذلك بالنيابة عنك، أو أن تدعوَ الله أن يفعلَ ذلك ويجيبَ دعاءَك، دون أن تقومَ بما تتطلبه الإجابة..

الاستعجالُ هو أن تنتظرَ، على أحر من الجمر، أن يتغيرَ وضعٌ هو أسوأ من الجمر.. لكن أن لا تفعلَ شيئاً حيالَ هذا التغيير سوى الانتظار أو الدعاء..

أما العجلةُ فهي أن تقومَ بما يجب عليك القيامُ به، دون إبطاء، دون تسويف..

العجلةُ هي أن تحرك عجلتك دون إبطاء - وعلى الطريق الصحيح..

★ ★ ★

نستطيع ان نرى ذلك كله في شخصية عمر الفاروق، ذلك الفرد الفذ الذي حوله الإسلام من مجرد رجل على هامش التاريخ إلى عملاق ساهم في تغيير التاريخ..

نستطيع أن نستشعر عجلته، تحرك عجلة التاريخ..

ها هو يقول له عليه الصلاة والسلام، والمسلمون لا يزالون في دعوة السر والاضطهاد على الحق يا رسول الله إن متنا أو حيينا، قال:بلى والذي نفسي بيده إنكم على الحق متم أو حييتم، فقال عمر: ففيم الاختفاء؟، **والذي بعثك بالحق لتخرجن،** فخرج رسول الله والمسلمون خلفه في صفين على أحدهما حمزة وعلى الآخر عمر،، فدخلوا المسجد الحرام وقريش تنظر إليهم وتعلوها كآبة، ولا يجرؤ سليط منها ولا حكيم أن يقترب من صفين فيهما هذان، ومن يومها أصبحوا قوة ظاهرة..

كانت تلك عجلة عمرية رحمانية من عمر الفاروق..عجلة فرقت بين الحق والباطل..و الكفر والإيمان..و سمي صاحبها بالفاروق لهذا السبب تحديدا..،

★ ★ ★

نستطيع أن نستشعر العجلة العمرية مرة أخرى في صلح الحديبية..يوم صار الاتفاق إلى الرجوع عن البيت الحرام ورد من أسلم حديثا إلى المشركين..

يومها وقفت عجلة عمر حائرة امام التباطؤ الذي أحسه، اسمعوا ما قال بلسانه عن تلك الحادثة واستشعروا تلك العجلة تريد أن تنطلق.. أن لا تترك لحظة واحدة دون أن تساهم في تغيير العالم...

.. فقال عمر بن الخطاب فأتيت نبي الله ﷺ فقلت: «ألست نبي الله حقا؟ قال: بلى. قلت: ألسنا على الحق وعدونا على الباطل؟ قال: بلى . قلت فلم نعطي الدنية في ديننا إذا؟ قال: إني رسول الله ولست أعصيه وهو ناصري... قلت أوليس كنت تحدثنا أنا سنأتي البيت فنطوف به؟ قال: بلى فأخبرتك أنا نأتيه العام . قال: قلت لا قال: فإنك آتيه ومطوف به. قال فأتيت أبا بكر فقلت: يا أبا بكر أليس هذا نبي الله حقاً قال: بلى قلت ألسنا على الحق وعدونا على الباطل؟ قال: بلى قلت فلم نعطي الدنية في ديننا إذاً؟ قال: أيها الرجل إنه لرسول الله ﷺ وليس يعصي ربه وهو ناصره فاستمسك بغرزه فوا لله إنه على الحق...»

تلك العجلة العمرية، لم يوقفها الكابح النبوي كما قد يبدو للوهلة الأولى..بل منحها طاقة إضافية عندما وفرها للعام القادم..

وكان ذلك درسا جمع الحكمة بالعجلة الرحمانية، لم يوقفها بدواعي الحكمة ليقتلها الفتور والتباطؤ..بل زادها قوة ومناعة..

وعندما أتى حين الدهر الذي صار فيه عمر خليفة..

فعلت تلك العجلة ما لم يفعله شيء..آخر..

★ ★ ★

وعجلت إليك رب لترضى..

لن أقضيَ حياتي في انتظارِ فرصةٍ لن تأتي..

لن أتركَ عمري يتسلل من بين أصابعي، وأنا أقولُ إنَّ الوقتَ لم يحن بعد..

لن أدعَ آلياتِ التعود تبلِّدُ شعوري بالخطر..

لن أدعَ الوقرَ في أذني يمنعني من سماعِ صافرةِ الإنذار، التي تقول لي أن أعجل..

لا.. لن أرضى بأن تتكلس حواسي..

أن ينمو العنكبوتُ على إرادتي..

لن أرضى أن تمضي حياتي وأنا أسوّف.. وأؤجل..

لقد عجلت إليك ربّ، لترضى..

وكما كانت «العجلة» أهمَّ مخترعٍ أنجزته الإنسانيةُ منذ أن اخترعت الأبجدية..

فإن عجلتي إليك، ربّ، ستكون إنجازي الأهم، والأكثرَ فاعلية وإثماراً، في رحلة حياتي..

خاصة إذا ساهَمت في تحريك «عجلة» المجتمع..

من أجل أن ترضى..

ذاكرة العطر

بعضُ أفضلِ الأمور ستبدو سيئةً جداً في مطلعها.. في بداياتها..

ستبدو كما لو أنها الشرُّ المطلق، وأنها الكارثةُ التي ليس بعدها كارثة، وأنها أسوأ ما مر بحياتك، وأسوأُ ما يمكن أن يمرَّ بحياةِ الآخرين..

ولكن، مع الوقت، ستتكشفُ لك العاصفةُ عن شعاعٍ من النور..

وسيقودُكَ هذا الشعاعُ إلى رؤيةٍ أخرى، إلى طريقٍ آخر..

وإذا بما بدا أنه سيئٌ جداً، وشرٌ مطلق، يتضحُ أنه كان درباً ومعبراً نحو الخيرِ كلِّه..

ستكتشف لاحقاً، وربما بعد مدةٍ طويلة، أن ما كرهته جداً وقتها، كان مجردَ حلقةٍ من حلقاتِ التفاعل، أو مجرد شرارةٍ لها..

ولكن – ولأنك كنت في وسط التفاعل – في خضم حلقاته، فإنك لم تنتبه لذلك..

★ ★ ★

وهكذا.. فإن المخاضَ الموجع، والألمَ المقدس، سينتج عنه طفلٌ تكون ضحكتُه أغلى ما لدى أبويه..

كلُّ ما هو جميلٌ ومهمٌ في الحياة، لا بدّ أنه بدأ يوماً ما هكذا..

بمخاضٍ مؤلم، أو بما بدا أنه الشرُّ بعينه..

لابد أن يكون ذلك..

ولو أننا استجوبنا كلَّ ما هو مهم ومؤثر وجميل في حياتنا، وسألناه عن جذوره، عن ذاكرته الأولى، لوجدنا ذاكرتَه تعج بها سيصدمنا..

بها سيتناقض مع كل ما هو جميل فيه..

ولكنْ، كلُّ بناءٍ شامخ، لابد وأنه احتاجَ إلى الكثيرِ من الجهد، الكثيرِ من العملِ الشاق، إلى أن ارتفع، واستوى، وصار إلى ما صار إليه..

رائحةُ العرق كريهةٌ بالتأكيد، لا شك في ذلك..

لكن عندما ينصببُ العرقُ في جهدٍ مهم، في شيء (يبقى)..

فإنه سيؤدي إلى أن تفوحَ رائحةٌ أخرى مختلفةٌ جداً..

كلُّ عطرٍ زكيِ الرائحة، احتاج يوماً إلى الكثيرِ من العرق ليكون عطراً..

صحيح أن حواسّنا المادية عاجزةٌ عن التقاط رائحة العرقِ في العطر..

لكنَّ العرقَ هناك، في جينات العطر.. في جذوره.. في ذاكرته..

إنها طبيعةُ الأشياء.. قوانينُها.. سننُها إن شئت..

إنها ذاكرةُ العطر..

★ ★ ★

ولقد بين لنا القرآنُ الكريم ذلك بوضوح شديد..

ليرشدَنا إلى الضوء، إلى النور.. إلى الطريقِ الصواب..

﴿وَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُوا۟ شَيۡـًٔا وَهُوَ خَيۡرٌ لَّكُمۡ﴾ [البقرة: ٢١٦]..

تكرهونه في البدء..

تظنونه الشر.. لأنكم ترونه بقصرِ نظر..

ثم تتضح الرؤيةُ لاحقاً..

فإذا به الخير كله..

★ ★ ★

فهل علينا إذاً أن نرحبَ بما نكره؟..

أن نصفقَ لما تراه أعينُنا شراً، على اعتبار أنه الخير المؤجَّل؟

أبداً..

الآيةُ لا تتحدث عن ذلك على الإطلاق..

إنها تتحدث عن (القتال) الذي كتب على المؤمنين..

أي أنها تتحدث عن وسيلةِ تغييرٍ وتصدٍ للشر، وليس عن الاستسلامِ غيرِ المشروط باعتبار أن الخيرَ سيأتي لاحقاً..

والحقيقةُ هي أنَّ العبورَ من واقع سيء، إلى واقع أفضل، يتطلب (فعلَ التغيير) الملقى على أكتافنا..

ولهذا جاء النص القرآني ليقول إن ذلك قد (كُتِبَ) علينا..

لقد (كُتِبَ) علينا، وانتهى الأمر.

رفعت الأقلام، وجفت الصحف..

لا شيء سيغير هذا..

لقد كُتِبَ علينا أن نبذلَ جهدَنا، بأشكالٍ متعددة، من أجل التغيير..

من أجل العبور، مما سيبدو أنه شر مطلق، باتجاه الخير..

★ ★ ★

فلنحاول أن نركب آلة الزمان ونرحل بذاكرتنا إلى حدث لم نعشه (للأسف!).. لكنه محفور في ذاكرتنا كما ينبغي له أن يكون..

إنه يوم الانتصارات العظيمة التي حققها المسلمون..يوم تحقق الفتح والانتصار على أعتى إمبراطوريتين آنذاك..إمبراطورية روما..وفارس..

يومها استقبلت المدينة خبر الفتح..واستقبلت أيضا كنوز الفتح..كنوز كسرى وقيصر..

كان ذلك خيرا لا جدال فيه..ليس فقط من أجل الغنائم..بل لأنه كان علامة على ظهور الدين الحق وانتشاره...وأولئك الذين عايشوا اللحظات الصعبة المرة التي مر بها هذا الدين لا بد أنهم أيقنوا أنه لولا تلك اللحظات الصعبة التي تمكنوا من اجتيازها لما وصلوا إلى يوم الفتح..

بينما هم يشاركون في توزيع الغنائم واستلامها، لا بد أن كان من بينها عطورا مترفة لم تتعودها أنوفهم..

ولعل ذاك العطر الجديد ذكرهم..برائحة أخرى..بيوم آخر..

★ ★ ★

المدينة نفس المدينة،..قبل ذلك بأكثر قليلا من عشر سنوات..

الأعداء يتربصون، أقسموا هذه المرة أن يتخلصوا من الدين الجديد وأتباعه مرة واحدة وإلى الأبد..تحالف الكفار والمنافقون واليهود في ملة واحدة..هدف الحلف القضاء على هذه الدعوة التي تهدد وجودهم بما أنها تدعو إلى الحق..

يومها كان الخندق هو الوسيلة التي استخدمها المسلمون ليحموا دعوتهم ووجودهم..و كلمة خندق تلفظ بسهولة في أربع حروف، لكن تطبيقها يتطلب جهداً كبيراً،..جهدا قد لا يفهمه حتى فهمه إنسان المدنية الحديثة الذي تعود على الوسائل والأدوات حتى كاد أن ينسى استخدام يديه..

لكن ذلك الخندق حفر بالأيدي وبالفؤوس البسيطة في حر الصحراء وفي أقسى الظروف..

مع كل ضربة فأس.. مع كل تراب ينقل..مع كل قطرة عرق تصبب من أجساد الصحابة..كان العطر القادم يقترب أكثر.. فأكثر..

★ ★ ★

نعم، كان مخاض العطر طويلا مؤلما..مر بمراحل، منها الخندق في المدينة ومنها شعب بني هاشم في مكة.. وبعدها..و بينها..مراحل أخرى..بعضها فردية وبعضها الآخر جماعية..لكن هذا الألم كله كان ممرا إلى ولادة جديدة مضمخة بعطر يحمل في جذوره رائحة الجهد الإنساني..

★ ★ ★

كلُّ المنجزات البشرية مرّت حتماً بهذا القانون.. بتتابعِ حلقاته..

يأتي الشرُّ بأشكاله المتعددة..

ربما كارثة طبيعية، ربما غزو خارجي، ربما انهيار اقتصادي..

سيكون شراً مطلقاً لو أن الإنسانَ استسلم له..

لو أنه رضي به وعامله بوصفه قدراً لا يجب تغييرُه.

لكنه لو التفت لما كُتِبَ عليه..

لو أن إرادةَ التغييرِ انبعثت في داخله، لاستطاعَ أن يحوِّل ما بدا أنه شرٌّ مطلق، إلى شر يمكن التغلبُ عليه وقهرُه، وصولاً إلى (الخير)..

الخيرِ الذي بدا بعيداً جداً لحظة وصولِ الشر..

والخيرِ الذي لم يكن من الممكنِ الوصولُ له، إلا بمقارعةِ هذا الشر..

المقارعةِ التي قد يتثاقلُ عنها البعض، ويصنفونها شراً أيضاً..

لكن الحقيقة أن إرادةَ التغييرِ تلك، التي كتبت علينا كفرض، هي الباب الذي ندلف منه، من ذلك الشر.. إلى الخير..

★ ★ ★

وهكذا فإن الكارثةَ البيئية، التصحر مثلاً، جعلت بعضَ الأقوام تستسلم لها، وجعلتهم بدواً جوّالين، يجوبون الصحراء بحثاً عن مركزٍ عابر.. بعضِ العشب وبعضِ الظل..

لكن أقواماً أخرى اعتبرت ذلك الشرَّ تحدياً، وتعاملت معه كحافز..

وبدلاً من الاستسلام لقدرِ الانحطاط.. قاتلته لتغييره..

وبدلاً من أن يصيروا مجرد «رعيان»..

قاموا بالهجرةِ إلى أرضٍ أكثر خصباً، إلى أحواضِ الأنهار..

لا ريب أن (الرحيلَ) كان صعباً..

وأن أولئك الذين بقوا، اعتبروه شراً ومشقة، وفضلوا البقاءَ على أمل أن تزولَ تلك الكارثة، أو تضمحلَ آثارُها..

اضمحلوا هم، ثم بادوا، وزالَ أثرهم..

أما أولئك الذين تصدوا بالمسيرِ والرحيلِ والاستجابةِ فقد صنعوا أعظمَ حضارات عصرهم.. وانتقلوا إلى واقعٍ أفضل..

بل وساهموا في نقل العالم كلّه إلى ما هو أفضل..

وهكذا فإن التصحرَ في جزيرة العرب، قد دفع أقوامَها إلى حوضِ النهرين العظيمين.. وهناك استطاعوا بناءَ أعظمِ حضاراتِ عصرهم..

★ ★ ★

الجفافُ مرة، والصقيعُ مرة، الأعداءُ الخارجيون مرات..

التحدي دوماً يأخذ أشكالاً متعددة..

لكنَّ إرادةَ التغيير واحدة..

إنها تلك التي كُتبت علينا..

وعلينا أن نجعلَ من حياتِنا قراءةً لها..

★ ★ ★

ليس ذلك خاصاً بالأحداثِ العظيمةِ التي تمر بها الأممُ فحسب..

بل هو قانونٌ سائد حتى في أزماتك الشخصية..

إن استسلمتَ لأزمتك فإن ذلك سيجعلك مثل أولئك البدو..

سيجعلك تهيمُ في أزمتك دون وسيلةٍ للخروج منها..

أما إن اعتبرتها تحدياً، واستجبت لها عبر إرادةِ القتالِ في داخلك، فإنك ستخرج منها..

حتى ولو لم تنتصر بالمعنى المباشر، فإن تجربةَ الأزمة بحدّ ذاتها ستضاف لرصيدك الشخصي..

ستكون انتصاراً لأنك ستخرج أقوى مما دخلت..

ستخرج وقد فتحت الباب، نحو ذلك الخير..

★ ★ ★

في كلِّ مرة ترى منجزاً، ترى بناءاً شامخاً، ترى نجاحاً، تذكر ذلك كلَّه..

تذكر ذلك التحدي الذي نكص عنده البعض، واستجاب له البعضُ الآخر..

وكان ما كان في الحالتين..

في كلِّ مرة تشم عطراً زكياً، تذكر كلَّ العرق الذي تصبب من أجل أن يكونَ ذلك العطر..

في كلِّ مرة، عند مفترق الطرق، تذكر إرادةَ المواجهة..

وافتح أنفَك لتتحسس ذاكرةَ العطر..

★ ★ ★

طريق مختصر للسعادة

يبحثُ الناسُ عن السعادة منذ أن وجدوا على سطحِ الأرض..

يبذلون من أجلها كلَّ غالٍ ونفيس..

ربما لا تجدهم متفقين على شيء، كما اتفاقهم على أنهم يريدون السعادة..

لكنَّ اتفاقَهم هذا، يُخفي اختلافاتٍ عديدة وتناقضاتٍ عميقة..

فهم يختلفون في تحديدِ معنى السعادة وتعريفها..

حتى تكادُ تتصورُ أنهم يبحثون عن أشياءَ مختلفة تماماً..

كلُّ ما يجمعُ بينها هو أنهم يطلقون عليها اسماً واحداً..

وهكذا، فإنَّ السعادةَ قد تكون، بالنسبة إلى شخصٍ ما، رصيداً كبيراً في البنك، وإجازةً طويلةً في منتجعٍ ساحلي..

وقد تكون، بالنسبة إلى شخص آخر، أحضانَ امرأةٍ حسناء..

وقد تكون ممثَّلَةً في (زوجٍ مناسب) بالنسبة لفتاةٍ يكاد سنُّ الزواج أن يفوتَها حسبَ معايير مجتمعها..

وقد تكون في مجرد كأسٍ من الشاي وقراءةِ كتابٍ ممتعٍ بالنسبة لآخر..

وقد تكون في مجردِ نومٍ مطمئن على وسادةٍ عادية..

النومُ المطمئن على الوسادة، لن يحملَ معنى السعادة بالنسبة إلى ذاك الذي يريد أحضانَ امرأة حسناء..

والرصيدُ الضخم قد يمحي السعادةَ بالنسبة إلى ذلك الذي لا يريد غيرَ الستر والطمأنينة.. والكتابُ الممتعُ قد لا يكون ممتعاً على الإطلاق - بل قد يكون مثيراً للضجر عند أشخاصٍ آخرين..

وهكذا، فإنَّ الجميعَ لا يبحثون فعلاً عن (السعادة)، بل كلٌّ منهم يبحث عن «سعادته»..

★ ★ ★

وما دام تعريفُ السعادة نسبياً لهذه الدرجة، فإن تعريفَ الشقاء سيكونُ نسبياً هو الآخر..

فالشقاء، هو ضدُّ السعادة، ولهذا فإنه يأخذُ من السعادة مطاطيةَ تعريفها.. ونسبيتَها..

وهكذا فإن الحياةَ المستورة، التي ربما تكون عينَ السعادةِ بالنسبة إلى البعض، قد تكون قمةَ الشقاء بالنسبة للبعضِ الآخر..

★ ★ ★

هل السعادةُ المطلقةُ وهمٌ إذا ؟..

قالبُ مطاط يختلف حسب مقاييس كلِّ شخصٍ وتعريفاتِه..

ألا يوجدُ معيارٌ أعلى يمكّن من قياسِ السعادة - ومن ثم الشقاء؟..

ألا يوجد معيارٌ يمكنُ الرجوعُ إليه، لنفهمَ السعادة، من منظارٍ يتجاوز مفاهيمَها الشخصية العابرة، بعيداً عن رصيدِ البنك، وكأسِ الشاي، والزوجِ المناسب.. والمتجعِ الساحلي؟..

★ ★ ★

بلى.. يوجد حتماً..

معيارٌ يتعالى عن أمزجتنا وظروفنا..

معيارٌ لا يتحدد بزمانٍ أو مكان.. أو ظرفٍ عابر..

معيارٌ قرآني مطلق، يحدد لنا التعريفَ المطلقَ للسعادة..

وبالتالي، المعنى المطلق لما هو ضد السعادة: الشقاء..

★ ★ ★

مكة، والزمانُ الصعب..

الصدودُ.. والكفرُ.. والآذانُ المغلقة.. والقلوبُ عليها أقفالُها..

وأكثر من هذا.. الإيذاء.. السباب..

القمامةُ تلقى على أشرف وأطهر من سار على قدمين..

والحصار..

كان الزمانُ صعباً جداً..

لا يمكن أن يشابه، بأي حال من الأحوال، كلَّ ما نتخيله عن السعادة..

على العكس، كان قريباً جداً من مفاهيمنا عن الشقاء..

لكن !..

يأتي القرآن.. حاسماً، فاصلاً، قاطعاً..

﴿ مَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لِتَشْقَىٰٓ ۝٢ ﴾ [طه].

★ ★ ★

قيل له يوما ما...

أتحب أن محمداً مكانك؟..

قالوا له ذلك وقد وضعوا فيه السلاح وهو مصلوب..

سألوه عن كان يفضل أن ينزل عن الصليب، عن موقع حتفه وعذابه..ليصعد محمد مكانه..

لم يرفض خبيب فقط ،لم يقل لا..ويسكت...

لم يجز على أسنانه ويتحمل العذاب..و يسكت منتظرا النهاية..متمنيا بالشهادة

بل قال قولا حري بنا أن نعيد تركيب مفاهيمنا عن السعادة والشقاء..

قال لهم ما يجب أن يجعل كل شعرة في جلودنا تنتصب خجلا أو ترقبا أو محاولة للتعلم..

قال:.. لا والله العظيم ما أحب أن يفديني بشوكة يشاكها في قدمه..

لا يحب أن ينزل عن موضع عذابه..مقابل شوكة صغيرة تدخل في قدم أفضل من سار على قدمين..

★ ★ ★

ولقد ضحكوا منه يومها..

ولا شك إن البعض سيضحك أيضا اليوم..سيتصورون إنه خيار خاطئ مجنون،وقد يجهد بعضهم نفسه في تحليلات لتفسير هذا الموقف..

لم تكن نهايات أعصاب خبيب مختلفة عن نهايات أعصابنا من حيث استشعارها الألم..

لكنه تعالى فوق نهايات أعصابه ليصل إلى نهايات الأمور وخواتيمها..أدرك إن الوصول إلى السعادة، سيتطلب حتما المرور بما قد نعتبره شقاء وعذابا بمفاهيمنا التقليدية العابرة..لذا فقد اعتبرها مجرد مرحلة عابرة، بل لعله استبشر بها باعتبار أنها علامة على اقترابه من السعادة...

لم يكن خبيب، ولم يكن أي ممن صنع تلك الحضارة، يعتقد إن الطريق إلى السعادة ممهدا بالسعادة..بل لقد أيقنوا أنه قد يكون معبدا بالجهد الجهيد الذي قد يسميه البعض شقاء..ما همتهم التسميات..بالضبط كما لم تهمهم الجهود التي كانوا يبذلونها..

سعادتهم كانت في بعد آخر..بعد لا يدركه من حبس نفسه داخل المفاهيم التقليدية..

★ ★ ★

مع مفاهيمنا التقليدية عن الشقاء، ستبدو مهمةُ حملِ الرسالة وحملِ القرآن قريبةً جداً من الشقاء.. مع كل ما ترتب من حملِ القرآن إلى العالم من أذى ومن نتائجَ سلبت ليس السعادةَ فقط، بل سلبت كلَّ معاني الراحة ممن حملوا تلك الرسالة، وبالذات منه عليه الصلاةُ والسلام..

لكن لا..

ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى..

ذلك أنَّ مفاهيمَنا الآنية قد توحي لنا بذلك..

لكنَّ القرآنَ لم ينزل – قط – من أجل ذلك..

قد يكون هناك تعب..

قد يكون هناك جهد..

بل إنه لا بد من أن يكونَ ذلك.. كما مع كلِّ الأشياءِ المهمة في الحياة، والتي لن تأتيَ جاهزةً أبداً..

لكنَّ ذلك كلَّه لا علاقةَ له بالشقاء..

بل ربما يكون مرتبطاً بما هو ضد الشقاء.. بالسعادة..

بمعناها الأعمق..

بجوهرها المطلق، معزولاً عن كلِّ تفاصيلها..

السعادةُ في أن تؤديَ دورَك الذي خُلقت من أجله..

ولو كان الأداءُ يتضمن تعباً..

يتضمن أذى..

نعم.. ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى..

بل لقد نزل من أجلِ إزالةِ الشقاءِ عن هذا العالم..

لتساهمَ في عالمٍ أقل شقاء، وبالتالي أكثر سعادة..

سعادةٌ حقيقيةٌ متوازنة، نابعةٌ من أداء هذا الدور..

دورِ إزالة الشقاء..

★ ★ ★

قد يبدو الأمر غريبا، أن تمر بكل المصاعب والمخاطر والمشاق ولا تشعر بالشقاء..

لكن ذلك حدث حقا وفعلا..وهو يحدث كلما امتلك أحدنا الإيمان بما يستحق أن يكون سبباً للحياة..عندها تكف المصاعب والمشاق بل وحتى العذابات عن أن تكون مصدرا للشقاء..و تتحول وياللعجب لتكون مصدرا للسعادة...

قد نتصور إن ذلك يتعلق ببعض التفاصيل المزعجة التي علينا تجاوزها في سبيل ما نؤمن..

لكن الأمر في حقيقته..

★ ★ ★

لذلك كان طبيعياً أن تأتي ﴿ إِلَّا تَذْكِرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ ﴿٣﴾ ﴾ [طه] بعد نفي الشقاء وإلغائه..

ذلك أنَّ الإنسانَ يحتاج إلى من يذكره، في غمرةِ جهده وتعبه وانشغاله، بأهمِّ ما خُلق من أجله..

بدوره على هذا الكوكب..

التذكرة بأن الدربَ الحقيقي إلى السعادةِ الحقيقية قد يتطلبُ ما سيبدو أنه الشقاء، حسب مقاييسنا الآنية، شديدةِ النسبية، سريعةِ الزوال..

★ ★ ★

قل لي الآن.. هل أنت سعيد بضياعك بحثاً عما توهمت دوماً أنه السعادة؟..

هل أنت سعيدٌ بالتخبط بين وهمٍ وآخر؟..

وهل أنت سعيدٌ بأن تُضيعَ حياتَك بحثاً عن سعادة زائفة، نسبية، ليست أكثر ثباتاً من ظلٍ مائل.. دقائقَ قبل الزوال؟..

وهل أنت سعيدٌ بأن تظلَّ تبحث عن طريقٍ مختصرة للسعادة، لكنها لا تؤدي بك إلا إلى متاهةٍ متشابكة من أوهامِ السعادة؟..

لا تتعب نفسك، ليس هناك من دربٍ مختصر لها..

ليس هناك من دربٍ يوصلك لها بلا تعب، بلا جهد، بلا ما سيبدو أنه الشقاءُ بعينه..

لكنْ، المهمُّ في النهاية، أن تعيَ تماماً دورَك..

المهمُّ أن تدركَ أن السعادةَ الحقيقيةَ تكون في أن تؤديَ دورَك الذي خُلقت من أجله..

دورَك في إزالةِ الشقاء عن هذا العالم، الذي يزداد شقاءً دوماً بتلك السعادات الوهمية..

وتذكر..

«ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى»..

بل لتزيل الشقاءَ عن العالم...

قليلةٌ، بل نادرةٌ، هي الأشياء التي لا يُجادل فيها الإنسان..

وهو الذي وصفه خالقُه أنه أكثرُ الأشياء جدلاً..

مهما ادعينا أن أمراً من الأمور «غيرُ قابلٍ للنقاش»، و«لا يختلف عليه اثنان»، فإن ذلك، عملياً، قليلٌ ونادر.. فالبشرُ مختلفون، ولأنهم مختلفون فإنهم ينظرون للأمورِ ويحللونها ويفهمونها بشكلٍ مختلف.. ولذلك فهم يختلفون..

مهما ادعينا أن أمراً ما هو من أساسياتِ الحياة، ومن ركائزها، وأنه من البدهيات، وأنه من «المعلوم بالضرورة»، فإننا نعلم أنَّ هناك من لن يتفقَ معنا في ذلك.. نستطيع أن نرفضَ رفضَهم، وأن نقولَ عنهم ما نشاء، لكن الأمر، لن يعود، مما «لا خلاف عليه بين اثنين..».

لا أقول هنا، إن إنكار حقيقة ما، سيجعلها حقيقة أضعف، أو حقيقة بدرجة أدنى.. أبداً، الحقيقة فوق وجهات النظر والآراء، ولا علاقة لها بصندوق الانتخابات وآراء المستطلعين ورسائل التصويت.. الحقيقة لا علاقة لها بهذا السطح البراق، مهما بدا مبهرجاً، إنها تسكن عمق الأشياء، لا الحقائق المتناثرة هنا وهناك..

وهكذا فإن قائمة ما لم يتفق عليه اثنان، تضم، ضمن ما تضم، أهم الحقائق وأكثر جوهرية، مثل وجوده عز وجل.. وهذا ليس غريباً أبداً، ذلك أن بعض البشر أنكر وجوده كبشر، فكيف تقنع من لم يقتنع بوجوده، بوجود خالق له أصلاً؟..

آخرون، أقروا متكرمين بوجود «إله ما» في هذا الكون، لكنه «إله» يشبه النظام الملكي البريطاني، يملك ولا يحكم، خلق العالم ثم تركه بلا حسيب ولا رقيب لسبب مجهول، وهكذا فإنه «إله» لا يرسل الرسل، وبالتالي لا يحاسب..

وهكذا اختلف البشر، في أمور نعدها من أساسيات عالمنا.. ومن أساسيات رؤيتنا للأمور.

* * *

لكن ذلك لا يعني، أنه لا توجد أمور، حازت على الإقرار.. والاعتراف.. على الأقل بالأغلبية.. حتى لا نقول بالإجماع..

هناك حقيقة معينة، نفذت، من تلك الآلة الجدلية التي اسمها الإنسان..

هناك حقيقة، استطاعت أن تحتل المرتبة الأولى في اعتراف البشر بها.. من بين كل الحقائق الأخرى..

ولذلك، فقد حازت على توصيف قرآني، لم يمنح أبداً، لأي حقيقة أخرى..

لقد سماها ربّ العزة: اليقين..

* * *

﴿ وَٱعۡبُدۡ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأۡتِيَكَ ٱلۡيَقِينُ ﴿٩٩﴾ ﴾ [الحجر].

لأن الموت، هو ذلك اليقينُ الذي لن تجدَ بسهولة اثنين يتناقشان في إنكاره، إلا إذا كان واحداً منهما في مشفى الأمراضِ العقلية.. ولم يأخذ علاجَه منذ فترةٍ طويلة..

الموت، هو تلك الحقيقة التي يخضعُ لها الجميع ؛ الملحد والمؤمن، الفيلسوف والمهرج، الوزير والبواب، الجميع..

ولذلك فقد أسماه ربُّ العزة: اليقين، هناك بعضُ الأمور يوقنُ بها بعضُ الناس، والنصُّ القرآني استخدمَ اللفظةَ كفعلٍ مراتٍ عديدة، إلا أن المرةَ الوحيدة التي استُخدمت مع أل التعريف، وبهذا الإطلاق، كانت تخص الموت..

ذلك، أنه اليقين الوحيد، الذي من الصعوبةِ الجدلُ بشأنه.. حتى مع مخلوقاتٍ مجادلة مثلنا..

★ ★ ★

قد يحدث ذلك على فراشٍ وثير، وأنت محاطٌ بالأهلِ والأحباب، أو على فراشٍ بارد في غرفةٍ باردةٍ تفوحُ منها رائحةُ العقوقِ والنكران..

الأمورُ متشابهةٌ حتى لو اختلفت التفاصيل:

بعد صراعٍ طويلٍ مع مرضٍ عضال، أو بذهابٍ يسيرٍ «محسود» عليه..

قد يحدث بحادثٍ مروري تافه، أو من أجلِ قضيةٍ نبيلة.. وغايةٍ سامية..

قد يحدث فيجدُ من حدث له «حفرةً لائقة» ومراسمَ تُؤدى حسب الأصول، ومن يزوره ويطل عليه بين الحين والآخر..

وقد تكون حتى هذه الحفرة ترفاً آخر، فتضيقُ الأرضُ بما وسعت على أن تجد له شقاً يؤويه..

قد يكونُ الأمرُ مع بريءٍ مُدان بحكمٍ ظالم.. وقد يكون جزاءً عادلاً..

قد يكون، بعد أن تكون قد حققت ما تريد من حياتك.. وقد تذهب قبل أن تصلَ حتى إلى سفحِ أحلامك..

في النهاية، تأتي النهاية، تتعددُ أشكالُها وأسبابُها ومظاهرُها، لكنها جوهرٌ واحد، النهاية.. مثل حافةٍ حادةٍ لنصلٍ لابد أن يمرَّ على الجميع.. لابد أن يحصدَ كلَّ سنابلِ الحقل.. دون أن تفلت ولو سنبلةٌ واحدة.. ولو واحدة..

★ ★ ★

تلك الحقيقة، ولأنها حقيقة وافقت عليها الأغلبية، فقد لعبت دوراً في تشكيلِ الإنسان..

كان الإنسان دوماً مقراً بالموت، لكنه كان أيضاً يحاول تحديه.. يحاول محاولاتٍ بائسةً للنفاذ من تلك الحافةِ الحادةِ التي تحصدُ الجميع..

حدث ذلك، حتى قبل أن يتذوق الإنسانُ الأول، الموتَ الأول، فقد كانت الرغبةُ في الانعتاق من الموت، الخلود، واحدةً من جوانبِ الطُّعم الإبليسي الذي استخدم في غوايةِ آدم والتي أدت إلى الخروجِ من الفردوس..

﴿قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ هَلۡ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلۡخُلۡدِ وَمُلۡكٖ لَّا يَبۡلَىٰ ١٢٠﴾ [طه].

وهذا يعني، أن الرغبةَ في النفاذ من الموت عميقةٌ جداً في النفس الإنسانية، لدرجة أنها كانت سبباً من أسباب الخروجِ من الفردوس.. مما لا يمكن النفاذ منه..

إنها محاولةٌ محكومةٌ بالفشل، على أي حال.. محاولةٌ للنفاذ.. مما لا يمكن النفاذُ منه.

★ ★ ★

تحدي الموت بالتغلب عليه، لم يكن ممكناً بالمعنى المباشر.. وقد حاول البشر، محاولاتٍ عديدة، لإبداعِ انتصارٍ رمزي على الموت.. لم يكن ممكناً من الناحيةِ العملية أن يتمَّ تخطي حاجز الموت، لكن البشرَ عمدوا إلى إقناعِ أنفسهم أنهم سيستمرون بعد موتهم، عبر عقائدِ تناسخِ الأرواحِ المنتشرة في بعضِ الحضارات، أو في تصورٍ مسطحٍ لفكرةِ الآخرة، عبر الاعتقاد، إنها تشبهُ حياتَنا الأرضية.. لذلك كان قدماءُ المصريين وغيرهم، يضعون طعاماً ومواداً منزلية في المقابر، لكي يتناولَها الأمواتُ لاحقاً بعد الموت، عندما يشعرون بالجوع..

مع رسوخِ تلك الأفكار، ومع تنوعها، نشأت أيضاً فكرةُ الاستمرار عبر الذرية، فكرةُ أنك قد تموت، بل إنك ستموت، لكن لا بأس، ما دمت قد تركت أولاداً ذكوراً سيحملون اسمك، وإلى حدٍّ ما رسمك، وهكذا فإن «الذي خلّف لم يمت»؟؟ رغماً

عن أنف الموت.. وهي أفكارٌ لا تزال سائدةٌ ومنتشرة، ونقولها بصيغٍ مختلفة لنواسيَ بها من سيموت، أو أهلَ من مات أصلاً..

★ ★ ★

وبين هذا وذاك، يأتي النوعُ الأكثرُ شيوعاً من تحدي الموت: إنه التحدي عبر الهرب منه !، عبر الانغماسِ في العيش وتفاصيلِ العيش، بين الركضِ خلف اللقمة، أو خلف الكعكة الكبيرة، أو خلف الملذاتِ السطحية، والإكثار من كل ذلك، كوسيلةِ دفاعٍ أخيرةٍ للهربِ اليائسِ من الموت، عبر التهرب من فكرته..

رغم تلك المحاولات، رغم بؤسها.. ظلَّ الموتُ مثلَ صخرةٍ صامدة وشبه ساخرة على شاطئ البحر، الأمواجُ تصطدمُ بها.. لكن الصخرة لا تأبه لها..

★ ★ ★

يأتي النصُّ القرآني حاسماً لفكرةِ تحدي الموت، يأتي مخاطباً الرسولَ الكريم، الرسولَ الذي يحتل مكانةَ القمةِ الإنسانية، والذي لا يخالجنا شك - بدون أي غلو في الإطراء - أنه الإنسانُ الأكثرُ قرباً من الكمال، ومع ذلك، ورغم مكانته، فإنه لا استثناءَ له ولا معاملةَ خاصةً له، مع قانونِ الموت.

﴿ إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾ [الزمر].

يأتي النصُّ ليزيحَ فكرةَ تحدي الموت.. ليزيحَ فكرةَ ذلك الخلودِ السطحي، الذي أوقعَ سيدَنا آدم في الفخ..

يأتي النصُّ القرآني مثلَ طوقِ نجاة، ما أوقع أبينا يجب ألا يوقعنا..

يأتي النصُّ القرآني ليحسم هذه المعركة المستحيلة، وهذا التحدي اليائس البائس..

﴿ إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾ [الزمر].

أمرٌ محسوم.. أمرٌ غيرُ قابلٍ للنقاش.. تستطيع أن تجادل.. تأخذ وتعطي في أمور أخرى..

لكنه الموت، وحتى الإنسانُ الكامل، عليه الصلاةُ والسلام، حتى هو، خاضعٌ له..

فلا داعي إذا ، للمحاولةِ للنفاذ..

لأن ذلك مما لا نفاذ منه..

★ ★ ★

لكنَّ النصَّ القرآني، لا يحذف الموت.

إنه يحذف تحديه.. يستأصلُ فكرةَ الخلودِ المباشر، عبر أكسيرِ حياة، أو عقارٍ معين، أو عبر استثناءٍ ما.. كان دوماً فخاً سقطت البشرية في تصديقه..

إنه ينبهنا إلى توجيه تحدياتِنا، وطاقتِنا، إلى جهةٍ أخرى يمكن أن ينفعَ معها التحدي..

إنه يعقد لنا «هدنة» مع الموت، يكرِّس فكرةَ التعايش معه، يغلقُ جبهةَ الصراعِ المستنزِف لنا ولطاقاتنا هناك..

من أجلِ أن نتفرغَ للجبهةِ الأخرى.. من أجل أن تركز هناك..

عن أي جبهة أتحدث..؟

تعرفون، الجهة الأخرى من كل ذلك، الجانب الآخر من المسألة.. الحياة..

★ ★ ★

عندما يتحدث القرآنُ الكريمُ عن الموت فالحديث ليس عن الموت «حقاً»..

إنه عن الحياة..

فالموتُ هو نهايةُ تلك الحياة.. وهو عن تلك الحياة.. وليس مهماً كثيراً في الموت أن نعرفَ التفاصيلَ الدقيقةَ لما سيحدث بعد الموت، بل ما حدث قبله تحديداً.. ما حدث في الحياة.. لأن ما حدث في «الما قبل»، هو الذي سيحددُ ما الذي سيحدث في «الما بعد»..

الموتُ هو عن ما أنجزتَه في حياتك، عن جردة حسابك، الموتُ ليس عن الموت حقاً.. إنه عن حياتك باعتبارها قضية، قضية تستحق الاختصامَ والمرافعةَ والدفاعَ والادعاء..

﴿ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ ﴿٣١﴾ ﴾ [الزمر]..

حياتُك باعتبارها قضية، تختصم من أجلها.. وتحضر من أجلها أدلتك.. ودفاعك وإثباتاتك وإثباتات نفي خصومك.. الموت هو عن الذي قدمته في حياتك: ما قدمته حقاً من أولويات، على سلم ما طبقته حقاً، وليس على سلم مبادئك وشعاراتك التي لا يصدقها أحد، ما دمت لم تخرجها إلى التطبيق..

الموت، هو عن أسئلة كهذه: ماذا فعلت من أجل الأرض، ماذا فعلت بالوقت الذي أعطي لك من أجل جعلها مكاناً أفضل؟.. هل ستغادر الكوكب وهو على الحال نفسه الذي دخلته فيه؟.. أم أنك فعلت ما سيجعله أفضل؟..

أم أن الأمر كله لا يعنيك، إنما هي حياتك الدنيا، بأدنى المعايير والمقاييس..بكل ما هو متدني وسطحي من المقاييس.. لا شيء خلف ذلك..

★ ★ ★

ولكننا لا نموت مرة في حياتنا..

إننا نموت عدة مرات.. بل إن بعضنا يقضي حياته أحياناً في موت تلو آخر.. إلى أن يأتي الموت، فيجدنا جثثاً هامدة استطاعت بطريقة ما أن تستمر في عيش بيولوجي بحت..

وهذا هو الفرق بين «أن تعيش» و «أن تحيا».. أن تعيش يعني أنك مستمر في أداء الوظائف التي تجعلك على قيد العيش، تنفس وأيض وتناسل، ضمن المعنى الأدنى لكل شيء...أما الحياة فهي انتقال من هذا الهامش السفلي الضيق، إلى آفاق أعلى، إلى المعنى الكلي المتراكم للأمر كله.. إلى نتيجته.. بعبارة أخرى: إلى آخرته..

★ ★ ★

نموت قليلاً كل يوم.. نموت، إحدى ميتاتنا، عندما نفقد الأمل، نفقد الرغبة في العمل، نفقد جذوة الحياة في حياتنا، نموت عندما تخبو تلك الشعلة في أعماقنا..

نموت إحدى ميتاتنا كلما قلنا أن لا جدوى.. كلما قلنا أن لا فائدة من المحاولة، نموت إحدى ميتاتنا، كلما سلمنا، كلما اقتنعنا بأن الهزيمة قدر لا فرار منه، كلما تصورنا بأن النار لا يمكن أن تولد من الرماد.. وأن النور لن يأتي بعد الظلام.. **نموت قليلاً كلما سمحنا للموت أن يمنعنا من الحياة،** نموت قليلاً كل يوم، ما دام كل ما نعرفه عن الحياة هو ذلك الموت اليومي الذي يكبل معايشنا..

الفرق، بين الموت اليومي، وبين الموت – الخاتمة، **هو أنك في الموت اليومي، يمكن لك أن تبتدع قيامتك بنفسك، أن تهب من قبر معيشتك مذعوراً، لتثور على تلك القيود والأغلال، وتعود لتؤدي ما كان مقرراً لك أداؤه .. أما مع الموت – الآخر، أعني الموت – الموت،.. فلا..**

★ ★ ★

﴿ إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾ [الزمر].

الموت واحد..الموت لا دخل لك فيه..يأتيك فلا تملك رده..**أما حياتك فهي رهن يديك..**

حياتك هي ما يميزك عن الآخرين..

أو يجعلك – في النهاية–مثلهم..

وفي النهاية تذوبُ الأشياءُ وتختفي التفاصيلُ ويضيعُ كلُّ شيء في طاحونةِ الزمنِ التي لا تُبقى على شيء..

في النهاية تخبو المشاعر.. وتنطفئ الشهوات.. ولا يبقى من الضحكات غيرُ صدى بعيد كأنه ذكرى غائمة لشيء لم يكن..

في النهاية يذهبُ الجميع..كأنهم لم يكونوا أصلاً.. كأن تلك الصداقات لم تكن.. كأن الصدقَ فيها لم يصمد..كلُّ تلك الوعودِ بالبقاءِ والوفاءِ ستترك طعماً مالحاً في الفم..

في النهاية..سيكون للصمت صوت عال مدو..

سيقول الصمت كلمته الفاصلة: لا شيء يدوم هنا..

كلُّ شيء مررنا به وامتلكناه..أو تصورنا أننا امتلكناه، سيذهب إلى حيث لا عودة..

المشاعرُ ستغادر القلوب.. الذكرياتُ ستغادر الذاكرة.. الروحُ ستغادر نهايات الأعصاب.. والحياةُ ستنسحب من الخلايا..

كلُّ شيء سيغادر..

والجلدُ الذي يغطي سلاميات الأصابع سيضعف بالتدريج.. ثم ما يلبث أن يسقط.. مع نهاية كلِّ شيء.. واللحم الذي يغطيها كذلك..

حتى عظام الأصابع.. ستزول بالتدريج..تصير رميماً ومن ثم تراباً..

لكنْ، شيءٌ ما ارتبط بتلك الأصابع.. سيبقى..حتى بعد زوال الجلد واللحم والعظام..

شيءٌ ما، سيكون أقوى من كل ذلك الزوال..

★ ★ ★

في هذا العالمِ المحكومِ بالزوال، كلُّ ما يمكن لنا أن نتركه فيه هو بصماتنا عليه..
بعضُ الناسِ يأتون ويرحلون دون أن يتركوا شيئاً ولا حتى بصمة صغيرة، ولا يمر ذلك ولو مروراً عابراً في أذهانهم.

بعضُ الناس يتركون بصمةً كدليلٍ لإجرامهم..كدليلٍ على مشاركتهم في جعلِ العالم مكاناً أسوأ..

والبعضُ الآخر يترك بصمةً على الآخرين، على نفوسهم، على رؤوسهم من أجل عالم أفضل..

★ ★ ★

ما دام الموتُ ينتظرُنا هناك، في المحطةِ الأخيرة، ولا فائدة من ركوبِ قطارٍ آخر ،لأن كلَّ القطاراتِ تنتهي هناك، فلنحاول أن نستمرَ رحلتَنا تلك..

ما دامت معركةُ الموتِ خاسرة، فلنحاول أن نكسبَ معركةَ الحياة، لنحاول أن نقدمَ فيها ما يبقى لغيرنا..

ما دام مصيرُنا إلى التراب، فلتكن حياتُنا سماداً لحياةِ الآخرين وخلاصهم..

ما دام الموتُ هو «نقطة نهاية السطر»، فلتكن حياتُنا سطراً نافعاً، أو على الأقل بصمةً في جملة مفيدة.. لمشروعِ حياة «ليست دنيا..»

القرآن لفجر آخر

د. أحمد خيري العمري





د . أحمد خيري العمري

ولد في بغداد عام ١٩٧٠م، وتخرج طبيبا للأسنان من جامعتها، منذ أن أصدر كتابه الأول "البوصلة القرآنية" في عام ٢٠٠٣م وهو يقدم منهجا مختلفا عن النمط التقليدي، حيث يعتمد على النصوص الثابتة بإعادة تشكيل العقل المسلم والمفاهيم الإسلامية، بمعزل عن ما تراكم على هذه النصوص من مفاهيم نشأت خلال العصور المتعاقبة.

بين جمود التقليديين، وتفلت بعض التجديديين، قدم العمري منهجا منضبطا قد يكون هو الجواب بالنسبة للكثيرين ممن يستشعرون عدم جدوى الاستمرار في الجمود، ويرون الهاوية في التفلت.

له اليوم أكثر من عشرة كتب مطبوعة وعشرات المقالات التي نالت اهتماما كبيرا من مختلف الفئات العمرية.

يؤمن كاتب هذا الكتاب أن ثمة الكثير مما يمكن أن يستخرج من أعماق هذا القرآن..
يؤمن أن في هذا القرآن [illegible] لم يتم استثماره [illegible]
وأن التنقيب فيه يمكن [illegible]
يدلنا على أدوات [illegible]
تساهم في التعبيد لفجر آخر،
فجر آخر طال انتظاره..
وأن أوان تعبيد الدرب [illegible]
(القرآن لفجر آخر) ليس من أجل انتظار الفجر القادم..
بل من أجل الذهاب إليه...

******

ليست قليلة ولا نادرة هي القراءات الظلامية للقرآن الكريم
..بل هي كثيرة وسائدة للأسف..
ولا يزعم هذا الكتاب أنه القراءة التنويرية الأولى..
لكنه يأمل أن يساهم –وسواه- في الذهاب إلى النور...

ISPN 978 - 977 - 764 - 039 - 8
9 789777 640398

